الحقيقة كما عشتها

نسخة منقحة ومزيدة
في نهاية حزيران 2008

إلى أم شروق

حبيبة ... شريكة حياة ورفيقة درب

جاسم الحلوائي

المحتويات

رقم الموضوع	الموضوع	رقم الصفحة
1	مقدمة	1
2	نشأتي...طفولتي...وصباي	5
3	منظمة راية الشغيلة وتجربتي معها	18
4	العام الأصعب في العهد الملكي المباد	32
5	مقدمات ثورة 14 تموز المجيدة	46
6	العودة إلى ساحة الكفاح	64
7	سنتان مختفيا في الكوت	78

8	العودة إلى الوطن	97
9	الهروب من معتقل خلف السدة	107
10	الإفلات من قبضة المجرم ناظم كزار	122
11	التثقيف الحزبي	132
12	القمع الوحشي	156
13	سنوات بين دمشق وطهران	197
14	أسئلة وأجوبة	247
15	حقيقة علاقة القيادة السوفيتية بقيادة الحزب الشيوعي العراقي في عقودها الأخيرة	249
16	الأيديولوجيا والبراغماتية في سياسات الحزب الشيوعي العراقي السابقة	256
17	الديمقراطية في الحزب الشيوعي العراقي	268
18	اتفاقية آذار وموقف العرب والكرد في اللجنة المركزية	273
19	رسائل متبادلة مع عدد من ذوي الشهداء الذين وردت أسماؤهم في الكتاب	274
20	الملاحق	292
21	قراءات في الكتاب وتعقيب المؤلف عليها	302
22	المصادر	328
23	صور	329

1

المقدمة

حتى آذار عام 2005، لم أقرر كتابة ذكرياتي، وكنت أقول للعديد من الأصدقاء والأقرباء الذين طالبوني بالكتابة، بأنني لست بصدد ذلك. وكنت كلما فكرت بالأمر، أجد نفسي أمام مأزق حقيقي فأصرف النظر عن ذلك. كنت أخشى أن تبدو ذكرياتي وكأنها تعود إلى عصر غابر، لا بمقياس الزمن ، وإنما بمقياس سعة وعمق التحولات التي جرت في الواقع بعد انهيار النظام الاشتراكي السابق، وانتهاء الحرب الباردة ونشوء القطب الواحد، وتأثيرات العولمة، الموضوعية وغير الموضوعية، والثورة التكنولوجية والمعلوماتية، وما رافق كل ذلك وتبعه من تجديد أيديولوجي حصل لدي ولدى الحزب الشيوعي العراقي الذي أنتمي إليه. لقد تحول الحزب من حزب شديد المركزية ذي ضبط حديدي إلى حزب ديمقراطي، من حيث جوهره وأهدافه وبنيته وتنظيمه ونشاطه، ومن حيث علاقاته بالقوى

الاجتماعية والسياسية الأخرى. و تبنى الحزب التعددية والتداول السلمي للسلطة، وظل متمسكاً بانتمائه الاشتراكي.

يتمثل المأزق الذي أشرت اليه في الفرق النوعي بين وعيي الآن ووعيي قبل التحولات التي ذكرتها، فلدي الآن رؤية أخرى فيما كان ينبغي أن يكون موقفنا من الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي عشتها، شاهدا عليها أو مشتركا فيها أو مساهما في صناعتها، من خلال وجودي كعضو في الحزب الشيوعي أو في قيادته لفترة غير قصيرة. والمقصود هنا ليس رأيي في هذا الموقف أو ذاك في المنعطفات السياسية الهامة في إطار أيديولوجيتنا وإستراتيجيتنا السابقتين، ومواقفي الصحيحة أو الخاطئة منها، فهذا ما حاولت أن أعالجه من خلال قراءتي النقدية لها. إنما المقصود هو وجهة نظري من منطلق أيديولوجي وإستراتيجي متجددين. لذلك يجد القارئ نفسه أحياناً أمام محاكمتين للحدث الواحد، إحداهما في سياق الحدث التاريخي الموضوعي، والأخرى في سياق أيديولوجي متجدد. وكان ذلك حلا للموقف الحرج الذي أشرت اليه. وبذلك أعتقد أنني حافظت على الحقيقة التاريخية من التشويه وضياع المسؤولية من جهة، وتفاديت إرسال أية رسالة خاطئة قد تحملها تلك الحقيقة، بسبب الظروف التي تحققت فيها، وذلك بإبداء رأيي بها استنادا إلى المنطلقات الجديدة من جهة أخرى.

ما كتبته أشبه بسيرة ذاتية، وهو ليس بمذكرات بل هو أبسط من ذلك، إنه ذكريات ذات علاقة مباشرة ووثيقة بشخصي في أغلب الأحوال. إنها تختلف عن المذكرات التي تتعامل مع الأحداث التاريخية بالدرجة الأولى. لم أتهيأ لكتابة الذكريات مسبقا ولم أستحضرها، إلا بعد مباشرتي بالكتابة. وقد كتبت ونشرت معظمها على شكل مواضيع غير متسلسلة تاريخيا، خلافا لترتيبها في هذا الكتاب. وكانت المواضيع في البدء مشروعا بسيطا وليس للنشر. كانت مجرد معلومات لاطلاع العائلة بالدرجة الأولى. ولكن تشجيع أصدقائي، الذين قرأوا الأوراق الأولى، لنشرها ومساعدتهم لي لاحقا، مشكورين، وخاصة الرفيق يونس بولص متي (أبوسيفان) مسؤول موقع الصحيفة الالكترونية "الناس"، حوّل طبيعة المشروع من الخاص إلى العام. فتطلب ذلك النظر بجدية وبمسؤولية أكبر إلى هذا المشروع والاطلاع الأوسع على المصادر ذات العلاقة لتحفيز الذاكرة والتوثق والتدقيق في المعلومات ولتوثيق تلك التي لم أكن شاهد عيان مباشراً عليها.

واخترت من الذكريات ما هو جدير بالمعرفة والقراءة بتقديري الخاص. وقد ولجت في بعض تفاصيل مناطق وزوايا تاريخ الحزب الشيوعي العراقي والحركة الوطنية الديمقراطية التي لم يجر، حسب علمي، تناولها سابقا، أو جري تناول بعضها من زوايا معينة.

وسعيت لتدوين الحقيقة كما رأيتها وسمعتها وفهمتها أو بعبارة أخرى، كما عشتها. فهل وفقت في ذلك؟ هذا ما يقرره القارئ وليس أحد سواه. وهل يمكن أن تعتبر تلك الحقيقة ناقصة أو غير دقيقة أو موهومة جزئيا أو كليا ؟ ربما، لنقص في معلوماتي أو لعدم إدراكي الصحيح للموضوع، ولكن ليس عند كتابتها ونشرها من قبلي. وبالتأكيد هناك آراء مختلفة حول بعض الحقائق الواردة في الكتاب من قبل الآخرين، هم عاشوها أيضا أو درسوها، ولكنهم فهموها بطريقة أخرى. وأدوات "حسم" الخلاف هنا معروفة وهي الحجج والأدلة الموثقة، وهذا ما حاولته جهد الإمكان، خاصة بالنسبة للأمور التي أعتقد إنها موضع خلاف. وعندما كانت الوثيقة تعوزني، فلم تكن أسماء ذوي العلاقة من الأحياء تعوزني. ومع ذلك تبقى الكثير من الحقائق التاريخية نسبية ويمكن أن تعدل بتوفر وثائق ومعلومات جديدة لم تكن معروفة أو لتطور وعينا.

وما هو جدير بالمعرفة والقراءة لا يخص الأحداث فقط، وإنما يخص دور الأشخاص أيضا. ولم تكن هناك مشكلة أو عائق أمامي لقول الحقيقة بقدر ما يتعلق الأمر بشخصي، ولكن المشكلة تكمن عندما يتعلق الأمر بالآخرين. فلم أكن أرغب بالإساءة إلى أحد ولم أقصد ذلك إطلاقا. وكنت أربأ بنفسي من تحويل أوراقي ميدانا لتصفية حسابات شخصية، ولم أصغ لمن همس في أذني أن أفعل ذلك. والحقائق التاريخية عادة ما تضايق بعض الأحياء ولا ينجو من حسابها حتى الشهداء، ولكن لا مفر من ذلك إذا ما توخينا قول ما هو جدير بالمعرفة والقراءة. وقد تجنبت ذكر الأسماء عندما كان من الممكن قول الحقيقة بدون ضرورة لذكرها.

لم أكن أتصور، مع الأسف، بأنني سأكتب يوما ما ذكرياتي أو مذكراتي. وأسفي ليس على عدم الاحتفاظ بالكثير من المواد والوثائق المفيدة فحسب، بل على عدم تأملي في الأشياء والناس والأماكن والأحداث بدقة أكبر. ولم يكن يتطلب ذلك مني جهدا كبيرا، وأقصى ما كان يتطلبه الأمر ، هو أن لا ألغي احتمال الكتابة ، بشكل مطلق، كما فعلت. ولكن بجانب نقطة الضعف هذه توفرت لدي إمكانية لم تتوفر لدى الكثيرين ممن سبقوني في كتابة مذكراتهم أو ذكرياتهم وهي، إن جوانب من الثورة التكنولوجية وسرعة الاتصالات كانت في خدمتي للتوثق من المعلومات أو استكمالها أو لاطلاع بعض من ذوي العلاقة على النص الذي يخصهم وأخذ موافقتهم المسبقة على النشر، وذلك عن طريق البريد الالكتروني والمكالمات التلفونية ، بل وحتى المناقشات المباشرة على الكومبيوتر (صوت وصورة) بما في ذلك الاتصالات مع العراق هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى معرفتي بآراء القراء فيما أنشر مباشرة من خلال التقنيات الحديثة واستلامي الملاحظات والتعليقات والمقترحات والاستفسارات المباشرة. والأخيرة قد أفادتني كثيراً. فالثناء، حتى الذي لم يكن يخلو من مجاملة، كان يمتعني ويشد من أزري لمواصلة المشوار. إلا أن أكثر ما أفادني هي تلك التصويبات والملاحظات النقدية الملموسة. وبهذه المناسبة أتوجه بالشكر إلى جميع الذين ساهموا في ذلك.

ومن خلال الكومبيوتر والإنترنيت، وما تحويه من خدمات متنوعة واستخدام ذلك في الكتابة والنشر والمراسلة، تجددت حياتي. فنشأت لدي علاقات صداقة رائعة مع العديد من الكتاب والأدباء والفنانين والقراء، وتجددت صداقات قديمة. وتبادلت معهم، ولا أزال، رسائل عزيزة على قلبي، بعضها بيني وبين عدد من ذوي الشهداء، آثرت نشرها في الكتاب.

في طيات هذا الكتاب، وردت أسماء الكثير من الشهداء الذين تعرضوا لأشد أنواع القسوة والبطش، وضحوا بحياتهم من أجل مُثُل وقيم إنسانية رفيعة. كما يورد الكتاب أسماء مناضلين رحلوا عن دنيانا وخلفوا ورائهم تركة من النبل والخير. لذكرى كل هؤلاء المجد والخلود. وأمام ذكراهم ننحني بإجلال لما قدمته هذه الكواكب الخيرة من عطاء في سبيل حرية الوطن وسعادة الشعب. كما يتوجب توجيه كل آيات الاعتزاز والتبجيل لعوائلهم الكريمة . وعزاؤنا في كل هذا الفقدان هو أن ذكرى هؤلاء الخيرين ستبقى مصدر إشعاع مفعم بالأمل والبهجة والفرح في عراقنا العزيز.

جاسم الحلوائي
حزيران 2006

2

نشأتي...طفولتي...وصباي

مولدي

ولدت في الأول من تموزعام 1932 ([1] *) في مدينة كربلاء. و نشأت في عائلة كادحة، فقيرة تقريبا، كان والدي حرفياً، لديه محل صغير يصنع فيه الراشي (طحينية) وزيت السمسم في الشتاء ودبس الرمان في الصيف، ويبقى عاطلا عن

[1] ـ * هذا ما هو مثّبت في هويتي الشخصية وكل وثائقي، أما تحرياتي الشخصية الموثقة فإنها تشير إلى أن ولادتي هي في اليوم السادس عشر من تشرين الأول عام 1932. إن الأول من تموز هو تاريخ ولادة العديد من الأجيال العراقية الرسمي. فقبل الأول من تموز 1957، يوم الأحصاء العام، لم تكن تسجل الأيام والشهور في هويات العراقيين المدنية.

العمل أشهراً عديدة من السنة. ولأنه يقامر في سباق الخيل (الريسز) ويبذر المال في الملاهي والمقاصف، فقد كان مفلساً في أحيان كثيرة. وكان ذلك سبب فقر العائلة وعوزها حيث كنا لا نجد الخبز الكافي في البيت أحيانا في فترات وقف العمل. وعن هذه الفترة، أشير إلى حادث "بسيط" ظلّ عالقاً في ذاكرتي وهو أننا كنا نتعشى على السطح في إحدى الليالي وكان الظلام شديداً. مددت يدي في الصينية فارتطمت بأيدي إخوتي الفارغة والتي هي الأخرى كانت تفتش عن الخبز، فسحبت يدي بسرعة لكي لا أنافسهم يوما على آخر لقمة خبز وأنا أكبرهم سنا. ولولا والدتي، واسمها زكية، والتي كانت خياطة ماهرة، تخيط حتى ملابس العرائس، لكان وضع العائلة بائساً جداً.

كان والدي، واسمه محمد، يشّغل معه عاملا أو عاملين. وعادة ما كان يلبس ملابس العمل في بداية الموسم، ليكسب ثقة هذا التاجر أو ذاك وليبيع بالجملة ويحصل على مبلغ محترم من المال كمقدمة لتمشية العمل. وإن الشروع بالعمل، بعد انقطاع طويل نسبيا، يتطلب مساهمة ولمسات من رب العمل. ومن ثم كان والدي يترك العمل ليبقى مشرفاً فقط.

تعلمت الكتابة والقراءة في الملاّ (الشيخ)، وقد ختمت القرآن أكثر من مرة، وكنت أصلي بزملائي صلاة الظهر والعصر، ويبدو أن صوتي القوي وأدائي الحسن كانا السبب في اختياري لهذه المهمة. في عام 1939 منعت الحكومة التعليم في المشايخ، وشجعت أولياء أمور الطلبة على إدخال أبنائهم في المدارس. ووفرت أعمالا شريفة للشيوخ، فالشيخ محمد مثلاً، والذي كان يعلمنا، أصبح فراشا في مدرستنا، مدرسة (العباسية)، التي تأسس الصف الأول فيها من عندنا، نحن الوافدين من المشايخ. ولما كانت المدرسة جديدة وصغيرة، فإن تلاميذ المدارس الابتدائية الأخرى كانوا يستهزئون بنا ويسمون مدرستنا بـ "مدرسة الدجاج!!" مستوحين التسمية من سوق لبيع الدجاج يقع بالقرب من مدرستنا.

بعد الصف الرابع توقفت مدرسة (العباسية) عن فتح صفوف جديدة، فتوزع تلاميذها الناجحون من الصف الرابع على المدارس الابتدائية الأربع في المدينة. والناجحون الثلاثة الأوائل توزعوا على ثلاث مدارس حسب أماكن سكناهم، و كنت من نصيب مدرسة (الفيصلية)، وكنا قد انتقلنا تواً من محلة (باب الخان) إلى محلة (العباسية الشرقية)، حيث تقع المدرسة المذكورة -فقد جمعت أمي ما لديها وباعت كل ما تملك من هدايا عرسها لتشتري قطعة أرض في المنطقة الفقيرة من هذه المحلة والتي تقع في ضواحي كربلاء وتسمى(المگلع) لتبني عليها بيتاً متواضعاً أستغرق بناؤه حوالي السنتين بسبب فقر الحال- وأصبح هؤلاء الوافدون "من مدرسة الدجاج" الأوائل في مدارسهم في الصفين الخامس والسادس، وتحققت بذلك سمعة جيدة لمدرسة (العباسية)، وأزيلت عنها تلك التسمية الساخرة. وكان هؤلاء الثلاثة هم كل من سعيد غدير، الذي التحق بكلية فيصل في بغداد، وكانت

خاصة بالخريجين المتفوقين من الابتدائية، وطاهر نسيم الذي واصل دراسته في كربلاء. أما أنا فقد أجبرت على ترك مقاعد الدراسة.

ترك الدراسة والانخراط بالعمل

لم أترك الدراسة برغبتي وإنما برغبة عائلتي وبشكل خاص والدي، الذي كان يحتاجني لمساعدته في العمل. لقد سبق وان أجبرت على ترك الدراسة بعدما نجحت من الصف الخامس، ولكن ضغوطا قوية مورست على العائلة، من قبل هيئة التدريس في مدرسة (الفيصلية)، التي كان يهمها تخريج بعض المتفوقين المؤهلين للقبول في كلية فيصل، جعلت العائلة تتراجع، ولو إلى حين، مشترطة بأن يكون الصف السادس هو الصف الأخير. و قد قبلت الشرط لكي أنهي المرحلة الابتدائية على الأقل. وهكذا كان، فما أن أنهيت امتحان البكلوريا للصف السادس حتى التحقت بالعمل مع والدي في المحل أساعده في كل شيء. وسرعان ما بلغت سن الرشد، فأخذت أعمل بديلا عن عامل، أُسّهي السمسم، ولكن ليس بأجر كامل. وبعد بضع سنوات ترك والدي مسؤولية المحل على عاتقي، وكان المحل مديناً بمبلغ طال تسديده أقساطا لأكثر من سنتين!

كنت أحب الغناء والموسيقى، وكنت أحب سماع عبد الوهاب وراوية وكارم محمود وليلى مراد ومحمد القبانجي وأم كلثوم. عندما كنت أسهي السمسم كنت أغني لهؤلاء. وكان صوتي يرتفع ويتحسن عندما تكون فخرية في الخان، الذي يقع محلنا فيه. وفخرية هذه فتاة حلوة لم يتجاوز عمرها السادسة عشر. كانت تأتي إلى الخان لتساعد أباها الذي يتكسب في الخان، أو لتسلي إخوتها الصغار. وهي تقترب، عندما تكون الأجواء ملائمة، لتقف في باب محلنا فنتجاذب أطراف الحديث. لقد كنت أهواها وتهواني. ولأني لم أكن جاهزاً للزواج، أسرع أهلها بتزويجها لوضع حد للهمس الذي أخذ يسري في الخان. مرة قال لي أحد العمال الذين يعملون في الخان: "إشلونك وياها، ها... إيدك بالدهن؟" علما بأني لم ألمس يدها.

عندما كنا ننتج دبس الرمان، كنا نستخدم حوالي 12 امرأة لتفريط الرمان. وفي أحد الأيام شاهدت، وأنا عائد من البيت إلى المحل حاملا معي وجبة غذاء الظهيرة، في الشارع رجلا، يبدو من ملابسه إنه فلاح معدم، حاملا بيده، المرفوعة إلى أعلى، كف إنسان يقطر منه دم. وقف على المنصة الخاصة بشرطي المرور، والذي لم يكن واقفا في مكانه آنذاك بسبب حرارة الشمس، وهزج (هوّس)، بسرعة، أهزوجة تعبر عن "غسل العار" وركض مسرعا باتجاه مركز الشرطة. عندما وصلت إلى المحل، وجدت جثة امرأة على حصيرة من القصب (بارية) يسيل الدم منها، وعرفت بأنها إحدى العاملات عندنا، وقد قتلها الرجل المذكور طعناً بخنجره "غسلا للعار!" وقد تذكرتها، كيف كانت تنظر إلى الأرض خجلا عندما تستلم أجورها، وجهها بائس وحزين وليس فيه مسحة من جمال. وقد فسّر لنا الحادث، كيف كانت تأتي للعمل باكرا قبل بزوغ الفجر، ولماذا كانت تحاول إخفاء وجهها عندما تخرج من

المحل. فلقد كانت مطاردة. لم تمر الحادثة دون أن تثير فيَّ الكثير من الأسئلةّ، وخاصة عن السبب الأساسي لمثل هذه الحوادث.

صمت شهر رمضان سنتين في صباي وصلّيت مدة أطول وقرأت عددا من الكتب الدينية بما في ذلك نهج البلاغة، وساهمت مرة واحدة في التطبير (ضرب القامة على الرأس) في اليوم العاشر من شهر محرم بمناسبة استشهاد الحسين (ع). والغريب في الأمر هو إنني كنت بعيدا عن التدّين وطقوسه عند قيامي بذلك! كانت مجرد نزوة ينطبق عليها المثل العراقي القائل: (على حس الطبل خُفن يا رجليّه).

ولأني كبير أخوتي، الذين أصبح مجموعهم ستة، فإن والدي اهتم بتربيتي لكي أتولى أنا تربيتهم. وكان اهتمامه منصبا على جانب واحد تقريبا، وهو أن لا ننخدع من الأولاد الأكبر سناّ منّا وننحرف جنسيا. وكانت إجراءاته قاسية جداً، على سبيل المثال لا الحصر، لم يسمح لي بالاشتراك في السفرات المدرسية. وفي إحدى المرات، وسط دهشة وذهول زملائي في الصف السادس لرفض والدي مشاركتي في سفرة مدرسية، شاهدنا والدي مارّاً ـ وكنا واقفين أمام باب المدرسة ـ فتطوع بعضهم للتحدث معه حول الموضوع، فذهب اثنان منهم، يعرف والدي آباءهم، فتحدثوا معه وحصلوا منه الموافقة على مساهمتي بالسفرة بعد أن أفحموه، ومما قالوه له : "لماذا تخاف على جاسم وحده ؟ ولا تخاف علينا؟". طبعاً لم يكن زملائي يعرفون ممّ كان يخاف والدي، فهو لم يبح لهم بالسبب الحقيقي.

كان نهر الحسينية في كربلاء، المكان الوحيد الذي يصلح للسباحة يقع خارج المدينة. والطريق إليه يتخلله الكثير من البساتين والمنعطفات والخلوات، فكان والدي يمنعني منعاً باتاً من الذهاب للسباحة فيه. في حين كانت السباحة هوايتي وهواية أصدقائي المفضلة. لذلك فقد كنت أذهب سرا للسباحة إلى أن يُكتشف أمري، فعند ذاك يضربني والدي ضربا مبرحاً بحزامه القوي فأترك السباحة. وفي الواقع فأنه لم يستخدم حزامه إلا مرة أو مرتين، و كان يكتفي بصفعة أو بدونها، ولكن مصحوبة دائما بالتهديد بالحزام، وكان تهديده يكفي لإيقافي عن السباحة ولكن لذلك الموسم فقط، فقد كنت أعاودها في الموسم التالي. وأخذت أتبع تكتيكاً جديداً، وهو أن أبدأ السباحةً في الربيع مع أول السّباحين إلى أن يُكتشف أمري، ويكون عادةً قد أنقضى وقت من الصيف، فأتركها.

في العطلة الصيفية، كان والدي يودعني عند هذا الحرفي أو ذاك. وقررت في أحدى المرات أن لا أذهب للعمل في الأيام الخمسة الأخيرة من العطلة، وعوضا عن ذلك كنت أذهب للسباحة في نهر الحسينية، قبل الظهر وبعده! وفي اليوم الأخير فاجأتني أمي بالسؤال: أين كنت؟ فأجبتها "عند الأسطه" فقالت: "أنت تكذب، فلقد سألت الأسطه وأخبرني بأنك تركت العمل منذ خمسة أيام". وهجمت عليّ لتضربني، وقد

استغربت تصرفها ذاك، لأنني لم أعد أتذكر آخر مرة فعلت ذلك بعد أن كبرت، فمسكت معصميها ولم أدعها تضربني، وكادت أن تقع على الأرض، فلم أدعها، فتركتني بعد أن يئست من التغلب عليّ. في المساء عندما عاد والدي إلى البيت، أخبرته أمي بفعلتي وبأنها ضربتني إلى حد الموت؟! وبذلك أنقذتني من "موت محقق"، فقد اكتفى والدي بما قامت به والدتي.

نهر الحسينية في كربلاء

في بغداد لأول مرة

كان والدي كثير السفر إلى بغداد لوجود (الريسز) فيها. وبعد إلحاح متواصل، وافق على سفرة للعائلة معه إلى بغداد وكانت العائلة لا تزال صغيرة آنذاك، وأما أنا فكنت في الرابعة عشرة. ذهبنا إلى السينما وشاهدنا فلم (عنتر وعبلة). وكان ذلك أول فلم أشاهده في حياتي. وقد انبهرت واستمتعت به جداً. ولم أفهم فلما آخر شاهدناه في اليوم التالي، قيل عنه بأنه اجتماعي، وقد ضجرت منه. ولم أجد عند ذاك أي وجه للمقارنة بين الفلمين!!

بعد بضع سنين، أيضاً وبعد إلحاح شديد مني، اصطحبني والدي معه إلى بغداد. وقد شاهدت في تلك السفرة فلم (سلاّمة) لأم كلثوم وفلم (منديل الحلو) لعبد العزيز محمود. الفلم الأخير كان في سينما صيفية، وكنا نجلس في مقصورة (لوج)، فغادر والدي وتركني بمفردي، وقد عاد قبل انتهاء الفلم. واستنتجت بأنه ذهب ليشرب الخمر (عرق)، وكان لحد تلك الساعة لا يرغب بأن يشرب أمامي.

في اليوم التالي لسفرتنا، وعند القيلولة، وكنا في ضيافة أقرباء لنا في بغداد، حاول والدي التسلل من البيت لكي يذهب إلى (الريسز)، فنهضت من الفراش، وقلت له : "أريد أن آتي معك" فأصبح أمام الأمر الواقع، فوافق على ذلك، تحاشيا لجَلبة تزعج المضيّفين وقد تؤدي إلى اكتشاف أمره، فقد كان يحاول إخفاء ذهابه إلى (الريسز) عن الآخرين، جهد الإمكان.

(الريسز)عالم مدهش، صاخب وسريع، وأشك بأن يكون هناك رابح واحد في نهاية الأمر، ما عدا مالكيه ومستحصلي الضرائب. من الممكن أن يربح المرء في إحدى الجولات أو أكثر، من الجولات الثمانية أو التسعة في هذا اليوم، ولكنه سيخسر في اليوم التالي، وإذا لم يخسر هذا الأسبوع ففي الأسبوع الذي يليه، بعد أن يكون قد بذّر، بين الأسبوعين، قسما من الربح أو جله باعتباره مجّاناً (فلوس بلاش)؟! ناسيا أو متناسيا بأن هذا الربح هو جزء يسير من المبالغ التي خسرها سابقاً.

أدهشني والدي في (الريسز) بأنه كان، وهو الأمّي، يقرأ الأرقام الانكليزية ويستخدم العديد من كلماتها ومصطلحاتها. جلس والدي في كازينو يحتسي البيرة ويرسلني لألعب له بمبالغ غير كبيرة. وحتى الجولة ما قبل الأخيرة، كانت الحصيلة خسارة حوالي خمسة دنانير. في الجولة الأخيرة لعبت له بدينار على فرس اسمها "قمر الزمان" (وِن وپليس) ــ أي أن المرء يربح في حالة أن يكسب الحصان الموقع الأول والثاني، ولكن يربح أقل مما إذا كان قد لعب (ون) فقط ـ وكنا واقفين في الجولة الأخيرة عند سياج (الرنك) لمشاهدة السباق عن كثب. وقبيل وصول الخيل إلى خط النهاية، صاح والدي، وهو الحريص، عادة، أن يكون رزناً، وبصوت عال "حموُدي" وكأنه يريد، فعلاً ، أن يوصل صوته إلى الفارس (الجاكي)، الذي يمتطي "قمر الزمان" وسط تلك الجلّبة الشديدة، التي تتصاعد مع اقتراب الخيل إلى خط النهاية. وأخيراً فازت "قمر الزمان" وابتسم والدي ابتسامة عريضة وسألني متخابثاً، كم لعبتها؟ فأجبته، هو دينار واحد (وِن وپليس)، فقال: "وهذه خمسة دنانير (وِن) أنا لعبتها، امشي، سنستمتع (نتونس) هذه الليلة" ؟!. وكانت الحصيلة النهائية لذلك اليوم 17 ديناراً ربحاً.

مع الغروب جلسنا في (كازينو) كبيرة وجميلة في شارع (أبو نؤاس) على ضفاف نهر دجلة. بعد فترة قصيرة تركني والدي وذهب، بعد أن أوصاني بأن لا أغادر مكاني. بعد حوالي النصف ساعة جاءني نادل وطلب مني مرافقته حيث يجلس والدي في الجهة المقابلة. ذهبت معه فدخلت، للمرة الأولى، باراً. جلست بجانب والدي وكانت أمامه منضدة ملأى بالمأكولات (مزّة). وقال لي مؤ شراً على (العرق) بأن هذا دواؤه؟! طالبا منّي أن آكل ما أشتهي وبأي مقدار أريد، وبأن له الحق بأن يطلب المزيد، وبدون مقابل. مع الأسف، فقد ألغي هذا التقليد الممتع "مجانية المزّة" لاحقا في العراق. وقد غادرنا البار بعد أن تعشينا كباباً. بعد البار ذهبنا إلى ملهى المطربة المشهورة سليمة مراد. وبعد أن بدأ البرنامج، طلب منّي

والدي أن أجلس في الصفوف الأمامية لكي أشاهد وأسمع بشكل أفضل، وقد فعلت ذلك شاعراً بأن في الأمر حيلة. فبعد مدة ذهبت إلى (التواليت)، وعند عودتي شاهدت إحدى فنانات الملهى جالسة بجانب والدي. فتظاهرت بعدم مشاهدته.

في بغداد مرة أخرى

بعد فترة ليست بالقصيرة، ذهبت مع العامل الذي يعمل في محلنا، ولأول مرة، إلى المبغى في بغداد. وأتذكر كيف جرى لنا فحص طبي من قبل موظف صحي في باب المبغى. وقد فوجئت بهذه الكثرة من النساء المتجملات بشكل صارخ، وبالجو الصاخب بمختلف أنواع الموسيقى والأغاني، والكلام البذيء، والغزل المكشوف. وكنت مبتهجا بهذا الجو، وخاصةً حرية الاختيار الواسعة أمامي وأنا المراهق الذي بدون وعي سياسي ـ اجتماعي يذكر، أو واعز أيديولوجي أو أخلاقي، فأبي والكثير من أقربائي كانوا يذهبون إلى هذه الأماكن ويتحدثون عن ذلك أمامي. ولم أكن أعي الجانب اللا إنساني في هذه الظاهرة، ولا أسبابها الاقتصادية والاجتماعية. وسأستبق الأحداث لأنوه بأنني قد عرفت بعد ذلك فحوى هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر والعادات السيئة والأفكار البالية كالقمار والكذب والخيانة والإيمان بالسحر والخرافات...والخ، بفضل علاقتي بالحزب الشيوعي العراقي. بل وأكثر من ذلك تحولت من إنسان أهمل القراءة وكاد أن ينسى الكتابة إلى إنسان واع يعشق وطنه، ويحاول أن يسهم، بأي قدر كان، في أن يكون وطنه حراً وشعبه سعيداً.

النهوة

كان عندي عم واحد، واسمه حسن الحلوائي، يُحسب على أغنياء المدينة. يمتهن نفس مهنة والدي ولكن بشكل أوسع، كماً ونوعاً، حيث أنه يستخدم المكائن في العمل وينتج، فضلا عما ينتجه محلنا، الدبس والحلوى. وجلّ إنتاجه للبيع بالجملة والتصدير. وكان عمي يهوى تربية الخيول، ويتاجر بها أيضاً ويصدر منها إلى لبنان. وكانت الصحف اللبنانية المعنية بشؤون الخيل، تعلن عن وصوله عندما يحل في بيروت، واصفة إياه بتاجر وخبير الخيول العراقي. وبالرغم من الفارق الطبقي بين عائلة عمي وعائلتنا، فقد كانت هناك منافسة بين العائلتين. ولم تكن عائلتي تعترف، رغم الفارق الطبقي الكبير، بوجود أي فرق بين العائلتين!!. فعندما ولدت أختي رحمة، التي تكبرني بأكثر من سنتين، جرى الحديث داخل العائلتين ومحيطهما بأن رحمة ستكون لمهدي أبن عمي الذي يكبرها بسنة واحدة. وعندما ولدت شكرية أخت مهدي أصبحت لي وكان عمري عند ولادتها سنة واحدة! عندما كبرت رحمة تزوجت مهدي، ولكن بعد أقل من سنة اختلفا وعادت رحمة إلى بيتنا لتقضي فيه سنتين، ثم لتعود ثانية مستسلمة لقدرها شأنها شأن الكثير من الزوجات العراقيات ومنهن زوجة عمي وأمي أيضاً.

كنت في السابعة عشرة من عمري، وبالضبط قبل التحاقي بالخدمة العسكرية، عندما نادتني أمي في أحد الأيام لتقول لي: "إنت هم رجّال...مو عيب عليك، ما عندك شوية غيرة؟".

أوقفتها عن الاسترسال طالبا منها أن تخبرني فوراً عما حصل. أخبرتني أمي بأن قريباً لزوجة عمي الثانية سيتقدم لخطبة شكرية ابنة عمي، ويجب عليّ أن أذهب وأنهاه عن ذلك، وقد عرفتني بعنوانه. امتثلت للأمر. وكان عندي خنجر صغير وضعته في حزامي تحت الجاكيت وتوجهت إلى العنوان. وأنا في طريقي إلى العنوان شاهدني والدي الذي كان جالسا في المقهى. استوقفني مستغرباً همّتي في السير، مستفسراً عن مقصدي. لم يقتنع والدي بادعاءاتي غير الصحيحة، فاضطررت لأخباره بالأمر، فهدأني واعداً إياي، أن يجلب شكرية لي حتى لو كان ذلك في ليلة زفافها. فرفضت وقلت له: "الماي يسدونه من الصدر!".

وعندما وجدني مصمما، رافقني. ولما وصلنا بالقرب من المحل المطلوب جلس والدي في مقهى قريبة وطلب مني أن احضر له الرجل. وصلت محل الرجل الخاطب، لم أجده، إنما وجدت والده. فسألني عن حاجتي، فقلت له: "لدي كلمة أريد أن أقولها له". سأل، هل من الممكن أن يسمعها، فطلبت منه أن يرافقني إلى المقهى المقابل للمحل حيث يجلس والدي. بعد السلام والتحيات قال والدي له: "سمعنا بأنكم تريدون أن تخطبوا ابنة أخي حسن. ألا تعرفون بأن لديها ستة أولاد عم أكبرهم جاسم ؟" مؤشراً عليّ.

كنا جالسين أمام مرقد العباس، فأقسم الرجل بالعباس، ماداً يده باتجاه قبة الضريح، بأن ما أخبروهم به هو أن البنت لديها أولاد عم صغار، وإلا لما عزموا على هذه الخطبة، وأعلن انسحابهم فورا. علمت لاحقا بأن زوجة عمي هي التي حرضت أمي لدفعي إلى هذا العمل المتخلف، لكي تمنع زواج ابنتها بأقرباء ضرّتها. لقد كنت أنظر دائما إلى شكرية كأختي ولم يكن لديّ أي ميل تجاهها. وبسبب هذا الحادث، لم يعد يقدم على خطبتها أحد. ولم يوصل أهلي رسالتي الشفهية من السجن عام 1957 إلى بيت عمي أعلن فيها انسحابي. وبعد ثورة تموز 1958، طلب أبن عمتي موافقتي على تزويج شكرية بابنه رضا، عارضا مساعدته عليّ في اختيار إي واحدة من قريباتي. وافقت فوراً على اقتران شكرية برضا، وشكرته على عرضه رافضاً إياه بنفس الوقت. ولم يكن رفضي لقناعتي بأن الزواج يجب أن يتم بناء على تفاهم الخطيبين فحسب، بل ولأني كنت أميل إلى فتاة معينة.

الخدمة العسكرية الإلزامية

في الأول من كانون الثاني من عام 1950 التحقت بالجيش لأداء الخدمة الإلزامية لمدة ثلاثة أشهر، بعد أن دفعت البدل النقدي والذي كان 50 ديناراً عراقيا. وقد

قضيت المدة في مدينتي الحله والديوانية. في مدينة الديوانية كان ينام بالقرب منّي شاب يهودي اسمه صبحى، ينتظر تسريحه من الجيش ليسافر إلى إسرائيل. كنت الوحيد الذي يتحدث ويتمشى معه. في السينما الوحيدة في الديوانية شاهدت ولمرات عديدة فلم (غزل البنات) من تمثيل وغناء ليلى مراد وأنور وجدي ونجيب الريحاني. و منذ ذلك الوقت وأنا استمتع بكل أغاني هذه الفنانة العظيمة، و بدون استثناء.

عندما كنت في الديوانية شاهدت في إحدى المرات مشهدا لن أنساه. ولا شك أنه كان من العناصر التي شكلت وعيي لاحقا. كان في الديوانية مبغى (منزول) عام ورسمي، كما هو الحال في عدد من المدن العراقية الكبيرة كالبصرة وبغداد. وكان يمنع على العسكريين ارتيادها. وقد تعرفت على جندي يصطحب معارفه إلي بيوت سرية، وقد ذهبت معه. قادني الجندي في أزقة ضيقة وبيوت صغيرة وقديمة، وأدخلني بيتا وعلى حين غرة أدخلني غرفة صغيرة. وجلسنا على كنبة قديمة، ولمحنا رجلاً في إحدى زوايا الغرفة، رجلا ضعيفا أطلق لحيته، لا يتجاوز عمره الأربعين، جالساً على الكنبة، استقبلنا واقفا وجلس عند جلوسنا. وكانت هناك امرأة جالسة على الأرض عمرها حوالي الثلاثين عاما لا أثر للوسامة في وجهها، يشوب نظراتها الانكسار والندم. وكانت المرأة ترضع طفلا قطعت رضاعته عندما شاهدتنا وتركته على الأرض بجانب أخيه الذي كان يزحف بالقرب منها. وكان بجانبها بطانية قديمة معلّقة، تفصل جزءا من الغرفة يتسع لسرير. لم أكن أصدّق ما أشاهده. نظرت إلى صاحبي الجندي متسائلا... فأشار برأسه باتجاه المرأة والبطانية، فأخبرته بعزمي على العودة إلى المعسكر، و غادرنا الغرفة فوراً. في طريق عودتنا، سألت الجندي بعض الأسئلة عن العائلة، فلم يجبني، فخمّنت إن ذلك جزء من واجبات المهنة.

وبينما كنت أفكر في بؤس هذه العائلة، قادني تفكيري، مرة أخرى، إلى البحث عن أسباب هذا البؤس، ومن المسؤول عن ذلك وكيف يرضى الله به؟ ولماذا لا يزيل هذا البؤس عن وجه الأرض؟ و ...الخ. مجرد أسئلة، لم أجد لها أجوبة، ولا أعرف لمن أوجه أسئلتي، أو هل يجوز للمرء أن يطرح مثل هذه الأسئلة أصلاً ؟!.

ومن الأسئلة المشابهة التي كانت تحضرني، وخاصة عندما كنت أستلقي على الفراش فوق سطح الدار في الصيف وأنظر إلى السماء، فأتعجب لسعتها وللنجوم وكثرتها وكنت أعرف عند ذاك بأن الله خالقها ولكن كنت أتساءل عن الذي خلق خالقها؟!. وبالرغم من أن أمي، وهي أيضاً أمية كأبي، ردتني، عندما سألتها مرّة، فزعة مستغفرة الله، طالبة منّي أن أستغفره أيضاً، وأن لا أردد مرة أخرى مثل هذه الأسئلة المحرّمة. لقد كان هذا السؤال يفرض نفسه عليّ، منذ أن بلغت الثانية عشر من عمري. وبعد سنين طويلة، وبعد أن توفرت لي فرصة دراسة الفلسفة وتاريخها منهجياً في معهد العلوم الاجتماعية في موسكو، عرفت بأن هذا السؤال يتعلق

بمسألة أصل الوجود، التي حيّرت الفلاسفة منذ قديم الزمان، ولا تزال الإجابة عنها مختلفة، وإن المعرفة البشرية هي ثمرة هذا الاختلاف وصراعه.

تحررت من رقابة والدي بعد أن سرحت من الجيش. وفي الواقع، كانت تلك الرقابة قد خفّت قبل ذلك بسنتين تقريباً. وتبعا لذلك أخذت تنشأ لديّ علاقات مع الشباب جلاّس مقهى المحلة، أسافر معهم إلى بغداد وإلى الهندية (طوريج) التي تبعد 30 كيلو متر عن كربلاء، حيث توجد سينما صيفية ومحل لبيع المشروبات الكحولية (وهذه كانت ممنوعة في كربلاء وفي المدن المقدسة الأخرى في العراق مثل النجف والكاظمية...). بعد ذلك تكونت لديَّ علاقات مع بعضٍ من زملاء الدراسة الابتدائية وأصدقائهم. مجموعة الشباب الأولى لم تكن متعلمة، ولكن المجموعة الثانية كانت متعلمة. كنا نتناقش في جميع الأمور ما عدا الأمور السياسية فكان التطرق إليها نادراً، وكانت وجهتنا العامة تقدمية، تميل إلى الواقعية وتبتعد عن الغيبيات. ومن أوساط هؤلاء تكوّنت لديّ صداقات وعلاقات بعضها مستمرة إلى يومنا هذا.

القمار

في تلك الفترة وبسبب البطالة، أخذت أجلس في المقاهي التي يلعب روادها لعبة الدومينو. وتطور اللعب من الرهان على الشاي إلى الرهان على النقود، ومن الجلوس في المقهى إلى الجلوس في غرف سرية خلف المقهى، بل وحتى في بيوت خاصة للعب القمار. لم تدم هذه الفترة أكثر من ثلاثة أشهر، وقد تركت هذه العادة السيئة بشكل حاسم، ولم أعد إليها مطلقاً. لقد شهدت كيف يرهن أحدهم عباءته والآخر ساعته وثالث أسطه بناء يخسر المقدمة التي قبضها لكي يباشر العمل، فيتحايل على الزبون ليأخذ المزيد، ويلعب لاسترجاع ما خسره وإذا به يخسر مرة أخرى، فيلجأ للتخفي والتهرب من الزبون. وفي إحدى المرات كان لديّ مبلغ، هو كل ما تبقى لي من رصيد للعائلة في نهاية موسم العمل، فخسرته بالغش، فاكتشفت الأمر. وقد كان معي في مجموعة اللعب أحد أقربائي، فتشاجرنا واستردنا المبلغ الذي خسرته. على أثر ذلك تركت القمار إلى الأبد، كما أسلفت. فقد كانت فكرة خسارة المبلغ المذكور، والتي ذقت طعمها فعلا لدقائق قبل اكتشافي الغش، ترعبني، لأن المبلغ كان القوت اليومي الوحيد للعائلة. الانطباع الراسخ الذي خرجت به من هذه التجربة، هو إن المدمن على لعب القمار(القمرچي) عديم الشعور بالمسؤولية تجاه نفسه وعائلته والمجتمع.

مدينة كربلاء

لامني بعض الأصدقاء على ما كتبته ونشرته في ذكرياتي عندما تطرقت إلى مدينة كربلاء لإيجازه الشديد، في حين إن المدينة مسقط رأسي ومحيط نشأتي وتفتح

فكري والساحة الأولى لكفاحي الوطني والديمقراطي. وتلافيا لذلك النقص كتبت هذا النص اعترافا مني بصواب نقدهم وعرفاناً مني لمدينة أحببتها وتعلمت منها وفيها الكثير.

تقع مدينة كربلاء على بعد 105 كم إلى الجنوب الغربي من العاصمة بغداد، على حافة الصحراء في غرب الفرات وعلى الجهة اليسرى من جدول الحسينية. وتحدها من الشمال محافظة الأنبار ومن الجنوب محافظة النجف ومن الشرق محافظة بابل وقسم من محافظة بغداد. يعود تاريخ المدينة إلى العهد البابلي، وكانت هذه المنطقة مقبرة للمسيحيين قبل الفتح الإسلامي. ويرى بعض الباحثين إن كلمة كربلاء تعني (قرب الإله)، وهي كلمة أصلها من اللغة البابلية القديمة. ويرى البعض الآخر إن لفظ كربلاء مركب من الكلمتين الآشوريتين (كرب) أي حرم، و(أيل) أي الله، ومعناهما (حرم الله). وهناك تفسيرات أخرى لكلمة كربلاء جاءت بعد ظهور الإسلام وتوحي إلى واقعة الطف وهي لا أساس لها من الصحة، لأن الموقع واسمه موجودان قبل ذلك. ومن هذه التفسيرات الرأي القائل بأن كلمة كربلاء فارسية المصدر مركبة من كلمتين هما (كار) أي عمل و(بالا) أي العالي، فيكون معناهما (العمل العالي). أو إن الكلمة تركيب للكلمتين العربيتين (كرب) و(بلاء).

يعود تاريخ إعادة بناء المدينة في العهد الإسلامي إلى اليوم الثاني من واقعة الطف أي في 12 محرم عام 61 هـ 10 تشرين الأول 680 م، حيث دفن بنو أسد رفات الإمام الحسين وصحبه (ع). وتعرضت المدينة ومراقد الأئمة فيها إلى الإهمال والدمار والنكبات وأعيد إعمارها مرارا عبر التاريخ. وفي أوائل القرن التاسع زار احد ملوك الهند كربلاء وبني فيها أسواقا جميلة وبيوتا، اسكنها بعض من نكبوا، وبني سورا منيعا للبلدة. وبعد الحرب العالمية الأولى أنشئت المباني العصرية والشوارع العريضة وجففت أراضيها وذلك بإنشاء مبزل لسحب المياه المحيطة بها، وتواصل عمرانها لاحقاً. وتحيط بمدينة كربلاء المقدسة عدد من الأماكن الأثرية الشهيرة مثل: حصن الاخيضر، قلعة الهندي، خان العطيشي.

تبلغ مساحة المدينة حوالي 53000 كم مربعاً وأرضها رخوة نقية (منقاة من الحصى والدغل) تحيط بها البساتين الكثيفة ويسقيها ماء الفرات.ومن أشهر محلات المدينة القديمة هي: باب السلالمة، باب الطاق، باب بغداد، باب الخان، المخيم، باب النجف، باب طويريج، العباسية الشرقية والغربية. ومن أشهر شوارعها، شارع الإمام علي وشارع العباس وشارع علي الأكبر ... ومن أشهر أسواقها، سوق العجم وتقع في هذا السوق أهم محلات الصاغة والأقمشة الجيدة وكان يقع فيه محل أحسن خياط رجالي ـ نسائي اسمه حميد الخياط. وسوق العرب، حيث توجد فيه الأقمشة والخياطون من الدرجة الثانية وزبائنه عادة فلاحون وبدو رحل، والأخيرون يشترون إضافة إلى قماش الخام، معاطف الفرو المصنوعة من

جلود الأغنام. وسوق باب القبلة الذي يزخر بمختلف أنواع الهدايا. وعند زيارتي لكربلاء في نهاية عام 2003 لم أتبين ملامح الشوارع والأسواق المذكورة جراء التوسع الذي جرى عليها.

إن بساتين كربلاء عامرة بالنخيل والأشجار المثمرة التي تنتج مختلف أنواع الفواكه والتمور والخضر،التي تسد الحاجة المحلية ويزيد منها للتصدير طازجا إلى البصرة والنجف أو تصنع وتصدر إلى بغداد من معمل تعليب كربلاء(250 عامل) أو المعامل الصغيرة التي تنتج الدبس والراشي والحلوى والخل وماء الورد ودبس الرمان وسواها. وفي المدينة معمل نسيج(100 عامل) وبجوارها عدد من معامل الطابوق يعمل فيها حوالي 500 عامل . وهناك عدد من ورش السباكة في خان أبو الدهن ، حيث يقع محلنا، تصنع أشياء متنوعة وتصدرها إلى بغداد مثل قبضات الأبواب ورؤوس الطباخات والهاونات والأنابيب. والغالبية الساحقة من سكان المدينة يمارسون الحرف اليدوية أو يعملون في دكاكين أو ورش صغيرة للحدادة والسمكرة والنسيج والدباغة والأحذية وعدة الحمير(جلال المطي) وهناك محلات تعتمد على العمل المنزلي لصنع مختلف الهدايا البسيطة كالترب والمسابح والطاقيات و بعض الملابس وصور الأئمة و...الخ. وهناك فئة تقدم الخدمات للزوار وتحصل على النذور والهدايا المختلفة فضلا عن أجور الإقامة وهم السادة المنحدرين من السلالة العلوية.

في كربلاء بعض البيوتات من الملاكين الكبار مثل الدده والنقيب وآل كمونة وكان عبد الحسين كمونة والسيد حسن النقيب، يتناوبان على كرسي النيابة في المجالس النيابية المزيفة في العهد الملكي المباد. كانت نسبة الإيرانيين المقيمين في المدينة لمجموع السكان كبيرة جدا في بداية القرن العشرين، إلا أنها تقلصت بعد الاحتلال البريطاني للعراق وبعد إقامة الحكم الأهلي فيه حتى وصلت إلى 12%. في عام 1957. أما نسبة ذوي الأصول الفارسية من سكان المدينة، فهي تفوق النسبة المذكورة، في تقديري الخاص.

كربلاء هي إحدى المدن المقدسة، لاسيما لدى أتباع المذهب الشيعي في الدين الإسلامي. ويؤم المدينة الكثير من الزوّار من مختلف محافظات العراق، وكذلك من بلدان شتى مثل البحرين، الكويت، المملكة العربية السعودية، لبنان، إيران، الهند، باكستان، تركيا، أفغانستان ...الخ. كانت المدينة قبل نصف قرن متوسطة الحجم ويقطنها حوالي 80 ألف نسمة (572 ألف في عام 2003). إن المدينة قديمة وكئيبة (وجدتها أقل كآبة في زيارتي لها بعد سقوط النظام الدكتاتوري، بسبب التوسع الذي حدث بالقرب من الحرمين الشريفين ومحيطهما المباشر) حيث لا يوجد فيها سينما ويمنع الاستماع إلى الموسيقى والغناء في محيط صحني الحسين والعباس (ع) على الدوام. في حين تمنع الموسيقى والغناء في كافة أنحاء المدينة خلال شهري محرم وصفر، وكان ذلك مصدر استياء الشباب. وكانت كثرة الطقوس

الدينية ولا معقولية بعضها كالتطبير والتسويط بالسلاسل...الخ، تستفز عقول بعض الشباب وتدفعهم للتفكير حتى بالمسلّمات، وكنت واحدا منهم. وقد تناولت، بالارتباط مع ذكرياتي ، مساهمة جماهير كربلاء في انتفاضتي 1952 و1956 ووضع الحركة الوطنية والديمقراطية في المدينة والريف في العهد الملكي والسنة الأولى من ثورة 14 تموز في سياق عدد من المواضيع.

مشهد من مدينة كربلاء، بعد تحديثها، يحوي مرقدي الإمام الحسين وأخيه العباس عليهما السلام

3

منظمة راية الشغيلة وتجربتي معها

في عام 1954، وقد بلغت الثانية والعشرين من عمري، أصبحت شيوعياً ومستحقاً عضوية الحزب بجدارة. ولكني لم أكن عضواً في الحزب الشيوعي العراقي، بل كنت عضواً في منظمة "راية الشغيلة" ــ نسبة إلى اسم الجريدة التي كانت تصدرها المنظمة ـ التي انشقت عن الحزب في شباط 1953. وقصة هذا الانشقاق

وعواقبه وعلاجه تناولها الكثيرون، وجميع هؤلاء كانوا أما أعضاء في الحزب أو لا علاقة لهم به، وهذه أول مرة يتصدى لها، حسب علمي، من كان عضواً في منظمة "راية الشغيلة" نفسها.

تشكل وعي السياسي

قبل الدخول في صلب الموضوع، بودي أن أبين متى وكيف أصبحت شيوعيا ولماذا أصبحت عضوا في منظمة منشّقة وليس عضوا في الحزب. كان محل عملنا يقع في خان يسمى (خان أبو الدهن). ويوجد في هذا الخان ورش للسباكة وأخرى لصناعة الفرو للبدو الرحّل. وتعود واحدة من ورش الفرو لأحد أصدقاء والدي واسمه (رشيد فروجي). كان رشيد يقرأ الصحف الوطنية وخاصة جريدة (الأهالي)، لسان حال الحزب الوطني الديمقراطي بزعامة الأستاذ كامل الجادرجي، لإعجابه بكتابات الجادرجي، ولكن لم تكن له علاقة بالحزب المذكور، إذ لم يكن مستعداً لأدنى مضايقة من الشرطة. كنت استعير الجريدة منه واقرأها واستفسر منه أحيانا عما هو غامض عليّ. ومن الأخبار التي كانت تثير الحماس والنقاش آنذاك، هي أخبار تأميم النفط في إيران في ربيع عام 1951، وتداعيات ذلك في العراق.

كانت الجريدة تنشر سيل البرقيات الجماهيرية التي تطالب بتأميم النفط وتنشر المقالات التي تنادي بالاقتداء بالشعب الإيراني وحكومته -حكومة مصدّق- من جهة، وتفضح محاولات الحكومة العراقية وشركات النفط الاستعمارية للالتفاف على هذا المطلب الوطني من جهة أخرى. كل ذلك كان يغذي فيّ الروح الوطنية والغضب تجاه الحكومة العراقية الموالية للاستعمار. وكان الجو السياسي آخذاً بالتوتر جراء الإضرابات العمالية والسياسية في البلد. وانتشرت، كسرعة انتشار النار بالهشيم، أخبار اجتماع البلاط الذي دعا إليه الوصي عبد الإله في بداية تشرين الثاني 1952، والذي حضره جميع رؤساء الوزراء السابقين ورؤساء الأحزاب العلنية للبحث في سبل إصلاح الوضع. وقد انتهى الاجتماع بفضيحة سياسية، حيث وجه الوصي إهانةات للجميع لاسيما لطه الهاشمي رئيس الوزراء الأسبق ورئيس "الجبهة الشعبية" واضطر هذا، وكذلك كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديمقراطي ومحمد مهدي كبة رئيس حزب الاستقلال، لترك الاجتماع .

وفي الشهر المذكور بالذات اندلعت انتفاضة تشرين الثاني المجيدة. وكنت متحمساً جداً للمساهمة فيها. لذلك ما أن سمعت هتافات المتظاهرين حتى تركت العمل الذي كان بيدي طالباً من والدي، الذي كان يقف ليس ببعيد عن المحل، أن يكمله، بعد أن أخبرته بأنني ذاهب للمظاهرة. وتوجهت راكضاً بملابس العمل المتسخة نحو المظاهرة، دون انتظار جوابه. كانت المظاهرة طلابية. وما أن أصبحت في وسطها حتى هتفت (تسقط العائلة المالكة !). وكان قد وصل سمعي رفع هذا الشعار في

بغداد. تفرقت المظاهرة بعد أن تعرضت لرصاص الجيش، حيث كانت الأحكام العرفية مُعلنة والجيش في شوارع المدن. وقد وقع جراء إطلاق النار ثلاثة عشر قتيلاً وجريحاً غالبيتهم من النساء والأطفال وجميعهم لم يكونوا من المتظاهرين. إثر تلك المظاهرة حصلت بعض الاعتقالات في المدينة، لكنها لم تشملني.

خلال فترة الأحكام العرفية كانت الأحزاب تعطل والصحف تغلق عادة ويخيم جو من الجمود على الحياة السياسية. وكان رشيد فروجي يتحاشى الحديث في السياسة عندما تعلن الأحكام العرفية، شأنه في ذلك شأن الأحزاب الوطنية (البرجوازية). أما أنا فكنت متحمسا لنشاط ثوري معارض للسلطة. وكنت أهوى ألاتصال بالشيوعيين، وقد سمعت نتفاً عن أخبارهم من هنا وهناك، ولكن لم افلح بإيجاد صلة منظمة بهم. في هذه الفترة وقعت بيدي مقاطع مختارة من قصيدة الشاعر المشهور محمد صالح بحر العلوم . لقد كان لهذه القصيدة تأثير كبير ليس على جيل الشباب في الخمسينيات فحسب، بل وعلى الجيل الذي سبقنا، وهذا هو مطلعها:

رحت استفسر من عقلي وهل يدرك عقلي
محنة الكون التي استعصت على العالم قبلي
ألأجل الكون أسعى أنا أم يسعى لأجلي
وإذا كان لكل فيه حق
أين حقي؟

مع رحيل حكومة جميل المدفعي وإلغاء الأحكام العرفية، جيء بحكومة فاضل الجمالي في أيلول 1953، والتي اعتبرت بمثابة تنفيس. وشارك في الحكومة عدد من الوزراء الجدد، اثنان منهم من قادة "الجبهة الشعبية". عندها دبّ النشاط في الحياة السياسية وصدرت، فضلا عن صحف الأحزاب المجازة، بعض الصحف والمجلات المستقلة المعارضة وحتى اليسارية ولكن الأخيرة لم تدم طويلاً.

في نهاية عام 1953 التقيت بزميل الدراسة الابتدائية في مدرسة (العباسية) الرفيق ([2] *) طاهر نسيم. لقد نشأت بيننا، وبسرعة، ثقة متبادلة بسبب المعرفة السابقة. اخذ طاهر يزودني بالكتب الممنوعة ومن ثم بالمنشورات الشيوعية، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أقرأ فيها الكتب السياسية والأدبية الممنوعة في حياتي. أصبحت أقرأ الكتب بشغف. فقد قرأت الكثير لمكسيم غوركي وقد سحرتني روايته المشهورة (الأم)، وأتذكر بأني لم أتركها إلا بعد أن أنهيتها. وقرأت لخالد محمد خالد وهو كاتب إسلامي تقدمي، وقرأت "ابن الشعب" لموريس توريس، سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي، و"الفولاذ سقيناه" لميخائيل اوستروفسكي، و"المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية" لستالين، ترجمة خالد بكداش، و"حق الأمم في

[2] ـ * إنني استخدم كلمة الرفيق مع اسماء الأشخاص الذين كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي العراقي في حينه ، بصرف النظر عن مسار تطورهم اللاحق.

تقرير مصيرها" للينين وغيرها من الكتب والكراريس الثورية. وكنت بدوري أزود بعض أصدقائي بتلك الكتب. وما عدا تلك الكتب التي كنا نتداولها سراً، أخذت استعير كتباً من المكتبة العامة، فقرأت بعض الكتب عن تاريخ العراق والموسوعة التي أصدرتها مديرية التحقيقات الجنائية عن الحزب الشيوعي العراقي بعد الضربة التي وجهت للحزب عام 1948، والتي احتوت، فضلا عن الهيكل التنظيمي للحزب ومعلومات عن قيادته وكوادره، كلاً من النظام الداخلي للحزب وبرنامجه والعديد من بياناته. وقد استهدفت الحكومة، من إصدار الموسوعة، دعاية معادية للحزب، فتحولت إلى دعاية للحزب. وقرأت كتاب "على طريق الهند" لعبد الفتاح إبراهيم ...الخ.

وقد نشطت آنذاك حملات جمع التواقيع حول مختلف الشؤون السياسية وبالذات ضد الأحلاف العسكرية. وكانت أمريكا تسعى لتشكيل حلف في المنطقة، تربط فيه كل دول المنطقة ويكون مركزه العراق، وكان الحلف التركي ــ الباكستاني البداية لذلك. وكنت نشطاً في جمع التواقيع، وأخذت أشرك إخوتي الأصغر مني، قاسم ومجيد في هذه النشاطات. وفي بدء اتصالي بطاهر نسيم كنت ادفع له تبرعا شهريا بشكل منتظم واجمع التبرعات من صديقين على الأقل.

في صيف عام 1954 انتقل طاهر نسيم إلى بغداد فارتبطت بمعلم الموسيقى عبد الأمير الصراف لفترة قصيرة. وقد حضرت معه مؤتمراً سرياً لأنصار السلام عقد في بساتين الكوفة وحضره حوالي 40 شخصا، لم تشارك فيه أية امرأة، وكان من بين الحضور الشيخ الجليل محمد الشبيبي والمحامي حمزة سلمان والمحامي هاشم صاحب والوجه الاجتماعي النجفي المعروف عبد ننة والشاعر الكردي محمد توفيق ووردي وصاحب الحكيم وكاظم حبيب ... وغيرهم. ألقيت في الاجتماع بعض الكلمات عن الوضع الدولي والعربي وقصائد شعرية عن السلم. وقد تناولنا وجبة الغداء في البستان وتفرقنا بعد شرب الشاي. وقد أخبرني، بعد ذلك، الكادر العمالي المنسب إلى منظمة كربلاء (أبو كفاح)، بأني أصبحت عضواً في لجنة أنصار السلام! لم اسمع بعد ذلك أي شيء لا عن اللجنة ولا عن عضويتي فيها! ولم أكن حزبيا آنذاك. وقد جاء هذا المؤتمر ليحاكي مؤتمر أنصار السلام في العراق الذي عقد سراً في بغداد ـ كرادة مريم في 25 تموز 1954، وكان الحزب وراء عقده.

لا يمكن مقارنة مؤتمر الكوفة بمؤتمر بغداد الذي حضره أكثر من مئة مندوباً يغطون جميع محافظات العراق تقريباً. بينهم 6 نواب من المعارضة و20 نصيرة سلام وشخصيات مشهورة على نطاق العراق، مثل خدوري خدوري ونائل سمحيري وجلال الأوقاتي وغيرهم. وكانت اللجنة التحضيرية للمؤتمر متكونة من الدكتورة نزيهة الدليمي وصلاح خالص وفاروق برتو وكمال عمر نظمي وعطشان ضيون وطلعت الشيباني. وأفتتح الاجتماع واختتمه الشيخ عبد الكريم الماشطة. وكان للمؤتمر صدى واسع، حيث نشرت الصحف الكلمة الختامية، التي تتضمن

أهداف حركة أنصار السلام في العراق، في حين نشرت مجلة "الوادي" كل قرارات المؤتمر فأغلقتها الحكومة ([3] *).

في آب 1954 تم ترحيلي من الرفيق عبد الأمير الصراف إلى الرفيق حزام عيّال، وهو معلم من العمارة من الإخوة المندائيين، عمره حوالي خمسة وثلاثون عاماً، كان سجينا سياسيا أطلق سراحه بعد أن قضى حوالي خمس سنوات في السجن، وقد أصيب بجراح في مجزرة سجن بغداد. كان مسؤولاً عن منظمة "راية الشغيلة" ومتخفياً بزي عربي، في مدينة كربلاء للسنوات54- 1955. كان موضع احترامنا لقدمه في العمل السياسي والحزبي ولمستواه الثقافي، وقد تعلمت منه الكثير، خاصةً في شؤون التنظيم. وقد أنهى مهمته وغادر كربلاء بسلام، ولم أكن اعرف عنه إي شيء سوى أن اسمه (أبو إبراهيم)، إلى أن ألقي القبض عليه. وقد التق يته ثانية في التحقيقات الجنائية حيث كان قد اعترف عليّ وذلك في كانون الثاني 1958، وسأتطرق إلى ذلك لاحقاً. لقد شكّل حزام عيّال مني ومن شاب آخر حلَقة شرح لنا فيها المواد الخمسة الأولى للنظام الداخلي ورشحنا لعضوية الحزب. ونلت شرف العضوية في نهاية عام 1954. وكانت ورقة عضويتي موقعة من قبل ثابت ـ الاسم الحزبي للشهيد جمال الحيدري عند قيادته لمنظمة "راية الشغيلة". وقد دامت مدة ترشيحي 4 أشهر ([4] *)

الانشقاق

لقد كان العديد من كوادر الحزب يلاحظ نزعة يسارية ـ انعزالية وسلوكاً بيروقرطياً وفردياً في قيادة الحزب. وقد تحول ذلك إلى "معارضة" داخل الحزب بعد صدور ميثاق (برنامج) جديد للحزب، في ربيع 1952، والذي صار يعرف باسم ميثاق باسم، نسبة إلى الاسم الحزبي لبهاء الدين نوري قائد الحزب آنذاك. نشر هذا الميثاق دون عقد مؤتمر أو كونفرنس أو حتى اجتماع للجنة المركزية لمناقشته وإقراره. وغيّر الميثاق إستراتيجة الحزب لتلك المرحلة من حكومة وطنية

---

[3] ـ * انظر المزيد حول هذا المؤتمر وحركة أنصار السلام بشكل عام. ثمينة ناجي يوسف ونزار خالد "سلام عادل سيرة مناضل" الجزء الأول، ص83. انظر أيضا عزيز سباهي "عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي" الجزء الثاني، فصل بعنوان "النشاط من أجل السلام"، ص49.

[4] ـ * كانت مدة ترشيح العمال 4 أشهر، في حين كانت مدة ترشيح الآخرين 6 أشهر. لقد اشتغلت عاملاً أجيراً في مهنتي، عند محمد حميد. وفي مهنة أخرى (تعبئة المواد الغذائية والخضر في علوه المخضر لأغراض التصدير إلى المحافظات الأخرى بأجور يومية قدرها 200 فلس ، عند الحاج علي خان، وكان يشتغل معي أخي مجيد أيضا) ولكن لفترات قصيرة، لا تتجاوز بضعة أشهر. لذلك لم أدع يوما بأني عامل. في حين اشتغلت لسنوات عديدة يصفني حرفي. يمكن أن ادعي بأني كادح ومنحدر من عائلة كادحة. أما لماذا اعتبرت عاملا عندما ترشحت لعضوية الحزب ، فلا علم لي بذلك. إذ ربما لأني كنت منتظما في الخط العمالي.

ديمقراطية إلى جمهورية شعبية متماثلاً مع جمهورية الصين الشعبية. وقتها فجر الميثاق الخلاف الفكري داخل الحزب وكان أبرز المعارضين في السجون، اللجنة القيادية المسؤولة في "سجن الموقف" في بغداد، وكان سكرتيرها الرفيق عزيز محمد ومن بين أعضائها الرفاق جمال الحيدري وإبراهيم شاؤول وحمزة سلمان ويعقوب مصري.

وقد كتب الرفيق عزيز محمد رسالة إلى قيادة الحزب تتضمن ملاحظات حول الميثاق الجديد، باعتباره يحرق مرحلة التحرر الوطني وبالتالي لا يعير أهمية لتجميع القوى الوطنية. وأشير في هذه الرسالة إلى أن الحزب يبالغ في تقدير قواه ويقلل من دور الأحزاب الوطنية (البرجوازية)، وان المهمة الراهنة هي إقامة حكم وطني ديمقراطي وإن شعار الجمهورية الشعبية من شأنه التفريط بقوى متمسكة بالملكية. من هنا جاءت تسمية "راية البلاط" التي كانت قيادة الحزب تطلقها عليهم. وقد عُرفت هذه الرسالة برسالة (م) نسبة إلى الاسم الحزبي لعزيز محمد آنذاك (مخلص). وكان رد فعل بهاء على الرسالة، هو عزل عزيز عن مهمته القيادية واحتجاجاً على هذا الإجراء رفض أعضاء اللجنة الآخرون استلام المهمة. فقرر بهاء إزاحة اللجنة وتشكيل لجنة جديدة بقيادة الرفيق سليم الجلبي ومن بين أعضائها الرفيق صادق الفلاحي.

وقد نشر بهاء رسالة عزيز ورد عليها بعنف مدافعا عن خطه السياسي الانعزالي بحماس إلى حد تحريف الرسالة التي وجهها إليه مخلص، "بحيث تبدو انتهازية صريحة باعتراف كاتبها " [5]. فأثار بذلك حفيظة المعارضين ووتر الأجواء. وتفاقم الخلاف أكثر على اثر نشر بهاء تقييماً لانتفاضة تشرين الثاني 1952 من منطلقات دوغماتية. فانشقت المنظمة داخل السجن، وأصبح لكل جناح قاعته ولجنته الخاصة. وقد التحقت بالمنظمة المنشقة كوكبة لامعة من كوادر الحزب، أثبتت الحياة إخلاصها وجدارتها في مقدمتهم الرفيق عزيز محمد والذي تبوأ، بعد وحدة الحزب واستشهاد سلام عادل، الأمانة العامة للجنة المركزية طوال 29 عاماً. والتحق بها الشهداء جمال الحيدري وحمزة سلمان وحسن عوينة ونافع يونس وعدنان البراك وإبراهيم حكاك، ومن الكوادر أيضاً الرفاق عادل مصري وعبد الرزاق الصافي وسلام الناصري وإبراهيم شاؤول وعادل سليم وكاظم فرهود ويوسف حنا وعبد الحسين خليفة وغيرهم. ومع الأسف لم تثبت الحياة إخلاص آخرين كانوا في قيادة الحزب، فالذي طردهم من الحزب (بهاء الدين نوري) انشق عن الحزب في عام 1984، ولم تعد له علاقة بالحزب منذ ذلك الحين. أما نظير بهاء المغامر حميد عثمان، فقد انضم عشية ثورة 14 تموز إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني. وبعد سنوات ترك هذا الحزب أيضاً ليتحول إلى داعية لحزب البعث مكرسا نفسه له في الصحافة باسم (سليم سلطان). أما هادي هاشم الأعظمي، احد

[5] - زكي خيري. صدى السنين في ذاكرة شيوعي مخضرم، ص 161.

أبرز أنصار بهاء الدين نوري، فقد سلم قيادة الحزب إلى انقلابي 8 شباط الفاشي عام 1963.

والتحقت بالمنشقين في خارج السجن، منظمة كبيرة بكل جماهيرها وتوابعها من منظمات، وهي منظمة النجف التي كانت بقيادة الرفاق عبد الأمير الخياط وحسين سلطان ومحمد أبو كالة وتعاطف معهم رجل الدين ونصير السلم المعروف محمد الشبيبي، والد الشهيد حسين محمد الشبيبي (صارم)، الذي لعب دوراً تعبوياً كبيراً من خلال مجالس العزاء الحسينية الواسعة التي كانت تتحول إلى خطب سياسية تنويرية وثورية أو من خلال اللقاءات التي كانت تعقد في بيته. كنت شاهداً على احد هذه اللقاءات ضمن وفد كبير ضمّ حوالي 40 شابا، نظمته منظمة كربلاء عام 1954. وقد بتنا ليلة واحدة، متوزعين، ضيوفا على بيوت رفاق منظمة النجف. وكان حديث الشيخ الشبيبي شيقاً، و يدور حول أهمية السلام العالمي.

لم أكن أعرف في بداية الأمر بأنني مرتبط بمنظمة منشقة عن الحزب. و أن المنشقين يشكلون أقلية في السجن وليس لديهم منظمة جماهيرية سوى في النجف وكربلاء، وأن هناك قادة مشهورين ليسوا معهم مثل زكي خيري وعزيز الحاج وهادي هاشم وحميد عثمان وعمر علي الشيخ وآرا خاجادور. وإلى أن عرفت ذلك تدريجياً، كنت قد اقتنعت بأطروحات المنظمة، باعتبارها هي الحزب. ولم يتمكن أحد من "الإنجازيين" ـ نسبة إلى نشرة داخلية كان يصدرها الحزب تسمى "الإنجاز" ـ ممن صادفتهم في موقف مركز شرطة كربلاء أو بعض الطلبة الذين كانوا يأتون من بغداد لزيارة أهاليهم، من زحزحة قناعاتي، حيث كانت محاججاتهم سطحية، إلى أن التقيت بالرفيق باقر إبراهيم في خريف 1955 في موقف كربلاء [6].

كانت منظمة راية الشغيلة تبرر عملها الانشقاقي، باديي ذي بدء، بالادعاء بأن عملها لم يكن انشقاقاً، وإنما كان انتشالاً للحزب من قيادته الانتهازية! وعندما بات واضحا للعيان فشل العملية، حيث لم يلتحق من منظمات الحزب بالمنشقين سوى منظمة واحدة، وبقي الحزب ككيان سياسي معترف به وطنيا ودوليا ــ حضر سلام عادل في لندن مؤتمرا للأحزاب الشيوعية والعمالية في دول الكومنولث البريطاني الذي انعقد في 21 نيسان 1954 ممثلا للحزب الشيوعي العراقي. وقد أجرى هناك لقاءات واسعة ـ أخذت المنظمة تبرر عملها بالقول: "إن الرفاق الذين طردوا من قبل قيادة باسم المنحرفة بسبب تصديهم لهذا الانحراف، كانوا مضطرين لتكوين منظمة لهم، وإلا فقد كانوا يتعرضون للتفسخ سياسيا بدون ذلك".

[6] ـ كان تسفير النجفيين من بغداد إلى النجف يمر عبر كربلاء باعتبارها مركز المحافظة.

كان فحوى رأي باقر إبراهيم هو: "إن وضع قيادة الحزب لم يكن طبيعياً، بعد تلك الضربات الواسعة والعميقة التي وجهت لها ولكوادر الحزب، وبالتالي لم يكن من الصحيح التعامل مع القيادة الجديدة تعاملاً طبيعياً وكأن شيئا لم يكن، وبالتالي تعريض الحزب للانشقاق".

لقد وجدت نفسي لأول مرة أتزحزح وأفكر باحتمال خطأ مسيرتي، ولكن سرعان ما طردت هذا الوسواس، خاصة وأن الحزب كان يواصل سياسته اليسارية ـالانعزالية. وُسفر باقر في نفس اليوم ولم ألتقه ثانية إلا بعد أن حُلت منظمة راية الشغيلة.

محاولة التخلص من النهج اليساري الانعزالي

بعد اعتقال بهاء الدين نوري في نيسان 1953 تولى الرفيق كريم أحمد سكرتارية اللجنة المركزية. وبعد فترة وجيزة ضُمّ الرفيق حسين أحمد الرضي (سلام عادل) إليها. وقد لعب الاثنان دوراً أساسيا في محاولة التخلص من النهج اليساري الانعزالي، وانعكست تلك المحاولة في الوثيقة التي صدرت عن اجتماع اللجنة المركزية في كانون الثاني 1954، والموسومة (جبهة الكفاح الوطني ضد الاستعمار والحرب)، وفي السلوك العملي للحزب أيضاً. فعندما أعلنت حكومة أرشد العمري في أيار1954، عن إجراء انتخابات برلمانية في 9 حزيران، سعى الحزب (وكان سلام عادل مسؤولاً عن لجنة العلاقات الوطنية بالإضافة إلى قيادته للجنة بغداد) إلى تشكيل جبهة وطنية. وبتضافر جهود الحزب وجهود الأحزاب الوطنية الأخرى أعلن في 12 أيار 1954 عن تأليف جبهة وطنية للانتخابات. ونشر ميثاقها ذي الطابع الوطني الديمقراطي في اليوم التالي، موقعاً من قبل الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال وكذلك من ممثلي العمال والفلاحين والمحامين والطلاب والأطباء والشباب، الذين كانوا يمثلون في حقيقة الأمر الحزب الشيوعي العراقي.

أصبح الوضع محرجاً بالنسبة لمنظمة راية الشغيلة، وبالرغم من ذلك، فإنها سلكت سلوكا مستقلا. فرشحت الشيخ محمد الشبيبي في النجف إلى جانب مرشح الحزب الدكتور خليل جميل الجواد. وفشلت المفاوضات بين الحزب والمنظمة للاتفاق على مرشح واحد لكي لا تنقسم الأصوات، ففشل الاثنان في الانتخابات. وفي بغداد فاز المرشح المستقل عبد الرزاق القيسي الذي ساندته منظمة راية الشغيلة. أما في كربلاء فقد ساندت المنظمة سعد عمر، وهو وطني مستقل.

كانت خطة المنظمة في مدينته كربلاء استثمار اجتماعات ومظاهرات الدعاية الانتخابية لتحريك الجماهير ورفع معنوياتها وخلق أجواء ملائمة للنشاط الثوري. ولم تكن تأبه لنتيجة الانتخابات.

لقد كنت هتافاً نشطاً في الفعاليات الجماهيرية للدعاية الانتخابية، الأمر الذي انتبه إليه المرشح سعد عمر، فأرسل من يخبرني بأنه يطلب اللقاء بي في بيته. وقد ذهبت، بعد أن وافقت المنظمة على ذلك. كان في بيته جمع غفير من المؤيدين وكان هو جالسا في صدر المجلس موفور الصحة يلمع نظافة وأناقة. ذهبت إليه بملابسي المحلية دشداشة ونعال والجاكيت على الكتف معلقاً بالسبابة !!). ذهبت هكذا وفي بالي سخرية الشيوعيين من قادة النقابات الانكليزية، الذين يتأنقون عندما يلتقون بالوزراء البرجوازيين. كان فحوى حديث سعد عمر، هو أن الجهد يجب أن ينصب على إرسال أكبر عدد من المندوبين الوطنيين إلى المجلس، وهذا يتطلب تعبئة أكبر عدد ممكن من الناس، والشعارات المتطرفة لا تخدم هذا الهدف مثل شعار توزيع الأراضي على الفلاحين. أجبته بأن إرسال مندوب أو مندوبين زيادة إلى المجلس لا يغيّر من الأمر شيئاً، فالمجلس في نظامنا الراهن يمكن حلّه بجرة قلم، في حين أن رفع مستوى الوعي لدى الجماهير هو الضمان لتطور الحركة الوطنية. وهكذا افترقنا مختلفين. وقررت المنظمة عشية الانتخابات مقاطعتها احتجاجاً على مضايقات السلطة. ولم يفز سعد عمر، بل فاز مرشح الحكومة عبد الحسين كمونة.

في هذه الفترة حصل تغير هام في قيادة الحزب. فقد تمكنت منظمة السجن في بعقوبة من تدبير هروب ناجح لحميد عثمان، وذلك في 16 حزيران 1954. لقد سعى حميد عثمان بمختلف الأساليب لكي يكون قائدا فعليا للحزب وتحقيق طموحه غير المشروع وهو في السجن، مستغلا صلابة موقفه في التحقيق والظروف الشاذة التي كان يمر بها الحزب. وقد سلمه الرفيق كريم أحمد القيادة كأمر مفروغ منه. وبذلك أحبط حميد عثمان محاولة القيادة السابقة (كريم أحمد وسلام عادل) التخلص من النهج اليساري ـ الانعزالي والقيادة الفردية والبيروقراطية. فبدلاً من الدعوة إلى حكومة وطنية ديمقراطية، أخذ يدعو إلى إقامة سلطة شعبية تحت قيادة الطبقة العاملة. واتسمت قيادته بالفردية. فقد أقدم على وضع ونشر برنامج جديد باسم اللجنة المركزية بدون أخذ موافقة اللجنة المركزية عليه مسبقاً [7]. ولم تكن قيادة حميد عثمان تختلف، في نظري، من حيث الجوهر عن قيادة بهاء الدين نوري. وكان ذلك أحد أسباب استمرار الانشقاق في الحزب الشيوعي العراقي.

وحدة الحزب

في صيف 1955 بادرت منظمة "راية الشغيلة" إلى الدعوة لوحدة الحزب في صحيفتها "راية الشغيلة"، وأرسل مسؤولها الرفيق جمال الحيدري رسالة إلى اللجنة المركزية يطلب فيها عقد لقاء لبحث الأوضاع في العراق بعد دخوله في الأحلاف العسكرية. إلا أن حميد عثمان لم يطلع اللجنة المركزية على الرسالة، وأنفرد بالإجابة عليها بالرفض. وقد عثر سلام عادل على الرسالة في أوراق حميد

[7] ـ انظر ثمينة ناجي يوسف ونزار خالد "سلام عادل، سيرة مناضل"، الجزء الأول ص 100.

بعد استلام مهمته كسكرتير للجنة المركزية، وأجاب عليها طالبا المباشرة بالحوار بعد حصوله على تخويل من اللجنة المركزية بذلك.

وضع سلام عادل نصب عينيه توحيد الشيوعيين في حزب واحد كمهمة أولى له بعد توليه مهمته الجديدة [8]. وقد دُرست رسالة سلام عادل في اجتماع ضمّ (15 – 20) من الكوادر المتقدمة في منظمة "راية الشغيلة". وكان من بين الحضور الرفاق جمال الحيدري وحمزة سلمان وعبد الرزاق الصافي. وحينما باشر حمزة سلمان قراءة الرسالة اعترض الصافي على نبرة سلمان المتحيزة، فأعطيت الرسالة للصافي لقراءتها. وكان غالبية المجتمعين مع المباشرة بالحوار [9]. الذي استغرق من آب 1955 إلى حزيران 1956.

عند خروجي من السجن في صيف 1955 تقرر انتقالي إلى النجف كتدبير صيانتي. كانت إقامتي في بيت الرفيق حسين سلطان، عضو المركز القيادي لمنظمة "راية الشغيلة" ومسؤول منظمة الفرات الأوسط وكان نفوذها بالأساس في لواء كربلاء (محافظتي النجف وكربلاء الآن) ولديها بعض الركائز هنا وهناك خارج اللواء. انتظمت في هيئة يقودها كاظم فرهود (أبو قاعدة) ومعنا رفيق آخر. كنت على اتصال برفيقين في الكوفة وخلية فلاحين في أبو صخير. وفي أول اجتماع للهيئة تحدث لنا أبو قاعدة بحماس حول المساعي الجادة المبذولة لتحقيق وحدة الحزب. وخرجت بانطباع من حديثه هو أن نوعاً من الاندماج سيحصل بين الحزب والمنظمة، وليس حل المنظمة وتقديم طلبات فردية من قبل أعضائها إلى الحزب، كما كان يؤكد الحزب في كل مناسبة ([10] *).

في بداية حزيران 1956، ألقى القبض عليّ في الكوفة. أخذت مباشرة إلى المفوض الخفر الذي لم يكن في مقر عمله الرسمي، مركز الشرطة، بل كان واقفا بالقرب من جسر الكوفة. استفسر مني عن أسباب وجودي في الكوفة، فأجبته : " لبيع دبس الرمان". وبعد تفتيشي، لم يعثروا على شيء. أمر المفوض بتوقيفي. وسُفرت إلى كربلاء في اليوم التالي.

---

[8] ـ المصدر السابق، ص 120.

[9] ـ مخابرة تلفونية مع الصافي أوائل نيسان 2005.

[10] ـ *عرفت لاحقاً بأن كاظم فرهود كان قد التقى سلام عادل في تلك الفترة، بناء على اتفاق بين جمال الحيدري وسلام عادل ، يقضي بتنظيم لقاءات بين الأخير والمتشددين من قادة المنظمة. وإن سلام أقنع كاظم بضرورة حل المنظمة ، بعد نقاش دام من الصباح الباكر حتى منتصف الليل. للمزيد راجع المصدر السابق ، ص 121
في تلك الفترة استنتجت بأن حسين سلطان التقى بسكرتير الحزب سلام عادل، وذلك من خلال تلميحاته وتعليقاته، بعد عودته من سفرة إلى بغداد.

في منتصف حزيران وصل الرفيق محمد حسن مبارك إلى موقف كربلاء، وهو في طريقه إلى النجف قادماً من موقف السراي. وبعد أن تعارفنا أخبرني بأن وحدة الحزب قد تحققت، وأن هناك بياناً صادراً من منظمة "راية الشغيلة" يقضي بحل نفسها. ولم تكن لديه أية تفاصيل عن البيان، فقد سمع الخبر من الموقوفين الشيوعيين في موقف السراي. لم أعد أتحمل البقاء في الموقف، وقررت أن أخرج بأي صورة من الصور. أرسلت مذكرة إلى حاكم التحقيق أطلب فيها تزويدي بحيثيات قراره القاضي بتوقيفي، لأني أنوي استئناف القرار لدى محكمة التمييز. فأطلق سراحي على إثر ذلك. سافرت في نفس اليوم إلى النجف، ومباشرة إلى "البيت الصيفي" ([11] *)

بعد أن استمع حسين سلطان إلى ما جرى لي، أخبرني بأن العجوز (أمه) كانت مصّرة على أن تجلب لي التنباك (التتن) إلى الموقف! وبالكاد تمكنوا من إقناعها بضرر ذلك على الجميع. كان حسين يريد ترطيب الجو بسرد موقف أمه، لأنه لاحظ عدم الارتياح على وجهي عند دخولي الصريفة. وبعد ذلك ناولني البيان الصادر عن "راية الشغيلة" في 13 حزيران 1956. تضمن البيان اعتراف منظمة "راية الشغيلة" بأنها سلكت سلوكا انشقاقيا تخريبياً خاطئاً بتأسيس تنظيمها ومركزها القيادي المستقل، وأن خطوتها التي أسمتها "انتشالاً" كانت مخالفة صريحة لمبادئ الماركسية ــ اللينينية التي توصي بالمحافظة على وحدة الحزب. وأشار البيان إلى دسائس الأوساط الاستعمارية والرجعية والصهيونية لشق وحدة الحزب ([12] *). ولم تكن هناك أية إشارة إلى دور الانحراف اليساري والسلوك البيروقراطي والفردي، اللذان كانا سائدين في قيادة الحزب، في شق الحزب.

أبديت اعتراضي على البيان وعدم قناعتي به، فأخذ حسين بيدي واختلى بي في زاوية وقال لي: "أنا مخّول بإخبار بعض الرفاق بحقيقة الأمر وأنت واحد منهم، بأن هذا هو رأي خالد بكداش ([13] *)، وخلاصته هو: إن آراءكم صحيحة ولكن سلوككم (الانشقاق) غير صحيح".

---

[11]ـ * هكذا كنا نسمي الصريفة التي بنيناها ، في خريف1955، في أطراف النجف ، أنا والرفيقين حسين سلطان وحزام عيّال .

[12] ـ * في أول لقاء لي مع الرفيق عزيز محمد في سجن بعقوبة عام 1957 ، استفسر مني ،بلهجة مشوبة بالغضب " عرفنا بأنه عمل تخريبي وانتهازي...والاستعمار والرجعية، ولكن ما علاقة الصهيونية بالموضوع ؟! بناء على هذا الحادث، وبناء على الاحتكاك المباشر بعزيز محمد ورفاقه في السجن، أستطيع القول، وبثقة، إنهم لم يطلعوا على نص البيان قبل صدوره. إن ذلك لا يعني بأنهم لم يكونوا مطلعين على مجريات الأمور خارج السجن، أو إنهم لم يوافقوا على حل المنظمة.

[13] ـ * أضاف حسين سلطان، إن المفاوضات كانت تجري بشكل جيد وقبيل وصول المفاوضات إلى نهايتها، عاد الرسولان. (أحدهم يمثل المنظمة والآخر الحزب) اللذان كانا مرسلين إلى خالد بكداش للتحكيم. فجاءت النتيجة بهذا الشكل.

في اليوم التالي التقى بي الرفيق فرحان طعمه عضو اللجنة المركزية. أخبرته بخلاصة رأيي وموقفي في عدم قناعتي بالبيان الصادر عن المنظمة، ولكنني أبلغته بأنني أضع نفسي تحت تصرف الحزب. وعدني فرحان طعمه بصدور توضيحات من الحزب حول الموضوع في المستقبل القريب. أخذ عنواني، وطلب مني العودة إلى كربلاء بصفتي مسؤولا للمنظمة الحزبية في المدينة.

بعد لقائي بفرحان طعمه بحوالي أسبوعين جاءني مندوب الحزب ومسؤولي الحزبي، وإذا به الرفيق باقر إبراهيم، أي نفس الشخص الذي سبق وأن التقيته قبل عام في موقف كربلاء.

سررت بذلك لأني أعرفه، ولأنه خلف عندي انطباعاً جيدا في حينه. جلب باقر معه، ضمن ما جلب، بياناً صادراً عن اللجنة المركزية مؤرخاً في 17 حزيران 1956. تضمن البيان ترحيب اللجنة المركزية بعودة المناضلين الحزبيين، وإدانتها الأفكار الانشقاقية، وانتقدت المقاييس البيروقراطية التي عولجت بها مشاكل الرفاق الفكرية والسياسية. ودعا البيان إلى أن يسود الجو المبدئي المتحرر من ترسبات الأوضاع الانقسامية في الحياة الداخلية، بعيداً عن مظاهر " الانتصار" و"الانكسار". وتعبيرا عن شعور الحزب بهذا الواجب قررت اللجنة المركزية تبديل اسم "القاعدة"، الجريدة المركزية للحزب، باسم "اتحاد الشعب".

سلمني باقر الرفيق علي النوري الذي كان مع الحزب مرشحاً ومنح العضوية على عجل، وكان العنصر الوحيد لدى الحزب في المدينة. وقد شكلت لجنة لمدينة كربلاء من علي النوري وصاحب باقر وأنا سكرتيرها. وكانت اللجنة تقود خليتين أو ثلاث. وجمهرة من المؤيدين والأصدقاء. ومن موقعي الحزبي هذا كان عليّ إقناع المنظمة بما لست مقتنعا به!

أزمة فكرية وأخلاقية

كنت أعيش أزمة فكرية وأخلاقية. كان يهمني جداً أن أكون عضواً في الحزب الشيوعي العراقي وأكون كادرا جيداً فيه، وبالتالي لابد أن أكون صادقا معه. في حين كان الحزب ينتظر مني أن أقدم نقداً ذاتيا، كشرط لوضع الثقة الكاملة بي. كنت أرى بأن السياسة اليسارية الانعزالية والبيروقراطية والفردية لقيادة باسم والتي أدينت بهذه الأوصاف تحديداً في أكثر من اجتماع للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، تتحمل مسؤولية كبيرة في الانشقاق إن لم تكن المسؤولية الأكبر. وليس الأمر كما جاء في بيان اللجنة المركزية مجرد "مقاييس بيروقراطية لمعالجة..."

بل كانت بيروقراطية وفردية على جميع الأصعدة، ويجب أن تدان، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: ألف (بهاء الدين نوري ـ باسم) لجنة مركزية ولم يضم إليها مَن كان عضواً أو مرشحا في زمن الرفيق فهد وليس هناك أية شائبة على موقفه في التحقيق [14].

ثانياً: لم يعقد أي اجتماع للجنة المركزية، ولم يفعل ذلك حتى عندما أصدر أهم وثيقة سياسية- فكرية بالنسبة للحزب ألا وهي الميثاق الوطني، أي برنامج الحزب. علما بأنه غيّر وستراتيج الحزب لمرحلة التحرر الوطني الديمقراطي من "حكم وطني ديمقراطي" إلى "حكم جمهوري شعبي يمثل إرادة العمال والفلاحين والجماهير الشعبية" [15].

ثالثا: طرد مجموعة كبيرة من كوادر الحزب القديمة، وبقرار فردي، لاختلافهم فكرياً مع قيادته[16].

رابعاً: تسمية كامل الجادرجي رئيسا للوزراء وتوزيع الحقائب الوزارية وطرح ذلك على الجماهير كشعار للمطالبة به في الشارع، دون استشارة كامل الجادرجي والأطراف المعنية الأخرى [17].

وهكذا اختزلت ضرورة إدانة السلوك البيروقراطي الفردي، واليسارية الانعزالية، والتي سبق وأن أدينت من قبل اللجنة المركزية كما أسلفت، إلى مجرد "مقاييس بيروقراطية عولجت بها مشاكل الرفاق الفكرية والسياسية". لقد اقتصر بيان منظمة "راية الشغيلة" على إدانة السلوك الانشقاقي ووصفه بأبشع الأوصاف ولم يشر، لا من قريب ولا من بعيد، إلى أسباب الانشقاق. أما إشارة الحزب لمسؤولية قيادة (باسم) فجاءت خجولة جدا. فما هي دوافع وأسباب هذا الموقف؟

أعتقد أن قيادتي الطرفين كانتا تريان بأن في الإدانة الصارمة للانشقاق ضمانة لعدم تكراره في المستقبل، وأن إلقاء قسط وافر من مسؤولية الانشقاق على عاتق قيادة (باسم) البيروقراطية والفرية في الانشقاق سيخفف من الصرامة المطلوبة ونتائجها المرجوة. ولم تزك الحياة هذا المنطق. فبعد أحد عشر عاما حصل انشقاق

---

[14] ـ عزيز سباهي " عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي " الجزء الثاني، ص 60 .

[15] ـ زكي خيري " تاريخ؟ الحزب الشيوعي العراقي " ص 191 .

[16] ـ جريدة القاعدة، أواخر شباط 1953 .

[17] ـ عزيز سباهي. عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، ص 74

خطير في الحزب (القيادة المركزية) وكان للبيروقراطية والنزعة اليسارية المغامرة دورهما في ذلك، ولست بصدد التوقف عند هذا الانقسام فهو خارج موضوعنا.

نجح سلام عادل في توحيد الشيوعيين في حزب واحد. إنما يؤخذ عليه هو اعتبار أن ما تم كان بمثابة صفقة، وليس حلا مبدئياً، بين سلام عادل وجمال الحيدري وعامر عبد الله (أو بدون الأخير)، وإلا فكيف أصبح جمال الحيدري وعامر عبد الله عضوين في المكتب السياسي بتلك السرعة؟ ومن أجل إلقاء الضوء على هذه النقطة، يمكن الرجوع إلى ما كتبه سلام عادل في 26 كانون الثاني 1960 في جريدة "اتحاد الشعب" العلنية، في معرض توضيحه للظروف التي أدت إلى تغيير اسم الجريدة المركزية للحزب من "القاعدة" إلى "اتحاد الشعب"، حيث يذكر ما يلي: " ... فكان أن دخل ممثلو الحزب الشيوعي العراقي وممثلو منظمتي "راية الشغيلة" و"وحدة الشيوعيين" مفاوضات سادها جو مبدئي عملي تكللت..."

هناك إذن جانبان للمسالة أحدهما مبدئي والآخر عملي. المبدئي معروف، هو إدانة الانشقاق وتحميل المنشقين كامل المسؤولية عن ذلك، بلا لبس وغموض، وحل المنظمة. واللقاءات المطولة التي جرت بين سلام عادل وكوادر من منظمة "راية الشغيلة"، ولم تقتصر على مَن وردت أسماؤهم في أعلاه، كانت لإقناعهم بذلك، وليس لإطلاعهم على "صفقة". والعملي ليس لغزاً، فهي المرونة في الشؤون التنظيمية بما في ذلك الاتفاق على تركيبة المكتب السياسي واللجنة المركزية، وربما تغيير اسم الجريدة، بعد وحدة الحزب. ويذكر المؤرخ حنا بطاطو في هذا الصدد ما يلي:

- ولم يعد جمال الحيدري وجناحه إلى الحظيرة حتى 17 حزيران (يونيو) 1956، يوم تم التوصل إلى اتفاق ينص على تمثيل "وحدة الشيوعيين" و"راية الشغيلة" والحزب الشيوعي في اللجنة المركزية الموحدة الأولى بنسبة 1: 2: 8 على التوالي، على أن تتم الاختيارات في المستقبل، على أعلى المستويات وعلى مستوى كل الأجهزة الحزبية، "فقط" على أساس الكفاءة والصلابة [18].

وهكذا، فإذا كان الجانب المبدئي ستالينياً، بتقديس وحدة الحزب، باعتبارها "أسمى مبادئه"، على حساب إدانة النهج اليساري المغامر والسلوك البيروقراطي الفردي الذي كان لهما دور كبير في الانشقاق، فقد كان الجانب العملي اختراقاً للستالينية وتقاليدها في حزبنا في أسلوب "تصفية" المنظمات والكتل الانشقاقية. وبالتالي يمكن اعتبار ذلك مأثرة من مآثر الشهيد سلام عادل وكذلك الرفاق الذين ساهموا معه في تحقيق وحدة الحزب، آخذين بنظر الاعتبار في هذا التقويم أن ذلك حصل

[18] - حنا بطاطو. الكتاب الثالث، ص 15.

قبل نشر التقرير السري الذي قدمته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي إلى المؤتمر العشرين والذي يدين فيه عبادة الفرد ـ عبادة ستالين.

في آذار 1956، وأنا أضع إذني لصق الراديو لسماع إذاعة موسكو (كان سماع إذاعة موسكو ممنوعاً)، وإذا بها تذيع تقرير اللجنة المركزية السري، الذي تحدثت وسائل الأعلام عن وجوده قبل نشره. ومما سمعته، وما معناه، هو: " لقد كان نقد ستالين وكأنه نقد للاشتراكية، وبالتالي خيانة للوطن الاشتراكي. ولذلك كان هناك الكثير من الرفاق المخلصين الذين يتحسسون الأخطاء ولم ينتقدوها ... الخ". وبذلك وجدت حلاً للأزمة التي كنت أعاني منها. لقد فهمت بأن ممارسة النقد غير مجدية في ظروف معينة، وبالتالي لم يكن صحيحاً ممارسة النقد الأصولي تجاه قيادة (باسم) الفتية ولو لم يحصل ذلك النقد لما حصل الانشقاق!

بعد أيام قليلة وصلنا باقر إبراهيم للمرة الثانية، فأخبرته بما توصلت إليه، فطلب مني أن أكتب ذلك في رسالة للحزب. وقد فعلت ذالك. لم نناقش يوماً، أنا وباقر، تحفظاتي التي أشرت إليها حول طريقة حل منظمة "راية الشغيلة". في هذه السفرة سلمني باقر خلية فلاحية تتكون من خمسة أو ستة رفاق في ريف (بساتين) كربلاء. تطرق الرفاق في الاجتماع معهم إلى "راية الشغيلة" وتهجم بعضهم على المنظمة مستخدمين كل الألفاظ القبيحة الوارد ة في بيان الراية وأدبيات الحزب، متظاهرين بعدم معرفتهم بيّ. نظرت إلى باقر باستياء فتحدث باقر مخففاً من غلوائهم. ولم يكرروا ذلك لاحقاً، فقد أصبحت مسؤولهم الحزبي.

بعد فترة وجيزة انضممت إلى لجنة محلية الحلة وكان معي في اللجنة حمد الله مرتضى وعنصر آخر، رحل من عندنا بعد أول اجتماع، وكان باقر سكرتير اللجنة. ولكن لماذا ربطت منظمة كربلاء بالحلة وليس بالنجف، خاصة وإن النجف وكربلاء كانتا محافظة واحدة آنذاك؟ أعتقد إن الهدف من ذلك كان إدماج تنظيمات "راية الشغيلة" بالحزب. وهنا من الضروري الإشارة إلى أن الحزب احتضن رفاق المنظمة، انطلاقا من نهج تعزيز وحدة الحزب.

الدروس المستخلصة

إذا تحدثنا بعقلية اليوم نجد أن الحياة تشير إلى أن الأحزاب الشيوعية كانت تفتقر إلى الديمقراطية بالرغم من أن أنظمتها الداخلية تنص على أن بناء الحزب يقوم على أساس المركزية الديمقراطية. فالمركزية كانت طاغية والديمقراطية ضئيلة. وكانت الستالينية ملزمة لها نهجا وفكراً، وذلك أحد الأسباب الهامة للانقسامات في تلك الأحزاب، وفي نفس الوقت سبب المعالجات الخاطئة لها. بل وأكثر من ذلك أن هذه الأحزاب لم تتحول إلى أحزاب ديمقراطية، حتى بعد إدانة الستالينية، لأنها حرصت على أن تبقى أمينة لنظرية وطبيعة وأهداف "حزب من طراز جديد"

فانهارت الأنظمة الشمولية التي بنتها في الاتحاد السوفيتي واوربا الشرقية. لقد أجرى الكثير من تلك الأحزاب تغييرات جذرية في بنيتها وطبيعتها وأهدافها لتتحول إلى أحزاب ديمقراطية تؤمن بالتعددية وبتداول السلطة السلمي وتنتخب هيئاتها القيادية بحرية تامة.

أما الأحزاب غير الحاكمة فدخلت في أزمة وجود (تبقى أم لا تبقى). صحيح أن المثل والقيم والأهداف النبيلة للاشتراكية (حرية، رفاهية، عدالة اجتماعية، مساواة) تعبر عن الحاجات والطموحات العميقة لشغيلة اليد والفكر، إلا أن تحقيق تلك الأهداف لا تتم في الأفق المنظور، وبالتالي فإن دَمقرطة هذه الأحزاب لنفسها ولبرامجها ولأساليب عملها وخطابها السياسي بما ينسجم ومتطلبات التطور التاريخي لبلدانها، كفيل بديمومتها وعدم تهميشها، بل ويمكن أن يكون لها شأن كبير في الحياة السياسية والاجتماعية في بلدانها، كما هو الحال بالنسبة للكثير من الأحزاب الشيوعية السابقة في اوربا الشرقية. وهذا ما سعى ويسعى إليه الحزب الشيوعي العراقي أيضاً.

4
العام الأصعب في العهد الملكي المباد

أعتقد أن عام 1955 كان أصعب وأقسى عام مر على العراق والحركة الوطنية فيه، بكل أحزابها السياسية، والمنظمات الديمقرطية والمهنية في العهد الملكي المباد. وأحتفظُ في هذا العام بالذات، بذكريات شخصية هامة، بعضها قاس وبعضها الآخر طريف وأخرى قد تدعو إلى التأمل. ولكي أستعيد هذه الذكريات بشكل مناسب، لابد من إلقاء الضوء على الأوضاع السياسية التي أحاطت بها ولو بتركيز شديد.

في صيف عام 1954 أصبح نوري السعيد رئيساً للوزراء من جديد. وقد أصدر من 22 آب إلى 12 تشرين الأول جملة من المراسيم التعسفية التي اشتهرت باسم (المراسيم السعيدية). كانت هذه المراسيم معادية لأبسط الحقوق الديمقراطية ومخالفة بوقاحة لدستور البلاد. وكانت باكورة هذه المراسيم مرسوم حل المجلس النيابي، الذي لم يعقد سوى جلسة واحدة انتخب فيها رئيسه. وهذا المجلس، هو المجلس الوحيد الذي أُنتخب بقدر من الحرية في العهد الملكي، في عهد وزارة أرشد العمري. وقد ضّم هذا المجلس أحد عشر نائباً من الجبهة الوطنية. ولم يحظر نوري السعيد نشاط الأحزاب ألمجازة فحسب، بل حلّ جميع الجمعيات المجازة بمختلف أنواعها وأغراضها أيضاً. وألغى امتيازات جميع الصحف، وأجاز فقط ثلاث صحف موالية للحكومة. وألزم نوري السعيد السجناء الشيوعيين الذين ينهون محكومياتهم بإعطاء براءة من الشيوعية والتعهد بخدمة الملك وإلا ستسقط عنهم الجنسية العراقية. وأقدمت حكومته فعلا على إسقاط الجنسية عن عدد من الشيوعيين والديمقراطيين. وكذلك عن المحاميين المشهورين توفيق منير نائب نقيب نقابة المحامين وكامل القزانجي، وتم تسفيرهما إلى تركيا، كما أسقطت

الجنسية عن عدد من الوطنيين ممن كانوا خارج البلاد وهم عزيز شريف وصفاء الحافظ وكاظم السماوي وعدنان الراوي.

وبادرت حكومة نوري السعيد بشن حملة اعتقالات واسعة في صفوف القوى الوطنية. وفصل عدد كبير من أساتذة الجامعات والمدرسين والمعلمين والموظفين والطلبة ذوي الميول الوطنية والديمقراطية وحجزوا في معسكرات تحت عنوان أداء الخدمة العسكرية. وباتت (البراءة) من الشيوعية مطلوبة للقبول في الكليات حتى ولو كان المرء قومياً. وأضحى جلياً بأن كل هذه الإجراءات هي مقدمة وتمهيد لربط العراق بالأحلاف العسكرية الامبريالية. وعلى اثر تلك الإجراءات بدأت الحركة الوطنية الديمقراطية تعاني من التراجع. وهذا ما ميّز عام 1955.

أول محكمة وأول محكومية

في سياق حملة نوري السعيد المعادية للقوى الوطنية بُلغنا، في بداية 1955، الرفيق كاظم حبيب وأنا، وكان آنذاك في السنة النهائية من الإعدادية، من قبل محكمة جزاء كربلاء بموعد محاكمتنا وفقاً لمادة تخص المشردين!!. أقنعت مسؤولي الحزبي الرفيق حزام عيّال بأن نهتف في المحكمة احتجاجا، لاسيما وأن المحاكمة تجري بدون أدلة مادية. وبعد مناقشة المقترح اتفقنا أن يتم التنفيذ في حالة صدور حكم علينا من ستة أشهر فما فوق، وفي حالة حضور ما لا يقل عن أربعين شخصا جلسة المحاكمةً. وقد طلب مني حزام أن أبلغ كاظم بذلك، إذ ليس لديه موعد معه قبل المحاكمة لكي يبلغه بنفسه. في يوم المحاكمة حضر حوالي 40 شخصاً، فاتفقنا، كاظم وأنا، بان أحد الشروط بات متحققا. حكمت علينا المحكمة بالسجن لمدة ستة أشهر مع وقف التنفيذ، على أن يطلق سراحنا بكفالة قدرها 100 دينار. وبسبب ثقل سمعي، ولرغبتي في تحدي طغيان الحكومة وتعسفها، لم يصل إلى سمعي سوى "ستة أشهر سجن" فهتفت: "تسقط المحاكم الصّورية، يسقط الحلف التركي ـ الباكستاني". فالتفت كاظم نحوي مندهشا، مدركاً الالتباس الذي حصل، حاسماً موقفه بالتضامن معي رافعاً صوته هو الآخر بالهتاف. أحاطنا رجال الأمن وأغلقوا فمي وأخذوا يضربونني في بطني وخاصرتي بطريقة لا يرصدها الحاضرون. قادونا إلى غرفة التحقيقات وانهالوا عليَّ ضرباً وركلاً وشتماً. وكان كاظم واقفاً محمّر الوجه ينظر إليهم بغضب.

أخذونا إلى الموقف في غرفة لوحدنا. كان كاظم حزيناً لأنهم ضربوني ولم يضربوه! فما كان مني إلا أن أواسيه بالقول: "لا تبتئس سيأتي يومك". وصدق قولي فقد تعرض كاظم، لاحقاً، لأكثر من مرة للتعذيب القاسي في حياته.

تعرض كاظم لضغوط كبيرة لكي يتخلى عن الطريق الذي اختاره بإعطائه (البراءة). ووُعد من قبل عائلته بإرساله إلى أمريكا ليلتحق بأخيه الأكبر، الذي كان يدرس

هناك، ولكنه رفض ذلك بشكل حاسم. في التوقيف استغنيت، بطلب من كاظم، عن الأكل الذي كان يُرسل من بيتنا، لأن ما كان يرسل له يكفينا ويزيد. وما كان يرسل لي كان بسيطاً. ولأول مرة، كنت أتناول طعاماً بتلك الجودة واللَّذة. كنت أكل وأهجو البرجوازية، لأغيظ كاظم، مازحاً.

قرروا تنفيذ الحكم (ستة أشهر) بحقنا. وتقرر تسفيرنا إلى سجن الحلة باعتباره سجناً لمنطقة الفرات الأوسط. عند تسفيرنا إلى سجن الحلة، خرج جمع من الطلبة مع بعض الأهالي ليلقوا علينا نظرة وداع في محطة القطار، وكانت جدتي معهم تقّوي معنوياتي وقد عبرت عن ذلك بقولها وعلى رؤوس الأشهاد (بالعربان ولا بالتربان) وكان كاظم يغبطني على ذلك، لعدم وجود من يتعاطف مع اتجاهه السياسي في عائلته.

في سجن الحلة أدخلونا المحجر. وكانت هناك مجموعة من السجناء الشباب من النجف. قضينا شهراً وبضعة أيام، ورُحلنا عائدين إلى كربلاء. عند وصولنا علمنا بأنهم ينوون إرسالنا إلى معسكر الشعيبة، وقد فتح هذا المعسكر لحجز الطلبة السياسيين المفصولين، تحت عنوان أداء الخدمة العسكرية. بناء على هذه المعلومة أرسلت خبراً إلى والدي بان يجلب لي دفتر الخدمة العسكرية وينتظرني في باب مديرية التجنيد صباح اليوم التالي. وهكذا أخذت الدفتر عند دخولي المديرية.

جاسم الحلوائي (في اليسار) وكاظم حبيب في سجن الحلة المركزي أخذت الصورة في محجر السجن بتاريخ 26 شباط 1955. من أرشيف كاظم حبيب

ألقى علينا أحد الضباط محاضرة، وأنهاها بأن خيّرنا، بين إعطاء (البراءة) ومن ثم يمكننا العودة إلى المدرسة، أو إلحاقنا بالجيش لأداء الخدمة العسكرية. وقد فوجئ عندما عرف بأنني مسّرح من الجيش لانهائي الخدمة العسكرية. أخذ الضابط دفتري وأخبرني بأني سأستلمه من الشرطة. بعد عودتنا إلى مركز الشرطة، بُلِّغ كاظم بأنه سيسفر إلى الشعيبة، وبلغت أنا بتدبير كفيل لإطلاق سراحي بكفالة. وفي الحال تكفلني والدي وأطلق سراحي، بعد أن أعادوا لي دفتر الخدمة. ودّعت كاظم وكان فرحاً لإطلاق سراحي وكانت معنوياته عالية.علق الحاج حبيب (والد كاظم) على إطلاق سراحي بالقول: "آني أصرف فلوس والنتيجة يطلع ابن الحلوائي وابني يبقى بالسجنً".

عرفنا بعدئذٍ بان والد كاظم أعطى رشاوى لإنقاذ ابنه ولكن الطبيعة القانونية للدعوة (مشتركة) استدعت شمولي بالنتائج الإيجابية، علما بان والد كاظم كان غنياً فهو مالك لمصانع ثلج ومطاحن. بعد بضعة أسابيع قُدمنا إلى المحكمة حول الهتافات بقضيتين هما الإخلال بالأمن العام وإهانة المحكمة. فحكمت بموجب الأولى ثلاثة

أشهر والثانية شهراً واحداً على أن تنفذ بالتعاقب، وحكم على كاظم لشهر واحد على القضية الثانية فقط. وبما أنه سبق وأن قضى أكثر من شهر في السجن فقد أعيد إلى الشعيبة، وهكذا لم تذهب فلوس الحاج حبيب هباءً. أما أنا فقد تم تسفيري إلى سجن الحلة.

وجها لوجه مع الجلاد عبد الجبار أيوب

كان عبد الجبار أيوب، المسؤول المباشر الأول عن مجزرة سجن الموقف في بغداد في حزيران عام 1953، والتي راح ضحيتها ثمانية سجناء وثمانون جريحا. والمعروف عن عبد الجبار أيوب بأنه عدو الشيوعية رقم أثنين في العراق، باعتبار أن نوري السعيد كان رقم واحد. وقد استلم للتو مديرية سجن الحلة. قال لي: "يبين عليك عاقل وسأضعك في السجن العادي. وإذا تحركت أي حركة سياسية، فستندم على اليوم الذي ولدتك أمك فيه".

لم أجبه، ولكن " لم أدعه يرى الخوف في عيني". بعد 12 يوماً أخذوني إليه ثانية مع فراشي وحقيبتي. أمر سجاناً بتفتيشهما، فلم يجد شيئا، فأمره بوضعي في السجن الانفرادي. ولم يخبرني بالسبب! يقع هذا السجن الانفرادي داخل السجن الكبير، وهو مخصص ومصمم للمحكومين بالإعدام ويتكون من غرفتين ومقصلة ومرحاض وحنفية ماء على حوض صغير. وبعد بضعة أيام عشتها وحيداً في الانفرادي، وضعوا معي رجل مسلول كان يبصق الدم على حافة الحوض ليجلب انتباهي ولكي أرفض وجوده معي، عسى أن تتحقق رغبته بتحويله إلى المستشفى! قررت أن أتمرد بعد رؤيتي الدم بصرف النظر عن العواقب وبعد مرور حوالي ساعة واحدة من وصول المريض.أخذت أضرب الباب بيدي وارفسها بقدمي وكان الوقت بعد الدوام. وعند وصول عدد من السجانين قلت لهم: "الرجل مريض بالسل وسأصاب بالعدوى بمرض السل أيضاً، فأما أنا هنا، وأما هو، وحالا!". هدأوني وأخبروني بأنهم سيتصلون بالمدير فوراً. بعد حوالي ربع ساعة نقلوا الرجل المريض إلى مكان آخر. فتنفست الصعداء.

في أول مواجهة لي في السجن أخبرت رسولاً من المنظمة بأنني أريد أن أضرب عن الطعام احتجاجاً على وجودي في السجن الانفرادي. أجابني الرسول بأنه يحمل إليّ توصية بأن أتجنب الاصطدام بمدير السجن عبد الجبار أيوب، وأن محكوميتي قصيرة ويجب أن أقضيها بسلام. لم يتركني مدير السجن بسلام، فقد وضع معي رجل مختل عقلياً اسمه شيخ عمران. كان رجلاً قصير القامة ذي عينين شهلاوتين وواسعتين. وتوحي نظراته، من الوهلة الأولى، بأن الرجل غير سليم عقليا. لم يكن عدوانياً وكل ما يسببه من إزعاج هو أنه يشتم أحياناً، وبدون مبرر أو سابق إنذار، كل من ماركس وانجلس ولينين وستالين وفهد. وفي كل مرة يقوم بذلك، تتولد لدي رغبة بأن أصفعه على فمه فأتذكر توصية الحزب، فأكظم غيظي. في أحد الأيام

هددته بأنني سأحبسه في الغرفة إذا ما كرر شتائمه وكنت جاداً في تهديدي، فكفَ عن ذلك.

كنت قد استأنفت الحكم لدى محكمة استئناف الحلة. فاستدعتني المحكمة مرتين، وفي المرتين لم يُحضروا كاظم شريكي في القضية. ولأن التأجيلين لم يكونا بسببي، فكان لي الحق في أن اطلب إطلاق سراحي بكفالة. وفعلاً قدمت الطلب ووافقت المحكمة على إطلاق سراحي بكفالة قدرها 100 دينار. عند وصولي إلى كربلاء مع الشرطي الذي كان يحرسني، صادفت أحد جيراننا في الطريق، فرافقنا وتكفلني. كان الوقت يقارب المغرب ولم يكن في مركز الشرطة سوى المفوض الخفر. وهذا يعني بان جهاز الأمن لم يكن لديه علم باطلا ق سراحي بكفالة، إنهم يعرفون بأنني سجين. فأردت أن أتحايل عليهم وأدخل في ظنهم بأني هارب من السجن. فذهبت بسرعة إلى البيت لأخبرهم بإطلاق سراحي، ومن ثم ذهبت مسرعاً إلى مكان تواجد رجالات الأمن، أمام باب صحن الحسين باتجاه شارع علي الأكبر. مشيت أمامهم ففوجئوا ولكن لم يعترضوا سبيلي، خلافاً لرغبتي. كنت أريد أن أخيب أملهم وأضحك على عقولهم!!

بعد أسبوعين وقفنا، كاظم حبيب وأنا، أمام محكمة الاستئناف، التي أكدت حكم محكمة الجزاء، فافترقنا، كاظم وأنا، و لم نلتق ثانية إلا بعد حوالي ثلاث سنوات وذلك في ربيع 1958، حيث وصل كاظم إلى سجن بعقوبة ضمن حوالي عشرة رفاق من المبعدين في بدرة محكومين لمدة شهرين لتحريرهم مجلة خاصة بالمبعدين، عثرت الشرطة عليها خلال حملة تفتيش تعرضت لها دورهم. وكان رئيس تحريرها قد وضع أسماءهم الصريحة،خطأ، بجانب أسمائهم الحزبية ؟! وقد زجوا في الجناح الذي فيه رفاقنا اليهود، فلم نتمكن من مشاهدتهم. وفي أحد الأيام وكنت خارج الجناح لسبب ما، وإذا بي وجها لوجه مع كاظم حبيب، فتعانقنا بحرارة أدهشت السجانين؛ فقد كان ذلك اللقاء بعد افتراقنا لمدة ثلاث سنوات غنية بالتجارب والعبر. ولم يتسن لنا الحديث عنها في ذلك اللقاء العابر.

عدت إلى السجن الانفرادي بجانب "المعتوه" شيخ عمران. عندما بلغت بتأريخ التخلية (موعد خروجي من السجن) لم تحسب إدارة السجن، سهواً، الأيام الـ 13 التي كنت فيها مطلق السراح بكفالة من قبل محكمة الاستئناف. ولأن شيخ عمران كان يعرف التأريخ الصحيح للتخلية، فقد هددني بإخبار الدائرة! خيّرته بين أمرين، أما أن يسكت وسأعطيه كلما سيتبقى عندي من سكر وشاي ومعلبات، أو أن يخبر الإدارة وعند ذاك سأخنقه! ففضّل الخيار الأول. ولم أكن جدياً في تهديدي بالطبع. إن تجربة معايشتي لعناصر متنوعة من الموقوفين العاديين خلال فترات توقيفي علمتني، إلى حد ما، اختيار الأسلوب المناسب للتعامل مع كل صنف منهم على حدة، حفاظاً على كرامتي ودفاعاً عن نفسي.

في يوم إطلاق سراحي قادوني إلى المدير فقال لي: "اترك الشيوعية فذلك أفضل لك، وإلا فإن مصيرك الحتمي هو العودة إلى هنا، وعند ذاك سأجبرك على تنظيف المراحيض" ([19] *). قلت له: "أنا أنهيت محكوميتي وسيطلق سراحي اليوم، وليس محكوم عليّ وعائد إلى السجن".

خرجت من السجن فرحاً وكلي أمل بلقاء حميمي مع الأهل والأصدقاء. عند وصولي إلى البيت. لم ألاحظ في الوجوه ما توقعته بل بالعكس، فالوجوه كانت واجمة وعرفت بأن والدي قد مات في اليوم الذي سبق إطلاق سراحي عن عمر لا يتجاوز الخمسين عاماً. لقد فوجئت وصدمت ولم أشعر تماما بفقدانه إلا بعد أن ذهبت إلى محل عملنا، فجلست وحدي في المحل وبكيته كثيراً. وقد توفيت والدتي قبله بستة أشهر بسرطان الرحم. لقد طلبت إدارة مستشفى الراهبات التي كانت ترقد فيه مبلغا من المال لإجراء عملية استئصال الرحم. ولكن العائلة لم تتمكن من تدبير ذلك المبلغ، وبالتالي توفيت والدتي عن عمر تجاوز الأربعين بقليل مخلفة وراءها سبعة أولاد وبنتين الأولى أكبر مني والثانية تسلسلها السابع. وحصل موقف لن أنساه خلال وفاة والدتي. لم أكن أتظاهر بالبكاء وهي على فراش الموت لكي لا تنهار معنويات إخوتي، فقد كنت الأخ الأكبر، وكانوا يحدقون في عيني خائفين وحائرين وكنت أتحاشى نظراتهم وأكبت حزني. وعندما وصل أخي مجيد، إثر البرقية التي أرسلناها له إلى الديوانية، حيث كان يؤدي خدمة العلم، وشاهد حالة أمي انفجر بالبكاء فانفجرنا جميعاً بالبكاء والنحيب.

لم أتذكر بأني بكيت ونحبت بهذه الحرقة لاحقاً، في حياتي، سوى مرتين: الأولى عندما خرجت من العراق بجواز سفر مزّور إلى الكويت في كانون الأول 1979. فعند توديع الذين رافقوني، بعد بقائهم في الكويت بضعة أيام، وهم عائدون إلى الوطن ثانية على الحدود الكويتية ـ العراقية ، لم أتمكن من السيطرة على نفسي، فأخذت ابكي وأنحب، والآخرون يواسونني وأنا جالس على الأرض. كنت أخشى أن لا أرى العراق ثانية. كان من بين الحضور عدنان ديبس وخضير عباس السماوي، وكان الأخير موجوداً في الكويت آنذاك ورافقني إلى الحدود لتوديع الآخرين.. أما المرة الثانية فكانت قبل سنتين، عشية الحرب على العراق، وأنا أفكر بمدى التدمير والضيم الذي لحق وسيلحق بهذا الشعب والوطن المغلوب على أمره، وكنت وحدي في تلك اللحظة في البيت، وإذا بيّ أشاهد وجه امرأة عراقية، تلبس الملابس التقليدية (العباءة والشيلة)، على شاشة التلفاز، وترفع يدها للسماء شاكية وداعية، فتجسد لي كل القهر والضيم الذي لحق و الذي سيلحق بالعراق فانفجرت.

الاصطدام بمدير شرطة كربلاء جواد أحمد

[19] ـ * حكمت عليه محكمة الثورة، بعد ثورة 14 تموز بالإعدام. ونفذ الحكم فيه.

في ربيع 1955 وصل إلى كربلاء مدير شرطة جديد اسمه جواد أحمد. كان، كما أشيع في حينه، يعرف نوري السعيد شخصياً، وقد وعده بتصفية الشيوعية في كربلاء. وفعلا تمكن من استحصال (البراءة) من الشيوعيين المكشوفين الذين كانوا متواجدين آنذاك في المدينة. وقد استدعاني المدير الجديد وهددني وأمر باعتقالي. وفي اليوم التالي جاء عمي حسن الحلوائي لزيارة مدير الشرطة ليتوسط من أجل إطلاق سراحي. كان عمي من برجوازية المدينة ولديه علاقات جيدة مع المسؤولين والموظفين الكبار فيها. وكثيراً ما كان يدعوهم إلى بيته ليشربوا الخمر ويأكلوا ما لذ وطاب. لم أعرف ما دار بين عمي ومدير الشرطة. الذي حصل، أن عمي جاء فاغراً فاه طالباً مني، بحسم، أن أعطي (براءة) وسأخرج حالاً، وإلا فإنه لن يشاهد وجهي مرة أخرى. فرفضت طلبه. وفعلاً لم ير عمي وجهي إلا بعد ثورة 14 تموز. كان محبطاً جداً، ولم يعش طويلاً وما ت بمرض تشمع الكبد. أطلق مدير الشرطة سراحي مانحاً إياي مهلة بضعة أيام لمراجعة نفسي، وإلا سيعرف كيف ينتزع (البراءة) مني.

بعد بضعة أيام استدعاني مدير الشرطة مجدداً. وعند وصولي إلى باب مكتبه وجدت كل شخصيات الحزب الوطني الديمقرطي في كربلاء ينتظرون هناك. عندما دخلنا عليه ألقى علينا المدير محاضرة ضد الشيوعية وأنصار السلام، طالباً منّا الإخلاص للوطن والحكومة التي تسهر على مصلحتنا، وأردف قائلاً: إن دليل ذلك الإخلاص هو إعطاء (البراءة). بعد ذلك طلب مدير الشرطة منّا أن نقف في جهة واحدة من مكتبه. ومن ثم أمر الذين يريدون أن يعطوا (البراءة) بأن يتحولوا إلى الجهة المقابلة، وأمرني بـ" لطف " أن أبقى في مكاني، محاولاً الإيحاء للآخرين بأن موقفي مزّيف. وقد أسمعني الذين كانوا يقفون بالقرب مني همساً ما يعني اكتشفناك؟! (ها يابه!)، وتحول الجميع إلى الجهة الأخرى.

عندما وجد مدير الشرطة بان حيلته لم تنطل عليّ ولم تؤثر سلباً على معنوياتي، أخرج الجميع من المكتب ليقفوا في الباب، التي بقيت مفتوحة، متفرجين. طلب المدير مني أن اشتم لينين، فرفضت. طلب مني أن أفتح يدي لكي يضربني بعصاه، فرفضت. فغضب بشدَة، فاخذ يضربني بشكل عشوائي متجنباً رأسي. وكنت أتحرك في الغرفة كنوع من الدفاع عن النفس. ولم أعبر عن آلامي (لم أقل آخ) . طلب مني أن أشتم الإمام الحسين، أن أشتم يزيد بن معاوية ، فرفضت، فصاح بصوت عالٍ: "أنظروا... أنظروا... إنه يشتم الحسين ولكن لا يشتم لينبن؟! (شوفو...شوفو سّب الحسين وماسّب لينين). فقلت بصوت عالٍ بحيث يسمعني الذين يقفون بالباب: "أنا لا أشتم احداً بالقسر حتى لو كان ذلك يزيد".

فجنَ جنونه، فأخذ يضربني بشدة أكبر. كان المدير ضخم الجثة، فتعب وأخذ يلهث وينضح عرقاً. وعندما مست إحدى ضرباته الحائط انكسرت عصاه. فكفّ عن الضرب، طالباً إخراجي لأنه لا يريد أن يرى وجهي؟! بعد حوالي أسبوعين قدمت

مذكرة جديدة للقاضي طالبا إما تقديمي للمحاكمة أو إطلاق سراحي بكفالة، وإلا سأضرب عن الطعام حتى تحقيق أحد المطلبين. أطلق سراحي بكفالة في اليوم التالي لتقديم الطلب.

مع الفلاحين في الموقف

في ربيع 1955 جرى تحري من قبل أفراد الأمن والشرطة في محل عملنا، وقد ادعى أحد أفراد الأمن بأنه عثر على رزمة منشورات سرية مخفية في إحدى زوايا المحل. وبناءً على ذلك اعتقلوني. تعرضت إلى الضرب وأودعت الموقف. عرفت بأن الرزمة كانت تحوي خمسة أعداد من جريدة "راية الشغيلة"، لا يوجد بينها عددين متشابهين. وُجهت إليّ تهمة وفق المادة 89 ـ آ، سيئة الصيت، والتي تتعلق بالنشاط الشيوعي.

كنت معزولاً في الموقف. وفي أحد الأيام أدخلوا حوالي عشرين فلاحاً إلى الموقف معي ــ لعدم وجود مكان آخر لتوقيفهم ــ لاختلافهم مع الملاك حول قسمة الحاصلات. كان جميع الفلاحين أميين، وكبيرهم رجلً يناهز الخمسين عاماً اسمه شبيب. كان وقوراً وذكياً وجريئاً، متوسط القامة، ذا لحية بيضاء. كنت أتحدث معهم، خاصة في الأماسي ، بكل ما من شأنه أن يرفع من مستوى وعيهم وأجيب على أسئلتهم بصدق وبساطة. وقد كسبت احترامهم من اليوم الأول وتعلمت منهم أنا أيضاً، طبيعة العلاقات الزراعية في منطقتهم وطريقة التعامل مع الفلاحين. فعلى سبيل المثال لا الحصر عرفت أن الفلاحين لا يعجبهم تقليد لهجتهم عند التحدث إليهم من قبل ابن المدينة إذ يعتبرون ذلك بمثابة سخرية منهم. إنهم يفهمون لهجة ابن المدينة بشكل جيد، وابن المدينة يعرف ذلك، فما هو المبرر لتقليد لهجتهم؟

في إحدى الأماسي مر مدير الشرطة أمام باب الموقف، توقف عندما شاهدني، وقال لي: "ثقفهم...ثقفهم !! فرصة جيدة، أليس كذلك؟". وقبل أن أجيب راح يتهجم عليّ، ويحذر الفلاحين من أفكاري الهدّامة. وكنت أهِم بالدفاع عن نفسي عندما انبرى شبيب، مقاطعاً المدير، قائلا بغضب: "لا تحَجي (لا تتكلم) على جاسم...جاسم خوش ولد، وأحنا كلنا نحترمه". لقد أدهشتني جرأته، فقد التفت إلى مدير الشرطة ناظراً إليه بشماتة ولسان حالي يقول: "أكلها يا ابن ال..." ولم أجد ضرورة لأنبس ببنت شفة. أما مدير الشرطة فانصرف مدارياً خيبة أمله بهمهمات تهديدية.

كان الفلاحون يشعرون بالظلم لتوقيفهم. وجاءت أحاديثي لتعمق هذا الشعور ولتحوله إلى ثورة غضب. فقرروا الإضراب عن الطعام مطالبين بإطلاق سراحهم. وبالرغم من أنني بصرتهم بصعوبة ذلك، وبالآثار السلبية لفشل الإضراب، إلا أنهم أصروا على خوض هذه التجربة. أضرب الفلاحون، ولم يتمكنوا من الاستمرار بذلك

حتى ولا 24 ساعة. وقد شمت شبيب بهم لعدم سماعهم نصيحتي القاضية بعدم الإقدام على الإضراب.

في حملة مدير شرطة كربلاء لإسقاط الشيوعيين، تمكن الشيوعي حسن جليل من الإفلات. والقي القبض عليه عندما كنت في التوقيف مع الفلاحين. جُلب حسن مساءاً وقد تعرض لتعذيب قاس. وكان يصرخ، وكانت جلبة التعذيب والصراخ تصلنا. لقد غضب الفلاحون أيما غضب، خاصة شبيب الذي كان الشرر يتطاير من عينيه. بعد بضعة أيام وضع حسن معنا بعد أن خفت آثار التعذيب عليه، فصادق هو الآخر الفلاحين الذين أطلق سراحهم بعد حوالي أسبوعين من التوقيف. كان الملاك يتصّور بأنه أدخلهم دورة تأديبية، ولم يعرف بأنهم دخلوا دورة تثقيفية. بعد ثورة 14 تموز، تأسست جمعية فلاحية في منطقة الفلاحين المذكورين وانتخبوا شبيب رئيساً لها. وكان شبيب أول المنتمين إلى الحزب في تلك المنطقة.

في سجن بعقوبة

بقيت في التوقيف ولم يطلق سراحي بكفالة بالرغم من جهودي الحثيثة لتحقيق ذلك. كانت خطة الأجهزة الأمنية واضحة لي، وهي تلفيق تهمة لي لكي أحكم وفق المادة 89 آ، لتتوفر فرصة إرسالي إلى سجن بعقوبة، المخصص للشيوعيين، ليتكفل مدير السجن الجلاد والسيء الصيت علي زين العابدين انتزاع (البراءة) مني. فقد أجبر هذا الجلاد عشرات السجناء السياسيين وعدداً كبيراً من المرحلين إلي سجنه من مختلف مناطق العراق على تقديم (البراءة). وأصبح الخروج من سجنه أمراً ممكناً بانتهاء المحكومية أو إعطاء البراءة، أما الدخول فقد غدا صعباً جداً لأنه كان ينتزع "البراءة" من أي سجين جديد يصل السجن، خاصة عام 1955 عندما كان في عزّ غروره، وحيث كانت الحركة الوطنية في ذروة انتكاستها. وهذا ما يفسر عدم تعرضي لتعذيب قاس عند إلقاء القبض عليّ، فقد كانت السلطات المحلية في كربلاء تأمل بإسقاطي سياسيا على يد مدير سجن بعقوبة. وكان يتفق معي في هذا الاستنتاج كل المناضلين الذين مروا بالموقف آنذاك. إنهم كانوا يعبرون لي بصراحة بأنني أمام تجربة جديدة وامتحان صعب، وكانوا يرفعون معنوياتي. ولأن الوصول إلى بعقوبة يمر بسجن الحلة فقد كان همي الأكبر والذي لم أبح به لأحد هو ليس علي زين العابدين، بل عبد الجبار أيوب مدير سجن الحلة، والذي هددني بعقاب عسير إن عدت ثانية إلى السجن، كما ذكرت سابقاً.

بعد أكثر من شهر في التوقيف مثلت أمام المحكمة. وأكدت في دفاعي، بأن الرزمة لا تعود لي، وأن التهمة ملفقة من قبل الأمن. وناقشت التهمة من الزاوية القانونية، فقلت: "إن عدم تشابه نسخ الجرائد التي يدعون بأنهم عثروا عليها عندي (لو افترضنا جدلاً بأنها تعود لي)، فإنها لا توفر القصد الجنائي، فقد تكون الجرائد لمجرد الإطلاع وليس للتوزيع. فالاطلاع لا يعد جريمة حسب نص القانون، وبالتالي

لا يوجد مسوغ قانوني لمعاقبتي. وأطلب براءتي من التهمة. وحكمت المحكمة عليّ بالسجن مدة ثلاثة أشهر على أن تحسب لي فترة توقيفي.

سُفرت في اليوم التالي إلى سجن الحلة، لكي أسفر من هناك إلى سجن بعقوبة الذي كان يرسل إليه كافة الشيوعيين المحكومين من جميع أنحاء العراق. وفي الطريق إلى السجن كنت أفكر، وفي الحقيقة قبل ذلك أيضاً، بلقائي مع المجرم عبد الجبار أيوب وأتذكر تهديده الإجرامي. فلا أتوقع سوى نتيجة دراماتيكية إن لم تكن تراجيدية. وأخيرا وطّنت نفسي على الأمر. وصلت إلى تلك البوابة السوداء الكبيرة لسجن الحلة، فشعرت بالانقباض في نفسي. دخلت إلى مكتب إدارة السجن ولاحظت بعض الجلبة في الإدارة بين العاملين في المكتب، وغالبيتهم من السجناء العاديين. تصورت أن المدير قد غادر السجن مبكراً. فرحت في داخلي متذكراً المثل العراقي (منا لباچر100 عمامة تنگّلب). وكنت أعرف أحد الكتبة فاستفسرت منه: "أين المدير؟

"انتقل". قالها وعاد بسرعة إلى عمله. طلبت منه أن يعيد ما قاله، وأنا بين مصّدق أذني ومكذبها. كرر ما قاله وأضاف: "انتقل اليوم". لم أتمكن من أن أصف فرحتي في تلك اللحظة. فقد أحسست بأن الدنيا أخذت تتسع وعادت كما أعرفها بلا حدود. فلا شيء " ثابت" فيها سوى الحركة. شعرت، وبدون مبالغة، وكأني قد وُلدت من جديد!

في اليوم التالي لوصولي إلى سجن الحلة رُحلت إلى سجن بعقوبة عبر موقف السراي في بغداد. كان هناك جمع غفير من رفاق الحزب في الموقف، ولم يكن يوجد بينهم أحد من منظمة "راية الشغيلة". وكان صاحب الحميري بارزاً بين الموقوفين. كانت الأخبار التي لديهم عن سجن بعقوبة مُحبطة. فجميع الذين كانوا يرسلون إلى سجن بعقوبة، في تلك الفترة تحديداً، كانوا يعودون بعد أن ينتزع علي زين العابدين (البراءة) منهم. لذلك كان المرء يقرأ الأسى في عيون المودعين.

سفرونا من موقف السراي إلى سجن بعقوبة بسيارة تاكسي. كان معي اثنان آخران، أحدهم الرفيق فاتح رسول، وهو من أربيل والآخر عودة، لا أتذكر اسم أبيه، من الديوانية. كنا نتحاشى النظر في وجوه بعضنا البعض خشية التقاء نظراتنا وافتضاح الخوف الذي في داخلنا. كنا وكأننا مساقون إلى المقصلة!! في الطريق أكلت قطعة فاكهة من التي أعطاها لنا الرفاق في موقف السراي. بعد فترة وجيزة تقيأتها، فندمت لأكلها لأنها فضحت قلقي.

دخلنا سجن بعقوبة بعد انتهاء الدوام. استقبلنا السجانون، واقفين بصفين متقاربين، بالضرب والركل والشتم وبتهديدات فظيعة، تتخللها نصيحة بتقديمنا "البراءة" باكراً قبل أن يأتي المدير، لكي نوفر على أنفسنا عناء التعذيب. جاء

المأمور بدلاً من المدير، بعد أن ألبسونا ملابس السجن، أخذوا ملابسنا وتركوا لنا الملابس الداخلية فقط. اعتدى المأمور علينا بالضرب بعد أن رفضنا تقديم "البراءة". وسرعان ما تجمّع علينا السجانون وأشبعونا ضرباً وركلا. بعدها أخذونا إلى السجن الانفرادي ـ وهو سجن جديد تم بناؤه بإشراف النقطة الرابعة الأمريكية ـ وطلبوا منا السير بهدوء تام وفعلوا الشيء نفسه. وخلال الطريق كانوا يذّكروننا باللقاء في اليوم التالي بالمدير معتبرين أن ما شاهدناه في ذلك اليوم مجرد زلاطة (عرفنا لاحقا بأن الخوف من مقابلة المدير في اليوم التالي لوصول السجين كان سبباً في انهيار الكثير من المناضلين). زجّوا بنا في غرفة صغيرة، فوق بابها فتحة صغيرة، أمرونا بأن لا نقترب منها.

في اليوم التالي أخذونا فرادى إلى المدير. عندما عرف بأني من كربلاء، استكبر ذلك قائلاً: "هم كربلائي وهم شيوعي؟!" وبعد أن تأكد بأني غير مستعد لتقديم "البراءة"، أعطى إشارة إلى المأمور والسجانين الذين كانوا يقفون ورائي بالاعتداء عليّ، فانهالوا علي ضرباً وركلاً. ولما عرف المدير بأن سمعي ثقيل، أوعز إليهم، وبصراحة، أن يضربوني على أذنيّ لكي أطرش. ولم يقصر السجانون وخاصة المأمور عباس الجابر، الذي كان يقّعر كفه إمامي ويلوي رأسي ويضربني على أذني. ضربوني عشرات الضربات على كل إذن. وعلى إثر ذلك هبطت أكثر إمكانية سمعي وحصل طنين في إذني ظلّ يلازمني إلى يومنا هذا. أعادوني إلى السجن الانفرادي وأنا أشعر بالنجاح في الامتحان. وضعوني هذه المرة في غرفة وحدي. بعد حوالي الساعة فُتحت الباب الصغيرة، ومدّ السجان يده بصينية صغيرة فيها تبغ وسجائر طالبا مني أن أخذ حاجتي منها. اندهشت لهذه المعاملة الرؤوفة. استفسرت من السجان مَن الذي أرسل ذلك؟ نهرني وطلب مني أن لا أسأل. أخذت عشرة سجائر، وخمّنت بأنها من الرفاق.

بعد بضعة أيام نقلوني إلى قسم آخر من السجن، غرفه أيضاً صغيرة (3×4 م) وتقع في صفين متقابلين يفصلهما ممر لا يتجاوز عرضه المترين. ويجري في هذا القسم تفتيش يومي مزعج حيث يدخل السجانون وكأنهم يريدون إلقاء القبض على مجرم هارب أو البحث عن مادة خطيرة مهربة. فينكثون البطانيات وينثرون كيس الملابس لعلهم يجدون قلما أو ورقة بيضاء مهما صغر حجمها. فقد كان كل ذلك من الممنوعات فضلا عن الكتب والصحف. ويأتي المدير بعد هذا التفتيش وبمعيته عدد من الحراس فيدخل جميع الغرف ليستفز هذا ويعتدي على ذاك أو لينقل البعض إلى القلعة أو إلى الانفرادي حسب هواه وتقديراته. كانت أبواب الغرف تفتح من الصباح حتى الساعة العاشرة مساء، وتغلق ساعتين ظهراً للقيلولة. كانت هناك سماعة يسمع منها راديو بغداد وفي أوقات محددة. ويسمح للسجناء بالاختلاط في الممر وفي الغرفة التي تستخدم لتوزيع الطعام أو في غرفهم. ويستلم السجناء جريدة واحدة يوميا لقراءتها وإعادتها، فكانت تقرأ جماعياً، ويقرأها الرفيق مهدي عبد الكريم.

يضم هذا القسم حوالي عشرين سجيناً بعضهم جُدد وآخرون مغضوب عليهم من قبل المدير. وكان المسؤول الحزبي الرفيق عبد علوان الطائي. أما جمهرة السجناء الكبيرة في سجن بعقوبة فكانت في القلعة (السجن القديم). ولم يكن سوى واحد من منظمة "راية الشغيلة" وهو محمد أبو كالة في القسم الجديد. في اليوم الأول لوصولي إلى القسم المذكور، أوصاني أبو كالة بأن لا أخذ شيئا من "الإنجازيين" ([20] *). وفعلاً فقد رفضت ما عرضه عليّ الرفيق وجدي شوكت سري من ملابس داخلية وقلت له: "نحن عندنا تنظيم!"

نقل المدير، في أحدى جولاته التفتيشية، بضعة سجناء من الانفرادي إلى سجن القلعة وكنت أحدهم. وقد بدا لي بأنه لم يكن يعرف بأن تخليتي ستكون في اليوم التالي. كان في القلعة هناك حوالي 70- 80 سجينا، بينهم سجين واحد من منظمة "راية الشغيلة" هو الرفيق حسن عوينة. كان عزيز محمد ومعه مجموعة من المنظمة قد نقلوا، بمعية مجموعة أكبر من رفاق الحزب، إلى سجن نقرة السلمان الصحراوي، قبل وصولي ببضعة أشهر. كنت أتمنى أن التقي بهم. لم أبق في القلعة سوى يوم وأحد، قضيت جلّ الوقت أتجول مع عوينة في باحة السجن الكبيرة.وقد أخبرني حسن بأن هناك مفاوضات تجري بين قيادة المنظمة وقيادة "الإنجازيين". في المساء وزعت المنظمة عصيراً على جميع السجناء بمناسبة إنهاء محكوميتي. رافقني عوينة في صباح اليوم التالي إلى القاعة التي يوجد فيها المسؤول الحزبي كريم احمد الداود. فودعني (أبو سليم) بحرارة. سفرت إلى كربلاء. وأطلق سراحي بعد تهديد ووعيد من قبل الأمن.

الاختفاء لأول مرّة

تقرر انتقالي إلى النجف كتدبير احترازي عند خروجي من السجن في صيف 1955. كانت إقامتي في النجف في بيت حسين سلطان (أبوعلي)، وفي الغرفة الصغيرة التي كانت تحوي أدوات ووسائل الحياكة. كنت أنام بجانب(الجومة) في حيز ضيّق. وكان في البيت غرفة واحدة أخرى هي، كما هو الحال بالنسبة لجميع العوائل الفقيرة، للطعام والنوم والضيوف والمعيشة. كان أبو علي مختفياً، لذلك كان يعمل حائكا في البيت. كانت الحالة المعيشية فقيرة جدا، فوجبة الظهر والتي تعتبر الوجبة الرئيسية غالباً ما كانت (مرگة هوَ)([21] *). في بيت حسين سلطان قرأت الكثير من الكتب ومن أهمها كتاب الاقتصاد السياسي لمؤلفه ليونتيف، وكان مكتوبا بخط جميل وواضح. لقد قرأته أكثر من مرة، ولم يكن هناك مَن أسأله عن

[20] - * نسبة إلى نشرة داخلية كان الحزب يصدرها باسم "الإنجاز".

[21] - * مركة الهوَ، عبارة عن قليل من البصل المقلي بالزيت وماء وخبز مقطع.

الأمور الغامضة عليّ أو التي لم أتمكن من استيعابها. فحسين سلطان داعية كبير للجماهير الكادحة في النجف، إلا أن ثقافته العامة والماركسية كانت محدوده.

وبالارتباط مع تواتر الأخبار حول وحدة الحزب سمّى حسين سلطان مولودتهم (بشرى) تيمناً بتلك الأخبار. وتلاحقت الأعوام وتدافعت الأحداث وإذا بي أذهب يوما في عام 1976 مع بعض إخوتي لأخطب بشرى إلى أخي خليل والذي تسلسله ما قبل الأخير بين إخوتي. لقد صادف خليل وبشرى بعض العراقيل أمام اقترانهما، ولكن حبهما كان أقوى من أية عراقيل، فتزوجا وهما يعيشان سعيدين الآن مع أبنائهم الستة.

كلفت مرة أن اجلب بريداً حزبياً من بغداد.اتصلت بفتاح الحلاق الذي أعرفه من كربلاء فسلمني حقيبة سفر كبيرة. وصلت إلى مدينة النجف مساءاً، ففوجئت بوجود تعزية حسينية في الساحة في طريقي إلى البيت. شعرت بخطورة المرور بالساحة التي كان جميع الحضور فيها جالسين، ولم يسمع أي صوت فيها سوى صوت القارئ. وعادة ما يتواجد رجالات الأمن في هذه الأماكن. كنت أمام خيارين، إما العودة واحتمال جلب انتباه الآخرين، وإما المجازفة والسير في طريقي بهدوء معتمداً على لا معقولية تصرفي. اخترت الحل الثاني ونجحت. الغريب في الأمر أن يكلف مناضل لأول مرة في حياته بمثل هذه المهمة، ولا يُعلّم كيف يتصرف وماذا يقول في هذه الحالة أو تلك، خاصة وأن السيارات كانت تتعرض للتفتيش. فقد ألقي القبض على خضر الصراف، قبل مدة ليست بالبعيدة في نفس هذا الطريق، ومعه حقيبة مشابهة لحقيبتي في نقطة سيطرة. وليس غريباً أن لا يطرح المناضل، الذي يكلف لأول مرة بمثل هذه المهمة الخطرة، أسئلة يمكن أن تفسّر بأنه خائف. وقد علمت بأن الحقيبة التي جلبتها من بغداد كانت تحوي على بريد متراكم لمدة 3ـ 4 أشهر!!

× × ×

واصلت الطغمة الحاكمة بقيادة نوري السعيد هجومها على الحركة الوطنية في عام 1955، وتمكنت من الدخول في أحلاف عسكرية تبلورت في حلف بغداد. لقد كانت الحركة الوطنية في جزر، فلم تتمكن من التصدي الفعّال لإحباط مساعي الحكومة لعقد الحلف. والغريب في الأمر أن قيادة الحزب لم تشخص هذا الجزر في الحركة، بل كانت ترى بأن هناك غلياناً ووضعاً ثورياً ناضجاً للقيام بانتفاضة. " لقد أصدر الرفيق حميد عثمان أمراً إلى لجنة بغداد للقيام بانتفاضة تطيح بحكومة المراسيم والإرهاب وحلف بغداد..." [22]، وكأن الانتفاضة يمكن أن تندلع بطلب هذا القائد أو ذاك الحزب، دون توفر شروطها الموضوعية والذاتية، والتي أحدها استعداد جماهير غفيرة، لا عهد لها بالعمل السياسي، للنزول إلى الشارع. وتنفيذاً لتلك

[22] ـ ثمينة ناجي يوسف ونزار خالد. "سلام عادل ، سيرة مناضل" الجزء الأول ص 91.

الأوامر انطلقت ما يعرف بـ"المظاهرات الخاطفة" حيث تم زجّ كوادر وأعضاء الحزب فيها لتثوير الجماهير، ولكن دون جدوى. " لقد عرضت المظاهرات الخاطفة لجنة بغداد وكوادرها المهمة إلي الخطر، فألقي القبض على اللجنة ومسؤولها كريم أحمد..." [23]، ولم تتمكن تلك الفعاليات اليسارية الانعزالية أن تحرك الجماهير واستمر الجزر في الحركة الوطنية طيلة عام 1955.

5
مقدمات ثورة 14 تموز المجيدة

انتفاضة تشرين الثاني 1956

على أثر انعقاد الكونفرنس الثاني للحزب الشيوعي العراقي في أيلول 1956، انعقد في بداية تشرين الأول في الكوفة اجتماع موسع لكوادر الحزب في الفرات الأوسط. ضمّ الاجتماع أعضاء اللجان المحلية وقيادة المنطقة، وحضره الرفيق سلام عادل سكرتير اللجنة المركزية ومعه عضو اللجنة المركزية سليم الجلبي. قادني الرفيق باقر إبراهيم إلى مكان الاجتماع، دون أن يخبرني أي شيء عنه مسبقاً. عند وصولنا، كان سلام عادل قد شرع في شرح الوثيقة الصادرة عن الكونفرنس تحت عنوان "خطتنا السياسية في سبيل التحرر الوطني والقومي".

لم تكن الوثيقة مطروحة على الاجتماع لغرض مناقشتها وإغنائها، بل لغرض التثقيف بها. وقد تولى ذلك الرفيق سلام عادل. إن القضية التي أثارت نقاشاً في الاجتماع، هي أساليب الكفاح. فقد شخصت الوثيقة طبيعة المعركة "باعتبارها معركة ذات طابع سلمي غالب". ولم يقتنع العديد من المشاركين بالتوضيحات التي قدمت للاجتماع لتبرير هذا الاستنتاج. وقد جاء هذا التشخيص غير الصحيح متأثراً بما توصل إليه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي بخصوص إمكانية الانتقال السلمي للاشتراكية. وقد صححت اللجنة المركزية هذا الخطأ على أثر انتفاضة تشرين الثاني 1956 التي جوبهت بالرصاص من قبل السلطات، وذلك في بيانها الصادر في 11 كانون الأول 1956، لتقرر بأن الأسلوب العنفي هو الأسلوب الغالب.

اندلعت انتفاضة تشرين الثاني 1956 لنصرة مصر، على أثر العدوان الثلاثي الذي تعرضت له مصر من قبل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في 29 تشرين الثاني 1956. وكانت حركة التحرر الوطني العربية في أوج نهوضها، والحزب الشيوعي العراقي منغمراً فيها من خلال المهمة العاجلة التي طرحها أمامه وأمام الحركة الوطنية

[23] ـ المصدر السابق، ص99.

والقومية، بصيغة سياسية مرنة، من شأنها أن تعزل حكومة نوري السعيد وتعبىء جميع القوى المعادية للاستعمار ضدها من اجل إسقاطها. وكانت هذه الصيغة كما يلي: " إن ما يواجه بلادنا الآن هو قبل كل شيء ضرورة تحول السياسة القائمة من سياسة تعاون مع الاستعمار وتوافق مع الصهيونية وانعزال عن حركة التحرر الوطني، إلى سياسة وطنية عربية مستقلة"[24].

خرجت الجماهير الشعبية في مظاهرات احتجاجية عارمة على العدوان ولنصرة مصر الشقيقة، وهتفت بسقوط حكومة نوري السعيد وحلف بغداد. وقد عمت المظاهرات ثلاثين مدينة من جنوب العراق إلى شماله مرورا بوسطه. وكانت واسعة جداً في النجف، وساهمت فيها مختلف الفئات الاجتماعية بمن في ذلك رجال دين بارزون. وقد دامت المظاهرات في البلاد مدة شهرين، وتوجت بانتفاضة الحي الباسلة. جوبهت المظاهرات من قبل حكومة نوري السعيد بالأحكام العرفية وتعطيل الدراسة في الكليات والمدارس وبالقمع العنيف. وسقط الكثير من الضحايا، وتعرض حوالي عشرة آلاف طالب للفصل والإبعاد والسجن، وأرسلت المحاكم العسكرية المئات من المناضلين للسجون، وكنت أنا واثنان من إخوتي من بينهم، وسيأتي شرح ذلك لاحقاً.

كانت السلطات تتحسس، وهي على حق، من أي شعار، حتى ولو كان شعارا قومياً عاما مثل: "وحدة.. وحدة عربية"، أو" يعيش جمال عبد الناصر" لأنهما ينطويان على عداء لحلف بغداد وحكومة نوري السعيد. وقد لعب الشيوعيون دوراً فعالاً، إن لم نقل طليعياً، في المظاهرات وكان أول شهداء الانتفاضة الكادر الشيوعي الباسل عواد الصفار الذي استشهد في بغداد، وآخرهم الشيوعيان البطلان عطا الدباس وعلي الشيخ حمود اللذان أعدما في ساحة الصفا التي تقع وسط مدينة الحي والتي كانت تنطلق منها المظاهرات. قتل الشهيد عطا تحت التعذيب وعلى الرغم من ذلك وضعوا حبل المشنقة في عنقه للتمويه، وكأنه حي. أما الشهيد علي الشيخ حمود فقد هتف بحياة الشعب والوطن قبل إعدامه.

لم تتأخر كربلاء عن المساهمة في انتفاضة تشرين الثاني عام 1956. كان طلبة متوسطة العباس في البدء ومن ثم ثانوية كربلاء يرفضون الدخول إلى الصفوف ويقضون الدوام في إلقاء الخطب والكلمات الوطنية والقومية الحماسية وفي الهتاف ضد الحكومة والعدوان على مصر، وعند انتهاء الدوام يخرج الطلبة من مدارسهم بهدوء ولم تتعرض الشرطة لهم. في تلك الظروف نشأت لدينا علاقة مع منظمة حزب البعث العربي الاشتراكي ، وقد اتفقنا معهم على إخراج مظاهرة في المدينة والسعي إلى عدم اشتباكها مع الشرطة، وذلك لرفع معنويات الناس وعلى

---

[24] "خطتنا السياسية في سبيل التحرر الوطني والقومي" وثيقة الكونفرنس الثاني، ص 23.

أن تنطلق من المدرسة الثانوية، وهي الثانوية الوحيدة في المدينة. وفعلا خرجت المظاهرة وفقاً لما هو مخطط لها. لقد كنت مطارداً آنذاك، ولم يحبذ مرجعي الحزبي مساهمتي المباشرة في المظاهرات. ولكن ما أن سمعت صوت المظاهرة وأنا على سطح الدار أنتظر بتوتر انطلاقها، حتى أسرعت للالتحاق بها. ضمت المظاهرة حوالي 500 شخص، جميعهم من الشباب وغالبيتهم من الطلبة. سارت الشرطة وراء المظاهرة بهدف إرهابها، والانقضاض عليها وتفريقها بالقوة في الوقت المناسب. تحايلنا على الشرطة وأدخلنا المظاهرة في سوق وكأنما نريد الخروج من جهته الثانية، فلم تتبعنا الشرطة وإنما أسرعت لتتهيأ في الجهة التي توقعناها. وعند وصول المظاهرة إلى مكان ملائم فرقنا المظاهرة واختفى المتظاهرون عن أعين الشرطة. كنت أنسق مع ممثل حزب البعث عبد الرزاق أبو الحب في المظاهرة. كانت المظاهرة تهتف بالشعارات الوطنية وكذلك الشعارات القومية بما في ذلك شعار "وحدة.. وحدة عربية".

وعلى أثر تلك المظاهرة عطلت الدراسة في المدرسة الثانوية، وجرت حملة اعتقالات في صفوف الطلبة وانقطعت علاقتنا بحزب البعث مؤقتاً. وحرصاً على مواصلة المظاهرات خرجنا، بعد بضعة أيام من المظاهرة الأولى، متظاهرين من مركز المدينة (الميدان) في منتصف النهار وفي ساعة ألازدحام الشديد. وقد بادر بالهتاف، حسب الخطة المقررة، أخي قاسم. لقد شقت المظاهرة، ولم يتجاوز عدد المشتركين فيها الخمسين في ذروتها، طريقها إلى سوق العلاوي ومن ثم إلى شارع العباس (ع). وكان هناك جمهور واسع يقدر بالمئات يتفرج على المظاهرة ويسير متعاطفاً معها، ولكنه يخشى المساهمة، مما حدا بأحد المتظاهرين بأن يهتف "يسقط المتفرجون"! وكانت هناك مجموعة من الجنود شاهرة سلاحها تسير خلف المظاهرة. عندما وصلت المظاهرة شارع علي الأكبر لم يعد عددها يتجاوز الثلاثين، أربعة منهم أخوتي! تفرقنا في مكان ملائم من الشارع المذكور. ألقي القبض على أخي قاسم وتمكن من الإفلات من الشرطي الذي كان يحرسه في عربة الخيل (رَبل) قبل توجههم إلى مركز الشرطة (السراي) وساعده الناس على الفرار والاختفاء.

في المساء جاء من يخبرنا بان الشرطة تستفسر عن بيتنا فتحولت أنا وأحد إخوتي إلى البيت المقابل لنا (بيت صكب) في نفس الزقاق. فكنا نراقب دخول الشرطة إلى البيت من شباك الغرفة المظلمة التي كنا مختفين فيها. وعند خروج الشرطة عدنا إلى البيت فرحين لأننا ضحكنا على ذقونهم. وبالمناسبة، كان في (بيت صكب) شاب يصغرني بعدة سنوات اسمه أيضاً جاسم، وكان أميّاً ولديه رغبة شديدة في تعلم القراءة. وقد ساعدته وتعلم بسرعة، فبعد أشهر معدودة أخذ يقرأ الصحف اليومية! في اليوم التالي لتحري بيتنا جاءت إحدى جاراتنا والتي يقع بيتها خلف بيننا لتخبر جدتي باستعدادهم لاستقبالنا في بيتهم في حالة مداهمة الشرطة لبيتنا عبر حائط السطح الذي يفصلنا. كانت الجماهير تتعاطف معنا، ولكن استعدادها للعمل الثوري كان ضعيفاً.

بعد بضعة أيام كنا، لجنة المدينة من ثلاثة رفاق، مجتمعين في بيت أحد أعضائها واسمه جاسم الطويل. وقد كنا على وشك الانتهاء من كتابة تقرير عن المظاهرات والأوضاع السياسية والتنظيمية في المدينة، عندما جاءنا رسول من المختار ليخبرنا بان تحريا سيجري على البيت بعد قليل. أسرعنا بإخراج الرفيق الثالث من البيت، أما أنا وجاسم الطويل فقد قررنا أن نعبر على الجيران. وقد حرقنا ما لدينا من أوراق ما عدا التقرير فقد احتفظت به. عند عبورنا على سطح الجيران وجدت تنوراً أخفيت فيه التقرير، واختفينا في زاوية ملائمة من السطح. كان علينا أن لا نثير أي صوت لعدم تنبيه أهل البيت، فلم يكونوا ممن يتعاطفون معنا. كنت مزكوماً ومضطراً لأن أكتم رغبتي الشديدة بالسعال. بعد فترة وجيزة شاهدنا ضياء مصباح يدوي يتنقل على سطح بيت جاسم الطويل. في تلك اللحظة أشرت لجاسم، مازحا، بأني أريد أن أسعل! فما كان منه ألا وأن وضع يده على فمي. ثم انتشر ضياء المصباح اليدوي على جهة من السطح الذي كنا نختفي فيه، ولكن الضوء لم يصل "لحسن الحظ" إلى الزاوية التي اختبأنا فيها. بعد فترة أعلمنا أحد أفراد عائلة جاسم بأن الشرطة غادرت البيت. عبرنا إلى بيت جاسم دون أن ننسى أخذ التقرير معنا. طلبت من جاسم أن يختفي وأخبرته بأني سأقيم في الريف لبعض الوقت.

البراءة

عندما طلبت من جاسم الطويل أن يختفي، لم أكن أعرف بأنه قد أعطى "براءة"، في صيف 1955 في عهد مدير شرطة كربلاء جواد أحمد، وأخفى الأمر عن الحزب. لقد اكتشفنا ذلك بعد ثورة 14 تموز. فقد أخبرنا الرفيق أحمد العلي، المستشار القانوني في مديرية شرطة كربلاء، بأن جاسم الطويل ورفيقاً آخر اسمه محمد علي حبّوُبة، و كان الأخير عضواً في اللجنة العمالية، أما جاسم فكان عضو اللجنة الحزبية التي كانت تقود منظمة مدينة كربلاء وكنت سكرتيرها، قد أعطيا البراءة في عام 1955، وبإمكان قيادة المنظمة التأكد من ذلك. وفعلا ذهبت إلى شعبة الأمن بصحبة الرفيق الحقوقي العلي وبحضور مفوض الأمن عبد الأمير علّو. وقد اطلعت على السجل السري الذي يحوي صورهما وصيغة البراءة الشائعة.

استفسرنا من محمد علي حبّوُبة عن أسباب عدم ذكر قضية البراءة في الرسالة التي رفعها للحزب وطلب فيها إعادة ارتباطه ([25] *)، فادعى بأنه تصور بأن ذلك لم

[25] - * شارك محمد علي حبوبة مع حسن النقاش في كتابة بيان، يحبذ الشيوعية، وتم توزيعه على عناوين عديدة في كربلاء وذلك عام 1946. وبسبب ذلك حكم على محمد علي سنتين سجن وعلى حسن النقاش ثلاث سنوات وعلى جعفر القاضي، الذي طبع البيان بالآلة الكاتبة، سنة واحدة. وعلى أثر الضربة التي وجهت لتنظيمات الحزب عام 1948 هرب النقاش ومحمد علي إلى الاتحاد السوفييتي. وعاد الأخير إلى العراق قبل ثورة 14 تموز.

يعد له أهمية بعد الثورة. واستفسرنا من جاسم الطويل عن أسباب إخفاء البراءة عن الحزب، فأفاد بأنه كان سيطرد من الحزب لو فعل ذلك، في حين أنه واصل العمل داخل الحزب خلال أكثر من ثلاث سنوات. ولم يجب جاسم الطويل على سؤالنا له: ما الذي كان يحصل لو إن الجميع أعطوا البراءة وواصلوا العمل في الحزب؟ هل كانت حكومة نوري السعيد لا تبتدع وسيلة أخرى تحاول بها إضعاف الحزب وشل قدراته الكفاحية؟ قررت لجنة المدينة تنحية جاسم الطويل ومحمد علي حبّوُبة من مراكزهم الحزبية وإبقاءهم أعضاء في الحزب ([26] *).

كان مفوض الأمن (عبد الأمير علّو) يتصرف كالخادم خلال وجودي في شعبة الأمن. و لم يكن ينظر في عيني، لأنه كان أحد الذين تلقيت منه الصفعات والركلات قبل الثورة. وخرجت من الدائرة رافضاً عرضه بشرب الشاي. بعد ذلك أخبرني أحمد العلي بأن المفوض المذكور يشكو من أنني لا أرد السلام عليه، في حين كان متهماً من قبل مسؤوليه بالتقصير تجاه الشيوعيين في العهد المباد، ولهذا السبب نقل من مركز محافظة كربلاء إلى خارجها. أجبته: "لا أتمكن من أن أبادله التحية".

بعد ذلك فاتحني في الموضوع، صديقي ورفيقي ومساعدي في اللجنة القيادية للمنظمة، الرقيق علي النوري، وناقشني من وجهة نظر سياسية. فأخبرته بأني لست ضد كسب المفوض إلى جانبنا، ولكني شخصيا لا أتمكن من مجاملته. كيف يمكن أن أجامل شخصاً كان يضربني (راشديات وجلاليق)؟ سألت علي النوري، وأضفت، أنا إنسان ولديّ كرامتي. اتفقنا على غلق الموضوع. وفعلاً لم يفاتحني أحد به لاحقاً.

في بساتين كربلاء

كانت بساتين كربلاء ملاذي عندما تضيّق السلطات الخناق عليّ في المدينة. كانت لدينا خلية حزبية فلاحية، أغلب أعضائها يقيمون في (الجرية) مركز ناحية الحسينية. وكنت أصلها مشياً على الأقدام خلال ساعة وخمسة عشر دقيقة. كنت أقضي النهار في بستان الرفيق عيسى وهو أحد أعضاء الخلية المذكورة. ويقع بستانه على الشارع العام. وفي الليل، حيث تكثر مداهمات الشرطة عادة، كنت أبتعد

---

[26]ـ * ملاحظة: في النصف الثاني من عام 1979 وخلال تعرض الحزب الشيوعي لأشرس حملة قمعية من قبل النظام البعثي المباد، أوعزنا، لضمان إدامة العمل، لعدد من الرفاق العاملين في الأجهزة الفنية والبيوت الحزبية والمراسلين بإعطاء التعهد لكي يفلتوا من أيدي العدو، وسرعان ما انكشفت الخطة فأخذ الأمن يطلب من الذين يلقى القبض عليهم، الموعد الحزبي ومكانه، أولا وقبل كل شيء، وإلا فإنه يتعرض لأساليب البعث الفاشية في التعذيب فورا وبدون تأخير.

عن هذه المنطقة، التي يسهل على الشرطة الوصول إليها، وأذهب إلى مزرعة رفيق آخر اسمه هاشم المسعودي، التي تبعد عن بيت عيسى حوالي الساعة وتقع في منطقة وعرة تتجنبها الشرطة. وكنت أشعر بالأمان التام في هذه المنطقة.

في أحد الأيام، وفي أثناء اختفائي في هذه المنطقة، بُعيد انتفاضة تشرين الثاني 1956، توجهت نحو مزرعة هاشم عند غروب الشمس. وما أن ابتعدت عن بستان عيسى ببضعة كيلومترات حتى لاحظت من بعيد كلباً كبير الحجم يشبه الذئب يندفع بقوة نحوي وباستقامة عجيبة فاتحاً شدقيه إلى أقصى حد وبشكل يثير الرعب. كان المكان أشبه بصحراء خالية من أي ملاذ أحتمي فيه. كنت أحمل عصا قوية وطويلة نسبياً صممت أن أحشرها في فم الكلب إن هاجمني. عندما أصبحنا وجهاً لوجه على بعد حوالي 150 متراً، دنوت من الأرض متظاهراً بأني أتناول حجرا لأضربه، وإذا بالكلب يقف في مكانه، في حين بقيت سائراً في طريقي لا أحيد عنه. وبعد برهة وجيزة قفل الكلب عائدا من حيث أتى وأنا بين مصدق ومكذب عيني بانتهاء هذه المحنة بهذه الحيلة البسيطة والشائعة.

بعد مضي بعض الوقت وعندما أصبح الظلام دامساً ضاعت عليّ ملامح الطريق، أخذت أشك بصواب الاتجاه الذي أنا سائر فيه، فانحرفت باتجاه آخر، وما أن سرت بعض الوقت حتى شككت أيضاً باتجاهي الجديد، فتوقفت. يممت وجهي نحو الجهات الأربع فلم أجد ما يساعدني على معرفة الطريق. لقد ضعت. لم يكن بمقدوري السير بأي اتجاه خشية الابتعاد عن هدفي. لا أنسى تلك اللحظات التي مرت علي وأنا في تلك الحالة أحدق في الظلام تائها في جو بارد جداً وممطر. وأنا في هذه الحال وإذا بي أبصر وميضاً عن بعد. ومن ثم لمحت لهيب نار يظهر ويختفي. قررت التوجه نحو مصدر النار غير آبه بمَن سأصادفهم، المهم أن يكونوا بشراً.

بعد فترة قصيرة اختفت النار، فبقيت أمشي محافظاً على اتجاهي. سرت مسافة معينة، وإذا بي أسمع نباح كلاب سرعان ما توجهت نحوي، وأحاطت بي، كإحاطة السوار بالمعصم، دون أن تهاجمني. فجأة سمعت صوت امرأة تنادي:"مِنو؟" (مَن هو القادم؟). أجبت: "صديج" (صديق).

فنهرت المرأة الكلاب التي كفت عن النباح وابتعدت وهي تهز ذيولها تعبيراً عن امتثالها للأمر. تعجبت أن أجد نفسي قريباً من بيت هاشم المسعودي، ومع ذلك لم أستطع رؤيته بسبب الظلام. رحب هاشم بي كعادته. غذوا النار الخافتة بحطب جديد وسرعان ما شعرت بالدفء ورحت أتابع الأخبار من راديو يعمل على بطارية كبيرة. لم أخبر هاشم بما جرى لي وما عانيته في الطريق. لقد نوهت له بأني كدت أن أضيع طريقي بسبب الظلام. إن الحديث عن الخوف من كلب متوجه لمهاجمتك أو الخوف وأنت ضائع في ظلام دامس في الصحراء لا يشير إلى شجاعة المرء، حسب القيم السائدة في الريف، بل وقد يعرض المتحدث نفسه لسخرية الآخرين.

السجن لمدة ثلاث سنوات

عدت إلى المدينة خلسة. وكنت قد استلمت بريداً حزبياً يتضمن نشرة إخبارية عن انتفاضة مدينة الحي. كنا نستنسخ النشرات الإخبارية ونوزعها. باشرنا ،أخي حميد وأنا، باستنساخ النشرة الجديدة، عندما زارني، وفق موعد مسبق، أحد الرفاق في البيت واسمه جليل أسد. ولم يمر على وجوده عندنا أكثر من نصف ساعة حتى داهمت الشرطة بيتنا وذلك في مساء 9 شباط 1957. وألقي القبض علي وعلى جليل أسد وأخي حميد الذي كان عمره 16 عاما. عثرت الشرطة على النشرة الإخبارية. أنكرنا في التحقيق عائدية النشرة ومستنسخاتها. تعرضنا للضرب والشتم ووجهت إلينا تهمة وفق المادة 89 ـ آ التي تخص الشيوعية، رغم أن النشرة الإخبارية لم تكن لها أية علاقة بالشيوعية.

بعد بضعة أسابيع تم تسفيرنا إلى مدينة الديوانية لتقديمنا إلى المجلس العرفي العسكري. فقد كانت البلاد تعيش في ظل الأحكام العرفية. قدمنا إلى المجلس العرفي في اليوم التالي لوصولنا بدون توكيل محامي للدفاع عنا. ألقى المدعي العام مطالعة مختصرة طالبا إدانتنا. باشرت بالدفاع قائلاً: "سيدي إن هذه الأوراق لا تعود لنا، علما بان مضمونها، بحدود اطلاعنا على ذلك في التحقيق، لا علاقة له بالشيوعية. أوقفني رئيس المحكمة صارخا في وجهي: "أسكت!" وأصدر حكمه بالسجن ثلاث سنوات علي وعلى جليل أسد، وأحد عشر شهراً سجن وسنة مراقبة على أخي حميد. رحلنا في اليوم التالي إلى سجن الحلة تمهيدا لتسفيرنا إلى سجن بعقوبة.

أدخلونا الانفرادي في سجن الحلة. نفس المكان المخصص للمحكومين بالإعدام، والذي قضيت فيه محكوميتي في الأشهر الأولى من عام 1955، عندما كان المجرم عبد الجبار أيوب مديراً للسجن. وقد أبلغنا بأننا سنسفر في اليوم التالي إلى سجن بعقوبة. في المساء كنا جالسين في الغرفة مع بضعة سجناء آخرين، وإذا بأخي قاسم ينتصب في باب الغرفة، اندهشنا للصدفة، تعانقنا، أنا وأخي حميد، معه بحرارة، وعرفنا منه بأن الشرطة قد ألقت القبض عليه لأنه محكوم غيابياً لمدة ثلاثة أشهر، وسيقضيها في سجن الحلة، أي إننا سنتفارق في اليوم التالي. أقمنا "حفلة" توديع غنى فيها قاسم (أبوذية) تناسب الموقف الذي كنا فيه. كان لقاؤنا قصيراً جداً أعقبه فراق طويل. وقد اندهشت لصوت قاسم الجميل والشجي والذي لم أكن قد سمعته سابقاً. في اليوم التالي سُفرنا أنا وأخي حميد وجليل أسد إلى موقف السراي في بغداد ومنه إلى سجن بعقوبة للقاء الجلاد علي زين العابدين.

في سجن بعقوبة ثانية

لم يعد سجن بعقوبة ومديره علي زين العابدين في عام 1957 على رهبتهما السابقة، كما كان عليه الحال عندما دخلت هذا السجن لأول مرة في عام 1955. فقد كُسرت شوكة المدير بفضل صمود الكثير من الشيوعيين، وخاصة مجموعة السجناء الشيوعيين القدامى الذين نقلوا من سجن (نقرة السلمان) الصحراوي إلى سجن بعقوبة في بداية عام 1956، على إثر إضرابهم عن الطعام. ومع أنني كنت واثقاً من صلابة أخي حميد، فقد كنت قلقاً عليه لصغر سنه وقلة تجربته. وعشية سفرنا إلى سجن بعقوبة، وضعت خلاصة تجربتي، عند مواجهة الجلادين، أمامه وأمام جليل أسد، ولم أعد عليهم ذلك ثانية. وفحوى هذه التجربة تتحدد في عدم استفزاز الجلادين والإجابة على قدر السؤال وعدم التظاهر بالضعف في السلوك والكلام. عند وصولنا إلى سجن بعقوبة تعرضنا لما يصطلح عليه السجناء بـ(الكروان)، أي الضرب بالهراوات والعصي من قبل السجانين مصحوبة بالشتائم والإهانات. في اليوم التالي زارنا المدير وقد تهجم علي، لأنني بدلاً من أن أترك الشيوعية بعد حبسي الأول جلبت معي أخي الصغير هذه المرّة، على حد قوله. وانصرف بعد كيل الصفعات والشتائم. كان في غرفة الانفرادي معنا، أخي حميد وأنا، الرفيق نائب عبد الله، خياط من السليمانية، الذي أصبح لاحقاً عضواً في اللجنة المركزية. ورغم قصر المدة التي عشناها سوية مع نائب، فقد نشأت بيننا صداقة تؤكدها حرارة اللقاءات وحميميتها في كل مرة نلتقي فيها، مهما كان تباعد الفترة بينها.

لم يكن أخي حميد قد بلغ سن الرشد بعدُ. وكان ضئيل الحجم نسبيا، أملط الوجه. ولذلك كان يبدو عليه ملامح الصبا. فكان موضع إعجاب الرفاق في السجن وموضع فخري واعتزازي. لم يتسن لنا في تلك الفترة الاختلاط بحرية بالسجناء الآخرين. فالسجناء موزعون في غرف مغلقة لا تسع الواحدة منها أكثر من أربعة أشخاص. كنا نخرج للتعرض لأشعة الشمس ساعة واحدة يوميا في باحة السجن. بعد حوالي عشرة أيام زارنا مدير السجون العام في العراق. وعندما شاهد أخي حميد استغرب من وجوده في هذا السجن، ولم يعر أي اهتمام لإيضاح مدير السجن بأنه موجود مع أخيه الأكبر، وقرر المدير العام نقله على الفور إلى سجن الأحداث. فتوادعت معه وداعاً حاراً ولم نلتق، مرة أخرى، إلا بعد ثورة 14 تموز.

في تلك الفترة قسّم مدير سجن بعقوبة الجناح الخاص بالسياسيين إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول كان مخصصاً للخطرين جداً، والثاني للخطرين، والثالث للأقل خطورة، أما الرفاق اليهود فقد عزلوا في جناح خاص. ودرجة الخطورة هذه تتبع تقديرات المدير الاعتباطية. وقد أفرزني مع الخطرين وكان عددنا في هذا القسم 17 سجيناً. وتفتح علينا أبواب الغرف لفترات أقل من غير الخطرين. كان عمر علي الشيخ المسؤول الحزبي عن القسم، وكلفت أنا بالشؤون الاقتصادية، التي تشمل توزيع الأكل والسكائر والشاي و...الخ. وضم هذا القسم الرفاق عزيز سباهي ووجدي شوكت سري وفرج محمود ومحمد علي الشبيبي، أخ الشهيد حسين الشبيبي

(صارم)، وعزيز وطبان وطالب عبد الجبار وشهيد عبد الحسين أبو شبع وغيرهم. وقد استفدت في هذا القسم من معلومات طالب عبد الجبار لتنمية معلوماتي في الفلسفة المادية الديالكتيكية.

بعد حوالي الشهر جمعوا السجناء في قسم واحد. وتعرفت وقتها على الرفاق القدامى مثل هادي هاشم الأعظمي، وكان المسؤول الأول في السجن، وزكي خيري وعزيز محمد ومهدي حميد وبهاء الدين نوري وعمر علي الشيخ أعضاء اللجنة الحزبية المسؤولة في السجن. وتعرفت كذلك على الرفاق سلام الناصري ويوسف حنا ونافع يونس وعزيز الحاج وحميد بخش وعدنان البراك وجاسم حمودي وعبد الرحمن منصور وحسن عوينة وعبد اللطيف الرحبي وأكرم حسين وصاحب حمادي وآخرين. وكانت أغلبية هؤلاء مقيدة أرجلهم بسلاسل حديدية. إضافة إلى ذلك تعرفت على الكثيرين من أبناء جيلي مثل الشهيد شاكر محمود وتوفيق أحمد. وعندما كنت في هذا القسم زُجّ بقادة منظمة الفرات الأوسط معنا وكان من بينهم الرفاق حسين سلطان وباقر إبراهيم وعدنان عباس.

أنتخبت عضوا في اللجنة الاقتصادية مع عدنان البراك وجاسم حمودي وكاظم فرهود وكان الأخير مسؤولها. وأنيطت بيّ مهمة توزيع السكائر والتنباك (التتن)، وكانت هذه المهمة من أكثر المهام حساسية في السجن نظراً لعدم توفر الكمية الكافية من السكائر أحيانا. لذلك كان الآخرون يتجنبون تولي هذه المهمة. وقد قبلت بها لقناعتي بأنني الأنسب لها بحكم كوني سجين جديد وعلاقتي بالآخرين خالية من الحساسية.

كنا نوزع السكائر على الوجه التالي: كل مدخن يحدد عدد السكائر التي يحتاجها يوميا على أن لا تزيد عن علبة واحدة (20 سيكارة) ويستلم حصته صباح كل يوم. أما التتن فيستلم المدخن منه كيس يكفي لأسبوع ويمكن أن يحصل على كمية إضافية. المشاكل التي يواجهها المرء، هي أن بعض الرفاق يطلبون سيكارة أو أكثر بعد نفاد حصتهم، خاصة أولئك الذين يدخنون علبة واحدة. وإذا حصل وزودتهم بحصة إضافية، فإن الآخرين سرعان ما يتهمونني باللبرالية. ليس بالمفهوم المرغوب والمفاخر به في وسط من السياسيين والمثقفين في عراق اليوم، إنما بمعنى غير ملتزم بالقواعد. وإذا ترددت في تقديم حصة إضافية فتهمة الدوغمائية جاهزة. كنت أعطي سيكارة واحدة، إضافية لمن يطلب، خاصة مع دخولنا للغرف، للنوم في الساعة العاشرة مساء حيث تقفل الأبواب علينا. المشكلة الأخرى، هي أن مصدرنا الأساسي للشكائر والتتن هي المواجهة الشهرية. وإذا كان الوارد لا يكفي كان التنظيم يكلف هذا الرفيق أو ذاك من أبناء العوائل الميسورة كي يخبروا عوائلهم بأن يرسلوا لنا بضعة كلوسات سكائر بالبريد. وفي حال تأخر وصولها، كنت مضطراً إلى تقنين الحصة بنسبة معينة، وكان ذلك يزعج المدخنين ويحرجني. لم تكن هناك أية مشكلة مع الذين يدخنون التتن، وعددهم لم يكن

يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وكنت أحدهم. فمنذ أن أنيطت بي مهمة توزيع السكائر تحولت للتتن تجنبا لأي قيل وقال. كانت الأعمال موزعة على السجناء. فهناك فريق يقوم بغسل الملابس وآخر مكلف بخبز الصمون وثالث بتوزيع الأكل وغسل الأواني. وكان الجميع يعملون بشكل دوري. وكنت أحد المشرفين على طبخ الشوربة للفطور صباحا، والتي يطبخها السجناء العاديون، إضافة إلى عضويتي في أحدى فرق الفرن.

في زنزانة واحدة مع الرفيق عزيز محمد

كنت مهتما بمعرفة تفاصيل تاريخ الحزب وقادته ولم يكن ذلك، إطلاقاً، عن سابق تصميم أو لأني قد أحتاج إلى ذلك لكتابة ذكرياتي في يوم ما، والتي لم أفكر في كتابتها، بل كانت محض نزعة غريزية بحكم قناعتي الراسخة بارتباطي المصيري بالحزب. و قد لقيت ضالتي في الرفاق القدامى. ولم يبخل الرفيق عزيز محمد، الذي عشت معه في غرفة واحدة فترة طويلة بالإجابة على أي سؤال لديه معلومات عنه، ما عدا الحديث عن ظروف انشقاق منظمة راية الشغيلة. فقد باءت محاولاتي لتحفيزه إلى الحديث عن تفاصيل ذلك بالفشل. إن كل ما سمعته منه هو: "صدّقني لم نكن نفكر يوما بالانشقاق عن الحزب، لا أدري كيف حصل ذلك". يقولها متوتراً ويُغلق الموضوع. ومرة أجابني: "جلسنا على سطح الفرن" ولم يكمل كلامه إنما نفخ بيده وضرب الهواء بقوة، وكأنه يصفع أحداً، وأضاف "لعد شعبالك؟" (ما الذي يخطر ببالك إذن؟)

وأعتقد بأنه كان يريد أن يسخر من عملية الانتشال (الانشقاق)، وأراد بحركته وكلامه ذاك أن يرسم صورة كاريكتيرية لها. إن أخطر انشقاق وقع في السجن، قبل انشقاق منظمة راية الشغيلة، هو الذي حصل في ربيع 1950 في سجن نقرة السلمان الصحراوي والذي أدى إلى إخراج مجموعة من الكوادر القديمة التي زاملت الرفيق فهد في سجن الكوت،على رأسهم المسؤول الأول في المنظمة الرفيق سالم عبيد النعمان ومعه الرفاق علي شكر ونافع يونس ويوسف زلخة ومحمد حسين أبو العيس وعبد الحسين خليفة وكاظم خليفة وغيرهم. لم أتمكن من أن أمر مرور الكرام على حدث بمثل هذه النتائج الخطيرة وأنا أعيش وسط عشرات الشهود. ومع الأسف لم أسمع أي توضيح من الذين أصبحوا خارج الحزب في حينه. فلم يكن قد بقي منهم في السجن سوى نافع يونس الذي أنهى محكوميته بعيد وصولي إلى السجن.

وخلاصة القصة هي إن المزاج "اليساري" الذي نشأ في أوساط الشبيبة التي تصّدت لمهمة قيادة الحزب إثر الضربة الموجعة التي وجهت لقيادة الحزب ومنظماته وإعدام قيادته التاريخية، قيادة الرفيق فهد، قد تسرب إلى السجن. وقد استغل حميد عثمان ذلك ليقود حملة ضد قيادة المنظمة مستغلاً بعض التسلكات

الشخصية غير الصحيحة، ولكنها غير الهامة، ليتهمها باليمينية والبرجوازية. وبدلاً من الاكتفاء بالنقد الذاتي الذي قدمه سالم عبيد النعمان، فقد نحي عن المسؤولية لتبدأ حملة تشهير ظالمة ضده وضد رفاقه أدت إلي الانقسام المذكور. ولم يبخل بهاء الدين نوري، والذي كان على رأس الحزب، ولم يعتقل بعدُ، في كيل الاتهامات لهم باعتبارهم زمرة انتهازية واندحارية وتيتوية في جريدة "القاعدة" السرية في عددها الصادر في تشرين الأول 1950. ومن الجدير بالذكر أن محمد حسين أبو العيس أصبح عضواً في المكتب السياسي للحزب ونافع يونس عضواً في اللجنة المركزية بعد ثورة 14 تموز، وقد استشهد الاثنان تحت التعذيب في انقلاب شباط الفاشي عام 1963. أما مصير بهاء وحميد عثمان فقد أشرت لهذا في موضوع "منظمة راية الشغيلة وتجربتي معها"، وهو مصير على أقل تقدير غير حميد بالنسبة للأول وغير مشرف بالنسبة للثاني.

صور من معاناتنا في سجن بعقوبة

أصعب الأمور التي واجهناها في سجن بعقوبة الانفرادي هو حرماننا من الكتب والصحف والورق والأقلام، والتفتيش اليومي المصحوب بالإهانات والعقوبات بالسجن الانفرادي أو بالمقرعة لأسباب تافهة. فعلى سبيل المثال، عوقب الرفيقان أكرم حسين وعزيز الحاج لصنعهما جواريب شخصية من ملابس سجنية قديمة لاتقاء برد الشتاء على اعتبار أن ذلك تلاعب غير جائز بالملابس السجنية! كانت أخبار الحزب ومنشوراته تصلنا ونتداولها سراً، والكراريس تستنسخ على دفتر أوراق لصنع السكائر اليدوية (دفتر لف). وكانت جريدة البلاد، وغيرها أحياناً، تصلنا، بواسطة سجان اسمه علي وهو من فلاحي ناحية الحسينية في كربلاء، بشكل سري وغير منتظم، ونتداول أهم ما فيها سراً. وقد انكشف أمر هذا السجان وطرد من وظيفته بعد أن عوقب بقسوة ووحشية أمام أنظارنا، تشفيا بنا. وقد تألمنا جميعا واكتأبنا لمرآه وهو مكبل بأثقل أنواع السلاسل. لقد تفقده الحزب بعد ثورة 14 تموز وساعده على إيجاد عمل مناسب له. وأقيمت في السجن دورات تدريسية تضم الواحدة منها بحدود 5- 7 رفاق لتدريس الاقتصاد السياسي واللغة العربية واللغة الإنكليزية و...الخ. وكان الاشتراك في دورة واحدة إلزاميا. ويتم التدريس بشكل شفهي. واستخدم المساهمون في دورات اللغة الإنكليزية قطعة صغيرة من لبّ قلم الرصاص ليكتبوا الكلمات الجديدة على أذرعهم، بعد أن يشدوا تلك القطعة برأس ثلاثة عيدان شخاط! وقد اشتركت في دورة للاقتصاد السياسي حاضر فيها يوسف حنا ودورة للغة العربية درّس فيها بهاء الدين نوري. وساهم الرفيقان زكي خيري وعزيز الحاج في التدريس أيضاً في دورات أخرى.

كانت المواجهة في السجن شهرية، ويُعد يوم المواجهة يوماً بهيجاً ولكن ليس بمستوى واحد للجميع. فالساعة التي يخرج فيها السجناء تكون صعبة وتبدو طويلة على الآخرين من الذين ليس لديهم مواجهة. كان ينتابني شعور عميق باليتم

والظلم. وأظن أن نفس الشعور كان ينتاب الآخرين من أمثالي. كنت يائساً من الحصول على مواجهة، لأنها تحتاج إلى رخصة من دائرة الأمن (التحقيقات الجنائية). ويعتبر السفر من كربلاء إلى بعقوبة مكلف بالنسبة لعائلة تركت بدون معيل. فقد كان أخي الثاني قاسم مشرداً في بغداد ولم يستطع الإقامة في كربلاء بعد أن أنهى محكوميته. وانخرط الأخ الثالث مجيد في الجيش ليؤدي خدمة العلم، في حين يقضي الأخ الرابع حميد محكوميته في سجن الموقف. وترك الأخ الخامس جليل (14 عاما) والسادس خليل (10 أعوام) الدراسة وأصبحا عمالاً في صناعة الأفرشة (ندافين) ليتمكنا من إعالة نفسيهما والعائلة. وكانت جدتي، أم والدتي، قد استقرت نهائيا في بيتنا واحتلت بجدارة، في غيابي وغياب إخوتي الكبار، إدارة شؤون العائلة.

جدتي

كانت جدتي، أم والدتي، وعمرها آنذاك حوالي ستين عاماً، قد استقرت نهائيا عندنا بعد وفاة أمي. إنها امرأة قوية الشكيمة، وتعمل خياطة طاقيات في البيت لأصحاب المحلات. كان شعورها عالياً بالمسؤولية تجاه العائلة. وقد تحولت علاقتها بأصغر أربعة من إخوتي إلى علاقة أم بأبنائها أكثر منها علاقة جَدة بأحفادها. كانت تتعاطف معنا متأثرة إيجابا بسلوكنا، أنا وإخوتي الذين اقتدوا بيّ، وبالرفاق الذين كانوا يترددون علينا. وكانت تأتي لمواجهتنا في السجون والمعتقلات وترفع من معنوياتنا، وتخفي المنشورات والكتب الممنوعة تحت ملابسها، وتلوذ بالقرآن تقرأ فيه، عندما كان البوليس يتحرى بيتنا.

وهناك عامل لعب دوراً هاماً في تأثرها الإيجابي بسلوكنا، ألا وهو سلوك خالي صادق. كان خالي ابنها الوحيد منصرفاً في شبابه انصرافاً كليا إلى اللهو والطرب، وليس على طريقة والدي "الحضارية" وهي الاستمتاع في بغداد بالملاهي والمقاصف و...إلخ. وكان يقضي أوقات طويلة مع الغجر(الكاوية) وحفلات الأعراس. وكان صوته جميلاً، ويُعد ضابط إيقاع جيد، إضافة لذلك كان وسيماً ولديه عشيقات. كانت جدتي تأخذ الرسائل، المتبادلة بينه وبينهن، من جيبه لأقرأها لها، وذلك عندما كنت صبيا. كانت مهنته (عربنجي)، وتحول لاحقاً إلى سائق. وبدلاً من أن يساعد جدتي، باعتباره معيلها وأعفي من العسكرية لهذا السبب بالذات، كان يتهرب من أداء هذا الواجب أحيانا كثيرة.

وما كان خالي في نظر جدتي إلا مجرد " دنبكجي" يطارد الكاولية. وعند مقارنة سلوكنا بسلوكه ، كانت تعتبرنا مهذبين. وعندما أراد أخي حميد نقل العائلة إلى بغداد في عهد عبد الكريم قاسم، لتأسيس بيت حزبي لدى لجنة التنظيم المركزية، فإنها لم تعترض على ذلك. كان شرطها الوحيد هو أن يكون موقع البيت في الكاظمية. وفعلا عاشوا في الكاظمية. وبقي البيت بعد انقلاب شباط الفاشي عام

1963 مدة شهرين، فلم يكن أحد ممن يعرفون البيت قد وقع بيد البعث الفاشي سوى الرفيق حسن عوينة والذي استشهد تحت التعذيب بعد فترة وجيزة من الانقلاب. وقد دوهم البيت من قبل "الحرس القومي"، حيث اصطحبهم إليه سلطان الملا علي المرشح لعضوية اللجنة المركزية بعد اعتراف كريم عباس عليه. وقد ألقي القبض في البيت على عزيز الشيخ، المرشح لعضوية المكتب السياسي، إضافة إلى أخي حميد ([27] *)، وبقيت عناصر من "الحرس القومي" في قسم من البيت (البراني) أكثر من شهرين. وكانت جدتي حارساً أمينا على إخوتي الصغار المحجوزين في قسم مستقل من البيت (الدخلاني).

وقبل أن أنهي حديثي عن جدتي بودي أن أروي هذا الحادث عنها. في بداية عام 1974 زرتها، وكنت عائداً من الدراسة في موسكو، في بيت أخي حميد. شكت لي كيف أنها وقعت من الدرج في إحدى الليالي، وجرحت في يدها وظهرها. لقد واسيتها، ودُهشت كيف أنها عاشت بعد تلك الحادثة، فالدرجات عددها 12 درجة صخرية وكان عمرها يناهز الثمانين عاماً!!. وقد أعتقلت في عام 1982 لعدة أشهر مع ستة وعشرين فرداً هم جميع إخوتي ونسائهم وأطفالهم، المقيمين في بغداد، كرهائن بدلاً عني. ولهذا الاعتقال قصة، مجالها في مكان آخر. وقد كان موقف جدتي جيدا في المعتقل. وقد توفيت عن عمر يناهز التسعين عاما. وأما خالي فقد خفف من اللهو والطرب ومن ثم نأى بنفسه عن ذلك بعد زواجه، وأصبح سكرتيراً لنقابة السواق بعد ثورة 14 تموز، وأعتقل في انقلاب شباط عام 1963. كان خالي يحبنا جميعا ونحبه. وهداياه في الأعياد (عيدية)، وعادة نقدية، أكثر من جميع الأقرباء. ولم يتوان، ولا مرة واحدة، من أن يتكفلنا عندما كنا نحتاج ذلك في مركز الشرطة وفي أصعب الظروف.

***

نعود إلى الحياة في السجن. في مواجهة الأول من تموز 1957، وبعد عودة السجناء من المواجهة، نادى السجان باسمي وأردف ذلك بـ "مواجهة" لم أصدق أذني. كرر الرفاق الذين يقفون بالقرب مني ما قاله السجان مندهشين ومستفسرين مني:"مَن سيكون؟" أجبتهم فوراً:"لا أعرف".

واندفعت باتجاه الباب (ضارباً أخماساً بأسداس) وأنا في طريقي لمكان المواجهه. وإذا بي أقف أمام ستة وجوه عزيزة جداً عليّ، وهي جدتي وأخي مجيد وأخوتي الثلاثة الصغار مع أختي الصغيرة سهيلة. شعرت بالسعادة وأنا أتحدث معهم رغم

[27] ـ جاء في "عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي" للكاتب الرفيق عزيز سباهي الجزء الثاني ص 561 ما يلي: " في 8 نيسان 1963، اعتقل عزيز الشيخ وبعده سلطان ملا علي".هذه المعلومة غير صحيحة. والصحيح ـ وما يؤكده أخي حميد ـ هو ما مذكور في أعلاه.

القضبان التي كانت تفصل بيننا والسجان الذي كان يراقبنا عن كثب. وسمعت من جدتي، كعادتها في مثل هذه الحالات، كل ما من شأنه أن يرفع المعنويات على سبيل المثال: "غمض فتح تنگضي". علمت من أخي مجيد بأنه باع البقية الباقية من وسائل العمل التابعة لمحل عملنا لتغطية تكاليف المواجهة، وأنه قام شخصياً بمرافقة العائلة إلى دائرة التحقيقات الجنائية. والمعاملة كانت روتينية في الدائرة المذكورة. لم يسمحوا لنا بأكثر من ربع الساعة لأنها مواجهة غير نظامية. فقد حصلت بعد انتهاء المواجهة العامة لوصولهم متأخرين، وبالكاد سمحوا لهم بالمواجهة. كانت هذه المواجهة الأولى والأخيرة خلال فترة سجني التي طالت أكثر من سنة ونصف.

مع السيد جلال الطالباني في قبو التحقيقات الجنائية

في كانون الثاني 1958 نودي علي من قبل إدارة السجن، وسط استغراب الجميع، لتسفيري إلى بغداد ـ مديرية التحقيقات الجنائية. وفي طريقي إلى المديرية المذكورة، عبر مركز شرطة بعقوبة، لم يسعفني تفكيري للتوصل لأي احتمال مهما ضؤلت نسبته حول أسباب استدعائي من قبل المديرية المذكورة. كنت بالطبع قلقاً. عند وصولي إلى المديرية أدخلوني إلى غرفة، وإذا بي وجها لوجه أمام حزام عيّال مسؤول منظمة راية الشغيلة في مدينة كربلاء للأعوام 1954- 1955، والذي ورد ذكره سابقاً. شككت في الحال بأنه معترف علي، لوضعه ومظهره الطبيعيين في مثل هذه الدائرة المتعسفة. ومع ذلك لم أظهر تشككي، وتصرفت وكأنني ألتقيه لأول مرة، وفقاً لمتطلبات الحال في مثل هذا المكان. إجاباته كانت مبهمة عن كيفية إلقاء القبض عليه، وحوّل الحديث إلى التعليق على آخر المستجدات السياسية، كعادته أيام زمان، عندما كان مسؤولي الحزبي! وقبل أن يكمل تعليقه، نودي علي، وعندما نهضت، وكنا جالسين على بطانية مفروشة على الأرض، عدّل حزام عيّال وضع نعلي ليسهل عليّ لبسهما، فتحول لدي الشك إلى يقين بأنه معترف. أدخلت إلى غرفة ضياؤها خافت، وفيها منضدة يجلس وراءها ضابط أمن. وأهم ما دار في التحقيق هو:

- ثبت لنا بأنك عضو في الحزب الشيوعي منذ عام 1954 ما قولك؟
- لا صحة لذلك.
- هل تعرف حزام عيّال؟
- كلا.
- لقد اعترف عليك.
- لا أعرفه.
- هل أنادي عليه ليعترف أمامك؟
- (كيفك) كيفما تشاء. وأضفت أنا محكوم ثلاث سنوات سجن وفق المادة 89- آ والتي تخص الشيوعية، فهل يجوز محاكمتي بهذه المادة مرتين؟

- أنا الذي يسأل وليس أنت. (صاير لي قانوني).
- (ذبّةً بالسرداب). أمر الشرطي أن يرميني في القبو

كنت مصمماً أن أنكر معرفتي بحزام عيَّال إذا ما نادوه. لم أكن أرغب في مواجهته، تجنبا للإحراج. وقد ارتحت كثيراً لعدم حصول المواجهة مع حزام، ولم يكن يهمني ما يحصل لاحقاً. وفي الحقيقة، فإنه بمجرد أن أدركت دوافع الأمن لاستدعائي، وهو لمشاهدتي مسؤولي السابق منهاراً ليؤثر ذلك على معنوياتي وأنهار أنا الآخر. فقد زال القلق عني.

أنزلوني إلى قبو مظلم تقريبا، درجاته حوالي الستة، وممره لا يتسع لأكثر من شخص واحد. قعره يسع لنوم بضعة أشخاص. رائحة الرطوبة فيه مزعجة وهناك بضع بطانيات عسكرية مرمية بشكل عشوائي على الأرض ومشبعة بالرائحة المذكورة. وهناك كوّتان صغيرتان عاليتان يتسرب النور منهما إلى القبو في النهار. أما في الليل فهناك مصباح كهربائي يجري التحكم به من الخارج.

بعد فترة دخل القبو شاب بنفس عمري آنذاك على وجهه آثر صفعات حديثة، ويبدو من لهجته، إنه كردي. بعد زوال الحذر بيننا دخلنا في مناقشة لا سابق لي بها. فلأول مرة في حياتي أصادف شخصا معاديا للحكومة ينتقد الحزب الشيوعي العراقي بنفس الدرجة من الحماس التي يتهجم فيها على الحكومة. لم أتعرف على اسمه ولكن عرفت بأنه طالب حقوق. في اليوم التالي أعادوني إلى سجن بعقوبة عبر موقف السراي. وفي هذا الموقف عرفت بأن الشخص الذي التقيته في قبو التحقيقات الجنائية هو جلال الطالباني عضو البارتي (الحزب الديمقراطي الكردستاني) ([28] *).

الحزب يفضح ما يجري في سجن بعقوبة

لم يتوان الحزب يوماً عن المطالبة بإطلاق سراح السجناء السياسيين، ولا عن فضح ما يتعرضون له من تنكيل. فعلى سبيل المثال، نشرت جريدة "اتحاد الشعب" في عددها الصادر في تشرين الأول 1957 ما يلي:

---

[28] - * إنه نفس السيد جلال الطالباني رئيس الجمهورية العراقية الذي تجنب (عندما ذكر أسماء شهداء الحركة الوطنية في العراق، طيلة تاريخها المعاصر، في كلمة تنصيبه رئيسا للجمهورية) ذكر اسم أي شهيد من قافلة شهداء الحزب الشيوعي العراقي، رفاق النضال لعشرات السنين، بمن فيهم الشهيد سعدون عضو الجمعية الوطنية المؤقتة، شهيد العملية السياسية الجارية، التي بفضل نجاحاتها تم تنصيب السيد جلال الطالباني رئيسا للجمهورية. ومع ذلك فإننا نتباهى بكردية رئيس جمهوريتنا باعتبارها إحدى العلامات المضيئة في عراقنا الجديد.

"مرة أخرى نعود للتحدث للرأي العام العراقي والعربي والعالمي عما يلاقيه السجناء الأحرار في سجن بعقوبة. فوراء البوابة السوداء لهذا السجن يجري أبشع أنواع التنكيل بحق معارضي حلف بغداد ومبدأ آيزنهاور والمناضلين في سبيل حقوق الشعب العراقي الدستورية وفي سبيل حرية الأمة العربية ووحدتها. ولم يعد أحد يجهل أساليب التعذيب التي تتبعها إدارة سجن بعقوبة تجاه هؤلاء المناضلين وبإشراف من (لجنة مكافحة النشاط الهدام) التابعة لحلف بغداد...إننا نناشد كل الوطنيين الشرفاء ورجال المعارضة الوطنيين ورجال القانون وكل ضمير إنساني أن يرفع صوته استنكاراً لهذه الأساليب الوحشية"

المقدمات المباشرة لثورة 14 تموز المجيدة

أما خارج أسوار السجن فقد استفادت الأحزاب الوطنية من تجربة انتفاضة تشرين الثاني 1956، التي لم تحقق أهدافها بإسقاط حكومة نوري السعيد والمجيء بحكومة تحرر العراق من حلف بغداد والاتفاقيات الاستعمارية الأخرى...الخ، فتوجهت لتوحيد صفوفها بإقامة "جبهة الاتحاد الوطني" وتحقيق جبهة ثنائية بين البارت والحزب الشيوعي العراقي ليصبح الأخير همزة الوصل بين البارت والأحزاب الأخرى. وأمام العنف الوحشي الذي مارسته السلطة في قمع الانتفاضة، وظلت تمارسه تجاه أي نشاط سياسي جماهيري، لجأت الحركة الوطنية العراقية، مضطرة، للاستعانة بالجيش كملاذ وحيد أمامها لتفجير الثورة. وكان الجيش مهيأ لذلك فالمشاعر الوطنية والقومية تغلي بداخله وتنظيم الضباط الأحرار قد بلغ شوطاً هاماً في تطوره.

كانت تجربة الضباط الأحرار في مصر واستعداد مصر والاتحاد السوفييتي للمساعدة دفاعاً عن الشعب العراقي في وجه أي تدخل عسكري أجنبي عند الضرورة، وهزيمة العدوان الثلاثي على مصر، واشتداد نضالات جماهير العمال والفلاحين من أجل مطاليبهم المعيشية، وعزلة النظام الملكي الاستعماري، إضافة إلى قيام "جبهة الاتحاد الوطني" كلها عوامل هامة رفعت من معنويات حركة الضباط الأحرار وجعلت القيام بعمل عسكري حاسم في جدول عملها. وكانت للجنة العليا لحركة الضباط الأحرار علاقة رسمية باللجنة العليا لجبهة الإتحاد الوطني، فضلاً عن علاقة رئيسها الزعيم عبد الكريم قاسم بالحزب الشيوعي العراقي والحزب الوطني الديمقراطي بواسطة رشيد مطلك لإعلام الحزبين المذكورين بآخر تطورات الموقف العسكري لضمان الدعم الجماهيري عند تنفيذ الخطة.

قبل حوالي الشهرين من ثورة 14 تموز 1958، في شهر أيار على الأرجح، وصلت رسالة تحريرية من سلام عادل إلى قيادة المنظمة في السجن (اللجنة الحزبية) وفحواها: "إن العراق على أبواب تحولات هامة تفتح الطريق إلى تحرير العراق وإطلاق الحريات الديمقراطية وتحرير السجناء السياسيين ...الخ".

لم ينظر إلى مضمون الرسالة بجدية من قبل اللجنة الحزبية بل وتعرضت للسخرية من البعض باعتبارها محض مبالغات وادعاءات(خَلفيّات) ([29] *). ولهذا السبب، وربما لأسباب أخرى، لم يجر إشعار الرفاق الآخرين في السجن بفحوى الرسالة المذكورة، لا تصريحاً ولا تلميحاً. ومدة السجن عندما تطول كثيراً، عشر سنوات مثلا، كما هو حال أغلبية أعضاء اللجنة الحزبية، تخلق وضعاً نفسياً متشائماً وقنوطاً، نسبياً. أضف إلى ذلك فإن اللجنة الحزبية لم يكن لديها ولا يمكن أن يكون لديها معلومات ملموسة عن النشاط العسكري نظراً لخطورة تداول مثل هذه المعلومات. وكانت التقديرات السياسية الواردة في الرسالة المذكورة غير بعيدة عما جاء في مقال جريدة "اتحاد الشعب" في أواخر أيار 1958 تحت عنوان "الحكم الأسود اقتربت نهايته" جاء فيه:

"هذا الوضع في العراق لن يدوم طويلاً... إن العرب في شتى ديارهم يشعرون بهذا ويتوقعونه. وكبار رجال السياسة والصحافة والأجانب من الإنكليز والأمريكان وغيرهم الذين زاروا العراق مؤخراً خرجوا بمثل هذا الاستنتاج أيضاً...أما جماهير شعبنا فهي على اختلاف طبقاتها تشعر بأن هذا الحال لم يعد يطاق... والواقع إن هذا التحسس العام باستحالة دوام الحال على ما هو عليه، ليس سوى مدى وانعكاس لتفاقم التناقضات واستحالة التوفيق بينها وتعبيراً عن الأزمة التي توشك أن تخنق أنفاس الحكم الاستعماري في بلادنا... فالشعب العراقي لم يعد قادراً على الصبر على سياسة حلف بغداد وما جرت وما ستجر إليه من نتائج مدمرة ومهينة. كما أن الحاكمين يرون أن أسلوبهم في الحكم لا يزيدهم إلا ذلة... الخ".

مع ذلك فوجئنا (نحن السجناء في سجن بعقوبة) بأنباء الثورة وظل الكثيرون غير مستوعبين ما يجري ويتصرفون، وكأن شيئاً لم يحدث. وبعد أن استوعبوا ذلك فإنهم أخذوا يرجحون فشلها بتدخل عسكري أمريكي - بريطاني وشيك. ولم تدم هذه الحالة طويلا فقد تبددت بفضل المنحى السريع للتطورات.

الثورة

صباح ثورة 14 تموز كنت في الفرن، فقد كان الدور في ذلك اليوم لفريقنا، الذي يضم الرفاق عزيز محمد وسلام الناصري وأكرم حسين وعدنان عبد القادر وأنا وآخرين. وبين الساعة السادسة والنصف والسابعة صباحاً، صاح سجان وهو راكض بجوار باب الفرن "انقلاب" فاندهشنا. ولم تدم دهشتنا طويلا فقد مر سجان آخر راكضاً وصائحاً "صارت جمهورية" تحلقنا حول الطاولة المخصصة لتقطيع

[29] - *أوصل الرسالة إلى السجن، سرا، الرفيق عادل حبة، وسمع رد الفعل عليها من الرفيق سلام عادل عند تواجدهما في المدرسة الحزبية في موسكو عام 1962.

العجين ووزن (الشنكة) وتهيئتها ــ وكان ذلك عملي في الفرن ــ بادر الرفيقان عزيز محمد وسلام الناصري بالقول: "ستفشل"!؟ لا أتذكر موقفي بالدقة ولكن ما أتذكره بالتأكيد هو أنني لم أعترض عليهما خاصة وإنني كنت أنظر إليهما باعتبارهما من أساتذتي. ولكن قلبي بالتأكيد لم يكن معهما لطبيعتي المتفائلة.

عندما عدنا إلى جناحنا في السجن بعد انتهاء عملنا في الفرن وجدنا أبواب الغرف مغلقة، خلافا للعادة. وهذا الإجراء هو أول رد فعل لمدير السجن على الحدث. كانت الأناشيد الوطنية تسمع من راديو بغداد بواسطة السماعة. وقد فتحت أبواب الغرف لاحقاً في نفس اليوم. ساد القلق الموقف، فنحن سجناء عزل تحت رحمة قوى غاشمة، فلم تغب عنا حتى هواجس الانتقام، في حالة فشل أو نجاح الثورة. جاءت التشكيلة الوزارية بشخصيات وطنية وقومية معروفة لنا لتشير إلى أن تحولاً جذرياً قد حصل. في اليوم الثاني من الثورة رأينا صورة قائد الثورة الزعيم عبد الكريم قاسم وقد علقها مدير السجن في غرفته ووقفنا في الدور لكي نشاهدها واحداً بعد آخر.

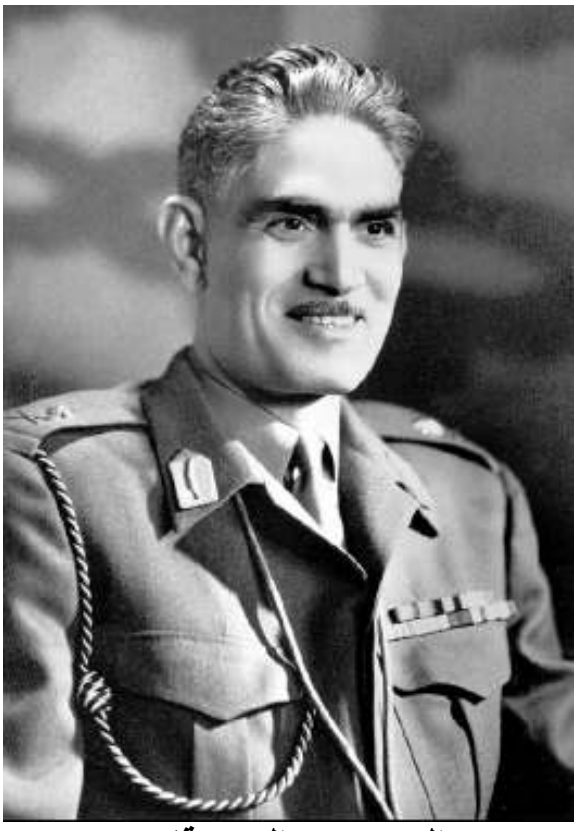

الزعيم عبد الكريم قاسم

أجريت تغييراً على أسلوب توزيع السكائر وأخذت أعطي علبة للمدخن وعندما يكملها أعطيه علبة ثانية. وبعد بضعة أيام من الثورة وردتنا بالبريد العديد من الرزم التي تحوي السكائر، فتوسعت في التغيير حيث أصبحت السكائر مشاعة. المدخن يأخذ حاجته من كيس كبير يحوي المخزون وموجود في الغرفة التي أقيم فيها. ناقشت اللجنة الاقتصادية، التي أنا عضو فيها، الموضوع واعتبرت أسلوبي

غير صحيح، لأنه يشجع الرفاق على الإفراط في التدخين وطالبت بالعودة إلى الأسلوب القديم. وكنت أعتقد بأن الوضع النفسي العام لا يساعد على أي نوع من التحديد، والمدخن يجب أن يكون هو الرقيب على نفسه. وأبديت استعدادي الكامل لتسليم المهمة لغيري. لم نتوصل إلى حل. فرفعوا الموضوع إلى اللجنة الحزبية، فالتقى بيّ هادي هاشم الأعظمي.

كان الوضع محرجاً بالنسبة لهادي. فقد كنت مصراً على أسلوبي واللجنة الحزبية تريد تغييراً في ذلك وفي نفس الوقت ليس هناك من يوافق على استلام المهمة بدلاً عني بالارتباط مع وضع قيود على التدخين. لقد أبدى هادي هاشم تفهما لموقفي، خاصة وأنه مدخن شره. اتفقنا على تغيير معين، في واقعه غير جوهري، وهو أن أعطي ما يحتاجه المدخن بيدي، لا أن يأخذ هو، ما يريد. وهذا التغيير لم يكن يهم المدخنين، فما يهمهم هو توفر السكائر بدون قيود، وهذا ما كان.

بعد فترة خفت القيود علينا. أخذت الصحف تدخل إلى السجن وأبواب الغرف أصبحت مفتوحة دائما. بعد حوالي الأسبوعين صدر أول مرسوم جمهوري بقائمة أسماء المطلق سراحهم، وقد أطلق سراحهم فورا. كان اسمي في القائمة الثانية، إلا أن عدم التطابق التام بين اسمي والاسم المطلوب حال دون إطلاق سراحي. ويعود الفضل لأخي قاسم الذي تابع معاملة إطلاق سراحي حاملاً ملفي ليجمع عليه تواقيع الوزراء المعنيين ليصدر بعد شهر واحد من سقوط النظام مرسوم جمهوري باسمي وحدي. وقد استغل ذلك الأقرباء وكذلك الخيال الشعبي ليضفي نوعا من الأهمية والخطورة على شخصيتي، مذكرين بالمواقف السابقة كالهتافات في المحكمة والاصطدام مع مدير الشرطة... الخ.

6
العودة إلى ساحة الكفاح

أنيطت بي مسؤولية المنظمة في كربلاء عندما أطلق سراحي من السجن، ، وأبلغني بذلك الشهيد حسن عوينة في أول يوم من وصولي إلى مدينة كربلاء. كانت المنظمة صغيرة تتكون من خلية شيوعية، لا يتجاوز عناصرها عدد أصابع اليد الواحدة في المدينة وأخرى بنفس العدد في الريف ويقود المنظمة الرقيق علي النوري.

عند خروجي من البيت إلى المدينة والتجوال في شوارعها والالتقاء بالناس، لاحظت بان هناك جمهرة واسعة من الشباب من مختلف الفئات الاجتماعية متحمسة للتنظيم والنشاط الجماهيري المنظم، إلا أنها لا تعرف السبيل إلى ذلك. كانت الجماهير تتجمع عند "مكتبة الشعب"، التي تأسست بعد الثورة لتبيع الصحف والكتب الماركسية واليسارية. وكانت تلك الجمهرة تقوم بنشاطات عفوية

وردود فعل آنية. فعلى سبيل المثال، أقيم احتفال في اليوم الثاني لوصولي إلى المدينة في نادي الطلبة، احتفاء بالشاعر المعروف محمد صالح بحر العلوم. وعندما جاء دور الآنسة صبيحة الخطيب لتلقي كلمة ترحيبية باسم نساء المدينة، خلعت عباءتها وألقت كلمتها سافرة. واستغل تصرفها، وهو الأول من نوعه في تاريخ المدينة، من قبل القوى الرجعية فوقعت المذكرات ونظمت الوفود وقابلت المتصرف ومدير المعارف مطالبة بفصلها من وظيفتها، وكانت مدرسة في ثانوية البنات. وتحرك المثقفون بالمقابل يدافعون عنها بوفود ومذكرات معاكسة، ويشكلون الوفود لمقابلة الآنسة صبيحة لرفع معنوياتها. كل ذلك والمنظمة لا دور لها فيما يجري.ودار بيني وبين علي النوري الحوار التالي:

ـ لماذا لم ترشحوا بعض الشباب المتحمس لعضوية الحزب وتنظموهم في خلايا؟

ـ لا يوجد لدينا نظام داخلي، في حين أن أحد شروط العضوية هو إقرار المنتسب الجديد للنظام الداخلي وبرنامج الحزب. بالنسبة للبرنامج لم تكن هناك مشكلة كبيرة. فبيانات الحزب تعوض نسبيا عن ذلك ويطلع عليها الجميع. أما بالنسبة للنظام الداخلي فهناك مشكلة. طالبنا الحزب، منذ الأيام الأولى للثورة بتزويدنا ولو بنسخة واحدة ولكن...

ـ طيب، وما العمل؟ إن المهمة الملحة التي تواجهنا هي إيجاد منظمة حزبية قوية وكبيرة لكي نتمكن من قيادة وتوجيه الجماهير، هناك إقبال وحماس كبيرين للانتساب للحزب.

التحول من منظمة صغيرة إلى منظمة كبيرة

وهكذا فإن شروعنا في بناء منظمة قوية وكبيرة كان متوقفاً على إيجاد نسخة واحدة من النظام الداخلي. تذكرت وجود نص للنظام الداخلي في الموسوعة، التي أصدرتها دائرة التحقيقات الجنائية بعد الضربة التي وجهت للحزب عام 1948. وعثرنا على نسخة من الموسوعة في مكتبة المدينة بالفعل. كان التقليد المتبع عند ترشيح عناصر جديدة للحزب، هو تثقيفهم بالمواد الخمسة الأولى من النظام الداخلي في اجتماع خليوي نظراً لأهمية هذه المواد، فهذه المواد تتحدث عن طبيعة الحزب وأسس بنائه وطبيعة أهدافه القريبة والبعيدة ونظريته ومصادرها وطبيعة فلسفته. وتتحدث كذلك عن حقوق وواجبات العضو الحزبي. وقد استنسخنا المواد الخمس، أو بالأحرى استنسختها العناصر المنوي ترشيحها. ولم يمر وقت طويل حتى أصبح لدينا تنظيمات خاصة للعمال والطلاب والمثقفين وغيرهم. تكونت لجنة لقيادة المنظمات في المدينة والريف متكونة من علي النوري وإبراهيم كرماشة وصاحب باقر وجاسم الطويل ومدرس جاءنا مرحلاً من بغداد يلقب بالحسني، ولا أتذكر اسمه الأول، وسيد هادي (أبو كفاح)، وعبد الحسين الشروفي، الذي التحق

باللجنة لفترة مؤقتة، فقد وصلنا مرحلا من منظمة بغداد وعاد اليها بعد بضعة أشهر، وأنا سكرتيرها.

وبمساعدة جدية من مراكز المنظمات الديمقراطية والمهنية في بغداد تأسست فروع للمنظمات المهنية والديمقراطية الجماهيرية في المدينة مثل اتحاد الطلبة العام ورابطة الدفاع عن حقوق المرأة والشبيبة الديمقراطية وحركة أنصار السلام ونقابات العمال ونقابة المعلمين. وقد ساهمت المنظمة الحزبية ومعها جميع المنظمات الديمقراطية والمهنية بمختلف الفعاليات والنشاطات دعما للنظام الجمهوري الفتي وإجراءاته التقدمية المختلفة من خلال تنظيم المسيرات وتوقيع المذكرات و...الخ.

القوى الرجعية تتحرك

كانت القوى الرجعية والمعادية لثورة 14 تموز، وخاصة الملاكين الذين شملهم الإصلاح الزراعي وحوشيتهم والمشايخ المستفيدين منهم، تطمح إلى تحويل مدينة كربلاء إلى مركز معارضة للنظام الجمهوري الفتي. وكانت ترى فيها أنسب المدن المقدسة لذلك، مستخدمين بعض رجال الدين لهذا الغرض، ومستغلين معارضتهم للإصلاح الزراعي و لمساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات. وقد استخدم هؤلاء وسائل عديدة لتحقيق هدفهم، ولكنهم فشلوا بفضل يقظة القوى المؤيدة للعهد الجديد. ومن أهم الفعاليات التي قامت بها هذه القوى خلال السنة الأولى من الثورة هي:

* بناء على توجيه حزبي، سافر وفد كبير جداً منا إلى بغداد لتهنئة الملا مصطفى البرزاني بسلامة عودته إلى الوطن. وكان معظم رفاق المنظمة وكل قيادتها ضمن الوفد. وعند عودتنا شهدنا شوارع المدينة مملوءة بلافتات كبيرة تحمل شعارات معادية، ضمناً أو صراحة، للشيوعية والقوى التقدمية والمغلفة بعبارات دينية ومنها شعار "الشيوعية كفر وإلحاد". واندهشنا للأمر، وأخذنا نتساءل (شصاير؟... صاير انقلاب؟!). تدارسنا الموضوع واستنتجنا بأن سكوتنا سيكون البداية لزحف الرجعية، فقررنا إنزال جميع اللافتات، ونفذ ذلك بسرعة وبدون عوائق.

في اليوم التالي أغلق سدنة الروضة العباسية أبواب صحن العباس(ع) أمام الزائرين احتجاجا على إنزال لافتة كانت مرفوعة على أكبر وأبرز أبوابه، وهو الباب المواجه لشارع العباس، ولم يكن الشعار معاديا لأحد، وكان مجرد ترحيب بالزائرين. وأدعى سدنة الروضة بان اللافتة مرفوعة منذ بضعة أيام ولا علاقة لها بالشعارات الأخرى. سويت المسألة بعد أن قام الرفيقان، اللذان أنزلا الشعار وهما

كاظم الرماحي (قتله البعثيون في عيادته عام 1991 لمعالجته جرحى الانتفاضة) والفقيد مهدي الصافي، بالاعتذار لهم.

* في بعض الأحيان، كان السيد محسن الحكيم ينتقل للإقامة مؤقتاً في مدينة كربلاء. وجرت العادة أن يأتي ماشياً للصلاة في أحدى الروضتين. كان يتجمع حوله عدد لا يزيد عن الخمسين شخصا، بينهم عدد من الشقاوات أحدهم اسمه حسين عجمي، وهم يهتفون "الله أكبر والموت للشيوعية". وبعد بضعة أيام تغير الهتاف إلى "الله أكبر والعزة للإسلام". وقيل في حينه أن متصرف كربلاء أرسل للسيد الحكيم من يخبره بأن الشعار الأول قد يسبب فتنة في المدينة ورجاه أن يطلب من مرافقيه الكف عن ذلك. وقد نجحنا في حينه بإصدار بيان سياسي مشترك، وقعه إلى جانبنا الوطني الديمقراطي والبعث، يدعم الثورة ويدعو إلى وحدة الصف ونبذ الفرقة ويدين الرجعية و...الخ. وقد "ماطل" الحزبان كثيراً في التوقيع عليه، ولم يوقعاه إلا بعد مغادرة السيد الحكيم للمدينة.

* في عيد المولد النبوي وصلنا خبر يفيد بأن تحشداً رجعياً كبيراً سيحصل في كربلاء تحضره شخصيات وقوى إسلامية متشددة من جميع الطوائف، وبعد الانتهاء من الاجتماع سيتوجه حشد منهم إلى مكتبتنا لتحطيمها. عند استلامي الخبر كان هناك اجتماع للجنة منطقة الفرات الأوسط، وكنت عضواً فيها. تناول الاجتماع الموضوع وقرر: تحشيد كل قوى منظمة كربلاء في المدينة والريف للدفاع عن المكتبة، التي كانت بمثابة مقر للمنظمة، ومعلماً شيوعياً في المدينة.

الاستعداد للرد الحازم لأي اعتداء

عصر ذلك اليوم تقاطرت الوفود الإسلامية المتشددة من المدن القريبة لكربلاء، لاسيما بغداد. ونصبت مكبرات الصوت في الشوارع والأماكن العامة لتنقل الحفل حياً على أوسع نطاق. لم يكن من الممكن إخفاء تحشدنا، فقد امتلأت الأزقة المجاورة للمكتبة بالعمال والفلاحين وهم مسلحون بمختلف الأسلحة، غير النارية (توثية، جراز، مكوار، قامة، جنتيانة، خنجر، سكينة، بوكس حديد و...الخ). وكانت الأسلحة مخفيّة، وإخفاؤها كان أسهل على الفلاحين الملتحفين بعباءاتهم.

ومع غروب ذلك اليوم وقفت سيارة متصرف (محافظ) كربلاء، عبود الشوك، وكان يحترم آراءنا ويقدر مطاليبنا، وربما أصبح لاحقاً متعاطفاً معنا، أمام المكتبة وناداني وجرى بيننا الحوار التالي:

- ها...هاي شنو هالتجمع؟ كنت متوتراً وأردت أن أشعره بخطورة الوضع وبجدية موقفنا، فقلت له:
- هذا مشق!

- شنو يعني مشق؟ (أجابه مرافقه: استعراض المتطبرين عشية التطبير)
- ليش شكو شصاير؟
- سمعنا إنهم ينوون تحطيم المكتبة وأحنا مستعدين اندافع عنها.
- فرقهم...فرقهم رجاء. محد يعتدي على المكتبة... فرقهم!
- ما نكدر نتفرق قبل انتهاء الحفل.

غادرنا بعد أن طمأننا على عدم تعرض أحد للمكتبة، وطمأناه على المحافظة على النظام والهدوء إذا لم يتعرض لنا أحد. أما إذا اعتدى أحد علينا فسنلقنه درساً لن ينساه طول عمره! توجه المتصرف إلى الحفل، ويبدو أنه حذر المعنيين من مغبة الاعتداء علينا. وفعلاً لم يحصل ما يعكر الأجواء، وتحاشا الخطباء الاستعداء و كلمات التحريض الواضحة وليس المبطنة. وتفرقنا، بعد أن تأكدنا من انتهاء كل شيء، وبمعنويات عالية، لنجاح خطتنا في إحباط محاولة الاعتداء علينا.

مهرجان أنصار السلام

كان للتوتر وحدة الصراعات في مدينة كربلاء انعكاساتها السلبية على علاقات المنظمة بالجماهير. فلم تكن تلك العلاقة في نمو مضطرد كما هو الحال بالنسبة للمنظمات الأخرى. فجاء مهرجان أنصار السلام في بداية 1959 عوناً لنا وغير أجواء المدينة لصالحنا. ففي يوم واحد تقاطرت الوفود من كل حدب وصوب على المدينة، ولاسيما من بغداد. تجمعت الوفود في الساحة الواقعة أمام ثانوية البنين. وصدح صوت محمد الطيار عريف الحفل مفتتحا المهرجان الخطابي وتوالت الكلمات، كلمة حركة أنصار السلام في كربلاء وكلمة النقابات العمالية ...ألخ. كانت الكلمة الأبرز والأطول هي لعزيز شريف سكرتير حركة أنصار السلام في العراق.

ومما أثار دهشة الكربلائيين هي وفود الشبيبة الديمقراطية البغدادية التي تركت حافلات نقلها خارج المدينة وقطعت الطريق مشيا على الأقدام، ذهابا وإيابا، من بداية المدينة، باب العلوة (باب بغداد)، حتى نهاية المدينة، مدرسة الثانوية، مرورا بشارع علي الأكبر (ع) فشارع العباس (ع). وكانت الوفود مشتركة والفتيات سافرات، والجميع ينشدون ويغنون للتضامن والسعادة والحياة والفرح، وربطات أعناقهم الحمراء تتراقص في الهواء. طلّ سكان البنايات في الشبابيك والشرفات على المارة في الشوارع ووقفوا في البدء مندهشين. فقد تعودوا فقط على سماع اللطم والبكاء والحزن والشكوى والتظلم والنحيب، ورؤية العباءات السود التي تخفي تحتها النور والجمال والحياة. وتحولت الدهشة إلى ابتسامات وتلويح بالأيدي تعبيراً عن التضامن ولسان حالهم يقول: "إننا أيضاً مثلكم نحب الفرح والحياة والجمال". أما تجار الحزن والموت والجهل والخرافات فكانوا قلقين على كساد "تجارتهم".

نزعة الهيمنة

كانت اللجنة التحضيرية لاتحاد الطلبة في ثانوية البنات تحت نفوذ الحركيين (حركة القوميين العرب) والوطني الديمقرطي، وترأست لجنتها التحضيرية الآنسة فاكهة النصراوي. ومع ازدياد نفوذ الشيوعيين في الثانوية المذكورة، ازدادت المطالبة بتغيير اللجنة التحضيرية. وتحت الضغط المتواصل من قبل الطالبات الشيوعيات وأنصارهن استجابت سكرتارية اتحاد الطلبة العراقي العام لإجراء انتخابات في الثانوية المذكورة. وقد جرت الانتخابات وفازت الشيوعيات وأنصارهن ولم يكن لديهن شخصية طلابية في الصفين الرابع والخامس (كانت الثانوية خمس سنوات فقط)، فترأست الفرع نوال الصافي وكانت في الصف الثالث.

كانت قيادة اللجنتين التحضيريتين لفرعي نقابة عمال البناء وعمال المخابز بيد الحزب الوطني الديمقراطي، وقد رموا كل ثقلهم وراءهما. وفي الوقت نفسه كرس العمال الشيوعيون وأنصارهم كل جهودهم لانتزاع القيادة منهم، وتم لهم ذلك من خلال الانتخابات وترأس نقابة البناء الكادر النقابي كامل ضاري والذي أصبح رئيسا لاتحاد نقابات العمال في كربلاء.

الوطني الديمقراطي هاله أن تسير الجماهير وراء الشيوعيين وقد عبر عن ذلك أحد أبرز مسؤوليهم السيد يحيي نصر الله بالقول: "آني متعجب على هالناس اللي تركض وره هذوله الحفاي الحلوائي وكرماشة وعايفه سادة الولاية وأشرافها". ولـ"تصحيح" هذا الخطأ لدى الناس، اصطفت قيادة الوطني الديمقراطي بكل وجوهها المعروفة، وبشكل مفاجئ أمام إحدى مسيراتنا في بداية عام 1959. لقد أغاظ تصرفهم هذا رفاقنا فاقترحوا حلاً، وهو عند وصول المظاهرة مفترق الطرق يتركون قيادة الوطني الديمقراطي تدخل في الطريق الاعتيادي ويغيرون اتجاه المظاهرة ويسلكون طريقاً آخر. لقد وافقت على المقترح، بدون حماس. وهكذا كان، فقد دخلت مجموعة الوطني الديمقراطي في الشارع ليجدوا أنفسهم قيادة بلا قاعدة!

الرجعية تستغل المنافسة

كانت القوى الرجعية، بما فيها القوى الإسلامية المتشددة والمتعصبة، تحاول استغلال المنافسة بين الحزبين الوطني الديمقراطي والشيوعي لدفعهم إلى الاصطدام، نكاية بالشيوعيين أو بالطرفين معا. واستغلت هذه القوى مشاعر الإحباط وخيبات الأمل التي يعاني منها الوطنيون الديمقراطيون بسبب ضعف تأييد الجماهير لهم. وكم من مرة مزقت لافتاتنا أو مرغت بالوحل ورميت على قارعة الطريق بالقرب من منطقة نفوذ الديمقراطيين، ونفوا قيامهم بذلك. وفي أحد الأيام كنا نسير، عبد الرزاق الصافي وأنا، في شارع العباس، عندما جلب لنا رفاقنا لافتة

منتزعة من مكانها، بالقرب من منطقة نفوذ الوطني الديمقراطي، وملوثة بالوحل. وكالعادة، تجاوزنا الإساءة.

في هذه الفترة أخذت تخرج مظاهرة، مساء كل يوم، من منطقة نفوذنا الرئيسية وهي محلة العباسية الشرقية، عدد المشاركين فيها يتراوح بين 50 - 70 شخصاً. ويتكون جمهورها من صبيان لا يتعدى عمر أكبرهم أربعة عشر عاما. كانوا يتجهون إلى مناطق نفوذ الوطني الديمقراطي وحزب البعث وهي متجاورة في محلة باب العلوة (باب بغداد). ويهتفون هتافات معادية لحزب البعث ومزعجة للوطني الديمقراطي. لم نعط اهتماماً للمظاهرة، بادئ ذي بدء، باعتبار أن ذلك لعب أطفال. ولكن بعد أن سمعنا بأنهم يرجمون بالحجارة مكتب المحامي جواد أبو الحب، أحد أبرز وأقدم البعثيين في المدينة، و أنزلوا لوحة الدكتور هادي الطويل من قادة الوطني الديمقراطي من على باب عيادته، وحوادث أخرى مشابهة، تصدينا لهم لنفرقهم، ولكن لم يستجيبوا. في حين لم تعد القوى الأخرى تصدق عفوية تلك المظاهرة.

في أحد الأيام أخبرنا ممثلنا محسن النقيب بأن المتصرف (المحافظ) أصدر بيانا يندد بالمظاهرات ومن يقف وراءها ويطلب توقفها وإلا فسيستخدم القوة لتفريقها. ولأن البيان قد يسيء إلينا بإشارته إلى "من يقف وراءها" ولأن المتظاهرين من المتعاطفين معنا، اقترحنا على المتصرف عدم توزيع البيان، ومنحنا فرصة 24 ساعة لإيقاف التظاهر، وإذا لم نفلح، فبإمكانه أن يوزعه. فوافق المتصرف على المقترح.

وضعنا خطة، وهي أن يتوزع الرفاق في شوارع محلة العباسية الشرقية ابتداء من غروب الشمس، وكلما رأوا صبيين أو أكثر يفرقونهم بعد أن يشرحوا لهم ما يمكن أن يلحقه عملهم من أضرار على الوضع العام في المدينة. و نجحت الخطة بفضل الجهود التي بذلها الرفاق في المحلة المذكورة. وتوقفت المظاهرات، ولم يوزع البيان. وعلمنا لاحقاً بأن بعض نسخ البيان قد وزعت على كبار المسؤولين في المدينة. لقد كبرت المنظمة بعين المتصرف إلى درجة كبيرة جدا. ولم ينس مساعدتنا له في حل هذه المشكلة إطلاقا. وكان يعتبرنا الجهة الوحيدة المتنفذة جماهيرياً في المدينة ويصرح بذلك عند الضرورة في أي مكان وبدون حرج.

بتشجيع من عراك الزكم وفرع الحزب الوطني الديمقراطي في مدينة كربلاء انشق عنا عضو حزبنا وأحد قادة فرع الاتحاد العام للجمعيات الفلاحية في كربلاء الذي كان تحت قيادتنا. وفوجئنا في أحد الأيام به وهو يقود مجموعة من الفلاحين متوجها نحو المتصرفية بهدف الحصول على سماح من المتصرف بتأسيس فرع آخر للاتحاد موازٍ للفرع القائم. أخبرنا المتصرف بأن ذلك مخالف لقانون الاتحاد العام للجمعيات الفلاحية المجاز من السلطات، الذي يحصر منح إجازات الجمعيات

الفلاحية واتحاداتها المحلية بالاتحاد العام للجمعيات الفلاحية. وبناء على ذلك رفض المتصرف طلبه.

الاصطدام بين الحزبين الوطني الديمقراطي والشيوعي في كربلاء

تأسس فرع الحزب الوطني الديمقراطي في كربلاء مع بدايات تأسيس الحزب الأم عام 1946. وأبرز قادة الفرع هم: يحيى نصر الله وجواد الشروفي وصالح نصر الله. والتحق بهم الدكتور هادي الطويل بعد ثورة 14 تموز، وكان الأخير مسؤول الفرع الرسمي عند حصول الاصطدام. الشيوعيون كانوا موجودين عندما تأسس فرع الوطني الديمقراطي، ولم تخل المدينة منهم يوما.

كانت علاقة الوطنيين الديمقراطيين والشيوعيين في المدينة جيدة وترقى إلى التعاون السياسي في الأجواء التي تتسم بشيء من الليبرالية. على سبيل المثال، التوقيع المشترك على المذكرات المطلبية والسياسية التي كانت تنشر في الصحف. وعندما أعلنت الأحكام العرفية، على إثر وثبة كانون الثاني 1948، ساق جهاز أمن كربلاء 17 شخصية من الوطني الديمقراطي والشيوعيين إلى المحكمة العسكرية في الديوانية بتهمة ملفقة، لم تتمكن المحكمة إدانتهم عليها. وكان من بين المعتقلين يحيي نصر الله وهو أبرز وجه من وجوه الوطني الديمقراطي، وعبد الرزاق الصافي أبرز وجه شيوعي في مدينة كربلاء. وباتت العلاقة أوثق بعد إقامة جبهة الاتحاد الوطني في عام 1957. ولم تكن هناك منافسة ملحوظة بين الطرفين حتى ثورة 14 تموز المجيدة.

تحاشينا الاصطدام ولكن ...

كان الجو متوتراً بين الشيوعيين والوطنيين الديمقراطيين عندما أراد السيد فرحات عباس رئيس جبهة التحرير الوطني الجزائرية زيارة كربلاء في آذار 1959. علمنا بأن الديمقراطيين يتهيأون لاستقباله. كانت مكتبة الوطني الديمقراطي تقع في مدخل المدينة بالنسبة للقادمين من بغداد. قررنا استقبال فرحات عباس خارج المدينة. نظمنا مسيرة كان سيرها الحتمي يمر من أمام مكتبة الوطني الديمقراطي. قبل وصولنا إلى المكتبة، وصلني خبر بأن هناك تجمعاً حولها يضم بعض الشقاوات مثل رضا حِسنابة وحسين عجمي. تشاورت مع الرفاق القريبين علي من قيادة المنظمة وقررنا تجنب المرور أمام المكتبة لأن أبسط استفزاز من أي طرف كان سيؤدي إلى الاصطدام وسنبدو كمعتدين بصرف النظر عن البادي بالاستفزاز، فنحن القادمون إليهم وهم الواقفون عند مكتبتهم. قررنا حرف اتجاه المظاهرة نحو شارع فرعي ضيق. لقد عانينا الأمرين لحرف اتجاه

المظاهرة، لازدياد حماس الجماهير مع اقترابها من المكتبة ورغبتها في تحدي الآخرين. وأخيرا نجحنا في تحقيق ذلك. وقد اعتبر بعض الرفاق تصرفنا ذاك جبناً!

عند وصول موكب فرحات عباس واستقباله عند مدخل المدينة. توجه لزيارة الروضتين الشريفتين بدءاً بالروضة الحسينية على أن يحل ضيفا على المتصرف بعد انتهاء زيارته من الروضة العباسية. ذهبت مع عدد من الوجوه الاجتماعية إلى بيت المتصرف. وبعد فترة لمح لي المتصرف بأن هناك بعض المشاكل في الروضة العباسية. وصلت بسرعة إلى المكان. كانت هناك جلبة في غرفة الكليدار(سادن الروضة). كانت الغرفة تقع حوالي متر أعلى من سطح الأرض وشبابيكها الكبيرة المفتوحة تشرف على الصحن. دخلتها فوجدت عددا من القادة الوطنيين الديمقراطيين بينهم يحيى نصر الله ومجموعة من أنصارهم، بينهم بعض من صداميهم أحدهم ابن عمي رزاق. وجرت منافسة على الميكرفون بين أنصارنا وأنصارهم فكل واحد منهم يريد الهتاف بشعاراته. وكانت غالبية المتجمعين أمام الغرفة وعددهم لا يتجاوز الأربعين شخصاً من الوطنيين الديمقراطيين ويرددون شعار "عاش الديمقراطي عبد الكريم قاسم" ويرد عليهم أنصارنا "زعيمنا الأوحد عبد الكريم قاسم" و "ماكو زعيم، إلا كريم". ولم يكن صوت أنصارنا يسمع، لإخلال في توازن القوى لصالح الديمقراطيين، لأن مظاهرتنا كانت في صحن الحسين (ع). أرسلنا رسالة إلى مظاهرتنا للإسراع بالمجيء إلى موقع "المعركة". عند وصول مظاهرتنا، انقلب توازن القوى وبات بالكاد يسمع صوت الوطنيين الديمقراطيين.

كنت في غرفة الكليدار عندما شاهدت بأم عيني خروج مجاميع من الكشوانية (المكان الذي يخلع فيه الناس أحذيتهم قبل دخولهم إلى أروقة الضريح) وبيدهم عصي انهالوا بها على المتظاهرين من الخلف وكان أحدهم يهدد الجماهير بقامته (وهو سلاح أبيض أقصر من السيف وأعرض منه ومستقيم). تراجعت الجماهير إلى الخلف ملتفتة إلى الوراء. في تلك اللحظة لفت أحدى الفتيات عباءتها على يدها وهاجمت حامل القامة وانتزعتها منه، فانفجرت الجماهير حماسا ورغبة في رد الصاع صاعين. وهجمت، وهي غير مسلحة، على المعتدين هجوما صاعقاً. وسمعت من يدعو الجماهير إلى التوجه نحو مكتبة الوطني الديمقراطي لتحطيمها.

كنت أقول ليحيى نصر الله بأنكم ستتحملون عواقب اعتدائكم عندما سمعت صوت ابن عمي رزاق، من خلفي، يقول: "لا أسمح لأحد بأن يمس جاسم". التفت وجدته شاهراً سلاحه الأبيض ويحميني بجسمه الضخم. عرفت لاحقاً بأن أحد أنصار الوطنيين الديمقراطيين كاد أن يهوى بالقامة على رأسي وإن رزاق مسك يده. وفي هذه اللحظة الحرجة تغير موقفه وتحول إلى حمايتي. وفي الواقع، لقد استغربت من وجود رزاق معهم لأنه كان متعاطفا معنا، وعرفت أن وجوده معهم كان مراعاة

لصديق له بينهم. وما جلب انتباهي كثرة الأسلحة البيضاء فقد كان معظم الموجودين في الغرفة مسلحين.

خرجت من الغرفة مسرعاً إلى مكتبة الوطني الديمقراطي، فوصلت متأخراً ولم أتمكن من أن أنقذ سوى بعض الكتب لجواهر لال نهرو كانت في الرفوف العالية من المكتبة. أما بقية الكتب فكانت ممزقة ومبعثرة على الأرض. بعد أن أبعّدت الناس عن المكتبة مهدداً إياهم بخشبة في يدي، توجهت إلى شارع العباس فوجدته غاصا بالجماهير. فقد خرجت الجماهير عن بكرة أبيها، يشترك بعضها لأول مرة في نشاط سياسي، مسلحة بالعصي والأسلحة البيضاء، وهي كثيرة في كربلاء بحكم تقاليد التطبير.

قررنا أن نهدئ الوضع من خلال الخطب، وقد ساهم في ذلك الرفيق كاظم حبيب الذي كان في المدينة في تلك الأيام في زيارة لعائلته، وقد تعرض للضرب والإصابة من قبل الجماهير الغاضبة لمحاولته منعهم من الاعتداء على محل مركب الأسنان هاتف الشامي، لكونه من أنصار الوطني الديمقراطي.

التقينا، قيادة المنظمة، لقاء سريعاً على هامش المظاهرة الصاخبة، وقررنا أن نقود المظاهرة مسافة طويلة جداً في شارع العباس (ع) باتجاه السراي والدوران بها وإعادتها إلى مكتبتنا لتفريقها، بعد أن تكون الجماهير قد أفرغت غضبها أو بعضاً منه. ومنعنا الهتافات الخاطئة مثل: "لا الجادرجي ولا حزبه، بس الزعيم أو ربعة". وعدم السماح بالاعتداء على أي محل لأنصار الوطني الديمقراطي، وهي نادرة في الطريق الذي اخترناه. سرت لمسافة معينة بمحاذاة المظاهرة لمراقبة مدى تطبيق الخطة، وكان الرفيق علي النوري يسير بجانبي متاثراً بحماس الجماهير المنقطع النظير وكثرتها، يفرك بشاربه، وتبرق عيناه بريقاً خاطفاً بين آونة وأخرى. وفجأة استفسر مني استفساراً عجيباً وغريباً، ظل عالقا في ذاكرتي.

مقترح عجيب

ـ جاسم ليش منسويها يعقوبية؟ (نسبة إلى الراديكاليين في الثورة الفرنسية العظمى عام 1789). استفسر علي النوري مني.
ـ شنسوي؟
ـ ثورة شعبية!
ـ علي صدك تحجي (عرب وين،أوطنبورة وين؟) أحنا اتفقنا على خطة لتهدئة الناس إنت جاي تحجيلي على ثورة شعبية، بدون معرفة الحزب وخارج سياسته وبمدينة وحدة!
ـ شوف ... شوف (مؤشرا بيده إلى حماس الجماهير المنقطع النظير) ترَ هاذي الحالة الثورية ما تتكرر، نستغلها ونقودها ونخلي الجميع أمام الأمر الواقع.

المظاهرة بعد عشر دقائق توصل السراي نطوق السراي أو نستولي عليه ونعلن الثورة!
ـ المظاهرة تأييد للحكومة والزعيم ومو ضدهم حتى تقوم بعمل معادي الهم ... أبو حسين شتكول إنأجل الثورة ونفكر شنسوي بعد ما تعود المظاهرة، أو شنسوي بعد ما إنفرقها. أكو احتمال يصير فرهود وخاصة لمحلات الصياغ، وسمعت أصحاب المحلات يريدون حراسة على محلاتهم.
ـ أقترح إنشكل المقاومة الشعبية.
ـ والله معقولة. ندرس الفكرة ويه الرفاق بعد المظاهرة ونقدم طلب لآمر المقاومة. خلي نرجع هسه للمكتبة.

الرفيق علي النوري

توقفت المظاهرة أمام المكتبة عند الحاجز الذي نصبناه في الشارع العام. ألقى إبراهيم كرماشة، وهو أحد قادة المنظمة وأقدرنا على ارتجال الخطب، كلمة قصيرة فحواها: إن اعتداء حصل علينا وقد القي القبض على الجناة وشكر الجماهير لوقوفها بجانب الحق وطلب التفرق بهدوء. وتفرقت الجماهير.

عواقب الاصطدام

كانت حصيلة الاصطدام عدد من الجرحى، جراح اثنين منهما كانت خطيرة وقد رقدا في المستشفى، أحدهم شيوعي وهو فيصل الشامي والآخر من الوطني الديمقراطي. واعتقل حوالي 35 شخصاً من قادة الوطني الديمقراطي وأنصارهم ولم أعرف، لحد

الآن، من الذي نظم قائمة المعتقلين، فقد شملت القائمة جميع الذين كانوا في مكان الحادث إضافة إلى جميع عناصرهم الصدامية، بمن فيهم غير الموجودين في الحادث وبدقة متناهية! وهناك احتمال راج في حينه، ولم أقتنع به، وهو إن الجرحى هم الذين قدموا الأسماء في إفاداتهم.

كانت "المقاومة الشعبية" قيد التأسيس، إلا أنها لم تباشر بالتدريب. رجونا آمر المقاومة سعيد حسون فريد بإعطائها مهمة حراسة السوق وخاصة محلات الصاغة لبضعة ليالي لحين تجاوز الحالة الطارئة. بعد ساعتين كانت المقاومة تتدرب، وباشرت بواجب الحراسة، بأسلحتها الشخصية البسيطة، لمدة يومين أو ثلاثة فقط ولم يقع أي حادث يذكر خلالها.

في اليوم التالي للاصطدام وصلنا سكرتير لجنة منطقة الفرات الأوسط صالح الرازقي. اتصل بصديق له مستقل، بدون علمنا، وهو المدرس عباس الكرباسي وحصل منه على تقرير كامل. خلاصة التقرير يشير إلى أن الحزب الوطني الديمقراطي هو المسؤول عن الاصطدام بدليل أن الشيوعيين أدخلوا مظاهرتهم في شارع فرعي تحاشيا للمرور بمكتبة الوطني الديمقراطي وتجنبا للاصطدام. ومن ثم وصل وفد من بغداد مكون من يوسف إسماعيل البستاني ممثلا عن الحزب الشيوعي العراقي وأحد قادة الوطني الديمقراطي والتقى الوفد بالمتصرف. وقد أكد لهم الأخير وبحماس على مسؤولية الوطني الديمقراطي وأورد لهم نفس دليل الكرباسي. وقد اِطَّلَعَ البستاني على نص برقية مدير الأمن وكانت تشير إلى أن الوطني الديمقراطي هو البادئ بالاعتداء.

ومن ثم عقد اجتماع بين وفدين ضم الأول إلى جانب الموفد القيادي من الوطني الديمقراطي كل من الدكتور هادي الطويل وجواد الشروفي. أما وفدنا فقد ضم إلى جانب البستاني. كل من صالح الرازقي وأنا. اتفقنا على إصدار نداء مشترك يؤكد على اتفاق الحزبين على ضرورة وحدة القوى الوطنية ويندد بالرجعية ودسائسها ويدعو إلى دعم الجمهورية الفتية وإجراءاتها التقدمية و... الخ، ثم توقف الاجتماع وتوتر بعض الشيء أمام إصراري على إدخال عبارة في النداء كانت تلمح، على نحو غير مباشر، إلى مسؤولية الوطني الديمقراطي في الصدام الأخير. ولم أتراجع إلا بعد أن اختلى بيّ صالح الرازقي خارج غرفة الاجتماع، ودار بيننا حوار بهذا المعنى، إن لم يكن نصاً:

- أكّلك النداء جيد ولازم انوافق عليه... لا تعاند!
- هي مو حسبة عناد، المنظمة أو جماهيرها ما يرتاحون إذا ما شافوا نقد، ولو خفيف، موجه للجهة المسؤولة عن الاصطدام .
- لا لتخاف من يُخف التوتر بالمدينة الكل راح ترتاح.
- أتمنى...

عند عودتنا إلى الغرفة أعلن الرازقي الموافقة. تقرر قراءة النداء على سكان المدينة بصورة مشتركة. فقام أخي مجيد بقراءة النداء من طرفنا وجواد الشروفي من طرفهم، بواسطة مكبر صوت في سيارة مكشوفة، خلال تجوالها في الشوارع الرئيسية والأماكن المزدحمة. وتقرر أيضاً السعي لإطلاق سراح من لم يكن متواجداً في مكان الحادث عند وقوعه.

عندما طالب ممثلنا بإطلاق سراح بعض من عناصر الوطني الديمقراطي، اشترط حاكم التحقيق رسالة مني أو مواجهته وإبلاغه شخصيا من قبلي بالطلب. استغربت طلبه فلست الذي أوعز باعتقالهم. وما هي صفتي الرسمية لكي أوافق أو لا أوافق؟ ذهبت لحاكم التحقيق وتحدثت معه، وقد سألته ما هي علاقتي بالأمر لكي يطلب موافقتي؟ فأجاب:

- أستاذ جاسم مو هاي القضية سياسية ونصحوني آخذ رأيكم باعتباركم المدّعين.
- أستاذ إنت حاكم تحقيق وإنت لازم تقرر هالقضية.
- كلامك صحيح مية بالمية، بس موافقتك بيها سلامة عاقبة.
- إذا على سلامة العاقبة، فأنا موافق.

تحدثت مع الحاكم وهو واقف ببجامته في باب داره، بعد أن اعتذرت من تلبية دعوته في الدخول إلى البيت. وخلال فترة وجودي في كربلاء والتي استمرت سنة واحدة بعد الثورة لم أزر مسؤولاً أو موظفاً حكومياً لا في بيته ولا في دائرته، زيارة شخصية، بمن فيهم المتصرف (المحافظ) الذي وجه لي دعوة لزيارته في البيت، عندما زار مكتبنا مستفسراً عن الإشاعات حول احتمال منحنا حقيبتين وزاريتين إحداهما وزارة الداخلية، ومن المعروف أن الداخلية هي التي تعين المتصرفين!

كان لدينا رفيقان محاميان وهما كل من محسن النقيب ونوري لطيّف يمثلاننا أمام المسؤولين بكل جدارة. مع ذلك فقد انتشرت في تلك الفترة إشاعة مغرضة مفادها أن جاسم الحلوائي هو متصرف كربلاء الحقيقي.

أطلق سراح قسم من الموقوفين وسفر الباقون إلى بغداد. وقد أطلق سراح الباقين بعد فترة وجيزة وأغلقت الدعوى ولا أعرف كيف! أما الجريحان فقد تماثلا للشفاء التام أيضاً.

الدروس المستخلصة

مع تراجع عبد الكريم قاسم فتحت ملفات كثيرة في طول البلاد وعرضها وتعرض الكثير من الشيوعيين إلى حملة انتقام ليس من قبل أعدائهم فحسب، وإنما من قبل منافسيهم أيضاً. وصدرت بحق الشيوعيين وأنصارهم مختلف الأحكام بما فيها أحكام الإعدام من قبل المجرم شمس الدين عبد الله رئيس المجلس العرفي العسكري (حكم علي غيابياً بالسجن لمدة ثلاث سنوات نهاية عام 1961، عن دعوى أقيمت علي في كربلاء صيف 1959، بتهمة ملفقة فحواها تحريض الفلاحين على عدم تسليم الملاكين حصتهم من الحاصلات)، الذي لم يكن عداؤه لعبد الكريم قاسم والوطنيين الديمقراطيين بأقل من عدائه للشيوعيين بحكم نزعته القومية المتطرفة. وقد نصبه عبد الكريم في هذا الموقع انطلاقا من سياسة التوازن بين أنصار النظام وأعدائه، هذه السياسة التي قضت عليه وأدت إلى كارثة انقلاب 8 شباط 1963 الأسود، وتوالت بعدها الكوارث.

وقتها فُتح ملف "الاصطدام" أيضاً، ولكن سرعان ما أغلق لعدم وجود أدلة ولو بسيطة لإدانة الشيوعيين، إنما بالعكس من ذلك كان من الممكن أن يزكينا ويسبب متاعب للآخرين. ومع ذلك هل يعني ذلك تزكية لسياستنا في إدارة المنافسة مع الآخرين في كربلاء وغيرها من المدن؟ كلا... وأقولها بدون تردد. إن نزعة الهيمنة على المنظمات الديمقراطية والمهنية والانفراد بقيادة الجماهير الشعبية لم تكن نزعة طارئة وإنما من صلب أيديولوجية الحزب، وإن الحرص على مبدأ وحدانية المنظمة الديمقراطية أو المهنية الذي كنا ندافع عنه يصب في هذا الاتجاه. إن هذه النزعة كانت موجودة في المواد الخمسة الأولى من النظام الداخلي القديم، التي كنا نشرحها للعناصر الجديدة قبل ضمها للحزب وقد جرى تعديل تلك المواد في المؤتمرين الثاني والثالث. وبدأ الحزب بالتخلص من هذه الأيديولوجية منذ مؤتمره الخامس "مؤتمر الديمقراطية والتجديد" حيث ثبت في نظامه الداخلي الجديد حرصه على استقلالية المنظمات النقابية والمهنية والإبداعية وغيرها. وواصل دمقرطة الحزب وبرنامجه وسلوكه مع الآخرين وتبنى التعددية والتداول السلمي للسلطة.

ولم يكن الطرف الآخر منزهاً من نزعة الهيمنة وأيضاً بدوافع أيديولوجية، فالمرحلة هي "مرحلتهم" وعلى الجماهير أن تسير وراءهم شاءت ذلك أم أبت! وقد تطرقت إلى بعض التصرفات والتصريحات التي تؤكد ذلك. ولا أرغب بالتوقف أكثر عند هذا الأمر لكي لا أنكأ الجرح.

لا شك بأن استخدام العنف في المنافسة السياسية يعتبر ظاهرة متخلفة وغير حضارية وهي غير مبررة إطلاقا عندما تكون هناك انتخابات كما هو الحال في عراقنا اليوم. لذلك فإن مقارنة بين تلك الفترة قبل نصف قرن تقريبا ويومنا هذا تدعو إلى التأمل. فتلك المنافسة تبدو "حضارية" لو قورنت ببعض "المنافسات" التي تجري في الوقت الحاضر وتستخدم فيها أسلحة نارية هجومية، فضلاً عن

الحرائق، رغم أن المتنافسين من أيديولوجية واحدة وطائفة واحدة وضمن ائتلاف سياسي واحد.

7
سنتان مختفيا في الكوت

في النصف الثاني من عام 1959، نقلني الحزب من كربلاء إلى لواء الحلة (محافظة بابل) وأنيطت بي مهمة سكرتارية لجنتها المحلية. وفي خريف العام المذكور، رحلت إلى لواء الكوت (محافظة واسط) وأنيطت بي مهمة سكرتارية لجنتها المحلية أيضاً حتى خريف 1961، أي لمدة سنتين. وكنت، كما هو الحال في الحلة، أعيش متخفياً في الكوت تحت اسم أبو أمين، وسط ظروف غير ملائمة، لكوني أعزب، وليس لدي معارف هناك وفي مدينة صغيرة لا يوجد فيها ما يؤنس. أضف إلى ذلك أن طبيعة علاقتي التنظيمية مع مرجعي الحزبي لم تكن مريحة، كما كان الحال في منطقة الفرات الأوسط.

قيادة منظمة بدون رقابة مباشرة

عندما كنت مسؤولاً في كربلاء أو في الحلة، كنت عضواً في لجنة منطقة الفرات الأوسط وكنا نجتمع في فترات متقاربة نسبياً. وأتيح لي من خلال الاجتماعات الاطلاع على تجارب المنظمات الأخرى والاستفادة من المناقشات السياسية والفكرية والمساهمة فيها بحدود إمكانياتي الفعلية. يضاف إلى ذلك متعة اللقاء بالرفاق وجلهم من معارفي ومن قدامى الأصدقاء. وكان لدي مرجع حزبي محدد وهو سكرتير المنطقة، وعادة ما يكون عضو لجنة مركزية، التقيه وأتشاور معه في المشاكل التي تواجه المنظمة ونشاطها. وبشكل عام كان العمل ممتعاً رغم منغصات بوادر ومظاهر تراجع عبد الكريم قاسم المثيرة للقلق.

وفي الحلة لم يكن اختفائي محكماً، فقد القي القبض علي في الشارع وأرسلت إلى كربلاء مخفوراً، بعد قضاء ليلة واحدة في موقف الحلة، حيث التقيت الرفيق معن جواد لأول مرة، وكان موقوفاً بتهمة ملفقة. وفي كربلاء أطلق سراحي بكفالة عادية فوراً، وعدت إلى الحلة لأختفي بشكل أفضل في هذه المرة.

أما في الكوت، فقد كانت علاقتي غير مباشرة مع لجنة التنظيم المركزية (لتم) وهي لجنة اختصاص ليس لديها صلاحيات تنفيذية مرتبطة بالمكتب السياسي. وخلال مدة وجودي التي طالت سنتين في الكوت لم يكن لدي مسؤول حزبي محدد وهو وضع، إن وجد في الحزب، فهو شاذ بحكم بناء الحزب الهرمي. وجرت محاولات عديدة لتشكيل لجنة المنطقة الوسطى، قبل وبعد وجودي في الكوت، من محافظات ديالى والرمادي (الأنبار) والكوت ولجنة أطراف بغداد. ولكن تلك المحاولات باءت

بالفشل في ظروف العمل السري. وكانت إحدى تلك المحاولات بعد سحبي من الكوت في نهاية 1961، حيث جرى تشكيل لجنة المنطقة الوسطى وكنت سكرتيرها. إن أحد أسباب الفشل يعود إلى أن مقر قيادة المنطقة الوسطى لا يمكن أن يقام إلا في بغداد لسهولة اتصال تنظيمات المحافظات بها. إلا أن وجودها في بغداد يجعلها معلقة في الهواء. ففي هذه الحالة لا يتوفر للقيادة ما يعينها في مقر عملها على أن تتابع نبض حياة المنظمات الحزبية اليومي أو إنشاء جهاز للمراسلة، وما يتطلبه ذلك من مراسلين وعناوين وبيوت حزبية، وكذلك جهاز، ولو متواضع، للطباعة و... الخ.

كانت لجنة محلية الكوت تتكون، عند استلامي لها، من الرفاق إبراهيم عبد الكريم ورشيد طاهر وجبار عبود وجليل عبد الخالق وعباس الطباطبائي وجميعهم من المعلمين باستثناء الرفيق الأخير فقد كان متفرغا للعمل الحزبي.

كان سكرتير المحلية بعد الثورة مباشرة الرفيق حسين سلطان عضو اللجنة المركزية. وبعد حسين سلطان تولى المهمة الرفيق أحمد محمود الحلاق، وهو رفيق كردي لم يتمكن من العودة للكوت لتعرضه للاعتقال عندما كان في زيارة لعائلته في السليمانية. فكلف بتولي المهمة مؤقتاً الرفق جبار عبود، وهو شيوعي قديم، سبق وأن عمل في "رابطة الشيوعيين العراقيين" وهي منظمة منشقة عن الحزب تأسست عام 1944، وكانت بقيادة داود الصايغ. تمتع الرفيق جبار عبود بمستوى سياسي وفكري جيدين، إلا أن إمكانياته التنظيمية ضعيفة ومزاجه حاد يخدش هذا ويجرح ذاك متعكزاً في ذلك على مبدأ الصراحة. كان لديه شعور عميق بالغبن، وجاء استلامي لمسؤولية المنظمة بدلا عنه، استفزازاً له. فأخذ يماحكني. والمماحكات ممارسة غير مرغوب بها وغير جائزة في العمل الحزبي لأنها تعرقل العمل، خاصة عندما تكون غير عابرة. ولكن لا يمكن تجنبها أحياناً، فعندها يجب أن يستعد المرء لذلك، فيحافظ على يقظته، ويضع حداً لها في أول فرصة ملائمة.

في إحدى المرات تجاوز جبار عبود حدوده. وقال في الاجتماع: "هذا...(ماداً يده باتجاهي، كأني لا أحمل اسماً ولا لقباً] يقول..." قررت استثمار الفرصة لوضع حد لمماحكاته. فسجلت في المحضر ما معناه: "إن الرفيق جبار لم يكتف بمماحكاته منذ استلامي المسؤولية منه (وأوردت أمثلة على ذلك) فتجاوز ذلك في اجتماع اليوم إلى محاولة استصغاري والتقليل من شأني". واقترحت على الاجتماع توجيه عقوبة التوبيخ بحقه. كان الطلب مفاجئاً، ووقع وقع الصاعقة في الاجتماع. انتاب الحرج أعضاء اللجنة. أما جبار فصرح بأنه لم يكن يقصد ما ذهبت إليه. فترجى الرفاق سحب مقترحي، فرفضت ذلك، وأكدت حقهم بتثبيت آرائهم في المحضر. ولم أسحب مقترحي إلا بعد أن اعتذر جبار عبود عن تصرفه، ولم يعد لمماحكاته لاحقاً.

لم يجر أي إشراف من المركز على لجنة محلية الكوت خلال السنتين. وحصل إشرافان من قبل لجنة التوجيه الفلاحي بمناسبتين سآتي على ذكرهما. إن الإشراف الوحيد الذي جرى على المنظمة تم من قبل الشهيد صبيح سباهي وعصام القاضي لمنظمات تابعة للمحلية. فقد وصل الرفيقان بشكل مفاجئ في أحد الأيام وضيفتهما في البيت الذي أقيم فيه. وبعد أن دخلا غرفتي، لا أعرف لماذا جلبت انتباههما رواية ديستويفسكي "الأخوة كارامازوف" على مكتبي، وقد تبادلنا الآراء حول الكتاب والكاتب.

كان لديهما يوم واحد، وكان هناك العديد من الاجتماعات لهيئات حزبية مختلفة في ذلك اليوم، لأنه يوم جمعة. حضرا معي اجتماعين، أحدهما للجنة مدينة الكوت مكرساً للتثقيف بتقرير للجنة المركزية. وأما الاجتماع الثاني فهو اعتيادي للجنة النشاط المهني والديمقراطي. عند مغادرتهما أخبراني بأن انطباعهما جيد عن وضع المنظمة، فهناك حركة ونشاط وحماس... ولمحا لي بأن أسلوب تثقيفي بتقرير اللجنة المركزية كان سردياً. وكانت ملاحظتهما صحيحة. وحاولت الاستفادة منها لاحقاً.

الجمعيات الفلاحية

نظراً للطابع الفلاحي لمحافظة الكوت كنت أدعى لحضور الكونفرنسات الفلاحية التي تعقد لعموم القطر، وكانت تنظم من قبل لجنة التوجيه الفلاحي المركزية وتعقد سنويا في بغداد، وكان سكرتيرها الشهيد ستار مهدي معروف العضو المرشح للجنة المركزية. وقد حضرت اجتماعين بحضور الفقيد زكي خيري كمشرف. في الاجتماع الأول، الذي عقد في ربيع 1960، طرح التقرير المعروض للمناقشة، والمعد من قبل لجنة التوجيه الفلاحي، مشكلة الجمعيات الفلاحية غير المجازة، وخلاصة هذه المشكلة هي:

شجع عبد الكريم قاسم، في سياق محاولته لعزل الحزب الشيوعي عن الجماهير الفلاحية، عراك الزكم - نائب رئيس الاتحاد العام للجمعيات الفلاحية (وطني ديمقراطي)- على تشكيل هيئة مؤسسة، غير قانونية، منافسة للاتحاد العام للجمعيات الفلاحية الذي كان برئاسة الكادر الشيوعي كاظم فرهود. وأخذت هذه الهيئة تمنح الإجازات للجمعيات الفلاحية متجاوزة بذلك على صلاحية الاتحاد العام المنصوصة في قانونه المجاز من السلطات. ولأن الخطة المذكورة لم تحقق النجاح المطلوب، ولم يهرع الفلاحون ولا جمعياتهم وراء عراك الزكم، أصدر عبد الكريم قاسم القانون رقم 139 لسنة 1959، والذي يعطي حق إجازة الجمعيات إلى أجهزة الإدارة الحكومية المحلية، التي قلما كانت تتسم بالنزاهة، لاغياً بذلك صلاحية الاتحاد العام الذي لم يكن قد مر على صدور قانونه أربعة أشهر. وطالب القانون الجديد الجمعيات المجازة سابقاً أيضاً باستحصال إجازاتها من جديد من الأجهزة

الحكومية. وقد رفضت هذه الأجهزة إجازة أكثر من ثلاثة آلاف جمعية بأعذار مختلفة ([30]*)، بعضها مثير للسخرية. وأتذكر كيف علق الكاتب الشيوعي الساخر الشهيد عبد الجبار وهبي (أبو سعيد) في عموده الشهير في صحيفة "اتحاد الشعب" تعليقاً ساخراً ولاذعاً على رفض إجازة أحدى الجمعيات الفلاحية، لأن الطابع الملصق على عريضة الطلب كان مائلاً.

أكد تقرير لجنة التوجيه الفلاحي على الالتزام بقانون الحكومة الجديد، ولم يطرح حلاً لمشكلة آلاف الجمعيات غير المجازة. طرحت في الاجتماع رأياً مفاده الإبقاء على الجمعيات غير المجازة ومواصلة ما يمكنها من نشاطات وذلك للحفاظ على عشرات الآلاف من الفلاحين المنتظمين فيها. ويمكن أن يكون بقاؤها مبرراً قانونياً، بدعوى أنها تستكمل متطلبات إجازتها. لم يلق المقترح ارتياحاً من سكرتير لجنة التوجيه الفلاحي والذي كان يدير الجلسة. ولم يطرح المقترح للمناقشة والتصويت. وعندما عمم المكتب السياسي خلاصة بمحضر الكونفرنس وتوصياته، أفرد مربعاً ثبت فيه رأيي باسمي الحزبي ناهض، وكان لهذا الرأي، الذي وجد من يؤيده في قيادة الحزب، أهميته في الحفاظ على آلاف الجمعيات الفلاحية.

مشكلة إقامتي في الكوت

إحدى المشاكل المزعجة التي رافقت وجودي في الكوت هي مشكلة إقامتي. وكان حلها يتطلب عائلة ملائمة للعيش معي. ولم نفلح في ذلك، إلا لفترات معينة. فقد ساعدتنا (لتم) بعائلة لم تصمد أكثر من شهرين. فقد قتلها الضجر، وعادت إلى قواعدها سالمة! ثم أفلحنا في العثور على عائلة ريفية. أقمت معها أطول فترة، حوالي ثمانية أشهر. كانت عائلة محافظة جداً. لم أدخل غرفتهم سوى مرة واحدة، عندما تمرضت الأم. ولم يدخل أحد منهم غرفتي إلا عندما أكون خارج البيت. وكنت أتناول صينية الطعام من الباب. كان علي أن أقضي الوقت في الغرفة، مادمت في البيت. وكان سميري كتابي وراديو ترانزسستر صغير. وهان علي الأمر عندما رُحل إلينا الشهيد داخل حمود حيث شاركني غرفتي. وكنت استعين، أحياناً، بإخوتي الصغار للإقامة معي خاصة في العطل، عندما لم أكن أقيم مع عائلة. وقد أقام معي لفترات محددة إخوتي الصغار وهم كل من جليل وخليل وسمير. وقضى أخي جليل، وهو الأكبر سناً أطول فترة وامتدت لحوالي الشهرين، قبل أن يلتحق بخدمة العلم. أما سمير فكان صغيراً وأخذ يبكي من الضجر طالباً إعادته إلى البيت في الكاظمية، ولبيت طلبه في أول فرصة، وبقيت مرة أخرى أعيش وحيداً.

انتقاد في غير محله

---

[30] ـ * للمزيد، راجع حنا بطاطو، الجزء الثالث، ص 261. وكذلك عزيز سباهي، عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، الجزء الثاني ص 319.

وخلال سنتين من وجودي في الكوت تم استدعاء مكتب لجنتنا، المكون من إبراهيم عبد الكريم وجبار عبود وأنا، مرة واحدة إلى بغداد للاجتماع بنا، وحضر الاجتماع الرفيق عزيز محمد وكان سكرتيراً للجنة التنظيم المركزية وبمعيته الرفيقان صبيح سباهي وعصام القاضي. أتذكر أنهم انتقدونا لتحشيد عدد كبير جداً من الفلاحين في المسيرة الفلاحية التي جرت في بغداد في 30 أيلول 1960، لأن ذلك من شأنه أن يثير انتباه السلطات ويدفعها لإضعاف الحركة الفلاحية الموالية للحزب في الكوت. كانت المسيرة بمناسبة مرور عامين على صدور قانون الإصلاح الزراعي، وقد شكل فلاحو الكوت القسم الأكبر من المسيرة التي اشتركت فيها جميع الألوية. لقد استغربنا من الانتقاد، لأن نص رسالة (لتم) إلينا كانت تؤكد على ضرورة حشد أكبر عدد ممكن من الفلاحين للمسيرة. وقد أغلق الموضوع بتبادل نظرات الاستفهام بين الرفاق المشرفين. ولم أستغرب نظراتهم لأن الرسالة لم تكن بخط أحد منهم وإنما كانت بخط الرفيق ستار مهدي معروف عضو مكتب منطقة الفرات الأوسط سابقاً وسكرتير لجنة التوجيه الفلاحي المركزية لاحقاً.

عدم استقرار اللجنة المحلية

في نهاية عام 1960 جرى نقل جميع الرفاق المعلمين إلى الألوية الأخرى، أما الرفيق الوحيد الذي لم يكن معلماً فقد انتقل قبلهم لأسباب أمنية. إثر ذلك التحقت بنا كوادر محترفة كالرفيق داخل حمود ومن ثم عبد الأمير رشاد، بوصفهما أعضاء اللجنة المحلية. وجاءنا رضا القصاب، العضو المرشح للمحلية، منقولاً من كربلاء إلى الكوت وهو يعمل موظفاً بالكمارك. وأخيراً وصلنا الفقيد أسعد خضر، بصفته عضو لجنة محلية، وكان يعمل موظفا في البنك. واتخذت اللجنة المحلية قراراً، وافقت عليه (لتم) بتقديم كل من الشهيد هلال سليمان، وهو فلاح من ريف الصويرة، والمعلم عبد شكيح مسؤول العزيزية، إلى اللجنة المحلية. وبذلك تشكلت، تدريجياً، محلية جديدة.

إشرافاتي على المنظمات

خلال وجودي في الكوت، قمت بجولة من الإشرافات على منظمات الحزب في اللواء،وهي منظمات الحي والصويرة والعزيزية والنعمانية. وقد التقيت في النعمانية، لأول مرة، بالفقيد أبو عليوي (محسن عليوي) ولم ألتقه ثانية في المدينة المذكورة لانتقاله إلى بغداد. أما إشرافي على منظمة مدينة الكوت فكان متواتراً.

ومازلت أختزن في ذاكرتي أحد هذه الإشرافات المثيرة. فمع تدهور الوضع السياسي لم تعقد لجنة قضاء الصويرة أي اجتماع لها لأسباب أمنية خلافاً لكل المنظمات الحزبية. وكان يقود اللجنة الرفيق أبو فهد (إسماعيل محمد مراد). ولم

تكن قيادة المحلية مقتنعة بذلك وتعتقد بأن أعضاء اللجنة متطيرين. فطلبت وألحّت على اللجنة المذكورة اتخاذ التدابير الممكنة لعقد اجتماعاتها، ولكن دون جدوى. فتقرر أن أذهب مشرفاً لدراسة الوضع، ومحاولة إيجاد الحلول لذلك على الأرض.

سافرت إلى الصويرة وحضرت اجتماعاً للجنة عقد في بيت أخ أبو فهد مساء. بعد أن مر على انعقاد الاجتماع فترة ملائمة، حوالي ساعة ونصف أو ساعتين، انتقدت اللجنة في الوقت المناسب على تطيرها وعدم عقد اجتماعات منظمة للجنتها، وكان دليلي على ذلك هو اجتماعنا والذي كان على وشك الانتهاء ومر على ما يبدو بسلام. وكان أعضاء اللجنة يتبادلون النظرات وعلى وشك المبادرة بممارسة النقد الذاتي،عندما سمعنا طرقاً على الباب. وإذا بصبية تقف على عتبة الباب لتخبرنا بأن الشرطة تقوم بإجراء تحري في بيت أبو فهد ولابد أنها قادمة إلى هذا البيت. وخلال رمشت عين وقبل أن البس حذائي، تبخر جميع الرجال من البيت!

خرجت إلى الشارع، وكان الضياء خافتاً جداً، أمشي لوحدي متجهاً إلى خارج المدينة. في أول منعطف، وأنا أفكر بعدم معقولية تركي لوحدي هائماً في مدينة غريبة علي، لاحظت من بعيد رجلاً يمشي أمامي طوله يشبه طول أحد الرفاق الذين كانوا في الاجتماع واسمه عبد الله الفاضل. كان يعتمر الكوفية والعقال ويلتحف بعباءته، فتعلقت بهذا الأمل. بعد مسافة غير قصيرة أبطأ الرجل الخطى، فلحقت به وإذا به عبد الله بعينه. مشيت إلى جانبه وأخبرني بأنه تعمد عدم الاتصال بي فوراً زيادة في الحيطة، وأنه مكلف من المنظمة بحمايتي. كنا متجهين إلى بستانه الذي يقع في منطقة جويميسة الشرقية، المشهورة بكثرة بساتينها والتي تبعد ثلاثة كيلو متراً عن المدينة. وعلمت بأن المشكلة الأمنية عندهم تكمن في أن أربعة من أعضاء اللجنة موظفين فإذا تغيب أحدهم عن النادي خارج أوقات الدوام فيعني إن هناك اجتماع في بيت أحدهم. ولم يتمكن أعضاء اللجنة من معالجة هذه المشكلة! بت ليلة في البستان. و أرشدني مضيفي في صباح اليوم التالي إلى الدرب المؤدي إلى طريق الصويرة - بغداد. وهكذا عدت بعد عملية إشراف لم تحقق هدفها. ومع التدهور اللاحق في الوضع السياسي، حلت جذرياً مشكلة اجتماعات لجنة الصويرة. فقد شملت إجراءات النقل التعسفية رفاقنا الموظفين. وكانت هذه التجربة درساً لي في السعي إلى عدم استخدام أدلة غير موثقة في محاججاتي.

قمع النشاطات السلمية

كانت منظمة ناحية العزيزية أقوى منظمة لنا في قضاء الصويرة. وضمت المنظمة، إلى جانب العمال والكسبة والمثقفين بعض الشخصيات والوجوه الاجتماعية أمثال التاجر خلف الدّبي (أبو صادق). وكنت من خلاله أتصل بالمنظمة عندما أزورها. كما ضمت المنظمة السيد عمار أبو العيس والمختار نافع محمود. ومنذ خريف 1960 أصبحت العزيزية مركز منظمة القضاء وغدا فيصل حبيب نصر مسؤولاً لها

بعد أن انتقل منها وظيفياً مسؤولها السابق عبد شكيح. وفي ربيع 1961 حصل في العزيزية حادث فريد من نوعه في اللواء وجدير بالتسجيل.

بناء على توصية من الحزب، قامت جميع المنظمات في اللواء بحملة جمع تواقيع على مذكرات تتضمن مطالب محلية بالارتباط مع المطالب السياسية العامة. وقد نفذ هذا التوجيه من قبل منظمة العزيزية حيث تم جمع 222 توقيعاً على مذكرة معنونة إلى رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، تطالب بتوزيع أراضي سكنية وتخفيض سعر الوحدة الكهربائية وإنشاء معمل للطابوق و....الخ. وختمت المذكرة بالمطالبة بإنهاء فترة الانتقال وإرساء الحكم على أسس ديمقراطية. وقد تبين لاحقاً أن جميع المذكرات قد أحيلت من قبل رئاسة الوزراء إلى الوحدات الإدارية المعنية للنظر في المطالب المحلية. ولم يكن رد فعل الوحدات الإدارية في الكوت على هذه الفعالية عدائياً، عدا إدارة ناحية العزيزية. فقد كان مدير ناحيتها آنذاك السيد مهدي الحمداني، الملقب أبو بشرى، وهو صهر عبد الكريم قاسم (زوج ابنة حامد قاسم شقيق عبد الكريم قاسم). استدعى الحمداني كل الموقعين على المذكرة (نساء ورجالاً) إلى مركز الشرطة واعتبر العمل من تدبير الشيوعيين ويمثل تحديا لسلطته. وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد، ذهب فيصل حبيب، مسئول المنظمة، إلى مركز الناحية وأبلغ مدير الناحية بأنه المسؤول عن كتابة المذكرة وجمع التواقيع عليها. وعلى إثر ذلك تم إطلاق سراح الموقعين عدا فيصل وثلاثة آخرين هم: صالح عليوي ويحيى إسماعيل وجبار ألوس. وقد زجوا في موقف الكوت، و أطلق سراحهم بعد شهرين بناء على عفو عام عن السجناء والموقوفين السياسيين أصدره عبد الكريم قاسم.

رد حازم

مع ممالأة عبد الكريم قاسم للقوى الرجعية، اتجهت هذه القوى مع القوى القومية المتطرفة وبالتواطؤ مع أجهزة الأمن ودوائر البوليس إلى شن حملة اغتيالات واسعة للشيوعيين والديمقراطيين اليساريين في الموصل وكركوك والرمادي وفي بعض مناطق بغداد وكلياتها. وقد راح ضحية هذه الحملة الغادرة مئات الشهداء وأرغمت آلاف العوائل على ترك بيوتها ومحلاتها بل وحتى مدنها، كالموصل مثلاً. وكانت قد تصاعدت الضغوط من القاعدة الحزبية تدعو إلى الرد الحازم على هذه الاعتداءات، مقرونة بقناعة بأنه لو جرى الرد منذ البداية، لما تمادت القوى الرجعية والقومية في غيها. كنت متعاطفاً مع هذا الرأي. لم يكن الحزب ضد الدفاع عن النفس، ولكن هذا شيء وتوجيه المنظمات لتنظيم الرد، دفاعاً عن النفس شيء آخر.

في ربيع 1961 حدث اعتداء على أحد الرفاق وتهديد لآخر في مدينة الكوت. تدارسنا الأمر، وقررنا أن نثقف المنظمة بضرورة وضع حد لهذه الظاهرة قبل

استفحالها. وذلك بالرد الحازم على أي اعتداء أو تهديد. عند تثقيفي للجنة مدينة الكوت، طرح علي مسئول اللجنة الطلابية السؤال التالي : هل يشترك هو ومساعده في اللجنة الطلابية (كان أيضاً عضواً في لجنة مدينة الكوت) في الرد؟ أحسست في حينها بأن جوابي على هذا السؤال سيقرر مصير الخطة. لم أتردد من الإجابة بنعم لقناعتي التامة بالرد الحازم. بعد بضعة أيام علمنا بأن اصطداما وقع بين الشيوعيين والقوميين في المدرسة الثانوية وإن أشرس طالب قومي نقلوه بالنقالة إلى المستشفى. وأعتقل الرفيقان عضوا لجنة مدينة الكوت،اللذان مر ذكرهما لمساهمتهما الفعالة في الرد على الاعتداء الذي وقع على أحد رفاقنا من قبل القومي المذكور. بقى الرفيقان معتقلين أكثر من سنة قبل أن يطلق سراحهما في عفو عام صدر عام 1962. ولكن الاعتداءات توقفت تماما لأن التوجيه بالرد الحازم ظل ساري المفعول. بالطبع ليس من الإنصاف مقارنة مدينة الكوت بمدينة الموصل أو كركوك . ولكن هناك وجه للمقارنة بكليات جامعة بغداد وبعض مناطقها التي تعرضت للاعتداءات.

انتفاضة ثلث الجزرة

كانت الكوت تمتاز بحركة فلاحية قوية تنامت على أنقاض إقطاعيات كبيرة جدا. وكانت الحركة قوية بشكل خاص في منطقة تسمى "ثلث الجزرة"، التي كانت بحوزة الإقطاعي مهدي بلاسم الياسين قبل ثورة 14 تموز. وكان هذا الإقطاعي واحدا من أشرس وأقسى الإقطاعيين الكبار في العراق. كان لديه سجن خاص في إقطاعيته، ويستخدم حوشيته في"تأديب" أبناء مدينة الحي عندما تطلب الحكومة ذلك منه، كما حصل في انتفاضة الحي عام 1956.

ومع انحياز عبد الكريم قاسم إلى جانب الملاكين على حساب الفلاحين، تمكن الإقطاعي الكبير مهدي بلاسم الياسين، بأساليبه الخبيثة وتواطؤ السلطات معه، من استصدار أمر بإلقاء القبض على 400 فلاح غالبيتهم من نشطاء الحركة الفلاحية بذريعة ديون قديمة بذمتهم. وعند دراسة هذا الموضوع في اللجنة المحلية، تقرر عدم الامتثال لهذه الأوامر المجحفة، القانونية شكلياً، والسياسية المفضوحة مضموناً. ولم تعلق قيادة الحزب على موقفنا المثبت في المحضر المرفوع إلى (لتم). وقد ظلت تلك الأوامر حبراً على ورق، بعد بضع مداهمات (زركات) فاشلة للشرطة على أطراف المناطق الريفية متجنبة التوغل في عمق المناطق "الحمراء".

في نهاية عام 1960 أو في بداية عام 1961 صدر قرار من الهيئة العليا للإصلاح الزراعي يقضي بإعادة أراضي ثلث الجزرة للإقطاعي مهدي بلاسم الياسين، بحجة وجود نواقص فنية في إجراءات الهيئة المذكورة عند استيلائها على تلك الأراضي. ويقضي القرار بأن تتم قسمة الحاصلات مع الإقطاعي. وجاء هذا الإجراء في سياق

ارتداد عبد الكريم قاسم ومحاباته للقوى الرجعية ولكسر شوكة الحركة الفلاحية التي يقودها الحزب الشيوعي العراقي. وكان هذا الإجراء هو الأول من نوعه في إقطاعية كبيرة كثلث الجزرة التي كانت تضم 800 عائلة فلاحية.

كان رد فعل الفلاحين في ثلث الجزرة قوياً جداً تجاه القرار المذكور، وصمموا على مقاومته بمختلف الوسائل بما في ذلك استخدام السلاح، حيث كان بحوزتهم حوالي 400 قطعة سلاح ناري خفيف. درسنا الموضوع في المحلية ورفعنا تقريراً إلى قيادة الحزب. وتلخص رأينا في مساندة الفلاحين وقيادتهم للكفاح بمختلف الوسائل السلمية من أجل إلغاء القرار الجائر. وإذا ما لجأت السلطة إلى القوة لفرض القرار الرجعي، فيتوجب الوقوف إلى جانب الفلاحين، إذا ما دافعوا عن أنفسهم وأرضهم. وقد استبعدنا أن تخوض السلطة معركة دموية ضد الفلاحين لصالح إقطاعي يُعد واحداً من أكبر إقطاعيي العراق وأسوأهم سمعة ([31] *). اقترحنا صيغة بيان باسم محلية الكوت يندد بالإقطاعي وأساليبه الخبيثة في الالتفاف على القوانين وسردنا تأريخه الأسود في مساندة النظام البائد في البطش بالجماهير في انتفاضة الحي وأساليبه الوحشية في استغلال الفلاحين. كما ساند البيان الفلاحين في مطالبتهم بإلغاء القرار ويدعوهم إلى توحيد صفوفهم و... الخ.

وأجرينا جملة إجراءات تنظيمية منها: ربط منظمة ثلث الجزرة مؤقتاً بلجنة محلية الكوت ونقل الكادر الفلاحي الرفيق هلال سلمان، العضو المرشح للجنة المحلية، من الصويرة إلى ثلث الجزرة، كمشرف ثابت على اللجنة الفلاحية. ونسب الرقيق عبد الأمير رشاد، عضو اللجنة المحلية، لاحقاً، ليتناوب المسؤولية مع هلال. وكان الرفيقان في حركة مكوكية بين ثلث الجزرة والكوت ومرتبطين بي مباشرة حيث كنا نتابع تطورات الوضع بتفاصيله عن كثب ونزودهم بالتوجيهات الضرورية.

وعقدنا أثناء تلك الفترة كونفرنساً فلاحياً للواء، في حي الأكراد في مدينة الكوت. وقد حضره أبرز الكوادر الفلاحية من جميع مناطق اللواء إلى جانب مشرف من لجنة التوجيه الفلاحي المركزية. واحتلت قضية ثلث الجزرة فقرة مستقلة في جدول العمل، ونالت حقها من الاهتمام والمناقشة. ودعم الكونفرنس تقديرات ومواقف اللجنة المحلية من المشكلة.

---

[31] ـ * الإقطاعي مهدي بلاسم الياسين، رئيس عشيرة المياح ، كان يمارس أبشع أنواع الاستغلال ضد الفلاحين. فقد كان يسوقهم إلى السخرة، ويودعهم في سجنه الخاص، حيث يمارس فيه مختلف أشكال التعذيب. ويقتل حيواناتهم إذا ما دخلت حقول الحنطة والشعير. وقد ناصب أهالي مدينة الحي العداء، وشكل فيها عصابة تتكون من ثلاثين عنصرا يتقاضون راتبا شهريا قدره خمسة عشر دينارا شهريا لتنفيذ مخططاته.

طبعت قيادة الحزب البيان، بعد أن خففت من لهجته قليلاً، ولكنها لم تجبنا على التقرير الذي يتضمن خطتنا وتقييماتنا. وبدلاً عن ذلك وصلنا وبعد فترة الرفيق هاشم الحكيم من لجنة التوجيه الفلاحي المركزية لزيارة ثلث الجزرة. وقمنا بتوفير جميع المتطلبات لكي تكلل الزيارة بالنجاح. وعند عودته والتقائه بنا، أكد قناعته التامة بصحة تقديراتنا وخاصة فيما يتعلق الأمر باستعداد الفلاحين العالي للدفاع عن حقوقهم. ويظهر بأن هذه النقطة بالذات كانت موضع شك قيادة الحزب أو بعض المختصين في الحركة الفلاحية (لجنة التوجيه الفلاحي المركزية).

كان استعداد الفلاحين وحماسهم للدفاع عن حقوقهم موضع إعجاب كل من زار المنطقة. وقد استقبلوا بيان المحلية بغبطة واعتزاز كبيرين. وقد شد بعضهم البيان على عضده على شكل (باز بند) معتزين بالبيان لورود اسم ثلث الجزرة فيه. وطغت على الفلاحين مشاعر بأنهم ليسوا وحدهم في صراعهم ضد جور الإقطاع والسلطة.

نظمنا لهم مذكرة ووفداً لزيارة المسؤولين والأحزاب والصحف الوطنية في بغداد. ووجدت قضيتهم تفهماً وتعاطفاً. وقد أبدى الحزب الوطني الديمقراطي ـ جناح الجادرجي ـ تعاطفه مع الفلاحين ونشرت مذكرتهم في صحيفة "الأهالي" مع تعليق متعاطف مع مطاليب الفلاحين. أما قائم مقام قضاء الحي فقد اعتقل الوفد الفلاحي. ووتر هذا الإجراء التعسفي الأوضاع، فقرر الفلاحون منع أي شرطي أو عسكري أو أي فرد من حوشية الإقطاعي من دخول منطقة ثلث الجزرة. وقد نظمت الحراسات والدوريات المسلحة لتنفيذ ذلك. في هذه الفترة جرت اعتقالات واسعة في صفوف الشيوعيين وأصدقائهم في مدينة الحي، شملت عدداً من المعلمين وهم كل من حميد جاسم وزويد خلف وإبراهيم عريبي وماجد عبد الأمير وعلى الحاج كاظم وعبد عداي. وشملت الاعتقالات عمالاً وكسبة ومنهم عجيل صبر وأخوه ثامر صبر وحسين عليوي وأخوه حسن عليوي وهويدي الحاج عكار وأخوه نعمة الحاج عكار ومحمد دخين.

أخبرت السلطات الفلاحين بأن قرار إعادة الأرض للإقطاعي سيلغى شريطة أن تتم قسمة الحاصلات لتلك السنة فقط مع الإقطاعي. وانطوت خطة الإقطاعي والسلطات على دخول الإقطاعي وحوشيته إلى المنطقة لكي يفتتوا بأساليبهم الخبيثة وحدة الفلاحين. كان وعي الفلاحين السياسي في ثلث الجزرة وشجاعتهم وحماسهم في الدفاع عن حقوقهم مثيراً للإعجاب. فقد أدركوا المؤامرة المحاكة ضدهم فرفضوا التعامل مع الإقطاعي أو أي من حوشيته. وبعد مناقشة هذا الموضوع من جميع النواحي بيننا وبين الكوادر الفلاحية في المنطقة، تقرر الموافقة على تسليم حصة الإقطاعي من الحاصلات لتلك السنة إلى جهة محايدة، يقبل بها الطرفان على أن يلغى قرار إعادة الأرض للإقطاعي ويطلق سراح الفلاحين المعتقلين.

استمر الوضع متوتراً في ربيع 1961. وكان لابد أن يحسم الأمر قبل قسمة الحاصلات في تموز. جرى تعتيم إعلا مي على الوضع الذي استجد في المنطقة من قبل الجميع. وتوجهت في شهر آذار قوة من الشرطة إلى المنطقة وأحرقت بيتين مهجورين في أطراف المنطقة، وتقدمت سيارات جيب مسلحة فتصدى لها الفلاحون، فأحرقوا سيارة واستولوا على البندقيتين اللتين تركهما الشرطة وراءهم عند فرارهم مع بقية قواتهم المهاجمة. انتابتنا السعادة بهزيمة الشرطة، في الوقت الذي أقلقنا اتجاه تطور الأحداث، خاصة وأننا استبعدنا خوض السلطة معركة دموية ضد الفلاحين لصالح إقطاعي مكروه. لقد كنت متوتراً لشعوري بأنني أتحمل المسؤولية الأولى إذا ما نجمت عواقب وخيمة جراء اصطدام واسع بين السلطة والفلاحين.

بعد حرق سيارة الجيب ببضعة أيام، شوهدت وحدة عسكرية من الجيش العراقي متجهة نحو المنطقة. شددنا على توجيه سابق بعدم البدء بإطلاق النار والسعي لكسب تعاطف أفراد الجيش. اتخذ الجنود مواقعهم أمام مواقع الفلاحين. و في اليوم التالي، تلقيت خبر انسحاب الجيش بعد أن أكد الفلاحون للجيش، بما معناه، بأنهم لا يعلنون العصيان على الحكومة بل على الإقطاعي. وأكد الفلاحون أنهم مخلصون للزعيم عبد الكريم قاسم والجمهورية ومستعدون للتضحية بأرواحهم من أجل الدفاع عنهما، ولكنهم غير مستعدين لإعادة الأرض للإقطاعي. وراح الفلاحون يؤكدون أن الجنود إخوتهم ويجب أن يقفوا إلى جانبهم وأن لا تراق دماء الجانبين لصالح إقطاعي معادٍ للجمهورية والزعيم عبد الكريم قاسم. تنفست الصعداء لخبر انسحاب الجيش بعد ليلة من القلق الشديد.

لقد جرت تفسيرات عديدة لأسباب انسحاب الجيش، دون خوض معركة مع الفلاحين. فمنهم من عزا ذلك إلى الضابط الذي كان يقود الوحدة العسكرية باعتباره إنساناً واعياً. وهناك فريق آخر أشار إلى التأثير الإيجابي لنداءات الفلاحين على الجنود. يمكن أن يكون لكل ذلك دورً إيجابيً مؤثرً. إلا أن العامل الأساسي، في اعتقادي، يكمن في الرؤية الطبقية الصحيحة للجنة المحلية. هذه الرؤية التي تتطلب، ضمن ما تتطلب، معرفة أين تكمن، بالضبط، مصالح الطبقات الأخرى. وقد كانت هذه الرؤية في صلب تقدير اللجنة المحلية الذي استبعد، منذ البداية، خوض السلطة البرجوازية لمعركة دموية ضد الفلاحين لصالح إقطاعي يُعد واحداً من أكبر إقطاعي العراق وأسوأهم سمعة. إن موقف الحزب الوطني الديمقراطي ـ جناح كامل الجادرجي ـ المساند للفلاحين والمذكور آنفا، يؤكد ذلك أيضاً.

أبلغ الفلاحون بعد بضعة أيام بإلغاء قرار إعادة الأرض للإقطاعي. وطلب منهم إنهاء عصيانهم. فرفضوا ذلك قبل تلبية مطلبيهما الآخرين وهما إطلاق سراح المعتقلين وتحديد جهة غير الإقطاعي في قسمة الحاصلات. وكان هذا رأينا أيضاً. سارت الأمور على هذه الشاكلة إلى أن زارنا في مساء أحد الأيام الرفيق ستار

مهدي معروف، سكرتير لجنة التوجيه الفلاحي المركزية، مرسلاً من قبل قيادة الحزب. أخبرني بضرورة إنهاء العصيان، على اعتبار أن الهدف الأساسي من العصيان قد تحقق، وأما الهدفان الآخران فهما ثانويان. ولكن ما هو مصير الوحدة الفلاحية عند دخول الإقطاعي في المنطقة؟ وما هو الضمان لعدم استحصال قرار جديد باستعادة الأرض بعد تفتيت وحدة الفلاحين؟ ولماذا ينبغي على الحركة الفلاحية التراجع وهي في ذروة انتصارها؟ ألا يعتقد الفلاحون بأننا خذلناهم في منتصف الطريق؟ كان ذلك محض نقاش ثنائي عقيم استغرق ساعات دون نتيجة. وفلتت مني كلمة "يمينية" واصفاً الموقف. اعتبر ستار ذلك وصفاً لسياسة الحزب، فنفيت ذلك وحصرت الوصف بالموقف من حركة فلاحي ثلث الجزرة!

لم يكن أمامي سوى سبيل وحيد هو تنفيذ تعليمات الحزب رغم تحفظاتي الجدية عليها. في صباح اليوم التالي التقينا، ستار وأنا، بالرفيق هلال سلمان، وأبلغته بموقف قيادة الحزب. وطلبت منه عقد اجتماع سريع للجنة القيادية في المنطقة وشرح الموقف الجديد وتنفيذه. ولم ينطق ستار بكلمة واحدة إضافية. ذهب هلال ليعود في اليوم التالي ليخبرنا، بأن القضية انتهت بتلبية المطلبين الآخرين أيضاً. وأن الأفراح والولائم قائمة على قدم وساق بهذه المناسبة. وأنه التقى بالفلاحين المطلق سراحهم من التوقيف. وسمع ستار كل ذلك من فم هلال.

الأهمية التاريخية للانتفاضة

عاد ستار معروف إلى بغداد. استلمنا أول بريد حزبي، وكنت أتوقع أن تسمن جهودنا وتقديراتنا الصحيحة. ولكننا فوجئنا برسالة تتضمن نقداً لموقفنا المتشدد وإشادة بالتوجيهات المرنة التي حملها لنا المشرف ستار معروف والتي أدت إلى حل المشكلة!! لم أكن أتوقع مغالطة بهذا الحجم. أخذت الرسالة معي وسافرت في الحال إلى بغداد. كانت إمكانية صلتي بقيادة الحزب يسيرة. فبيتنا في الكاظمية، كان بيتاً حزبياً رئيسياً للجنة التنظيم المركزية (لنم). في اليوم التالي لوصولي التقيت بالرفيق باقر إبراهيم وكان سكرتيراً لـ (لتم) وشرحت له القضية بالتفصيل. وأخبرته بأن ما يؤلمني هو ليس فقط المغالطة، بل اعتبار القضية مشكلة! وليست عملاً ثورياً يجب أن يدخل تاريخ الحركة الفلاحية باعتباره انتفاضة مجيدة ظافرة تحققت بفضل وحدة الفلاحين ووعيهم الطبقي ووعي قيادتهم السياسية.

لم يعلق باقر على كلامي وقد أخذ الرسالة مني ووعدني بجواب قريب. بقيت في البيت. لم يتأخر باقر علي، وقد أخبرني بأن قيادة الحزب تتفق مع مطالعتي. وسيشير الحزب في أدبياته إلى الحركة كما وصفتها آنفا. بقيت أتابع ثلث الجزرة وعرفت بأنها كانت مأوى آمناً للشيوعيين في انقلاب شباط الفاشي وبقيت المنطقة قاعدة للحزب. وتدين بالولاء له. وبقيت أشعر بالاعتزاز متى ما ذكر اسم ثلث الجزرة لمساهمتي بجانب العديد من الكوادر في قيادة وتوجيه الحركة توجيهاً

صحيحاً أدى إلى انتصارها. لقد لمعت كوادر ميدانية وسطعت كالنجوم ليس في سماء ثلث الجزرة فحسب، بل في سماء كل الحي، ريفاً ومدينة مثل: كاظم الخويلدي ولطيف مشكور، الملقب ـ بالدينار الروسي!

لم يصل إلى علمي صدور قرار بإعادة إقطاعية كبيرة إلى أي إقطاعي بعد نجاح فلاحي ثلث الجزرة في إلغاء القرار، لا في عهد قاسم ولا في العهود اللاحقة. وهنا تكمن الأهمية التاريخية لانتفاضة فلاحي ثلث الجزرة الخالدة. والتي لم تنل مع الأسف الشديد، اهتمام المؤرخين.

اعتقال الرفيق عمر علي الشيخ
وهروبي من قبضة شرطي الأمن

بعد انتقال عائلتي من كربلاء إلى بغداد ـ الكاظمية في بداية عام 1961، تولى مسؤولية البيت أخي حميد، ليكون بيتاً مركزياً لـ (لتم). كنت أسافر إلى بغداد بمعدل مرة واحدة في الشهر، لأقضي يومين في بغداد مع العائلة وأصدقائي وأحضر مسرحية أو فيلماً، وألتقي الشهيد حسن عوينة عادة وهو عضو (لتم) والمسؤول المباشر لأخي حميد، أو سكرتير (لتم) أحيانا. وقبل انتقال العائلة كنت أيضاً أسافر إلى بغداد بنفس الوتيرة وأقيم عند أخي قاسم، وهو موظف في بغداد.

في إحدى سفراتي في صيف 1961، بُلغت بموعد مع الرفيق عمر علي الشيخ (أبو فاروق)، عضو اللجنة المركزية آنذاك. أخبرني عمر في حديثه معي بأنه لم يتمكن من اللقاء بعضو المحلية الرفيق أبو نجاح (أسعد خضر)، الذي انتقل حديثاً إلى الكوت كموظف في البنك. وطلب عمر موعداً جديداً، إضافة إلى حاجته لرفيق جيد كتوم يتمتع بضبط حزبي، ويتمكن أن يدير نشاطه دون توجيه يومي. وكانت مهمة هذا الرفيق العمل مع تنظيمات الجنود في الثكنة العسكرية التي تأسست في الكوت. أخبرته بأني لم ألتق أبو نجاح بعدُ، ولكن صلتنا به وثيقة، وهناك رفيق يتمتع بالمواصفات المطلوبة لتنظيم الجنود. وعندما لاحظت عليه الحيرة في تحديد موعد لقاء مع أبي نجاح، اقترحت عليه أن يأتي معي للكوت لينجز لقاءه مع أبي نجاح ويلتقي بالرفيق الذي سينسب للعمل مع الجنود. عندما لاحظت عليه التردد من الناحية الأمنية، تعهدت له شخصيا، ضارباً الكف اليمنى على الجهة اليسرى من صدري، بسلامة السفرة وجدواها. أخبرني بأنه لا يظن بأن (الربع) ويقصد قيادة الحزب أو مرجعه الحزبي في القيادة، يوافق على سفره لأسباب أمنية، وسيأتي في اليوم التالي وفي الموعد الذي اتفقنا عليه في حالة الموافقة.

جاء عمر علي الشيخ إلى الموعد وسافرنا إلى مدينة الكوت، من كراج يقع في شارع الكفاح. وعند وصولنا المدينة، أجلست عمراً في مقهى منزوٍ، وقريب لمحيط حركتي، وذهبت لأخبر الرفيق رضا القصاب لكي يحدد موعداً سريعا مع اسعد

خضر. افترقت مع رضا واعداً إياه بالعودة بعد قرابة الساعة. اصطحبت عمر وذهبنا إلى بيت المعلم الشهيد صبيح الناشئ، وهو الأخ الأكبر لنعيم الناشئ الذي ورد اسمه في موضوع "الهروب من معتقل خلف السدة"، واستلمه عمر لينيط به مسؤولية تنظيم الجنود. عدنا إلى نفس المقهى وجلس عمر ينتظر عودتي بأمل اللقاء مع أسعد. لم يكن رضا القصاب قد عاد. عدت إلى المقهى فوجدت عمر يمشي مع شخص ضئيل الحجم، بخطى عادية، فتصورت أن الشخص هو أسعد، وقد التقى به عمر صدفة. تعقبتهم منادياً بصوت خافت نسبيا "أبو فاروق" فذهب ندائي أدراج الرياح. انعطف عمر ومعه الشخص في شارع يقع فيه مركز الشرطة، لم أكن أريد أن أفكر بأي احتمال مشؤوم، فناديته بصوت عال أبو "فاروق" فأشر عمر لي بأصابعه ومن وراء ظهره كي أبتعد.

لماذا أبتعد؟ هل هو معتقل؟ لماذا لم يحاول الهرب؟ لماذا لا يستعين بي على تحقيق ذلك؟ لم أكن أريد أن أهضم اعتقال عمر، وبقيت مُعلقاً ببصيص أمل. عدت أراقب المقهى من بعيد علّه يرجع! وكنت واقفاً في زاوية شارع مقابل المقهى أفكر بصيغة خبر اعتقال عمر التي سأكتبها إلى قيادة الحزب ويعصرني الألم والأسف الشديدان. في هذه اللحظات انتصب أمامي شخص ذكرني في الحال بالشخص الذي كان يسير مع عمر وسألني:

ـ أخي منين إنت؟
ـ من بغداد، ليش تسأل؟
ـ شتسوي هنا؟
ـ عندي صديق مسجون هنا أريد أزوره، ليش تسأل؟
ـ راويني هويتك؟
ـ ما شايل هوية.
ـ إمشي ويايّ لمركز الشرطة.
ـ شتحصل لو وديتني لمركز الشرطة، هاي 3 دنانير، وهاي كلما عندي، أنطيك إياها اوعوفني!
ـ جيبها.

ما أن مددت يدي في جيبي حتى وضع يده اليسرى في حزامي ومسك ذراعي اليسرى بيده اليمنى، وصاح بصوت عال: إمشي ... إمشي ويايّ للمركز. لم أتذكر بأني بادرت يوما ما في حياتي باستخدام يدي للاعتداء على أحد. وفي طفولتي وصباي لم استخدمها يوما إلا للدفاع عن النفس أو لردع إخوتي الأصغر لكي يكفوا عن أي سلوك خاطئ، أو في أحيان كثيرة بسبب مضايقتهم أو لتجاوزهم على أحد. لم يخطر كل ذلك على بالي عندما صرت أمام خيارين لا ثالث لهما: فإما الذهاب مع عنصر الأمن وتحمل تبعات ما ينجم عن ذلك من اعتقال واعتداءات، وإما استخدام العنف في محاولة للهرب. وفي حالة النجاح، لا أبعد عني الاعتقال فحسب، وإنما

أقلل من الخسارة التي لحقت بالحزب في ذلك اليوم المشؤوم. وإذا ما فشلت محاولة الهرب، فالنتيجة هي نفسها والفرق كمي، وهو بعض الزيادة في الضرب. لذلك شعرت بملء جوارحي أن عدم اللجوء للخيار الثاني هو الجبن بعينه، وهذا ما لم أرتضه لنفسي في أي يوم من حياتي.

كان الشارع فارغاً ونوره خافتاً وعنصر الأمن ضئيل الحجم ولا يبدو مسلحا. التمت أصابع يدي اليمنى بقوة حيث اندمج فيها قهر ذلك اليوم وأنواع أخرى من القهر وفي مقدمتها انتكاسة ثورة 14 تموز وعواقب تلك الانتكاسة، لتتحول يدي إلى قوة لا تقهر. يممت يدي على شكل لكمة، بغتة صوب وجه عنصر الأمن فخر على الأرض متمدداً أمامي. بعد أن مزق كم قميصي الأيسر. مددت يدي تحت قميصي، موحياً له بأني أحمل سلاح نارياً، وقلت له: "والله أقتلك لو تحركت"! وقبل أن أكمل جملتي، ركضت بسرعة فائقة، وتعقبني رجل الأمن. في أول منعطف كانت هناك مقهى تمتد مصطباتها الملأى بالرواد على الرصيف. ناديت قبل وصولي إليها: "أكمشوه (أمسكوه)، لكي أذهلهم وأحيرهم بأمري لحظة مروري بهم". بعد ندائي مباشرة سمعت صيحات رجل الأمن من ورائي وهو يردد: "أكمشوه حرامي"!

وإذا بجمع كبير من رواد المقهى يلاحقني. ولحسن الحظ، كنت قد غيرت خطتي قبل لحظات من وصولي إلى المقهى. فبعد أن ركضت 100 متر شعرت بالتعب لكوني مدخناً، فغيرت وجهتي التي كانت تستهدف بيت صديق للحزب. وقصدت مضطراً بيت شيوعيين معروفين ولكنه أقرب. ولولا تغيير الخطة لكان رواد المقهى قد أمسكوا بي وكل ظنهم بأني حرامي. لأن الخطة الأولى كانت تتطلب مني الركض باستقامة بعد اجتياز المقهى لمسافة طويلة نسبياً، ولم أكن بقادر على قطعها بالسرعة المطلوبة.

عندما ركلت باب البيت، لم يكن رواد المقهى يبعدون أكثر من 100 متر عني. ولحسن الحظ، مرة أخرى! انفتحت الباب حالاً ودخلت راكضاً، لأجد شابتين، تعرفانني، جالستين وحدهما في البيت وهن نورية الجوزي وابنة خالتها منيرة مجيد عباس. قلت لهما: "الشرطة وراي سدوا الباب". هرعت الفتاتان نحو الباب، أما أنا فقد تسلقت السلم لأتحول إلى البيت المجاور.

كان البيت الذي اقتحمته والبيتان المجاوران له بدون فاصل (تيغة) بينهم. ويقيم فيها أكراد فيليون جميعهم من المحسوبين على ملاك الحزب ومنظماته الديمقراطية. ففي أحد الأيام كنت قد حضرت اجتماعاً للجنة تابعة للجنة مدينة الكوت في البيت الذي دخلته. بعد مرور وقت معين على الاجتماع، علمنا بأن الشرطة قصدت البيت للتحري، فعبرنا إلى البيت المجاور وعدنا إلى مكاننا بعد التحري! ولم تعثر الشرطة على أية أدلة ثبوتية وغادرت البيت. إن صاحب البيت

هو عبد الرزاق رشاد، أخ منيرة غير الشقيق، طلب منا التريث في الخروج من البيت، لحين عودة الجيران، الذين خرجوا من بيوتهم إثر حادث التحري، إلى بيوتهم ثانية. فعلقت قائلا: "مع الأسف طلبت من منيرة أن تتلف الأوراق، وإلا لكنا قد تمكنا من إكمال الاجتماع!" فانبرت منيرة قائلة: "ما تلفتها هاي هي موجودة".

ناولتنا منيرة الأوراق. أما نحن فقد اختلفنا في تقييم تصرف منيرة، ففريق منا اعتبر تصرفها مبادرة جيدة ، في حين اعتبره فريق آخر خرقاً للضبط الحزبي (الدسبلين)! وسرعان ما نسينا الأمر، عندما شرعنا بمواصلة الاجتماع، لأن النقاش لم يكن، بالأصل، جدياً، وربما كان للتخفيف من التوتر الذي أصابنا بسبب التحري.

كان البيت المجاور الذي تحولت إليه خالياً من السكان ويلفه ظلام دامس. دخلت في أول حجرة صادفتها وإذا بصحون وأكواب تتكسر تحت قدمي. وبعد برهة، أخذت أتبين الأشياء التي حولي فعرفت إنني في المطبخ. جاءت نورية الجوزي لتخبرني بأنهن منعن دخول أحد إلى البيت بدون مختار المحلة. وأخذتا تصيحان وتولولان لتجمعا الجيران وأكثرهم من المتعاطفين معنا. وقد سمعت لاحقاً بأن الشرطة وضعت الحراب في صدريهما، ولكن ذلك لم يخفهما ولم يزحزحهما من مكانهما في الباب. لقد تعاطف الجيران معهما، خاصة بعد أن عرفوا أنهما الوحيدتان في البيت، لسفر عائلتيهما إلى كربلاء لزيارة المراقد المقدسة، ودعم الجيران مطلبهما باستدعاء المختار. وتوقعت نورية إجراء تحري في البيوت الثلاثة في أية لحظة، وهنالك خطورة في بقائي هنا. اتفقنا على ضرورة الخروج من المنطقة كلها بأسرع وقت ممكن فصعدنا إلى السطح.

بعد استطلاع المنطقة لم أجد مخرجاً سوى العبور على بيت الجيران الذي يقع خلف البيت الذي أنا فيه لكي أخرج إلى الشارع الخلفي. ولكن المشكلة هي أن أهل ذلك البيت كانوا من القوميين. استطلعنا البيت عبر سُترة السطح (التيغة)، والبيوت هنا كلها شرقية مكشوفة، فرأينا امرأة جالسة وراء ماكنة خياطة في الحوش، وكان باب البيت مفتوح على مصراعيه على الشارع، ومرشوش بالماء لترطيب الجو حسب العادة المتبعة في الصيف. طلبت من نورية أن تعبر إلى بيت الجيران وتخبر المرأة بلجوء جندي هارب ومطارد إلى البيت ويريد الخروج إلى الشارع عبر بيتهم. لم أكن أعير اهتماماً لموافقة المرأة، إنما كان همي أن لا تصرخ، إذا ما رأتني، ظناً منها بأني حرامي. لذلك ما أن تحدثت نورية معها حتى خرجت إلى الشارع وذهبت إلى بيت صديق للحزب كنت أنوي الذهاب إليه عندما شرعت بالهروب وهو نادر عبد الكريم الشقيق الأكبر للفنانة المشهورة الرفيقة فخرية عبد الكريم (زينب) وشقيق إبراهيم عبد الكريم عضو لجنة محلية الكوت الذي مر ذكره آنفاً.

في مساء اليوم التالي رتبت أمر انتقالي إلى البيت الذي أقيم فيه. وكتبت تقريراً تفصيلياً للحزب حول اعتقال عمر وهروبي. بعد بضعة أيام وصلتني رسالة جوابية تستفسر عن أسباب عدم هروب عمر وهروبي وحدي، وتريد مزيداً من التفاصيل! استفزني الاستفسار أيما استفزاز، لأنه ينطوي على شكوك أمنية لم أكن أتوقعها. حررت جوابا لم ولن أنسى نصه في حياتي وهو: "لا توجد عندي ولا كلمة إضافية على التقرير الذي أرسلته لكم حول الموضوع".

أصبت بخيبة أمل نوعاً ما. ولكن صممت على أن لا يؤثر ذلك على معنوياتي. وأقنعت نفسي بأن الأمر لا يعدو أكثر من سحابة صيف. وتذكرت الفلم السوفيتي الرائع "الأوراق الحمراء" الذي عرض في بغداد بعيد ثورة 14 تموز، حيث يتعرض بطل الفلم وهو شيوعي مخلص وبسبب مؤامرة بوليسية، إلى شكوك القيادة به، ويتم وضعه تحت المراقبة من قبل الحزب. وهو مطارد من البوليس أيضاً، ولكنه تغلب على هذا الوضع الصعب، وبرئت ساحته. بفضل رباطة جأشه ومثابرته وصبره.

انتشر خبر هروب أبو أمين، بعد أن جندل عنصر الأمن الذي أراد إلقاء القبض عليه في منظمة مدينة الكوت. فارتفعت المعنويات، وعزم الشباب على القيام بذات الشيء الذي قام به أبو أمين في حالة تعرضهم إلى الاستدعاء أو إلقاء قبض. وكانت الاستدعاءات والاعتقالات المؤقتة قائمة على قدم وساق، وكثيراً ما تنتهي بكفالة أو توقيف لبضعة أيام. وكان أكثر المشمولين بالاعتقالات هم الطلاب والمعلمين ومن غير الصحيح تشريدهم. فدرسنا الموضوع في قيادة المنظمة وتقرر توضيح الفرق بين حالة رفيق مختفٍ ويتعرض لإلقاء القبض وبين آخر غير مختفٍ، فعلى الأول أن يحاول عدم الوقوع بيد الشرطة بكل الوسائل الممكنة. أما الثاني فيجب أن يتخلص من الاعتقال بالطرق القانونية.

لم يطل بقائي في الكوت طويلاً بعد محاولة إلقاء القبض علي. ولصعوبة تحركي، قررت قيادة الحزب نقلي إلى بغداد وضمي إلى (لتم). ومن المعروف أن هذه الهيئة تطلع على شؤون جميع منظمات الحزب المدنية من عضوية إلى كادر إلى مالية و...الخ. ولا يمكن أن يكون عضواً فيها إلا من يتمتع بثقة الحزب المطلقة. وفي الحقيقة، نسيت موضوع الشكوك، لأن التعامل معي كان طبيعياً ولم يثر أي حساسية عندي. وبعد سنوات عديدة عندما تطرقنا، عمر علي الشيخ وأنا، إلى هذا الموضوع، أخبرني عمر بأنه كتب، بعد اعتقاله، رسالة للحزب يشير فيها بما يعني عدم تدبيري للأمر بشكل جيد. ولم يثر أي شك أمني ضدي. وعلم أن الاعتقال جاء نتيجة لوشاية من الجاسوس باقر جعفر الذي يعرف عمر علي الشيخ جيداً حيث كان معه في السجن، وقد شاهدنا نركب السيارة ونحن متوجهين إلى الكوت، وكان هو مصدر الإخبارية التي وصلت للكوت.

إن ملاحظة أبو فاروق حول عدم تدبري الأمر بشكل جيد كانت صحيحة. وفي الواقع، بعد وقوع الحادث شعرت بخطأ إجلاس عمر في المقهى، وعدم أخذه إلى بيت رضا القصاب تجنباً لكشف البيت له، إذ كان البيت مقر عمل قيادة المنظمة. إن تجنب الكشف غير المبرر، كقاعدة، في العمل السري، أمر سليم، ولكنني طبقت ذلك بجمود. فلم يكن من الصحيح أن أبخل على عضو لجنة مركزية أعرف مدى أمانته وصلابته، التعرف على مقر عمل قيادتنا، طالما أن البديل هو مكان آخر قد يعرضه للخطر.

صور من الكوت

زراعة النخيل في الكوت

صناعات يدوية

منظر من الجو لمدينة الكوت

8

العودة للوطن

عندما حدث انقلاب 8 شباط الفاشي عام 1963، كنت في المدرسة الحزبية العليا في صوفيا عاصمة بلغاريا. وقع الخبر علينا، نحن العراقيين الموجودين في المدرسة، وقع الصاعقة. ومنذ اللحظة الأولى لسماعنا الخبر أدركنا بأن هدف الانقلاب ليس إسقاط حكم الزعيم عبد الكريم قاسم فحسب، بل وتصفية الحزب الشيوعي العراقي والقوى الديمقراطية. ولم يطل الأمر كثيرا، حتى توالت الأخبار الفظيعة وسمعنا بإعدام الرفيق سلام عادل ورفيقيه محمد حسين أبو العيس وحسن عوينة وبالتصفيات الجسدية لكوادر الحزب وأعضائه وتحطيم أغلب منظماته.

كنا نعيش وضعا نفسياً صعباً، ونحن نسمع من مسافة بعيدة ما حل بالوطن والحزب دون أن نتمكن من مد يد المساعدة. تحمسنا جميعاً للعودة إلى الوطن للمساهمة في إعادة بناء الحزب. وكان حماسي للعودة كبيراً على الرغم من أنني كنت في بداية دراستي للمنهج المقرر، بعد دراسة اللغة البلغارية. وكان معي في المدرسة الرفيقات والرفاق ناصر عبود وعبد الرزاق الصافي وحسين جواد القمر وزوجته ناهدة العبايجي وسليم المرزه وزوجته عميدة الرفيعي وحميد الدجيلي وحميد بخش وبيتر يوسف ونوزاد نوري.

في براغ

بعد بضعة أشهر من الانقلاب أخبرني المسؤول الحزبي لفريقنا الدراسي، ناصر عبود، بأنني سأعود إلى الوطن. لم أتمكن من حبس دموع الفرح، وأنا أعانقه، تعبيراً عن شكري لهذه البشرى. سافرت، بعد فترة قصيرة، إلى براغ عاصمة جيكوسوفاكيا. ودخلت هناك دورة تأهيل للعودة مع رفيقين آخرين وهما خضر سلمان وعدنان، لا أذكر اسم أبيه، وكنت مسؤولهم الحزبي في البيت. كنا نقيم وندرس في ڤيله تقع في منطقة ريفية جميلة قرب مدينة ملادابوليسلاف التي تبعد حوالي 70 كيلو متراً عن العاصمة براغ. وعلى بعد حوالي كيلو مترين من الڤيله ، يوجد مقهى يتحول إلى مرقص في نهاية الأسبوع لشبيبة المنطقة ومراهقيها. لم نكن نرتاد المقهى إلا عندما يتعذر علينا النزول إلى براغ، لأننا كنا ندخل المقهى نحتسي البيرة ونجلس كغرباء معزولين عن روادها الآخرين. كنا نحب الرقص ولم تنقصنا الجرأة لطلب يد فتاة للرقص معها، إلا أننا لم نحاول ذلك إطلاقاً لعدم توفر الأجواء الملائمة. وهذا خلافاً لما عليه الحال في براغ وخاصة في المراقص التي يرتادها رواد من جيلنا، أي في عقد الثلاثين.

كانت الدراسة مكرسة لتعليمنا فنون العمل السري. ومع أن المعلومات لم تكن تنطبق على ظروفنا من بعض النواحي، لاستنادها إلى تجارب اوربية أو مخابراتية، ولكنها لم تكن تخلو من فائدة. انتهت الدراسة ولم نتجه إلى الوطن. كان حسين سلطان عضو اللجنة المركزية مسؤولنا الحزبي، يزورنا كل بضعة أسابيع، ينقل لنا آخر الأخبار وبعض الصحف العربية ويعدنا بقرب السفر. أخذ الملل والضجر يدب في نفوسنا. كنا ننزل إلى براغ في نهاية كل أسبوع لنقضي فيها يوما نتجول في شوارعها الجميلة وخاصة في ميدان فلاديسلاف ونجلس في مقاهيها ومطاعمها الرائعة ونعود باكراً في أول باص إلى الڤيله. كان المزعج في هذه السفرات هو اضطرارنا للانتظار ساعة ونصف في محطة الباص، نقضي حوالي الساعة منها نرتجف من البرد، في ذلك الشتاء القارص، قبل أن يأتي الشغيل لإشعال المدفأة.

براغ مدينة جميلة، فإلى جانب المباني التاريخية والقبب الذهبية والأزقة الضيقة، فهي مدينة أوربية حديثة تقع على ضفاف نهر فلتافا منذ أكثر من عشرة قرون. ويصل بين ضفتي النهر 14 جسراً أشهرها جسر كارل الحجري الذي يصل مركز المدينة بقلعة براغ التاريخية التي تشرف على براغ من سفوح تلالها الخضراء. وفي براغ الكثير من المسارح وصالات العروض الموسيقية والمعارض الفنية. ومع الأسف الشديد لم أستمتع، إلا جزئيا، بهذه الإمكانيات الرائعة سواء في ذلك الحين أو في زياراتي اللاحقة إلى براغ. ولكن لم يفتنا زيارة الحمام التركي! وكانت هناك ثلاثة أمور لم نألفها في هذا الحمام، بالمقارنة مع حماماتنا، أو حتى الحمامات البلغارية. الأول: وجوب دخول المرء للحمام عريانا (ربي كما خلقتني). الثاني: وجود (ساونا) في الحمام وكانت المرة الأولى التي أشاهد ذلك وأستخدمه. الثالث: وجود مقلم أظافر ومنظف القدمين الذي يستلم الزبون بعد انتهائه من الاستحمام. كنت أستغرب من كمية الزوائد التي كان يستخرجها من قدمي الـ "نظيفتين". وقد علمت بأن الأمر لا يتعلق بقدمي، بقدر ما يتعلق بالوسائل والأساليب المستخدمة.

صورة من براغ عاصمة الجيك

الجيكوسلوفاكيون مهذبون، ونساؤهم جميلات ويتمتعن بسيقان جميلة، إذ نادراً ما تجد أكثر من زوج من السيقان غير الجميلة بين كل خمسة نساء. في حين لا تجد زوج من السيقان الجميلة بين مئة امرأة بلغارية! زميلي في المدرسة الحزبية في بلغاريا الرفيق عبد الرزاق الصافي وجدها فرصة ليخطئ انطباعي السيئ عن سيقان البلغاريات، عندما كنا جالسين في أحد الأيام في إحدى مقاهي صوفيا، لينبهني إلى جمال سيقان النادلة التي تخدم مائدتنا. وقد خاب ظنه عندما أجابت الفتاة على استفسارنا، بأنها يوغسلافية الأصل!

كان لدينا طباخة جيكية ماهرة. سألتنا عما نشتهي من أطباق لكي تهيئها لنا. وبما أننا ندرك بأن تهيئة ما نشتهيه من الطبخ العراقي أمر صعب، ولرغبتنا في عدم الإثقال على مضيفين الجيك، فقد شكرناها وتركنا هذا الأمر لها، بعد تقديم بعض المقترحات البسيطة ولتتصرف كما تشاء. في أحد الأيام أخبرني المترجم بأن الطبق الرئيسي لذلك اليوم سيكون لحم أرنب. طلبت منه أن لا يخبر الآخرين، لأنني كنت أعرف بأن عدنان لا يحب غير اللحوم المألوفة في العراق. بعد أن انتهينا من الأكل رحت أثني على جودة اللحم واتفقنا ثلاثتنا على إنه كان لذيذاً. عند ذاك أخبرتهم بأنه لحم أرنب. فما كان من عدنان إلا أن مسك بطنه وركض إلى التواليت ليتقيأ! وظل يتقيأ إلى أن فرغت معدته تماما! عرفنا بعدئذ بأن لحم الأرنب موجود لدى بعض القصابين ويباع كوصفة طبية لندرته وفائدته لبعض المرضى ولخلوه من الدهون.

آه... من الانتظار

أدت الحالة النفسية السيئة التي كنا عليها، بسبب الانتظار الطويل، إلى نشوء توترات بيننا نحن الثلاثة ولأسباب تافهة، إلى الحد الذي كاد أن يدفع خضر سلمان وعدنان إلى الشجار بالأيدي أمام مضيفينا الجيك. ولتخفيف وطأة هذا الحدث على مضيفينا تحدثت مع معلمنا الجيكي شارحا له الظروف النفسية الصعبة التي نعيشها. فرد المعلم عليّ قائلاً: "أن ما حدث بسيط، هناك قادة كبار أخذوا يتصرفون كالأطفال في هذا البيت بسبب الانتظار، لأن الانتظار أصعب شيء في حياة الإنسان في المنعطفات المصيرية والخطرة في حياته". كان المعلم يتكلم الروسية وأنا البلغارية، واللغتان سلافيتان. كنا نتفاهم ولكن ليس بدون مساعدة اللغة العالمية - لغة الإشارات.

ظهر أن التريث في إرسالنا إلى الوطن مصدره توقعات عن تغيرات في الوضع السياسي في العراق، لدى رفاقنا الجيك والعراقيين على حد سواء، من شانها توفير حد معين من الضمانات لسلامتنا. وفعلاً حصل انقلاب 18 تشرين الثاني 1963 الذي قاده عبد السلام عارف، وسقطت سلطة حزب البعث تحت وطأة جرائمها ونزعة انفرادها بالسلطة ولخواء هذا الحزب الفكري والبرنامجي ولاستفحال التناقضات بينه وبين شركائه في السلطة ولانقساماته الداخلية. ولعبت الحملة العالمية ضد الانقلاب ولنصرة الشعب العراقي دوراً هاماً ومشرفاً في هذا المصير المشين. وقد ساهمت في تلك الحملة الدول "الاشتراكية" وكافة المنظمات الديمقراطية العالمية واتحاداتها، وحركة الدفاع عن الشعب العراقي، التي شكلت لجنتها العليا في براغ برئاسة شاعر العرب الكبير محمد مهدي الجواهري وعضوية د. فيصل السامر والفنان محمود صبري ود. نزيهة الدليمي ود. رحيم عجينة وعبد المجيد الونداوي وكمال فؤاد وعزيز الحاج ونوري شاويس ومراد عزيز وغيرهم. وكان للجنة فروع في العديد من الدول. ولعبت إذاعة صوت الشعب العراقي دوراً هاماً في الحملة، حيث عرت الحملة طبيعة سلطة البعث الفاشية تعرية تامة وعزلتها عالميا.

وتواترت الأنباء عن كيفية هروب شراذم "الحرس القومي" مذعورين بشكل لا يعرفون حتى كيفية التخلص من أسلحتهم وملابسهم الرسمية. وحصل انفراج نسبي في الوضع السياسي. وأضحت عودتنا متوقفة على توفير الأمور الفنية. بعد بضعة أسابيع أطلعني الرفيق آرا خاجدور على جواز سفري المزور. الجواز كان لبنانيا، والمهنة تاجر، والعمر يقارب عمري. أما الاسم الثلاثي، نسيت الأول والثاني، أما الثالث فهو الحلوائي!!. نظرت بدهشة إلى آرا متسائلاً: " لماذا هذا اللقب؟ فأنا معروف به".

عرفت من آرا بأن لا معرفة لرفاقنا في ذلك. وأن الجانب الجيكوسلوفاكي هو الذي زور الجواز. وأصبح من المتعذر إجراء أي تغيير آخر في نفس الجواز مما قد يؤدي إلى تلفه. أما طلب تغيير الجواز فربما قد يفسر تهربا من العودة للوطن. أخبرت آرا بأني سأسافر به مادام الأمر على هذا النحو. لم أفهم مغزى تثبيت لقبي في الجواز. هل لكي لا أنساه كما نسيت الاسم الأول والثاني؟!

رأس السنة في براغ

تقرر سفري بعد عيد رأس السنة الجديدة. ومن المعروف أن براغ تحتفل بهذا العيد بشكل متميز ويصلها الكثير من السياح من خارج البلد وكذلك من المحافظات للاحتفال فيها بهذه المناسبة. وتتحول جميع مطاعم براغ دون استثناء إلى صالات لعروض فنية مسلية ومدهشة وإلى عزف موسيقي لكل أنواع الموسيقى الراقصة من التانكو إلى الفالس مروراً بالسامبا والرومبا والتويست والروك اند رول. فينجذب جميع الرواد إلى الرقص والتمتع بتلك الساعات البهيجة. وكثيراً ما تطفأ الأنوار لفترات قصيرة لفسح المجال للعشاق والمحبين للتعبير عن أشواقهم وحبهم بعيداً عن تطفل المتطفلين. وهناك صالة كبيرة تقع في أطراف المدينة تتسع لبضعة آلاف يحتفل فيها الشابات والشباب . لم نتفق نحن الرفاق الثلاثة على طريقة الاحتفال بالعيد، فخطط كل منا لنفسه كيفية الاحتفال بهذه المناسبة.

قررت أن احتفل بما يليق بتوديع براغ والعودة للوطن بكل ما تعنيه هذه العودة من شوق للوطن وللعائلة، التي أفارقها لأول مرة حوالي السنتين، وقبل هذا وذاك الاطمئنان على سلامتها وسلامة أخوتي بشكل خاص بعد أن انقطعت أخبارهم عني منذ انقلاب شباط الفاشي. هذا إلى جانب الشوق للقاء بالرفاق والمساهمة في العمل الحزبي والسياسي في إعادة بناء الحزب. وحجزت في المطعم الذي أرتاده عادة و دفعت نصف مدخراتي من النقود.

وصلت إلى المطعم في الوقت المحدد، في الساعة العاشرة من مساء يوم 31 كانون الأول، فلم أجد أحداً. وعرفت بأن الناس سيبدأون بالمجيء بعد نصف ساعة. عند عودتي إلى المطعم ثانية، لمحت بضعة أزواج كهول على بعض الموائد. جلست حول المائدة لبعض الوقت. لم تعجبني الأجواء خاصة بعد أن جاء من يشاركني في المائدة وهم ثلاثة، رجلان وامرأة من الكهول! قررت البحث عن مكان آخر أحتفل فيه حتى لو أدى ذلك إلى إنفاق البقية الباقية مما أملكه من نقود. ذهبت إلى صالة الشبيبة التي تقع غرب العاصمة، كانت الأجواء بهيجة على ما يبدو من خلال التجمع الذي في المدخل. ولكن الدخول كان مقتصراً على من حجز مسبقا. وباءت بالفشل محاولاتي للدخول إلى القاعة.

عدت أدراجي قاصداً أحد المطاعم الغالية. ففي هذا المطعم يجري عرض جميل في الأيام العادية ولابد إنه أجمل في هذه المناسبة. هنا أيضاً لم أجد مكانا بعد أن بحثت عنه سوى عند البار الذي كان هو الآخر مزدحماً. كانت أجواء الصالة بهيجة، والساعة قد تجاوزت الثانية عشرة. أعلنت استراحة وتوقف عزف الموسيقى واحتل الناس أماكنهم ليأكلوا ويشربوا وهم مستمتعون. كنت واقفاً والجوع والعطش قد غلبني والتعب أعياني، وأنا لا أتمنى أكثر من كرسي على البار لأجلس وأولي ظهري للصالة ووجهي نحو البار والبارمن الكئيبين. قررت وضع حد لهذه الورطة، أو بالأحرى المهزلة، والعودة إلى مكاني المحجوز والمدفوع الثمن في المطعم الأول. ومن حسن الحظ لم يكن المكان بعيداً.

دخلت "مطعمي" ولم أصدق عيني ما تشاهده من جو صاخب ومَرح وبهيج حيث تتساقط الأوراق الملونة واللامعة على ملابس الناس وهم في مزاج أكثر من رائق. أخذت مكاني حول المائدة ووجدت أمامي حصتي من الأطباق والمشروبات. طلبت قنينة نبيذ وشرعت أشرب وأتناول الطعام والعن في سري تسرعي في اتخاذ قرار الخروج من هذا المكان وتعريض نفسي إلى البهدلة. شرعت الفرقة الموسيقية بالعزف وسارع الناس للرقص وأنا مشغول بالطعام ومراقبة الأوضاع، وإذا بسلسلة ورقية تقع علي كتفي. التفت، وإذا بأربع نساء جالسات على مائدة في أحد الأركان يضحكن باستحياء نسائي جذاب. أومأت لهن برأسي مبتسماً راداً التحية بأحسن منها. إن مداعبة النساء للرجال ليس بالأمر العادي في حفل عام باستثناء حفل رأس السنة. بعد عودة المحتفلين من حلبة الرقص، انتصب أمامي رجل أسمر اللون، وسيم، ذو لحية مدببة على الحنك. كان يضع على عينيه نظارات بيضاء. تكلم معي بالانكليزية مطعمة ببضعة كلمات عربية وجلس على الكرسي الفارغ حول مائدتي. عرف نفسه بأنه تركي وخبير اقتصادي يعمل في أحد المشاريع في براغ، وأنه نصير للقضية الفلسطينية ويحب العرب. وعرفت نفسي وكأني تاجر لبناني. وأعلمته باني لا أجيد الانكليزية وأتكلم البلغارية والفارسية ولغتي العربية طبعا. وقد نهض من على الكرسي ما أن شاهد صاحب الكرسي مقبلا على مائدتي وغادرني بلطف..

لم تكن مائدة التركي بعيدة عني، حيث تفصلنا حوالي أربع موائد. جلست حول مائدته امرأتان لا تتجاوز أعمارهما الثلاثين وحظهن من الجمال مقبول. وما أن عاود العزف الموسيقي مجدداً حتى نهض التركي برفقة الفتاتين. عند مروره بمائدتي دعاني للمشاركة في الرقص ولم أخيب ظنه. وهكذا تعرفت على تمارا، وعرفت إنها سلافية، واللهجة السلافية أقرب للبلغارية من الجيكية، وأنها مدرسة وهي في براغ ضيفة على صديقتها. انتقلت إلى مائدتهم. ولغرض تعزيز مكانتي أخذ التركي يبالغ في إمكانياتي. ومما ادعاه هو: "إنني أجيد العديد من اللغات منها التركية والبلغارية والفارسية فضلاً عن اللغة العربية أما الإنكليزية فأتحدث بها كالبلبل!!".

وهكذا عدد اللغات التي لا تعرفها الفتاتان. تمارا تتكلم الفرنسية وصديقتها اللغة الألمانية. لم تكن تمارا سطحية لكي تصدق كل ما يقوله التركي وكانت تساير الوضع تهذبا. وعرفت ذلك منها خلال الرقص. عززت تمارا عندي الانطباع الجيد عن السلافيين فهم، إضافة إلى ما يجمعهم مع الجيك من تهذيب، فإنهم ودودون ومتواضعون وطيبون جداً. وهكذا قضيت سهرة ممتعة في رأس السنة في براغ.

في مطار بغداد

بعد بضعة أيام من رأس السنة دعيت إلى لقاء توديعي حضره حسين سلطان وسلام الناصري، العضو المرشح للمكتب السياسي والناطق الرسمي باسم الحزب. خمنت في اللقاء بأني أول كادر حزبي يعود إلى الوطن ويعولون على وصولي في إيجاد صلة منظمة مع الداخل. وقد سلمني حسين سلطان قداحة فيها رسالة للمركز القيادي ودفتر، يبدو من مظهره عادياً لاستخدامه في المراسلات السرية بين الداخل والخارج، كنت قد تعلمت على استخدامه في الدورة التعليمية. وأعطاني 300 دولار، ما يعادل أقل من 100 دينار عراقي وقتئذ، لمواجهة أي طارئ أو لشراء هدايا لعائلتي بعد وصولي إلى بغداد ولكي أتجنب حمل سلع جيكوسلوفاكية قد تثير الانتباه والشكوك في مطار بغداد.

في يوم 9 كانون الثاني 1964 توجهنا، آرا وأنا، إلى المطار. وقد أخبرني آرا بأنهم استفسروا من السفارة العراقية في براغ عن الفيزا وأخبرتهم السفارة بأن اللبناني لا يحتاج إلى فيزا. وما أن وصلنا إلى مطار براغ حتى علمنا بأن الطائرة قد أقلعت. لم يدقق آرا وقت الإقلاع في التذكرة جيداً. اشتطت غيظاً، فالتقصير واضح ويتحمله آرا.بسبب عدم دقته وإهماله. ومما خفف من غيظي هو اعتراف آرا بالتقصير والندم. تأجل السفر إلى اليوم التالي، حيث جرت الأمور بشكل طبيعي في المطار. طرت إلى بغداد عبر فينا - عاصمة النمسا وكانت الطائرة قادمة من لندن. كانت هيأتي تتناسب مع مهنتي المدونة في الجواز كتاجر مع قبعة أنيقة على الرأس.

وصلت مطار بغداد مبكراً في صباح يوم 11 كانون الثاني 1964. كنت مسيطراً على قلقي الداخلي وأنا أدخل المطار مع المسافرين. بعد إنجاز إجراءات المطار الروتينية، نادوا على جميع المسافرين واحداً بعد الآخر ليستلم جوازه ويغادر المطار، إلا أنا. استفسرت من المسؤولين وأجابوا: "انتظر!"

انتظرت بعض الوقت ولكن بدون جدوى. فكرت بالتخلص من القداحة. ذهبت إلى التواليت، مسكتها في يدي لأرميها في المرحاض، ولكن لم أفعل ذلك. أقنعت نفسي بأني مرتبك بعض الشيء. وقررت أن أعرف أسباب التأخير تحديدا، قُبل الإقدام على أية خطوة وقائية. وفعلاً عرفت بأن السبب يعود إلى عدم وجود فيزا في جواز سفري، فهان الأمر علي. أخبرتهم (مستخدماً بضعة كلمات باللهجة اللبنانية تعلمتها

في بيروت، عندما اضطررت للبقاء فيها لمدة أسبوع وأنا في طريقي من بغداد إلى صوفيا، وكنت أتداولها مع الرفاق اللبنانيين في المدرسة الحزبية في صوفيا)، بأنني استفسرت من السفارة (لم أذكر لهم الدولة) وأكدوا بأني تاجر ولا أحتاج إلى فيزا. بعد قليل، سمعت ضابطاً يتحدث في التلفون ويقول: " نعم إنه قادم من لندن والسفارة هناك..."

يظهر أن عدم وجود أي ختم جيكي على جواز سفري جعلهم يعتقدون بأني قادم من لندن. وأخيراً أرسلوا معي شرطي إلى مديرية السفر والجنسية ليتأكدوا من أني لست ممنوعا من الدخول إلى العراق، ليمنحوني إقامة مؤقتة. استأجرنا تكسي وتوجهنا، الشرطي وأنا، إلى المديرية المذكورة.

قبل خروجي من العراق حكمت غيابياً لمدة ثلاث سنوات، وزيادة على ذلك هناك الاعترافات التي حصلت إثر انقلاب 8 شباط. إذن فأنا مطلوب من قبل السلطات. ومن الخطورة التواجد في مثل هذه الدائرة، إذ بالإمكان إلقاء القبض علي فورا، في حال اكتشاف شخصيتي بالصدفة. لذلك قررت أن أهرب في أول فرصة وأترك حقيبتي في التاكسي الذي استبقيته لحين انتهاء المعاملة. وقبل استئجار التاكسي، حاولت إرشاء الشرطي، ولكن دون جدوى فقد كان صائما.

في دائرة الجوازات والجنسية حققوا معي تحقيقاً بسيطاً واخذوا يفتشون السجلات القديمة ليتأكدوا من عدم وجود منع على دخولي العراق. وفي أحدى المرات سألني الموظف: "من أين تعلمت اللهجة العراقية؟". "لدي كثرة من الأصدقاء العراقيين". أجبت فوراً.

وخلال انتقالنا من مكتب إلى مكتب، افتقدت الشرطي الذي كان يرافقني. فغادرت الدائرة بسرعة ووصلت إلى الشارع العام قاصداً أول شارع فرعي لكي ألوذ بالهرب، وإذا بالشرطي يهرول ورائي. فتوقفت وعدت معه مبرراً عملي بالتفتيش عن تلفون لمخابرة قريبي وكيل وزير ليتدخل في الأمر. بادرني الشرطي قائلا: "توجد تلفونات في الدائرة".

التزمت الصمت عندما عرفت بأنه ليس بصدد التوقف عند الموضوع. وأخيرا وصلنا إلى نائب المدير الذي استفسر مني، وهو يقلب الأوراق، عن المشكلة فأجبته: "أحتاج إلى إقامة مؤقتة". استفسر نائب المدير من الشرطي: "وإنت شتسوي هنا؟" (وأنت ما عملك هنا؟)". "أنا مأمور معه"، أجابه الشرطي. صرخ نائب المدير في وجه الشرطي المسكين طارداً إياه من المكتب ومكرراً عبارة الشرطي بأسلوب ساخر. أعطاني المعاملة، التي أصبحت الآن ملفا كاملاً، وطلب مني تقديمها إلي المدير.

حُر في شوارع بغداد

كانت الساعة تقترب من الثانية ظهراً والدوام على وشك الانتهاء. وضعت الجواز في جيبي وسلمت المعاملة إلى فراش المدير. انتظرت بضعة دقائق، لم أتحمل الانتظار أكثر وأنا حر وجوازي في جيبي وبيني وبين الشارع العام بضع خطوات. غادرت الدائرة وأخبرت سائق التكسي بأن يتوجه إلى شارع الجمهورية. ترجلت من التاكسي في منطقة غير مزدحمة. وفي أول خربة صادفتها في الشارع تخلصت من القبعة وتخلصت من ربطة العنق لتستقر في جيبي.

عندما أردت تصريف 100 دولار في البنك، حدقت الموظفة في وجهي مستفسرة مني هل أني عراقي؟ أجبتها مستغرباً سؤالها: "ليش ما مبين علي؟". "لا.. مبين"، أجابت الموظفة بفتور. وحال اتصالي بأول رفيق تحدثت له عما جرى لي مع موظفة البنك فقال: " إنها محقة في سؤالها، لأنه لا يوجد عراقي يقوم بما قمت به، إذ يوجد في باب البنك صرافو القطاع الخاص الذين يصرفون الدولار بفارق 15% أكثر من البنك وهذا ما يعرفه كل العراقيين!". كان العنوان مصبغة في البتاوين، فاتصلت به وفق الإشارة المتفق عليها. أخبرني صاحب المحل، بأن الرفيق المعني سيأتي غداً. وقد وفر لي مناما في فندق دون إبراز هويتي الشخصية، بشرط أن أبقى في الغرفة.

محاولة الرفيق كاظم الصفار للاستئثار بالقيادة!

في اليوم التالي استلمني أحد الرفاق وأوصلني إلى بيت حزبي، حيث التقيت بالرفيق كاظم الصفار، الذي سبق وأن تعرفت عليه في المدرسة الحزبية في بلغاريا. وقد أنهى دراسته وعاد إلى الوطن قبل انقلاب شباط . وكانت العلاقة بيننا وديّة. كان أول ما سألني عنه النقود: "هل جلبت لنا فلوس؟". أجبته:" لا".

خاب ظنه بجوابي وقال: "وضعنا المالي صعب جداً، لا يوجد لدينا خبز نأكله". أعطيته كل ما لدي من نقود وقلت له: "الخبز في البيوت الحزبية أهم من الهدايا لعائلتي".

كان كاظم الصفار عضو لجنة محلية، ولم يكن حتى عضو لجنة منطقية، التي عضويتها المقدمة الطبيعية لعضوية اللجنة المركزية. مع ذلك كان يطمح بقيادة الحزب! ويحاول تحقيق طموحه بأساليب غير شرعية. وقد انتقدته لأنه كتب لقيادة المنظمة في إقليم كردستان، بأن ترسل ممثلاً عن المنظمة للتشاور معه حول وضع إقليم كردستان، بدلاً من أن يكتب لهم بان يرسلوا أحداً يتولى قيادة العمل، فقد كان في كردستان عزيز محمد عضو المكتب السياسي وكريم أحمد وعمر علي الشيخ

أعضاء اللجنة المركزية. وقد كتب لهم بالمعنى الذي أشرت إليه. عرفت لاحقاً من الرفيق باقر إبراهيم بأن الصفار طلب منهم أيضاً إرسال رفيق للتشاور، وكتبوا جواباً للصفار يسألونه: "للتشاور أم لاستلام العمل القيادي؟". كان كاظم يدير التنظيم على شكل خيطي وأخبرته بضرورة التحول إلى التنظيم الخليوي، ولم يعترض على ذلك.

لقاء قصير مع عائلتي

في بغداد اتصلت بقريب لي مستفسراً عن مصير عائلتي وأقربائي، ولم أكن قد تزوجت بعد. وعلمت بأن جميع أفراد عائلتي سالمون، ولكن بقي ثلاثة من أخوتي في السجن بعد أن أطلق سراح أحدهم. وقد عادت العائلة إلى كربلاء، ويعمل اثنان من أصغر أشقائي في النهار ويدرسون مساء. بعثت مع تحياتي وعداً للعائلة بملاقاتهم في أول فرصة ملائمة. بعد بضعة أشهر كنت أسير في زقاق في محلة (عكد النصارى) وإذا بي وجها لوجه أمام أخي قاسم، بعد العناق الحار وتبادل الأخبار، عرفت بأنه يقيم حيث التقينا. طلبت منه أن يجلب العائلة إلى غرفته وفقاً لموعد محدد. وفعلا التقيت بالعائلة، وكان اللقاء حاراً، ولم يدم طويلا. فقد غادرتهم بعد أن نفحت الصغار منهم بعض النقود. وأتذكر كيف أن أخي سمير قد جمد من المفاجأة عندما شاهدني، فلم يخبروه باللقاء مسبقاً.

خطوة إلى الأمام خطوتان إلى الوراء!

وبعد فترة قصيرة وصل عمر علي الشيخ ومن ثم باقر إبراهيم إلى بغداد. وقد أنيطت بي سكرتارية اللجنة التي كلفت بإعادة بناء تنظيمات بغداد وكانت تتكون من الرفاق كامل كرم وخضر سلمان ومالك منصور ونوري جريو. وقد عمل الجميع بهمة منقطعة النظير. وقطعنا شوطاً لا بأس به في إنجاز المهمة. بعد بضعة أشهر سحبت من بغداد وأنيطت بي مسؤولية (لتم) لجنة التنظيم المركزية مؤقتاً.

كانت إذاعة "صوت الشعب العراقي" عاملاً مساعداً هاماً في إعادة بناء منظمات الحزب. ولم تعد تلعب هذا الدور عندما اتجهت للتمهيد لخط سياسي جديد تبلور لاحقاً في اجتماع كامل للجنة المركزية عقد في براغ في آب 1964، واصطلح عليه "خط آب". وكان هذا الخط يستهدف تماثل العراق مع جمهورية مصر العربية ، التي اعتبرت، لاحقاً من قبل الحركة الشيوعية العالمية وطليعتها الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، بأنها تسير في طريق التطور اللا رأسمالي، أو كما سمي بعدئذ بالتوجه الاشتراكي. ولم تستمر هذه السياسة لفترة طويلة، فقد تغيرت جذرياً وذلك في اجتماع للجنة المركزية عقد في نيسان عام 1965 بفعل ضغط القاعدة الحزبية ولعدم استعداد السلطة العراقية، وكانت برئاسة عبد السلام عارف، حتى للتماثل مع مصر بسبب طبيعتها الرجعية.

لقد كنت من مؤيدي خط آب 1964 الخاطئ، ولم أكن في حينها عضواً في اللجنة المركزية، حيث ترشحت لعضوية اللجنة المركزية في الاجتماع المذكور الذي لم أحضره. بالطبع لم يعفني ذلك من المسؤولية بوصفي كادراً حزبياً متقدماً آنذاك.

9

الهروب من معتقل خلف السدة

شريكة العمر

في خريف 1964، وعندما كنت سكرتيراً مؤقتاً للجنة التنظيم المركزية للحزب الشيوعي العراقي، التحق بأجهزتها الرفيق جواد عطية شناوة منتقلاً، مع أختيه، من مدينة النجف إلى بغداد حيث مكان إقامتهم، قبل انتقالهم إلى النجف للاختفاء فيها على أثر انقلاب شباط الفاشي. كانت ماجدة تلي جواداً في تسلسل إخوته، وتنشط كمراسلة بين منظمة النجف وقيادة منطقة الفرات الأوسط التي أقامت في الريف بعد انقلاب شباط. وأدت لاحقاً مهمة المراسلة بين قيادة منطقة الفرات الأوسط والمركز الحزبي في بغداد. كانت تقوم بهذه المهمات وهي لم تتجاوز السابعة عشر ربيعاً.

تعرفت علي ماجدة وطلبت يدها من أبيها وأخيها وبعد موافقتهما عقد قراننا في بيت جابر الحكيم (أبو عادل) في بغداد ـ كرادة خارج وبحضور عائلتي الرفيقين جابر الحكيم (أبو عادل) وباقر إبراهيم ومرجعي الحزبي صالح الرازقي. كما حضر "السيد" الذي قام بمراسيم عقد القران، وفقا لسنة الله ورسوله. ذكرت هذه التفاصيل، متعمدا، رداً على الدعايات والتخرصات المعادية للشيوعيين والتي تدعي زوراً تجاهل الشيوعيين للعادات والقيم الاجتماعية. كانت الملاحظة الوحيدة التي سمعتها من"السيد" هي أن لبس (الحلقة الذهبية) يعد حراماً، فخلعت الحلقة ووضعتها في جيبي. وبعد خروج السيد لبست الحلقة ثانية، لقناعتي بأن ذلك غير مخالف للقيم الاجتماعية. وتزوجنا بإقامة حفل بسيط لم يتعد الضيوف فيه أصابع اليد الواحدة، وكلف زواجنا الحزب مئة دينار.

الاعتقال

عندما قلت لزوجتي ماجدة وبثقة تامة،لا تقلقي إنني سأهرب لو ألقي القبض علي، كان بودي أن لا يتسرب اليأس إلي قلبها وتبقى تتمتع، في حال اعتقالي، بمعنوية عالية، وتنتظر عودتي إليها في أية لحظة. ولكن ماذا لو طال أمد اعتقالي؟ وهل من الصحيح وهي شابة دون العشرين أن تبقى تنتظر وربما لسنوات طويلة؟ أليس في

ذلك أنانية في موقفي؟ وقتها لم تخطر ببالي كل هذه الأسئلة. وعندما خطرت ببالي لاحقاً وأن في المعتقل، أرضيت ضميري، معللاً الأنانية بحبي لزوجتي، والحب لا يخلو من الأنانية.

في مساء 21 تشرين الأول 1965 عندما كنت قادما من مدينة الثورة متوجها إلى بيتنا في الكرادة - خارج، مستخدماً سيارة أجرة (فورد) تسع لـ 14 راكبا، كان علي تبديلها بأخرى من نفس النوع في ساحة التحرير. وقد قمت بذلك فعلاً وكنت الراكب ما قبل الأخير في السيارة. أما الراكب الأخير فصعد مسرعاً وهو يلهث وجلس في المقعد الفارغ الوحيد أمامي مرتبكاً. شككت في أمره، وفكرت بأن أرشيه وكنت قد استلمت للتو مالية منظمة مدينة الثورة. تحركت السيارة، وما أن وصلنا إلى مكان هو الأقرب إلى مديرية الأمن العامة، حتى طلب الراكب الأخير من السائق التوقف وطلب مني الترجل قائلا: "تفضل أخي إنزل وياي". ترجلت وسألت: "شتريد مني؟ تعرفني؟". "إمشي وياي للأمن" أجابني بلهجة آمرية. حاولت إقناعه وقلت له: "شراح إتحصل لو وديتني للأمن؟ أنطيك 50 دينار واتركني في سبيلي"."تريد ترشيني امشي..إمشي وياي". (بصوت عال)

كنت أجرجر نفسي وأجرجره معي إلى منعطف قريب كي أحاول الهرب. فعرف قصدي، فسحب مسدسه وأطلق إطلاقة واحدة في الهواء، فتجمع الناس وبينهم أفراد أمن وراح الأخيرين يدفعونني ويحثونني على الذهاب معه، وأنا أصيح محتجا على اعتقالي مسبباً ضجيجاً بودي أن يصل إلى أوسع دائرة عسى أن يصل أمر اعتقالي إلى علم الحزب. كان معي بعض الورقيات من لجنة منظمة الثورة رميتها بعيداً عني، عندما يئست من الهرب. أغلق أفراد الأمن فمي ووضعوا الأصفاد في يدي. وبعد دقائق معدودة أصبحت وجهاً لوجه أمام مدير المكتب الأول الخاص بالشيوعيين، والذي عرفت اسمه لاحقاً محمد صالح، وشاهدت الورقيات التي "تخلصت" منها أمامه على المكتب.

كانت العلاقة بين الحزب وسلطة عبد السلام عارف عدائية. ففي نيسان من نفس العام، كنا قد رفعنا شعاراً يدعو لإسقاط السلطة، باعتبارها سلطة عسكرية ودكتاتورية ورجعية. وذلك في اجتماع للجنة المركزية، حضره كل من سلام الناصري وعامر عبد الله وآرا خاجادور وحميد الدجيلي وناصر عبود وتوفيق أحمد وصالح دكلة وحسين سلطان وبهاء الدين نوري وأنا. وقد أقر هذا الشعار بالأغلبية، حيث تحفظ عليه الرفيق بهاء الدين نوري الذي طالب بالاكتفاء بطرح البديل، وهو إقامة حكومة ائتلاف وطني ديمقراطي.

قبل خمسة أشهر من إلقاء القبض علي، وجهت للحزب ضربة قوية بكبس المطبعة الرئيسية وإلقاء القبض على سليم إسماعيل والعاملين معه في الجهاز. ومن ثم ألقي القبض على عضو اللجنة المركزية صالح الرازقي، الذي انهار في التحقيق

وأرشد الأمن على بيت توفيق أحمد عضو اللجنة المركزية، حيث ألقي القبض عليه. ونصب الأمن كميناً في البيت انتبه إليه عضو اللجنة المركزية الشهيد حميد الدجيلي، فلاذ بالفرار، إلا أن الشرطة أطلقت عليه النار وأردته قتيلاً.. لم تؤثر تلك الضربة على منظمات الحزب وخاصة منظمة بغداد التي أعيد بناؤها، وكنت سكرتير لجنتها القيادية، عند إلقاء القبض على صالح الرازقي. وأصبحت عضو مكتبها عندما نسب سلام الناصري، عضو المكتب السياسي كسكرتير لها.

أصعب امتحان في حياتي.

عندما أصبحت في المكتب وجهاً لوجه أمام مديرها محمد صالح كان عدد من جلاوزة الأمن يحيطون بي ويشيعون جواً إرهابياً. وبعد أن فتشوني تفتيشا دقيقا، وجدوا عندي حوالي 60 دينار، ولم يعثروا عندي على أي مستمسك، قال محمد صالح: "إسمع جاسم إحنا نعرف كل شي عنك. انت عضو لجنة مركزية وسكرتير لجنة منطقة بغداد. أحسن إلك إتصير عاقل وتعترف من هسَ (الآن) قبل ما يروح جلدك للدباغ، أو تالي هم تعترف، لأن أحنا ما ممكن إنجوز منك".

لم أشك بأن الامتحان الذي سأمر به سيكون مختلفاً عن كل الامتحانات التي مررت بها سابقا أمام الجلادين. فأنا صيد دسم بالنسبة لهم. ولدي مفاتيح أكبر وأهم منظمة للحزب. وكان الطريق الوحيد لاجتياز هذا الامتحان الأصعب في حياتي هو أن يقتنع مسؤولي الأمن بأني صلب وغير قابل للانكسار. قررت إتباع نفس الأسلوب الذي اعتدته أمام الجلاوزة وذلك بالإجابة على قدر السؤال وعدم استفزاز الجلادين بدون مبرر، وعدم إظهار أية نقطة ضعف بما في ذلك "أن لا أدعهم يرون الخوف في عيني". أجبت على سؤال محمد صالح:

ـ ما عندي شيء أعترف عليه.
ـ وين إتقيم؟.
ـ في غرفة عند عائلة متعهد ما أسبب إلها إزعاج". أجبته بلهجة الواثق.

ما أن أنهيت كلامي، حتى انهال علي الجلاوزة شتماً وضرباً بالأيدي وركلاً بالأرجل، مطالبين أن أرشدهم إلى مكان إقامتي. وعندما توقف الجلادون عن الضرب والشتم، سأل محمد صالح:

ـ تعترف لو لا؟.
ـ ما عندي شيء أعترف عليه.
ـ أخذوه خلي يشوف نجوم الضحى!

أخذني شرطي، رئيس عرفاء، ماسكاً معصمي بقوة ومعه حوالي خمسة جلاوزة آخرين. قادوني إلى ممر طويل وواسع نسبيا، انعطفنا فيه مرة أو مرتين إلى اليمين وانتهى إلى فسحة صغيرة. دفعوني إليها وبيدهم هراوات وصوندات خاصة للتعذيب.

قبل انقلاب 8 شباط الأسود عام 1963 كانت لدينا بعض التقاليد عندما يتعرض المناضل للتعذيب نعتبرها حميدة. فعلى سبيل المثال لا الحصر عدم التفوه بكلمة (آخ). بعد الانقلاب لم تعد تلك الاعتبارات ذات قيمة تذكر، فالمهم هو عدم كشف أسرار الحزب أو التفوه بما يسيء إليه. ولذلك ما أن انهالت الهراوات على جسمي النحيل حتى بدأت بالصراخ... صراخ قوي وصل إلى آذان فؤاد الركابي وزميله أحمد الحبوبي اللذين كانا معتقلين في دائرة الأمن العامة آنذاك. وقد أعلما الحزب باعتقالي. كان الصراخ وسيلتي للدفاع عن نفسي والتخفيف عن آلامي فضلا عن أنه يزودني بطاقة للمقاومة. وعندما اشتد الألم وأصبح هائلا، توقفت عن الصراخ وحاولت أن أمسك إحدى الهراوات لأدافع بها عن نفسي، وكانت المحاولة تصرفاً غريزياً ليس إلا. وفعلاً أفلحت أخيراً حيث أمسكت بقبضتي على أحداهن. فقرفصت نفسي علي الهراوة بكل قوة محاولاً انتزاعها ولكن بدون جدوى. ولم ينتزعوها مني إلا بعد أن انهارت مقاومتي ووقوعي كجثة هامدة لنفاد طاقتي. إلا أنني لم أفقد وعيي. توقف الضرب، وقبل أن يتوقف لم أكن أحس بألم الضربات لتخدّر جسمي. كنت قد سمعت بمقولة تشير إلى إن الجسم يصاب بالخدر عند التعذيب ولا يشعر المرء بعده بالألم، ولم أتأكد من ذلك إلا بعد هذه التجربة المريرة.

أوقفوني، وتأبطني أحدهم ليساعدني في السير. وفي الطريق قال لي رئيس العرفاء: "إحمد ربك ما وگعت بيد عقائديين". ويقصد بيد البعثيين. وضعوني وملابسي ملطخة بالدماء في غرفة بمفردي. وبعد فترة رموا علي كمية من القطن. وعندما كنت مشغولاً بتنظيف جروحي، وإذا بشرطي يُدخل صالح الرازقي إلى الغرفة ويغلق الباب خلفه. تظاهرت بأني لا أعرف بانهياره، في الوقت الذي ساورتني الشكوك بأن يكون هو الذي ساعد الأمن على إلقاء القبض علي. وقد تأكد لنا لاحقاً، بأنه كان يخرج يومياً مختبئاً في سيارة الأمن ويترصد الكوادر في ساحة التحرير. في غرفة التوقيف. قال لي صالح الرازقي أسوء ما يمكن أن يقال لي وأنا في تلك الحالة: "ما راح يجوزون منك". "أدري". أجبته بحزم. سمعت أم شروق خبراً مؤكداً عن اعتقالي بعد أسبوع من وقوعه، نقله لها شقيقها جواد عطية. وانطوى الخبر على الحالة التي كنت عليها بعد التعذيب. ولا تزال أم شروق تتذكر نص الخبر وهو: "جايبيه مدمي وشامريه بغرفة وي صالح الرازقي وشامرين عليه حفنة قطن"

في صباح اليوم التالي قادتني الشرطة إلى التحقيق ثانية. كان المكان هو مكتب معاون المدير. الأجواء هي نفس الأجواء الإرهابية حيث وقف عدد من الجلاوزة

وهم على أهبة الاستعداد للانقضاض علي. قام بالتحقيق معاون المدير، ودار بننا الحوار التالي:

- إنت عضو بالحزب الشيوعي العراقي؟
- نعم.
- إحجي لنا شنو مسؤولياتك؟ شنو تنظيماتك؟ منو يشتغل وياك؟ إذا حجيت وتعاونت بالتحقيق، راح نساعدك. والعناد ما يفيدك، تأذي روحك بالبلاش. صير خوش ولد وإحجي.
- آني عضو بالحزب ومن واجبات العضو الحزبي أن يصون أسرار الحزب. والمعلومات اللي تريدها أسرار حزبية، أجبته بدون تردد.
- شوف.. شوف كام يتفلسف براسنا إبن ... يبين بعده معاند. اخذوه خلي يشوف عناده وين يوصله.

ساقوني إلى تحت الدرج، وأوثقوا يدي من الخلف بحبل وراحوا يسحبون الحبل إلى الأعلى تدريجيا، كانوا يطلبون بإلحاح أن أعترف (إعترف أحسن لك). انطوت يداي إلى الخلف وشعرت بألم شديد في كلا الكتفين. واشتد الألم عندما ارتفعت قدماي عن الأرض. مع مرور بعض الوقت أخذت تنتابني حالة نفسية صعبة جداً، ازدادت صعوبة بعد أن ترك الجميع المكان وحل فيه سكون تام. كنت أرمي بجسمي إلى الأمام عسى أن تلامس قدماي ولو للحظة الجدار المنتصب أمامي، ولكن دون جدوى. فقد كان الجدار أبعد من أن تلامسه قدماي. وبعد فترة اقترب مني أحد أفراد الأمن، نفس الشخص الذي ألقى القبض علي، محاولاً أن يكويني بسيكارته، ربما ليتأكد من أنني لم أمت بعد، تلقفته برجلي مشبكا إياها عليه بكل قوة. كنت مستعداً أن أفصل روحه عن جسده، على أن لا أرجع إلى الوضع السابق. استنجد بزملائه االجلاوزة، فساعدوه وأنقذوه مني، وابتعدوا مرة أخرى.

في ذلك السكون كنت مستعداً أن أموت فعلاً، بدلاً من الوضع الذي كنت فيه. فأية آلام تلك التي عاناها الشيوعيون من الذين استشهدوا تحت تعذيب أشد قسوة على يد البعثيين الفاشست؟ راودني هذا السؤال، وجال في خاطري وجوه الشهداء الذين سبق وأن التقيت بهم وتعرضوا للتعذيب حتى الموت: سلام عادل ومحمد حسين أبو العيس وجمال الحيدري وحسن عوينة ونافع يونس، ومحمد موسى وعبد الإله الرماحي، هذه الوجوه هي التي قوت من عزيمتي وصمودي.

عندما كنت معلقاً استمر الجلاوزة على ترديد مطلبهم بأن أرشدهم إلى مكان مواعيدي الحزبية، لكي ينزلونني إلى الأرض. عندما لم يحصلوا على نتيجة، طلبوا اسمي الحزبي فقط ولم ألب طلبهم، رغم أنني أعرف بأن ذلك لم يعد سراً، بعد اعترافات صالح الرازقي. لأنني كنت أدرك بأنهم سيحاولون استدراجي. قد يعتبر البعض بأن موقفي متزمتاً أو لا ينم عن ذكاء. ولكن التجارب تشير كما ذكرت ذلك

سابقاً، بأن العلاقة بين الأجهزة القمعية والقوى التي تتعرض للقمع لم تكن ولا يمكن أن تكون لعبة ذكاء وغباء كما يظن بعض أدعياء الذكاء. إنه صراع بين قوة غاشمة بإمكانيات غير محدودة تريد أن تكسر شوكة المناضل وتجبره على المساومة بأي شكل من الأشكال من جهة، وإرادة إنسان حريص على مصائر رفاقه ويأبى المساومة على أسرار حزبه ومعتقداته وقضية شعبه وكرامته وشرفه وعلى حريته كإنسان من جهة أخرى.

في اللحظة الأخيرة من تعليقي تحت الدرج، اقترب مني أحد أفراد الأمن وقال لي: "اسمك ناهض مو؟ (أليس كذلك)". في تلك اللحظة لم أكن قادراً على التلفظ بأية كلمة. كنت مستسلماً لقدري وأجترع، بلا مبالغة، سكرات الموت. وإذا بالذي تلفظ اسمي الحزبي يصرخ: "اعترف..اعترف.. يگول اسمي ناهض". عندما أنزلوني شعرت للحظات بأنني بدون يدين، فقد كان القسم العلوي من بدني مخدراً. تلفت يميناً وشمالاً قبل أن يدير الجلاوزة يداي المخدرتين ليعيداهما إلى محلهما.

في موقف الأمن

توقفوا عن تعذيبي، وزجوا بي في موقف مديرية الأمن العامة التي تضم مجموعة من الزنزانات التي تفتح أبوابها نهاراً وتغلق ليلاً. كان الشيوعيون يحتلون جهته اليمنى والبعثيون جهته اليسرى. التقيت هنا بالرفاق عمر علي الشيخ وتوفيق أحمد وسليم إسماعيل وأحمد السنجري وجورج يعقوب. كان الجو العام أفضل بكثير من سجن بعقوبة الانفرادي في العهد الملكي. فهنا تدخل الصحف والمجلات بما في ذلك المجلات المصرية كالكاتب والطليعة ويسمحون بالأوراق والأقلام ولدينا شطرنج وطاولي. وكان احتكاكنا بالبعثيين محدوداً.

بعد حوالي أسبوع استدعوني لتسجيل إفادتي. واستغربت في البداية أن يجري ذلك يوم الجمعة، ولكن ظهر أن ذلك طبيعي في هذه الدائرة. كان المحقق ملازم حازم وحده. استقبلني بشيء من الاحترام وقدم لي قهوة وسيكارة، وشرع يكتب بيده إفادتي. أنكرت المبرزات التي "تخلصت" منها عندما القي القبض علي. أنكرت سبع رسائل باسمي الحزبي، يبدو أنهم عثروا عليها في بيت توفيق أحمد، الذي كان مقراً للجنة التنظيم المركزية، وأنكرت اسمي الحزبي معها. واجهني المحقق بمقتطفات من إفادة صالح الرازقي وكانت في ملف أمامه. كذبت ادعاءات الرازقي، وطلبت مواجهتنا. كنت أتمنى أن يتم ذلك لكي أتمكن من تأنيبه على خيانته للحزب. أكدت مجدداً بأن واجبي كعضو في الحزب هو أن أصون أسرار الحزب، ردا على بعض الأسئلة. أخيراً قال لي المحقق: "إشلون أقدم مثل هالإفادة للحاكم؟". أجبته "بسيطة ، قدمني ويالإفادة لحاكم التحقيق".

لقد أغراني السلوك المؤدب والإيجابي للمحقق وخلو الدائرة بسبب العطلة وثقتي بالنفس بعد اجتياز الامتحان الصعب في اليومين الأولين من اعتقالي، أغراني كل ذلك إلى أن أحاول استمالة المحقق للتعاون معنا. وقد قطعت شوطاً معيناً في التمهيد لذلك. ورداً على رأيه بأن الحكومة قوية والحركة ضعيفة قلت له: " تصور أن جلستي هذه مع أحد مسؤولي هذه الدائرة في يوم 13 تموز 1958، فهل كان يقول غير الذي تقوله أنت الآن؟ ولكن برهن 14 تموز أن الحكومة ضعيفة والحركة قوية". أدرك المحقق نواياي عندما خاطبته بأن من الممكن أن يقدم أي إنسان، من موقعه، خدمة للحركة. اخشوشن المحقق وذكرني بأني في جلسة تحقيق، وطلب مني عدم التدخين! ومن ثم أنهى اللقاء، بعد أن طلب مني أن أوقع إفادتي. قرأت الإفادة ووقعتها.

كان كبس مطبعة الحزب الرئيسية في صيف 1965، وإلقاء القبض على الكوادر العاملة في هذا الجهاز وانهيار صالح الرازقي وكبس بيت توفيق أحمد عضو اللجنة المركزية، والذي كان مركز عمل لجنة التنظيم المركزي (لتم)، حيث ألقي القبض على توفيق وجرى اغتيال حميد الدجيلي عضو اللجنة المركزية، بمثابة أقوى ضربة وجهت للحزب بعد إعادة بنائه. فأصبح صمودي في التحقيق، حيث لم تمس لا تنظيمات بغداد، ولا ما أعرفه من أسرار أخرى بأي سوء بعد اعتقالي، بلسماً شافياً للحزب. ولذلك أشاد الحزب بموقفي في نشرته الداخلية المعروفة "مناضل الحزب" مبرزاً قولي في التحقيق: "إن واجبي كعضو في الحزب، هو صيانة أسرار الحزب".

كان توفيق أحمد أكثر حماساً مني للهروب من المعتقل. وكان يعرض علي بين الحين والآخر خطته للهرب من مديرية الأمن العامة. وعلى الرغم من خططه الخيالية، فقد كنت أستمع إليه وأناقشه بجدية بأمل رسم خطة واقعية تنطوي على قدر من نصيبها في النجاح. كان الحارس يسجل أسماء من يرومون مراجعة العيادة. طلبت منه تسجيل اسمي باقتراح من توفيق في القائمة لمعالجة بعض أصابع يدي التي كانت شبه مشلولة جراء التعليق تحت الدرج. إن ذريعة العلاج أتت ضمن مسعى للبحث عن فرصة للهرب. رفض المسؤولون طلبي بالذهاب إلى العيادة، وأبلغوني بأن ذلك ممنوعٌ علي بدعوى إني خطر، في حين سمحوا للآخرين.

عندما كنا في هذا الموقف جاؤا بشابين يافعين من مدينة الثورة وهما نعيم الناشيئ ولطفي حاتم (أبو هندرين) من منظمات حزبنا في مدينة الثورة. وكان موقفهما جيداً في التحقيق. لم يكن لطفي يتجاوز السادسة عشر من عمره. وعندما هددوه في التحقيق بالاعتداء الجنسي عليه، رد عليهم رداً واعياً وفريداً من نوعه. ولم يكرروا تهديدهم ذاك مرة أخرى. وأصبح لطفي موضع ثقتنا. وعندما نقلوه إلى

معتقل خلف السدة، وضعوه في قاووش آخر وكنت أزوده، سراً، بأدبيات الحزب وبعض المساعدة المالية.

كان لدينا في الموقف راديو صغير سري، نسمع منه الأخبار كل مساء عندما تغلق أبواب الزنزانات. وكنا نعمم النشرات الإخبارية على الآخرين في صباح اليوم التالي. وكان من بين الذين نزودهم بهذه الأخبار شاب بعثي اسمه وهاب من الناصرية. كان موقفه جيداً في التحقيق على خلاف موقف البعثيين الآخرين الذين كانوا يبررون مواقفهم الضعيفة كتحصيل حاصل لشدة التعذيب. وتحول إعجاب وهاب بمواقفنا الصلبة في التحقيق إلى صداقة وثقة متبادلة إلى حد ما. كان يسألنا من أين نحصل على الأخبار، كنا نسمعه إجابات مبهمة. في أحد الأيام أخبرناه، بأن مصدر أخبارنا هو رئيس العرفاء صيوان، وإن غداً سيأتي دورك باستلام الأخبار منه وتزويدنا بها، وما عليك سوى إخباره بأن توفيق أحمد أرسلك إليه. كان صيوان حارساً علينا وهو فض الطباع. ذهب وهاب إلى صيوان في اليوم التالي. فما أن سمع صيوان طلب وهاب، حتى أعطاه دفعة قوية ليبعده عنه. وعندما عاد وهاب إلينا، بررنا موقف صيوان بعدم ثقته بالبعثيين! أعدم وهاب ضمن مجموعة أخرى من كوادر البعث من قبل قيادة حزب البعث في عام 1974. ولم أتمكن من معرفة الأسباب، ولكن الذي أعرفه بأن وهاب كان إنساناً صادقاً.

خطة الهروب

بعد فترة وجيزة تم نقل جميع المعتقلين إلى معتقل خلف السدة. وكان مدير المعتقل العقيد عباس السلامي. كان هذا المعتقل معسكراً للجيش بالأساس، وهو غير محاط بالأسوار، بل بالأسلاك الشائكة. وعندما كنا نتجول في الساحة في الأوقات المسموح بها لنا، كنا نشاهد حركة المرور في الشارع الرئيسي. عند ذاك تمر لحظات على المرء ينسى فيها كونه معتقلاً، تماماً كما هو الحال عند استغراق المرء في لعبة الشطرنج في المعتقل. ضم المعتقل العديد من القواويش (القاعات) الكبيرة التي يتسع الواحد منها لحوالي 60 شخصاً. كما يوجد في المعتقل حانوت صغير ومكتبة أيضاً.

تقوم شرطة القوة السيارة بحراسة المعتقل. وتتبدل كل ثلاثة أشهر. وخلال التبديل، الذي يأخذ وقتاً لا بأس به، يختلط الحابل بالنابل لعدم معرفة أفراد السرية الجديدة بالطاقم القديم. وخلال هذا التبديل يصبح بإمكان أي معتقل، إذا كان يرتدي ملابس الشرطة، أن يحمل بضع بطانيات ملفوفة على كتفه (يطغ) ويخرج من المعتقل بدون سؤال وجواب. تقرر هروب أربعة وهم كل من عمر علي الشيخ وتوفيق أحمد وسليم إسماعيل وأنا بملابس الشرطة. وفي أول زيارة لزوجتي مع ابنتنا الصغيرة شروق إلى المعتقل، جلبت لي أم شروق فراش "دوشك" فيه بدلتان كاملتان من ملابس الشرطة. وسُرب "دوشك" آخر في نفس المواجهة. وقام أخي حميد الذي

كان يعمل ندافاً بإخفاء ملابس الشرطة في "الدوشكين". توفرت لدينا أربع بدلات شرطة ولكن بعد فوات الأوان. فقد بات تنفيذ الخطة مستحيلاً عندما هرب عبد الحسين مندور، وهو من جماعة سليم الفخري، بنفس خطتنا من أحد القواويش. واتخذت إدارة المعتقل جملة من الإجراءات أدت إلى انعدام أية إمكانية لاستخدام الخطة المذكورة مرة أخرى.

وتداولنا حول خطة أخرى سبق وأن استبعدناها لأنها لا تتسع لأكثر من شخصين. وعندما علمنا بأن السلطات تنوي نقلنا إلى سجن نقرة السلمان الصحراوي، قررت اللجنة الحزبية المكونة من عمر علي الشيخ وتوفيق أحمد وسليم إسماعيل وأحمد الحلاق وحسين علوان وأنا، وضع الخطة موضع التنفيذ. وتقرر تهريب اثنين وهما عمر علي الشيخ وأنا. وتقرر تنفيذها في أحد أيام المواجهة، وذلك بالهروب من أحد الشبابيك مع بعض التغيير في مظهرنا. ومن ثم نسعى إلى الاختلاط بالمواجهين الذين يتجمعون عادة، بعد انتهاء المواجهة لفترة قصيرة خارج القاعات وراء الشبابيك، ريثما يجري تعداد المعتقلين في جميع القاعات. و يأخذ الحراس وطاقم إدارة السجن مواقعهم في نقاط التفتيش العديدة التي يمر بها المواجهون عند خروجهم مادين أيديهم لتتبين صورة الأختام عليها. وتعتبر النقطة الأولى أخطر هذه النقاط، حيث يقف طاقم الإدارة بمن فيهم المدير والضباط والمراتب وجمهرة من الحراس، وبينهم بالتأكيد بعض عناصر الاستخبارات العسكرية، في صفين متقابلين ويركزون على الوجوه فيما تركز النقاط الأخرى على رؤية الختمين اللذين يختم بهما المواجهون عند دخولهم المعتقل، والختمان أحدهما بيضاوي والآخر مربع.

تنفيذ الخطة

ضم قاووشنا حوالي 60 معتقلاً وغالبيتهم من الشيوعيين. واحتضن القاووش إلى جانب الشيوعيين معتقلين من جماعة سليم الفخري وبضعة عناصر مشكوك في أمرها. ولذلك تطلب تنفيذ الخطة التحلي بالسرية التامة والاعتماد على من نثق بهم. وكان لابد من إعادة انتخاب اللجنة الاقتصادية (الإدارية) لكي نتمكن من التحكم ببعض الأمور المتعلقة بمشروع الهروب. فالخطة تتطلب التعاون مع هذه اللجنة في حين كانت اللجنة تضم بعض العناصر التي لا يمكن الركون إليها. وسارت الأمور بنجاح. كانت الخطة تتطلب قص أحد القضبان الحديدية في الشباك الأخير من القاووش لكي تتوفر إمكانية التسلل من الفتحة. تم توفير منشار لقص الحديد من قبل أحد الحراس. وتوجب علينا اتخاذ التدابير ليباشر الرفيق تحسين فائق بالعمل. ومن أجل التغطية على عملية الهروب، قررت اللجنة الاقتصادية إجراء تنظيف عام في القاعة واختارت عناصر مأمونة للقيام بضجيج أثناء التنظيف للتغطية على الصوت الصادر عن المنشار عند قص القضيب الحديدي.

وقفنا، عمر علي الشيخ وأنا، خارج القاووش بجانب الشباك متظاهرين بالبحث في شؤون المنظمة لكي لا يقترب منا أحد من المعتقلين، وبالتالي إلى الشباك. كما كان علينا أن نعطي إشارة إلى تحسين كي يتوقف عن العمل في حال اقتراب الحارس الذي يتخطى على سطح البناية المقابلة ويراقب ما يقع تحت نظره. عندما أنهى تحسين قص القضيب الحديدي أعاده إلى محله السابق بطريقة فنية وغطى ما يمكن أن يجلب الانتباه في الوضع الجديد للقضيب بليفتي حمام. كان هذا الشباك يقع في آخر القاعة قريبا من أحدى زواياها التي تستخدم كحمام. وكانت رائحة الزاوية تزكم الأنوف، ولم يكن المكان المجاور لها مرغوبا فيه من قبل المعتقلين، وقد احتل رفاقنا المكان تدريجيا ضمن الخطة المقررة.

كان ضمن الخطة تحضير دميتين كبيرتين من أجل التمويه لكي يحلا محلنا، فقد كان من المحتمل إعادة تعداد المعتقلين بعد خروجنا من الشباك، ولعدم كشف واقعة الهروب لبضعة أيام. ولم يكن لدينا أي مكان لصنع الدميتين في القاووش. ولهذا شيدنا مسرحاً لاحتفالات عيد ميلاد الحزب يوم 31 آذار مساءً. وقام عمر الشيخ في صنع الدميتين وحشاهما بالبيجامات والقمصان والملابس الرثة خلف الكواليس. ووضعت الدميتين بعد خروجنا من الشباك وهي ملفوفة بالبطانيات في مكان نومنا بعد أن ربطت رجليهما بخيوط يسهل تحريكها للتمويه. وهكذا أصبح بالإمكان تحريك رجل الدمية بواسطة خيط مربوط بها حيث يمسك طرفه الآخر أحد الرفاق بجانبها والذي يقوم بتحريك رجل الدمية لتضليل الحراس وإبعاد الشبهات عند التعداد.

بوادر التردد

من المعروف عن عمر علي الشيخ بأنه يدقق كثيراً في الأمور إلى حد المبالغة أحياناً. وكنت أعطيه الحق في ذلك، خاصة وأنه كان ضمن عمليتي الهروب الكبيرتين الفاشلتين في سجني الكوت وبعقوبة عامي 1952 و1955، على التوالي. وكنت أطرد فكرة تردده، ما أن تخطر ببالي. وقبل الهروب بفترة، وعندما بادر عمر إلى ترديد شكوك بعض رفاق اللجنة من الذين يشككون في نجاح خطة الهروب قلت له: "من الطبيعي أنه كلما نقترب من موعد الهروب يزداد التردد، وأخشى أن يطلب الرفاق إلغاء العملية عشية تنفيذها". وقبل يوم واحد من هروبنا أثار عمر مشكلة عدم وجود هويات شخصية لدينا نحملها بعد هروبنا. فقلت له: "مو تأكدنا محد يسأل عن الهويات". "إذا سئلوا، شراح يصير؟" سأل عمر. "تصير ثورة ردة!" قلت منفجراً وأضفت: "ناكل فد كروان ويرجعونا لمكانا. شراح يصير أزيد من هذا؟". وافترقنا متكدرين!

يوم المواجهة

اختارعمر علي الشيخ أن يتقمص هيئة حمّال. وقد هيأ دشداشة مرقعة برقعة كبيرة من الخلف وجاكيت قديم و(جراوية) على غرار ما يلبسه الكردي. أما أنا فقد اخترت الهروب بهيئة طالب جامعي، فاستعرت بدلة جيدة مع ربطة عنق. واستعرت نظارات عربي فرحان الخميسي (أبو رغيد) الطبية. عندما نمنا في الليل يوم 31 آذار كانت البدلة في فراشي، وقد لبستها ولبست البيجامة عليها وأنا تحت الفراش بعد منتصف الليل عندما غلب النوم على الجميع. وفي الصباح لبست الروب وبشكل أبدو فيه طبيعياً. كان عمر علي الشيخ ينسق مع قيادة الحزب. وقد رتبت الأختام بطريقة كيماوية. فقد استلمت ورقتين بعد المواجهة. وكان عليّ أن أبلل باطن الرسغ وأضغط الورقة عليه قليلاً لينطبع الختم عليه. كما وجب علينا معرفة المكان المناسب لبصم كل من الختمين البيضاوي والمربع. فهذه العملية لا تحتمل أي خطأ، لأن الأمر يختلف بين مواجهة وأخرى. شاهدت الرسغ اليسرى لأم شروق في المواجهة وعليه الختم المربع وذهبت إلى التواليت وأنجزت المهمة بكل يسر وأتلفت الورقتين.

تم الهروب يوم المواجهة وهو اليوم الأول من نيسان عام 1966. وصادف هذا التاريخ في تلك السنة الاحتفال بعيد الأضحى. فحشد الحزب للمواجهة وكانت أكبر مواجهة يشهدها هذا المعتقل. فبلغ عدد من زاروني شخصياً تسعة أشخاص كبار وعدد من الأطفال. كان يوم المواجهة يوماً ربيعياً بهيجاً. قالت لي أم شروق، وهي تحمل قِدراً متوسط الحجم: "طبخت لك تمن باگله مطبك على قوزي، أدري بيك تحبها". " شكرا. بس اليوم غدانا سوه بالبيت".وأخبرتها بأنها ستكون وأختها سميرة (وهذا اسمها الشائع والحقيقي هو شكرية) ضمن مجموعة مختارة تتجمع حول الشباك خارج القاووش لتغطية خروجنا من الشباك.

أم نغم (سميرة) عام 1966

وبدلاً من أن يعلو الفرح على محيا أم شروق، فقد خافت وامتقع وجهها. استغربت!! فقد كانت مراسلة جريئة حتى في العهد الفاشي. سألتها: "شبيج ليش خفتي؟". أجابت: "أخاف يكمشوك ويضربوك گدامي. ما أگدر أشوف هيج منظر". طمأنتها، وسألتها إن كانت تريد إعفاءها من مهمة الوقوف أمام الشباك. فأجابت، بشكل حاسم، بالنفي. ومع ذلك لم تتمكن أم شروق من أداء المهمة بشكل طبيعي، فقد أدارت ظهرها للشباك عند تنفيذ العملية كي لا تشاهد ذلك المشهد الدرامي. ولم تلتفت، إلا بعد أن سمعت صوتي وأنا خارج القاووش.

شروق كبرت وأصبح عمرها ستة أشهر وهي بحاجة إلى أب يرعاها. وكنت قد وعدت أم شروق أن لا أتركها وحدها، فإنني أنا الآخر بحاجة إليها. وكان الحزب وحاجته وقضيته، كل ذلك قد شكل طيفاً واسعاً من العوامل المحفزة لخوض المجازفة وبدون تردد. ولكن آه.. على تردد الآخرين! قبل انتهاء المواجهة بحوالي الساعة جاءني توفيق أحمد، وكان ممثلنا أمام الإدارة وله علاقة بممثل للبعث اليساري في قاووش آخر، وقال لي: "يظهر أن الخطة قد انكشفت. فقد أخبرني ممثل البعث اليساري بأن أحدهم سمع مدير السجن يقول لأحد الضباط: "من يطلعون جيبوهم إثنينهم يمي". وأبلغني توفيق أن رفاق اللجنة يرون تأجيل العملية!!"

- وما هو رأي الرفيق أبو فاروق (عمر علي الشيخ)؟
- ينتظر رأيك.
- أحنا نعرف المدير شخص جبان. وإذا كان قد عرف بالخطة، لأعلن نفيراً عاما في الحال. ووقف أمام الشباك وبيده القضيب المكسور (فاتني أن أضيف ويأخذ في هذا الوضع صورة لنشرها في الصحف) ليعلن اكتشافه مؤامرة هروب وبيده الدليل الحاسم. ولا يبقى مدير السجن متفرجاً إلى أن نخرج. وبما أن المدير لم يقترب من الشباك، فالخطة غير مكشوفة. وأرى أن نشرع بالتنفيذ. إن ما سمعه البعثي، إن صح ما سمعه، فلا علاقة له بنا. تركني توفيق وقد بدا عليه الاقتناع بتحليلي للموقف ولم يعد من جديد.

انتهت المواجهة بعد أن مددت ساعتين بمناسبة العيد. وخرج المواجهون من القاووش. جرى عَدْ المعتقلين ثلاث مرات في هذه المرة بدلاً من مرة!! تحركت أنا صوب الشباك. وكان كل شيء يسير حسب الخطة المرسومة. وقف عمر في حالة تأهب وأقرب إلى الشباك مني. التفت إلي متسائلا بحركة بسيطة من رأسه، هل نباشر؟ أجبته أيضاً بحركة بسيطة من رأسي بالإيجاب. خرج عمر من الشباك

وخرجت بعده. وخلال لحظات خلعت، وبمساعدة الآخرين، البيجامة ولبست الرباط وعدلت قيافتي. أوعزت إلى أخي حميد بأن يخرج مع أم شروق مبكراً ليحجزا لنا تاكسي.

كانت الخطة تقتضي أن أكون حليق الشارب. وخففت الشارب تدريجياً في المعتقل وأبقيت منه خيطا رفيعا على أن أحلقه عند خروجي من الشباك. كان جورج يعقوب مكلفاً بأن يناولني ماكنة الحلاقة. أنجزت المهمة بدون مرآة. وقبل أن أعيد الماكنة له، أشار لي جورج بإصبعه إلى مكان محدد على شفته. ففهمت إن هناك بقايا شعر يجب إزالته. فحلقت المكان المطلوب ثانية، وإذا بجورج يضرب وجهه بكفيه متأسيا لأن الجرح البسيط أصبح أعمق. انشغلت بتجفيف الجرح، وأصبح ذلك همي الأول والأخير ونسيت إلى حد ما موضوع الهروب! ولحسن الحظ، فقد جف الجرح عندما باشرت المواجهة في الخروج فالتحقنا بها. وهكذا لم أعانِ كثيراً من قلق انتظار اللحظة الحاسمة!

رافقتني مادلين يعقوب متأبطة ذراعي اليسرى وكنت أحمل طفلة صديقة مادلين، سميرة فرنسيس، على ذراعي اليمنى. إن مادلين فتاة أنيقة تصغرني ببضع سنوات، فكنا نبدو وكأننا فعلا زوجين. اجتزنا أخطر نقطة بسلام. وما أن اجتزنا النقطة الثانية حتى سحبت مادلين يدها من تحت أبطي وركضت أمامي تدفع الناس بيديها تشق طريق لي كي أتمكن من السير بسرعة وبدون عوائق. ولم يكن يعوزها سوى الصراخ: "أفسحوا المجال لقد نجح ... في الهروب!!"

أمسكت بيدها وأعدتها إلى جانبي وذكرتها بأننا لازلنا في المعتقل، وأن هناك بضع نقاط تفتيش أخرى وبعدها مسافة حوالي نصف كيلو متر لابد من قطعها مشياً على الأقدام. اجتزنا كل ذلك بسلام لنصل إلى ساحة تجمع فيها جمهور غفير ينتظر وصول تاكسيات فارغة. ولكننا لم نر أي أثر لأم شروق وأخي حميد. ابتعدنا مسافة عن الجمهور وصادفنا تاكسي فحجزناه فورا. وما أن تحرك التاكسي حتى لمحنا أم شروق وأختها وأخي وركبوا معنا وذهبنا مباشرة إلى بيت عائلة مادلين.

إن مادلين هي أخت الشهيد أدمون يعقوب الكادر العمالي، وأخت المناضلات فكتوريا (باسمة) وماريا ورينا والرفيق جورج الذي مر ذكره آنفاً. لقد قدمت هذه العائلة النبيلة، بمن فيهم والدتهم، خدمات جليلة للحزب وقضيته في أصعب الظروف ولسنوات طويلة. كما قدمت هذه العائلة تضحيات جسيمة في الطريق من أجل حرية العراق وسعادة شعبه فهي تستحق كل التبجيل والثناء.

حُر خارج المعتقل

بعد استراحة قصيرة غادرنا، أنا وأم شروق وأختها سميرة، بيت عائلة مادلين وتوجهنا إلى بيت أخ أم شروق جواد عطية حيث تقيم أم شروق وأختها. ترجلنا من التاكسي بمسافة ملائمة بعيداً عن البيت. وهكذا التقينا، أم شروق وأنا، ولوحدنا مرة أخرى بعد أن أخذت سميرة شروق وتوارت عنا. ذكرت أم شروق بوعدي لها بأنني سأهرب إذا ما أعتقلت. أما هي فقد كانت تتحسس ذراعي، بين حين وآخر، لتتأكد من وجودي. كان جسمانا يلامس الواحد الآخر صدفة أو تعمداً، فنزداد شوقا. غمرتني السعادة وأنا أسير بجنبها. تداخلت الذكريات واللحظات وتوجهت أبصارنا نحو الأفق متأملين الكون، فشعرت بتعلق وجاذبية أشد نحو الحرية والحياة والحزب وأهدافه النبيلة.

المؤلف عام 1966

كلمة لابد منها

كان مهندس هذا الهروب الناجح وقائده الرفيق عمر علي الشيخ. ولم تبخل قيادة الحزب بأي مساعدة ممكنة. وتولى التنفيذ توفيق أحمد. وكان من أبرز مساعديه الرفيق علي عرمش شوكت والشهيد عواد حريجة وكاظم معارج وحميد رشيد الأوسي وأمهاتهم الطيبات اللواتي ساهمن في التجمع حول الشباك لحظة الهروب. وانضم إلى هذا الفريق الشهيد رافع الكبيسي والكسان البير وتحسين فائق وغيرهم من الرفاق. وفكرة كسر قضيب الشباك والهروب مع المواجهين تعود إلى علي

عرمش شوكت، وهي مستوحاة من محاولة مماثلة أجهضت قبل التنفيذ في سجن الحلة، وقد شارك علي فيها كما شرحها هو في مقال له.

ويعود الفضل لكاتب هذه السطور في شل التردد في اللحظة الحاسمة وإنقاذ الخطة من الفشل. ولم يكن ذلك لأنني أكثر ذكاء أو جرأة من الذين ترددوا في اللحظة الحاسمة، بل كنت الأكثر حماساً للهروب. لم ينف عمر علي الشيخ حماسي للخطة، ولكنه أوعزه، كمأخذ علي، إلى رغبتي الشديدة في لقاء زوجتي. ولا أعرف هل كان جاداً أم مازحاً في ذلك؟ ولنفترض إنه كان جاداً!! فما الغرابة والضير في ذلك؟ فالحب كما يشير ماركس: "قوة عظيمة وثورية يمكن أن تحطم كل القوانين والأصول الاجتماعية"، فما بالك بمعتقل، غير حصين، كمعتقل خلف السدة؟ وفي الواقع، لم أعد لزوجتي وحسب، بل عدت للحزب أيضاً. فقد ساهمت مباشرة وبعد بضعة أيام من هروبي في اجتماع كامل للجنة المركزية. وأنيطت بي مهمة سكرتير لجنة المنطقة الجنوبية. ورحلت مع عائلتي إلى البصرة لنختفي فيها سنة واحدة زاخرة بالأحداث والمفارقات. ولكن لهذه قصة أخرى ليس هذا مكانها.

المؤلف وزوجته بعد هروبه من معتقل خلف السدة عام 1966. أخذت الصورة على الكورنيش في البصرة

ذيول القضية

أبقى الرفاق الدميتين لمدة يومين مضللين بذلك حراس السجن، ورفعوهما أثناء خفارة ضابط شرس عثر على هاتين الدميتين. وجن جنون إدارة السجن عندما عرفت بالهروب. فاعتقلت طاقم الخفر كله مع الضابط المشار إليه وساقتهم إلى

التحقيق. وأرسلت مجموعة من المعتقلين إلى الأمن العامة للتحقيق أيضاً، وكان من بينهم سليم إسماعيل وتوفيق أحمد وعلي عرمش وتحسين فائق وحميد رشيد الاوسي والكسان البير ورافع الكبيسي. وجهت إليهم جميعاً تهمة تنظيم الهروب. وقد أفاد بعضهم في التحقيق بالمختصر المفيد: "لا أعرف شيئاً عن الموضوع، ولو كنت أعرف لهربت معهم!".

رفضت مديرية الأمن العامة الاحتفاظ بهم لعدم وجود مبرر لبقائهم لديها بعد انتهاء التحقيق والذي انتهى بسرعة. ورفضت إدارة معتقل خلف السدة إعادتهم إليها بحجة أن المعتقل لا يصلح لمعتقلين خطرين وهي غير مستعدة لتحمل مثل هذه المسؤولية. ولذا أودع المعتقلون في معتقل رقم واحد العسكري مؤقتاً. بعد مكوث المعتقلين ثلاثة أسابيع في معتقل رقم واحد تقرر نقلهم إلى معتقل الفضيلية. وتطلب الروتين الإداري أن يستلمهم الأمن أولا في وزارة الدفاع.

لم يكن المعتقلون مقيدين عند ترحيلهم إلى وزارة الدفاع وكان هناك جندي يرافق كل معتقل. أما توفيق أحمد فكان مأموره عريف، وعند ذهاب هذا الأخير، لتسليم الأوراق الخاصة بالمعتقلين إلى المسؤولين المعنيين في وزارة الدفاع، خرج توفيق أحمد من وزارة الدفاع من الباب الأقرب إلى مدينة الطب ليأخذ تكسي ويهرب. وقد أرسل بقية المعتقلين إلى معتقل الفضيلية بدون فتح تحقيق في هروب توفيق. التقيت بتوفيق أحمد في بغداد بعد هروبه، وحدثني عن ذيول قضية الهروب من خلف السدة.

بعد أقل من عام هرب الرفيق سليم إسماعيل خلال الطريق من سجن نقرة السلمان إلى بغداد لتقديمه إلى المحاكمة ومعه كاظم فرهود وعلي عواد. فقد كسر المعتقلون باب الشاحنة التي كانت تقلهم وقفزوا منها بالقرب من السماوة. وقد استطاع الرفيقان سليم وعلي من الهرب مشياً على الإقدام باتجاه البصرة. أما الرفيق كاظم فرهود فقد ألقي القبض عليه لأنه ظل في محيط السماوة. التقيت بالرفيق سليم إسماعيل في البصرة في اليوم التالي لوصوله، فقد كنت سكرتيراً للجنة المنطقة الجنوبية آنئذ. وقد حدثني بتفاصيل هروبهم. ووصف لي صوراً درامية مثيرة صادفاها، هو وعلي، عبر المسيرة من السماوة إلى البصرة وهما يتنقلان من قرية إلى قرية. وقد سرد سليم إسماعيل الحادث سرداً جميلاً في مذكراته. وبهروب الرفيق سليم إسماعيل تحقق تنفيذ هروب الأربعة، الذين كان من المقرر هروبهم بملابس الشرطة، وفشلت المحاولة لاستخدام الأسلوب ذاته من قبل أحد المعتقلين. ولكن بطرق مختلفة!

10

الإفلات من قبضة المجرم ناظم كزار

ناظم كزار جلاد بعثي معروف، وهو مسؤول شخصياً عن قتل وتعذيب عشرات الآلاف من بنات وأبناء الشعب العراقي وغالبيتهم من الشيوعيين وأنصارهم. لم أقابله يوماً، وإنما مررت بمديريته دون أن يمسني بسوء. فقد كان مرغماً على إطلاق سراحي لأسباب سياسية. وعندما توفرت الفرصة له ليلقي القبض علي، فلتّ من قبضته.

أول سفرة إلى موسكو

في أيلول 1969، سافرت إلى موسكو لإجراء عملية جراحية لأذني اقترحها علي أكثر من طبيب أخصائي عراقي. لم أتمكن من إجراء العملية في العراق لأنها تتطلب رقودي في المستشفى، في حين كنت مختفياً آنذاك. كنت سكرتيراً لمنطقة الفرات الأوسط ومقيما في مدينة الحلة. وقد سافرت بشكل غير شرعي إلى القامشلي عبر الموصل والمثلث العراقي ـ التركي ـ السوري وصولاً إلى دمشق فموسكو. وخلال هذه السفرة استخدمت أغلب وسائط النقل المعروفة،الحيوان، التراكتور، سيارة جيب، الباص، وأخيراً الطائرة. هذا إضافة إلى المشي على الأقدام.

بعد إجراء العملية الجراحية، شبه الفاشلة، منعت من السفر بالطائرة لمدة ستة أشهر. فكان لابد من العودة بالقطار. لكن قسم العلاقات الخارجية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي اعترض على سفري عبر ممثلهم الرفيق نيجكن. فالسفر بالقطار يستلزم المرور بعدد من البلدان مثل رومانيا وبلغاريا وتركيا وهذا غير ممكن بجوازي المزّور. واقترح علي الحصول على جواز سفر من السفارة العراقية. ولم يكن المقترح بمعزل عن رغبة موسكو في تنمية العلاقة بين الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث. لم يخطر المقترح ببالي ولم أستسغه في بادئ الأمر، ولكن الموقف الإيجابي لقيادة منظمتنا في موسكو من المقترح، والتأكيد على أن حقي مضمون في عدم الإجابة على أي سؤال لا أرغب الإجابة عليه في السفارة العراقية، شجعني على الموافقة. رافقتني إلى السفارة الرفيقة أم إيمان (ثمينة ناجي يوسف، زوجة الشهيد سلام عادل) كشاهد على عراقيتي وهو إجراء روتيني. وتمت المعاملة بالسفارة بسلاسة ومنحت جواز مرور صالح لسفرة واحدة. فرجعت من موسكو إلى حلب بالقطار، ومن ثم بالسيارة إلى دمشق.

اعتقالي في طريق العودة

عندما وصلت دمشق التقيت بالرفيق عزيز محمد وذلك في تشرين الثاني 1969. حاولت إقناعه بعودتي إلى العراق بشكل شرعي، لاعتقادي بأن السلطة لم تكن في وارد إلقاء القبض على أعضاء اللجنة المركزية آنذاك، فقد أعتقل بالصدفة بهاء الدين نوري عضو اللجنة المركزية في تلك الفترة بالذات، وأطلق سراحه بعد أن

أعادوا له أوراقه ومسدسه واعتذروا منه. وافق الرفيق عزيز بعد أن أكدت له بأني أتحمل شخصيا مسؤولية هذا القرار. وكنت شديد الرغبة في التخلص من وعثاء السفر في الطريق غير الشرعي، يحفزني في ذلك حيازتي على جواز أصولي.

سافرت عن طريق الرطبة. أوقفتني شرطة الحدود لوجود أمر بإلقاء القبض علي عام 1963 ضمن قائمة تضم أسماء الكثيرين، ظل منهم في ذاكرتي الشهيدين جمال الحيدري وعبد الجبار وهبي. أخبرتهم بان عفواً قد صدر عني وعن مجموعة من قيادة الحزب نهاية عام 1968، وأن القائمة التي يتحدثون عنها قديمة، وبإمكانهم الاتصال ببغداد والتأكد من ذلك. لم يعيروا اهتماما لكلامي وحجزوني، وعلى الأرجح بعد اتصالهم ببغداد. بعد قضاء ليلة واحدة في موقف الرطبة رحلت إلى مركز شرطة الرمادي. ومن هناك أرسلت برقية إلى نوري عبد الرزاق، وكان أحد شخصيات حزبنا العلنية، أخبرته فيها بنبأ اعتقالي.

بعد ليلتين في الرمادي سفرت إلى مديرية أمن بغداد. زج بي في موقف يضم حوالي 30 معتقلا. نادوني مساءً وقادوني في دروب شبه مظلمة تثير بعض الفزع، لاسيما وأنا لا أعرف إلى أين يقودونني، ولكنني أعرف بأن مدير الدائرة هو المجرم ناظم كزار. وأخيراً أدخلوني غرفة صغيرة أخذوا لي طبع أصابع وكذلك ما يسمى بصحيفة أعمال (وهي استمارة تتضمن معلومات عادية عن الشخص) ومن ثم أعادوني إلى الموقف. استنتجت مما جرى بأن الأمر ليس خطيراً. في اليوم التالي نودي علي وأدخلوني على محمد صالح وهو نفس مدير المكتب الأول الذي أشرف على تعذيبي عام 1965، استقبلني بترحاب وقال:

"بس شفت اسمك عرفتك، ماكو شي هسه تطلع، وقعت أوراقك وأرسلتها للمدير العام ناظم كزار... إي..إي.. ناظم كزار. صايرلي مدير عام، شايف هيج دنيا. بشرفك تقبل سياسي مثل عبد الرحمن البزاز يخلوه يمشي مثل الجلب ويكنس الموقف؟"

أدهشني كلا مه وحيرني مقصده، لذلك تجنبت الإجابة بالكلام وعبرت بحركة استغراب من شفتي جوابا على سؤاله. رفع من على مكتبه نسخة من صحيفة "طريق الشعب" ووجهها إلي وقال:
ـ هاي آخر عدد.
ـ قاريها، أجبته واثقاً.
ـ وين قاريها؟.
ـ بموسكو.
ـ بموسكو.. شوصلها؟! (كان استغرابه في محله، فبعد خروجي من الموقف عرفت أن ما قرأته كان العدد ما قبل الأخير).
ـ ما أعرف!
ـ شنو رايك بيها؟

ـ آني شنو رأيي، يو إنت شنو رأيك؟
ـ آني أكول لا شيش و لا كباب.
ـ شتريدها إنت، شيش يو كباب؟
ـ يو شيش يو كباب.

إما انحراف الحزب إلى اليسار وإما إلى اليمين، هذا ما كانت تطمح إليه الأجهزة الأمنية في شتاء عام 1969، لتكون على بينة من أمرها ولتنفيذ خططها في إضعاف الحزب بسهولة.

ـ ليش سافرت بدون جواز أصولي، لو مراجعنا جان منحناك جواز سفر.
ـ إذا ما عدكم مانع من سفري، أرفعوا المنع عني، حتى مديرية السفر والجنسية تمنحني جواز سفر".

عادت الأوراق من ناظم كزار تحمل موافقته على إطلاق سراحي. خرجت من مكتب محمد صالح وهو ينادي: " راجعنا إذا تريد تسافر!". "أراجع مديرية السفر". أجبته مؤكداً في ذلك عدم استعدادي لمراجعتهم. خرجت من مديرية الأمن بعد أن استلمت حقيبتي، وذهبت إلى بيت أحد أخوتي قبل سفري إلى مدينة الحلة للالتقاء بعائلتي. في الحلة، شاهدوني الجيران في العربة التي وقفت أمام الزقاق، وقبل أن أترجل منها سارعوا إلى إخبار أم شروق بوصولي، فاستقبلتني بالزغاريد في الزقاق. وكان الجيران على علم بسفري لإجراء عملية في لندن وليس في موسكو.

الحملة الإرهابية ضد الحزب.

بعد عودتي من السفر أنيطت بي مسؤولية منظمة بغداد، وذلك في بداية 1970. وكان مكتب لجنة منطقة بغداد يتكون من الشهيد محمد الخضري والفقيد ماجد عبد الرضا وأنا. وفي نهاية السنة اشتدت الحملة الإرهابية ضد الحزب وتدهورت العلاقة مع حزب البعث، والتي كانت هشة بالأساس، إلى حد القطيعة.

لم تتوقف المضايقات وحملات الإرهاب البعثية ضد الحزب الشيوعي العراقي. كانت تضعف أو تتوقف مؤقتاً، وتشتد بالارتباط مع أي نجاح يحققه الحزب في تعزيز وتوسيع نفوذه. فقد اشتد الإرهاب بعد أيام من اتفاق الحزب الديمقراطي الكردستاني والحكومة على بيان 11 آذار 1970، الذي يقر بالحكم الذاتي للشعب الكردي، لأن الجماهير الشعبية اعتبرت ذلك انتصاراً للحركة الكردية والحزب الديمقراطي الكردستاني ولسياسة الحزب الشيوعي العراقي وكفاحه من أجل تحقيق أماني الشعب الكردي. وقد عبرت الجماهير الشعبية عن ذلك في مظاهراتها العفوية في مساء 11 آذار. ولم يتمكن حزب البعث من تجيير الانتصار لحسابه. لأن الرأي

العام الداخلي والخارجي كان يعرف أن ما تحقق ليس من صلب سياسته. وهكذا سنرى كيف اشتدت الحملة الإرهابية ضد الحزب بعد الاتفاقية المذكورة مباشرة.

* اختطف، في وضح النهار، جهاز الأمن القومي الذي يديره ناظم كزار- صدام، الكادر الحزبي المتقدم محمد الخضري في يوم 20 آذار وهو في طريقه إلى كازينو صدر القناة ببغداد لحضور الحفل الذي أقيم من قبل مجلس السلم والتضامن بمناسبة صدور بيان 11 آذار. وقد عثر عليه في اليوم التالي مقتولاً في سيارته المتروكة في طريق بغداد - بلد، و قد اخترقت جسمه 18 رصاصة وعلى جسده آثار التعذيب.

* تجمع الشيوعيون وأنصارهم في ساحة الميدان في قلب بغداد في يوم 21 آذار،عيد نوروز، للمشاركة بمسيرة دعماً لبيان 11 آذار، وتصدرت المسيرة مجموعة من قادة الحزب المعروفين، فما كان من أزلام النظام إلا أن عزلوا القيادة وفرقوا التجمع بالهراوات يعد أن مزقوا اللافتات وجرحوا العديد من المتظاهرين..

* طرحت صحيفة "الثورة" في يوم 10 تموز شروط حزب البعث للجبهة، وسمتها "طريق الشعب" في عددها الصادر في الأول من آب "شروط البعث التعجيزية للجبهة"، وقد فندَت تلك الشروط بعد أن ناقشتها. واستخلصت ما يلي:

- إننا لا نتجنى على الحقيقة والواقع إذا قلنا: إن الشروط التي يطرحها البعث كأساس لإقامة الجبهة لا يمكن أن تحظى بتأييد الحزب أو منظمة وطنية في العراق بما فيها الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي يتحالف مع البعث على أساس اتفاقية 11 آذار 1970، ويطمح إلى جعل هذا التحالف (قاعدة رئيسية للجبهة) ويتطلع إلى توسيعها وتعميقها كي تضم جميع الأحزاب والهيئات الوطنية في العراق" واختتم الحزب مناقشته بالمطالبة بإلغاء تلك الشروط.

* أعتقل الكادر الفلاحي المعروف كاظم الجاسم، عضو لجنة منطقة الفرات الأوسط، والكادر الحزبي المحترف عزيز حميد، خريج معهد كارل ماركس للاقتصاد في بلغاريا، في آب. وكان هناك قلق جدي على حياتهما فقد كانا بيد الجلادين ناظم كزار - صدام حسين.

المؤتمر الوطني الثاني للحزب

عقد الحزب مؤتمره الوطني الثاني في أيلول 1970، بالرغم من عدم توقف الإرهاب وصعوبات ظروف العمل السري القاسية التي كان يعمل فيها الحزب، في سفح جبل كاروخ في منطقة بالك في كردستان العراق وحضره (102) مندوبا

وانتخب لجنة مركزية جديدة وكنت في عداد أعضائها ([32] *) وكان مجرد عقده تحدياً كبيراً للسلطة وإنجازاً كبيراً للحزب. أما وجهته السياسية والفكرية، وعلى الصعيدين التكتيكي والإستراتيجي، فلم ترق للحزب الحاكم، فقد رأى فيهما تحدياً خطيراً على وجوده ومستقبله. وقد انعكس ذلك في حملة إرهابية شرسة استهدفت تحطيم منظمات الحزب. وقد بدأت بمنظمات الحزب في الجنوب في الربع الأخير من عام 1970 واستمرت حتى صيف السنة التالية، وشملت معظم منظمات الحزب. وقد كتبت صحيفة "طريق الشعب" في عددها الصادر في شباط 1971 ما يلي: "لقد اختار حزب البعث عملياً نهج الإرهاب الذي سلكه عام 1963 مع تعديلات شكلية في الوتائر والأساليب. فلقد أعيد بقصد مفهوم، فتح "قصر النهاية" الرهيب ليبقى رمز العلاقة بين الحكم والمعارضة الوطنية، كما استمر التمسك بذات الأساليب المنكرة في اعتقال المواطنين وتعذيبهم وقتلهم وتشويههم سياسياً أو اغتيالهم.

قررت تغيير محل إقامتي وذلك للتخلص من حالة الاسترخاء استعداداً لما هو آت، بالارتباط مع انتهاء الهدنة مع حزب البعث و بوادر الحملة الإرهابية ضد الحزب. فقد كان بيتي في منطقة بغداد الجديدة معروفاً لعدد غير قليل من الرفاق والأقرباء، فانتقلت إلى مدينة الحرية. ولم يعد يعرف بيتي سوى شخص واحد وهو توفيق

---

[32] ـ **ملاحظة هامة:** انتخب المؤتمر الثاني لجنة مركزية. ولقد أشار المؤرخ حنا بطاطو بشكل خاطىء إلى قوامها في مؤلفه "العراق ـ الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار"، الكتاب الثالث، الجدول رقم 23 ـ 5، ص 421. فقد ذكر أسماء ستة رفاق لم يكونوا في قوامها وهم كل من: 1ـ عبد الأمير عباس 2ـ جواد كاظم (الصحيح كاظم جواد) 3ـ نوري عبد الرزاق 4ـ صفاء الحافظ 5ـ محمد كريم فتح الله 6 ـ مكرم الطالباني. في حين لم يذكر بطاطو أسماء تسعة رفاق كانوا في قوامها وهم كل من: 1ـ شاكر محمود 2ـ توفيق أحمد 3ـ سليمان يوسف بوكا 4 ـ جاسم الحلوائي 5ـ علي حسين البرزنجي 6 ـ أحمد بانيخيلاني 7ـ عبد الوهاب طاهر (مرشح) 8 ـ سليم إسماعيل (مرشح) 9 ـ عدنان عباس (مرشح).

وقد ارتكب بطاطو خطأ مشابها في الجدول المرقم 21ـ 1، ص، 354، والمعنون "أعضاء اللجان المركزية للحزب الشيوعي من آب (أغسطس) 1964 وحتى أيلول (سبتمبر) 1967" فقد ذكر عشرة أسماء لم يكونوا يوماً ما في قوام اللجنة المركزية خلال الفترة المذكورة، وهم كل من: 1ـ عبد الأمير عباس 2ـ حسين جواد الكمر 3ـ جاسم محمد الحلاوي (لم يكن عضوا في الحزب الشيوعي في هذه الفترة!) 4 ـ بيتر يوسف 5ـ خضير سلمان 6 ـ سليم إسماعيل 7ـ سليم الميرزا 8ـ زكية خليفة 9ـ عبد الرزاق الصافي 10ـ عدنان عباس. في حين لم يذكر ستة أسماء كانوا في قوامها، وهم كل من 1ـ ستار خضير 2ـ حميد الدجيلي 3ـ نزيهة الدليمي 4ـ حسين سلطان 5ـ عزيز شريف 6 ـ جاسم الحلوائي. وبناء على ذلك فإن الجدول، المرقم 21 ـ 1 والمعنون "إجمالي المعلومات الحياتية المتعلقة باللجان المركزية للحزب الشيوعي العراقي من تشرين الأول (اكنوبر) 1965 إلى أيلول (سبتمبر)1967، غير دقيق. جدير بالإشارة، إن كتاب سمير عبد الكريم "أضواء على الحركة الشيوعية في العراق" الجزء الرابع، والذي يتناول الفترة إياها والمكرس للدعاية ضد الحزب الشيوعي، يذكر الأسماء بشكل صحيح بما في ذلك الأسماء الحزبية. ولا غرو في ذلك فوراء صدور هذا الكتاب تقف أجهزة البعث الأمنية.

أحمد عضو اللجنة المركزية، مساعدي في قيادة منظمة بغداد التي كنت مسؤولها آنذاك.

الإفلات

مدينة الحرية قريبة إلى مدينة الكاظمية وتابعة لها إداريا، وهي مبنية على شكل بلوكات مربعة تتخللها شوارع ضيقة جداً أشبه ما تكون بأزقة، سكنتها كادحون. في بداية آذار 1971 ترجلت عصراً من سيارة الفورد المتجهة إلى الكاظمية، التي تسع (14) راكباً، في الشارع العام الذي يؤدي إلى مدخل مدينة الحرية. كان هناك شخص يقف بجانب محل البقالية الذي يقع في بداية الشارع، نظر إلي تلك النظرة التي لا يخطئها المناضل، نظرة حيوان مفترس وجد فريسته. كان شاباً أسمر، متين البنية، يلبس بدلة زيتوني وربطة عنق. كان لابد من مناورة كي أحسم الشك باليقين. لم أدخل في المنعطف الأقرب إلى بيتنا بل المنعطف الأبعد، عند دخولي إياه شاهدت الشخص يتبعني فأسرعت الخطى لأنعطف في أول شارع يوازي الشارع الذي انطلقنا منه، وهو بمثابة عودة إلى الوراء، والسير فيه إلى آخره يعني دوران غير مبرر، فإذا واصل الشخص السير، فلم يعد هناك شك بأنني متابع. وفعلاً فقد واصل الشخص سيره ورائي؟

حللت الوضع. كان واضحاً بأن واجبه هو معرفة البيت الذي أقصده، أما لمراقبته، أو لإخبار مرجعه لإلقاء القبض علي وربما على آخرين غيري في البيت واحتمال الحصول على مستمسكات. مالعمل وأنا لا أبعد أكثر من 150 متراً عن بيتي؟ استبعدت فكرة خروجي من المنطقة والإفلات من المأزق تحت بصر متابعي. فقد رجحت احتمال اعتقالي إن حاولت ذلك، بالارتباط مع الحملة الإرهابية التي حاولت وصفها في أعلاه، ولأن متابعي لم يكن ماهراً في متابعته، وتصرفه يشير وكأن لسان حاله يقول: "والله ما تفلت من إيدي"، أو هكذا أنا أحسست بالوضع وكان إحساسي صادقا، كما سنرى.

ولكي لا يشك بأني عدلت عن الذهاب إلى البيت، فقد كنت مضطراً للعودة أدراجي مما يضعني معه وجها لوجه. عندما أصبحنا وجها لوجه شاهدت مسدسه مثبتاً في حزامه تحت سترته المفتوحة الأزرار. عندما شاهدني دخل الشارع الجانبي الذي بيننا، والذي يجب أن أدخله إن كنت لا أريد الخروج من المنطقة. دخلت الشارع إياه لأشاهده متواريا في ركن زقاق على اليمين وخطف رأسه بسرعة إلى الخلف ما أن شاهدني. كان يروم الاطمئنان على سيري في الطريق "الصحيح" لكي يتبعني مرة أخرى. وكان هناك شارع على اليسار يقع قبل ذلك الزقاق ببضعة أمتار والدخول فيه واجتياز حوالي 100 - 150 متراً يوفر إمكانية الانعطاف إلى اليمين أو إلى اليسار، وهذه فرصة حقيقية للإفلات. إنها مجازفة قد تعرض حياتي للخطر، لأن من

يتعقبني مسلح. ولكن هل أتمكن من أن أسلم على حياتي لو وقعت بيد الجزار ناظم كزار؟ لذلك قررت خوض المجازفة بصرف النظر عن النتيجة.

عند وصولي إلى الشارع الذي يقع على اليسار وجدته، ولحسن الحظ، خالياً من المارة. ركضت فيه بأقصى سرعة، ولم أشاهد أحداً خلفي عندما انعطفت منه. أخذت أتنقل من بلوك إلى آخر مبتعداً عن نقطة الانطلاق، أمشي سريعاً عند وجود مارة وأركض عند عدم وجودهم. بعد أن تأكدت بأني غير متابع انعطفت نحو الشارع الرئيسي. لم يطل الانتظار بي طويلاً، كان لبضعة دقائق، ولكني شعرت وكأنه دهر. حصلت على تكسي أخذني إلى الميدان ومن هناك تكسي ثان إلى شارع الرشيد ومنه مشياً في الأزقة زيادة في الحيطة. بعد التأكد تماماً من أنني غير متابع ذهبت إلى بيت أخي جليل في كمب سارة، وكان قد استأجره حديثا. أخبرته بما حصل وطلبت منه، بعد أن زودته بالعنوان، أن يخبر زوجتي أم شروق بالأمر لكي تأخذ حذرها فقد تخضع المنطقة إلى رقابة مشددة.

كانت أم شروق مضطرة للخروج من البيت لشراء الخبز بعد أن لاحظت تأخري، فحملت أصغر أطفالنا الثلاثة صفاء، تاركة شروق وسفانة وحدهما في البيت، ولم تكن شروق قد تجاوزت السادسة من عمرها. عندما عادت أم شروق وجدت أخي جليل غارقاً في الضحك، فاندهشت لضحكه لأن وجوده بعد تأخري لا ينبئ بخير. وظهر أن شروق سألت عمها عندما فتحت له الباب (ها عمو شجابك ؟). مستغربة مجيئه وهو الذي لا يعرف البيت. أما جليل فقد أخذ من الحادث، على ما يبدو، حجة للضحك ليوحي بأنه لا يحمل أخباراً غير سارة. وقد أخذ جليل العائلة معه إلى بيته.

في كردستان

في اليوم التالي ذهبت إلى بيت مرجعي الحزبي الرفيق باقر إبراهيم الذي اندهش واهتم بالأمر، لأنها كانت المحاولة الأولى لإلقاء القبض على عضو لجنة مركزية. وطلب مني الإبكار بالسفر إلى كردستان حيث كان من المقرر عقد اجتماع للجنة المركزية هناك. على أن يتولى توفيق أحمد مسؤولية منظمة بغداد مؤقتاً. وفعلاً فقد رتبت الأمور وسافرت، دون إبطاء، إلى كردستان.

في اجتماع اللجنة المركزية والذي انعقد في منطقة بالك، أربيل، وبالارتباط مع تناول الاجتماع الحملة الإرهابية تقرر، كتدبير احترازي، إبقاء كل من الرفاق كريم أحمد الداود وبهاء الدين نوري وأنا في كردستان، في الأراضي المحررة، غير الخاضعة لسيطرة السلطة. ولتحق بنا لاحقاً االرفيقان مهدي عبد الكريم و شاكر محمود. وقد أقمنا في قرية "برسرين" الواقعة على سفح جبل هندرين، حيث كانت لدينا قاعدة عسكرية صغيرة يقودها الرفيق ملازم خضر (نعمان التميمي). وقد أنيطت بي المسؤولية الحزبية لتنظيم الرفاق الذين لجأوا إلى كردستان من المنطقة

العربية، ولم يكن عددهم يتجاوز الخمسين رفيقاً وجلهم من الكوادر الوسطية. وقد وزعوا على عدد من مقراتنا المنتشرة في سفوح الجبال المحيطة بنا وهي: زيوة وميرجان وحافيز. وكان مسؤولوها على التوالي طه العلكاوي (أبو ناصر) وأنور طه (أبو عادل) وحميد بخش (أبو زكي)، وعند سفر الأخير حل محله محسن عليوي (أبو عليوي).

بعد بضعة أسابيع من وجودي في كردستان أقامت قيادة الأنصار بالتعاون مع التنظيم المحلي لحزبنا، مهرجاناً بمناسبة عيد نوروز حضرته عدة آلاف من النساء والرجال مع أطفالهم بملابسهم القومية الزاهية، افترش الجميع المروج في ذلك الجو الربيعي الأخاذ وأكلوا ما لذ لهم وطاب وتبادلوا ذلك مع جيرانهم. ولم تتوقف الدبكات والموسيقى الشعبية طوال الوقت، وكانت الدبكات مشتركة (نساء ورجال). وقد تأثرت بهذا المهرجان وازداد إعجابي وثقتي بالشعب الكردي لحبه العميق للحياة.

بعد شهر من وجودي في كردستان وصلت عائلتي للإقامة معي. لم تكن هناك غرفة للإقامة فيها، سوى حجرة كانت فيما مضى زريبة حيوانات. كانت الحجرة مظلمة، تنعدم فيها الرؤية لفترة معينة عند الدخول إليها في النهار، تتناسب عكسيا مع مدى سطوع الضوء في الخارج. بعد حوالي ثلاثة أشهر انتقلنا إلى غرفة عادية ولكنها صغيرة جداً (3 × 3). وكنا نستخدمها كغرفة استقبال وطعام ومنام، وحمام للأطفال.

اشتداد الحملة الإرهابية

تواصلت الحملة الإرهابية ووصلت إلى كردستان، حيث أختطف في كركوك الرفيق علي حسين البرزنجي عضو اللجنة المركزية و40 رفيقاً ومطبعة الحزب ونقلوا إلى قصر النهاية. وخلال الحملة استولت السلطة على جميع أجهزة الطباعة المركزية واعتقلت ثابت حبيب العاني العضو المرشح للمكتب السياسي. واعتقلت كذلك عامل النفط توفيق أحمد عضو اللجنة المركزية الذي لم يستطع الصمود أمام التعذيب فأسقط سياسيا. وحطمت منظمة مدينة بغداد تحطيماً تاماً.

لقد اعتقل وعذب في هذه الحملة الإرهابية وحدها، التي بدأت في ربيع 1970 وتوقفت في خريف 1971، آلاف الشيوعيين تعذيباً وحشياً واستشهد الكثيرون منهم تحت التعذيب أو الاغتيال من بينهم محمد الخضري وعلي البرزنجي وماجد العبايجي ومشكور مطرود وحسين نادر وأحمد رجب وعبد الله صالح ومحمد حسين الدجيلي وعبد الأمير رشاد وجواد عطية والأخير نسيبي (شقيق زوجتي). وقبل هذه الحملة جرى اغتيال الشهيد ستار خضير عضو اللجنة المركزية، واستشهد تحت التعذيب الكادر العمالي عبد الأمير سعيد. ولم يكن نهج الحزب السياسي المعتمد

سوى المعارضة غير المطلقة وبالوسائل السلمية، والتي كانت مقتصرة على مطبوعات الحزب السرية وصلاته المباشرة. وقد أدينت الحملة الإرهابية بشدة من قبل قوى اليسار العالمي فحفلت الصحف الشيوعية في البلدان الرأسمالية وخاصة "المورننغ ستار" و"اللومانيتيه" و"اونيتا" بالمقالات الاحتجاجية، وكانت ضعيفة جداً في البلدان الاشتراكية. ولم تتمكن السلطة من تبرير حملتها الإرهابية أمام الرأي العام الداخلي والخارجي.

الرفيق جواد عطية شناوة

اللاجئون من المنطقة العربية

كان اللاجئون إلى كردستان من المنطقة العربية قسمين، الأول: رفاق مرسلون من قبل الحزب للصيانة والثاني، معتقلون وأطلق سراحهم لتأييدهم الاعترافات أو لاعترافهم جزئيا، ويخشون اعتقالهم مرة أخرى. وكان من واجبي التحقيق مع القسم الثاني لمعرفة حقيقة وضعهم قبل تنسيبهم إلى أحدى القواعد ولتجنب الاندساس. كان تعاون اللاجئين مع الأنصار في قواعدهم جيداً جداً وكانوا يؤدون واجباتهم في الحراسات والخفارات دون كلل، ونشأت بعض الصداقات بين الأنصار واللاجئين ظلت خالدة.

ولعب اللاجئون دوراً أساسياً في بناء المدرسة الحزبية في دركله في صيف 1971. ورغم بساطة المدرسة ومستلزماتها، فقد تخرّجت عدة دورات كانت تضم كوادر وسطية من جميع محافظات العراق ومن جميع الفئات الاجتماعية ومن مختلف القوميات. وكان يحاضر فيها، إلى جانب بعض الكوادر الحزبية مثل ماجد عبد الرضا ويوسف حنا وعمر الياس وأحمد دلزار، أساتذة محترفون مثل د.كاظم حبيب ود.نمير العاني ود.عزيز وطبان، وكان مديرها يوسف حنا. وكان الدوام فيها منتظماً وطوال أيام الأسبوع عدا يوم الجمعة. والدراسة فيها جدية وتتوج بامتحانات شفهية وتحريرية. وتخرجت آخر دورة من المدرسة في آب 1973 وكانت الأكبر، إذ كان عددها 75 رفيقاً.

كنت أحقق مع الرفاق ونحن نتمشى في الهواء الطلق على سفح الجبل. وكان أحد هؤلاء الذين حققت معهم هو الرفيق سعيد إبراهيم رشيد الكادر العمالي والعضو المرشح للجنة منطقة بغداد ونسيب الرفيق عزيز محمد (شقيق زوجته). كنا قد انتهينا من صلب الموضوع عندما جلسنا في غرفتنا لنشرب الشاي. ظل سعيد يتحدث عن لقطات على هامش الموضوع، ولم يكن هناك بد من أن تسمع أم شروق الحديث لصغر الغرفة. وكانت هناك لقطة لم أنسها ولكن أم شروق ذكرتني بدقة متناهية بتفاصيلها، قال لي سعيد: "لقد أطلعني ناظم كزار على صورتك وسألني هل تعرفه؟ فنفيت معرفتي بصاحبها، فقال لي ناظم كزار: شلون متعرفه؟ هذا مسؤول بغداد، ومن ثم التفت إلى الجلاوزة الواقفين غير بعيد عنه وقال لهم، وهو يريهم الصورة: ما كلتلكم جيبوه الهاذا. أجابه أحدهم: سيدي والله تابعناه وفلت من عدنا".

ما هي الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من تجاربي الثلاث والتجارب الأخرى الناجحة في الهروب من قبضة العدو؟ باعتقادي، هي: 1ـ دراسة الموقف في اللحظة الحرجة برأس بارد. 2ـ السرعة في اتخاذ القرار الملائم. 3ـ تنفيذ القرار بدون تردد. هذا فضلاً عن التخطيط والتنفيذ الجيدين عندما يتعلق الأمر بالهروب من معتقل، والبقية على حسن الصدف.

11

التثقيف الحزبي

الاهتمام برفع مستوى الوعي السياسي والثقافي نهج بارز وثابت في نشاط الأحزاب الشيوعية والعمالية، كما هو الحال بالنسبة لجميع القوى التقدمية في العالم. وقد اقترن ذلك في الدول الاشتراكية المبكرة ـ الشمولية، وانطلاقا من مبدأ المساواة، بمحو الأمية ونشر التعليم على مختلف المستويات واعتباره إلزامياً للسنوات التسع الأولى منذ منتصف القرن الماضي. وهذا الاهتمام ظاهرة إيجابية بصرف النظر عما اعتراها من تحكم أيديولوجي وجمود عقائدي. وباعتقادي أن

ذلك المستوى من الوعي والثقافة لعب دوراً هاماً، إلى جانب عوامل هامة أخرى، في تحول أكثرية الأنظمة الشمولية إلى أنظمة ديمقراطية بطريقة سلمية. وحيثما أستخدم العنف فقد كان ذلك محدوداً. واهتمام الحزب الشيوعي العراقي بارز في هذا الميدان. وقد وضعت تقاليد ذلك قيادة الرفيق فهد التي حولت السجن إلى مدرسة للتثقيف. ورافق العملية ولازمها لاحقاً، حتى بداية التسعينات من القرن الماضي، النواقص ذاتها التي شابتها في الحركة الشيوعية العالمية.

وتكتسب قضية رفع الوعي ونشر الثقافة العلميين في الوقت الحاضر أهمية استثنائية وخطيرة لتتحول إلى قضية وطنية ينبغي التصدي لها من قبل جميع القوى الديمقراطية والتقدمية، لأن قوى الإسلام السياسي المتعصبة، المهيمنة على الساحة السياسية، تستهدف تجهيل الشعب ونشر الخرافات والخزعبلات واستغلال مقدسات الناس البسطاء أبشع استغلال بدفعها إلى ممارسات متطرفة، ففي ذلك مصدر حياة تلك القوى وديمومتها. فلا غرو أن لا نجد كلمة (الثقافة) في مسودة الدستور التي كتبوها، فهم يجدون في رفع الوعي والتثقيف عدوهم اللدود. ولكنهم يسبحون ضد التيار وضد قوانين الحياة. فالناس تبقى تحب الحياة وتحب أن تعيشها بأمان ورفاه وسعادة مهما دجّل الدجّالون، الذين سينعزلون لا محالة مع تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية ورفع الوعي ونشر الثقافة العلمية والإنسانية.

أساليب التثقيف

في حياة الحزب أسلوبان للتثقيف أحدهما ذاتي والآخر جماعي. الذاتي هو قراءة الكتب ذاتيا، تبادلها بين أفراد الخلية وأصدقائها، وذكر ما أنجز في التقارير الشهرية التي يقدمها الرفيق أو الخلية والهيئات الحزبية الأخرى. وإنشاء مكتبات صغيرة لدى وحدات تنظيمية معينة. واتبعت بعض المنظمات المستقرة أسلوباً أرقى في هذا المجال، وهو أن يقوم أحد أعضاء الهيئة دورياً بتقديم خلاصة للكتاب الذي قرأه مع استفساراته أو آرائه وتناقش من قبل الهيئة. وكانت تنظم قائمة مركزية بالكتب التي ينبغي الاختيار منها للتثقيف.

أما التثقيف الجماعي فأشكاله متنوعة جداً، وأبسطها هو تخصيص وقت محدد من اجتماع الخلية أو اللجنة للتثقيف، أو تخصيص بعض اجتماعات الهيئات لهذا الغرض. تشكيل حلقات من هيئات مختلفة لمادة محددة. دورات تخصصية، الدورات الصحفية مثلاً. دورات التثقيف الطويلة الأمد في المحافظات. وأعلى أشكال التثقيف الجماعي هو المدرسة الحزبية التي يتفرغ فيها الطالب لهذه المهمة على مدى أشهر معينة، ويكون لديها قسم داخلي. وكان للحزب مثل هذه المدرسة ثلاث مرات في تاريخه. الأولى، في كردستان ـ درگله في الأعوام 1971 ـ 1973، وقد تطرقت لذلك في الموضوع المعنون "الإفلات من قبضة المجرم ناظم كزار". الثانية، أيضاً في كردستان ـ بشت آشان مماثلة للأولى دامت حوالي عام وذلك من ربيع 1982

حتى ربيع 1983 تقريباً. وكان مديرها، لفترة معينة، د. كاظم حبيب. والثالثة في بغداد استمرت حوالي خمس سنوات في أواسط سبعينيات القرن الماضي.

الدراسة في المدرسة الحزبية في بغداد كانت منتظمة، ومختلطة بطبيعة الحال، وكانت دوراتها تضم باستمرار طلبة عرب من دول الخليج ومن الجنسين، بما في ذلك من العربية السعودية. ودورات التثقيف في البصرة ضمت أيضاً خليجيين. وبالإضافة إلى الكلاسيك الماركسي كانت تلقى في المدرسة محاضرات متنوعة في مختلف الميادين من قبل كوادر الحزب أو الرفاق المتخصصين. وأذكر أنني ألقيت فيها محاضرة حول الحركة الفلاحية والمسألة الزراعية. تولى إدارة المدرسة في البدء الرفيق أحمد كريم (نوري) ومن ثم الرفيق خضير عباس السماوي. وكان المحاضرون فيها الرفيقة د.سعاد خيري والرفاق د.نمير العاني و بهاء الدين نوري و علي الحاج حسن وأحمد حبيب.

الدراسة الحزبية في الخارج

قبل ثورة 14 تموز لم يدرس في الخارج دراسة حزبية / دراسة الماركسية ـ اللينينية سوى الرفيق فهد. خلال الثورة كان الشهيد محمد صالح العبلي يدرس في موسكو. وبعد الثورة بسنة واحدة وحتى انهيار الاشتراكية المبكرة ـ الشمولية درس في تقديري، أكثر من ألفي كادر حزبي من كوادر الحزب الشيوعي العراقي في هذه المدارس. وهي بالأساس مدرستان الأولى في موسكو ـ معهد العلوم الاجتماعية، معهد لينين. والثانية في صوفيا ـ المدرسة الحزبية العليا. وقد درس البعض في الجمهوريات السوفيتية أو دول أخرى كالمانيا الشرقية ورومانيا وجيكوسلوفاكيا.

كانت الدراسة في كلتا المدرستين (موسكو وصوفيا) في البدء ثلاث سنوات. سنة واحدة للغة وسنتان للمنهاج، الذي كان عبارة عن الاقتصاد السياسي والفلسفة المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية وتاريخ الحركة العمالية وتاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي. ويضاف لها في صوفيا تاريخ الحزب الشيوعي البلغاري. بعد توفر المترجمين وكذلك أساتذة يجيدون اللغة العربية، ألغيت سنة اللغة في موسكو وباتت تدرس كمادة ثانوية وبساعات محددة. واستحدثت دورة لمدة سنة واحدة تدرس نفس المنهاج بشكل مكثف. وساعات قليلة جداً للغة الروسية. وبدون تقديم البحث (حوالي عشرين صفحة) الذي يتفرغ له الدارسون في الأشهر الستة الأخيرة في الدورة الطويلة. وقد أضيفت إلى المنهج الدراسي في موسكو مادة جديدة، شيقة ومفيدة، منذ بداية سبعينيات القرن الماضي وهي علم النفس الاجتماعي. وكانت هناك دورات طوعية مختلفة قصيرة الأمد مثل الصحافة والتصوير و...الخ وقد دخلت الدورتين المذكورتين عند دراستي في موسكو.

درست في الخارج مرتين، المرة الأولى في صوفيا ولم أكملها، والثانية في موسكو أكملتها تقريبا. وسفرتي الأولى للدراسة، وهي الأولى في حياتي خارج الوطن، كانت دراماتيكية لذلك بقيت عالقة في ذاكرتي.

في نهاية 1962 بلغت بقرار سفري للدراسة في الخارج لمدة ثلاث سنوات في بلغاريا. لقد فوجئت بالقرار لأنني لم أكن قد سمعت بالدراسة الحزبية في الخارج أصلا. كنت محكوماً غيابياً لمدة ثلاث سنوات. وحصلت على جواز سفر بمساعدة أحد المحامين، وكان بمعيتي الرفيق أكرم حسين ودفعنا للمحامي مبلغ 30 ديناراً بعد إجراء تغيير في لقبي في الوثيقة الوحيدة التي كانت مطلوبة وهي دفتر الخدمة العسكرية. كان هذا المحامي يستحصل توقيع نائب مدير التحقيقات الجنائية على القوائم بمبلغ مقطوع عن كل جواز.

أول سفرة خارج الوطن

منحت مبلغاً من المال من قبل الحزب لشراء بعض الملابس ولتغطية أجور سفري إلى صوفيا عبر بيروت. فقد كان السفر من العراق إلى البلدان الاشتراكية بدون وثائق تبرر القصد من السفر أمراً متعذراً، وكانت الدراسة الحزبية سرية للغاية. زودني مسؤولي الحزبي الرفيق باقر إبراهيم، والذي لم يكن قد سافر إلى خارج العراق ولا مرة واحدة بعدُ، برسالة وقال لي: "هذه الرسالة أمانة الحزب عندك، إتضمها أوما تطلعها إلا من توصل صوفيا وتسلمها للرفاق البلغار".

عمل لي أخي حميد حفلة توديع متواضعة عشية السفر، ورافقني في اليوم التالي إلى المطار لأطير لأول مرة في حياتي بالطائرة إلى بيروت. اندهشت لجمال بيروت واستغربت الانحناءات في شوارعها قبل أن استوعب ما تضفيه تلك الانحناءات من جمال على بنية المدينة المعمارية.

في مكتب الطيران في بيروت طلب مني الموظف فيزا، لم أسمع بهذه الكلمة من قبل، وعندما عرفت بأنها تأشيرة سماح ينبغي الحصول عليها من سفارة الدولة المقصودة لدخول حاملها إلى البلد، أخبرته لا توجد عندي مشكلة في دخول البلد، لدي أخ يدرس هناك ووعدني بأنه سيتدبر الأمر عند وصولي مطار صوفيا. حصلت على تذكرة سفر جراء إلحاحي على أول طائرة، وشكك الموظف بالسماح لي بالخروج من المطار، ووعدني باستعادة التذكرة بدون خصم في حالة عدم سفري.

وفعلا، لم يسمحوا لي في مطار بيروت بالطيران. ولعدم وجود سفارة بلغارية في لبنان اقترح مكتب الطيران إرسال جوازي إلى دمشق للحصول على فيزا بعد الحصول على حجز لمدة ثلاثة أيام في فندق بلكان ـ خمس نجوم في صوفيا. تريثت في الأمر وذهبت إلى مكتب صحيفة " النداء" لسان حال الحزب الشيوعي اللبناني.

أرشدوني في المكتب إلى الملحقية التجارية البلغارية في بيروت. التقيت بالملحق التجاري البلغاري وكشفت له هويتي ومهمتي في بلغاريا. وأخبرته بأني أحمل رسالة إلى حزبهم من قيادة حزبنا وبإمكانه الاطلاع عليها، ومددت يدي إلى جيبي لأخرجها فرفض الاطلاع عليها رفضاً قاطعاً، وأرشدني إلى نفس مكتب الطيران، الذي سبق وأن تعاملت معه لمساعدتي.

أخبرني مكتب الطيران بأن إرسال الجواز إلى دمشق لإنجاز المعاملة يستغرق ثلاثة أيام وهناك طائرة بعد يومين من عودة الجواز، وأخذ مني مبلغاً محترماً لإنجاز المعاملة. رصيدي من النقود لم يعد يكفيني إلا لثمن التذكرة، بعت بعض ملابسي الجديدة، بعد أن قلبتها مراراً بين يدي، فقد كنت أحلم بالوصول إلى بلغاريا لأرتديها. بعت سروال سرج وبلوز وشال وانتقلت إلى أرخص فندق في مركز المدينة. وأخذت أستغني عن وجبة العشاء.

هطلت أمطار غزيرة منذ أن وصل جوازي إلى دمشق، فقد كنا في نهاية كانون الأول. انقطع الطريق بين دمشق وبيروت ولم يعد الجواز إلا بعد خمسة أيام، أي بعد مغادرة الطائرة التي حجزت عليها! حمّلت مكتب السفريات مسؤولية تأخري وأخبرتهم بأن ثمن التذكرة قد تآكل. كان موظف المكتب طيباً ويرغب بمساعدتي، فاقترح علي السفر بعد بضعة أيام من بيروت إلى إسطنبول بالطائرة ومنها، بعد ثلاثة أيام، إلى ميناء فارنا بالباخرة بسعر ملائم جداً، وافقت على الفور. بعت القفازات الجلدية وثاني سروال جديد، واشتريت بعض الليرات التركية، وسافرت إلى إسطنبول. عند وصولي إلى إسطنبول لم أجد حقيبتي مع حقائب المسافرين. بعد التحري ظهر بأنها ذهبت إلى القدس! وأخبروني بأنها ستعاد إلى إسطنبول وأستلمها بعد يومين ولم أستلمها إلا قبل ساعتين من موعد توجهي للميناء.

تحركت الباخرة في الموعد المحدد. كان على متن الباخرة، بين خليط من الأجناس، مجموعة من الطلبة العراقيين العائدين إلى موسكو عبر ميناء فارنا بعد قضاء العطلة الشتوية في العراق. تعرفت على أحدهم وكان شيوعياً وأبدى استعداده لمساعدتي بالترجمة عند وصولنا إلى ميناء فارنا.

الوصول إلى بلغاريا

كنت العب الشطرنج مع رجل يوغسلافي عندما أصبت بدوار البحر. أعطوني حبة تناولتها ونمت، ولم أفق إلا بعد وصولنا ميناء فارنا. قدمت جوازي لضباط الجوازات، وكانوا مجموعة يجلسون على شكل نصف دائرة في قاعة على ظهر الباخرة، وقدمت لهم رسالة قيادة الحزب الموجهة إلى حزبهم. وشرحت لهم عبر المترجم العراقي باختصار، أسباب وصولي إلى الميناء وليس إلي المطار. كنت أظن بأنهم ما أن يقرأوا رسالة قيادة الحزب سينجلي لهم الوضع ويرحبون بي، وإذا بي

أجدهم في حيرة من أمرهم يقلبون الجواز والرسالة في أيديهم. استفسرت عن أسباب حيرتهم قائلاً: "أليس كل شيء واضحاً في الرسالة؟ أجابوا مستفسرين: "أية رسالة؟" أشرت إلى الرسالة التي سلمني إياها مسؤولي وقال لي: "هذه أمانة الحزب ما اتسلمها إلا للرفاق البلغار من توصل".

نظر الضباط جميعهم دفعة واحدة إلي وقال لي كبيرهم: "هذه فيزا وليست رسالة... فيزا منفصلة"! لم تعد قدماي تحملني وجدت كرسياً فارغاً وجلست عليه ورميت رأسي بين كفي وتساءلت مع نفسي أحقاً كان من الممكن تجاوز كل هذه المتاعب لو كان قد قيل لي: "هذه فيزا بلغارية اخفيها في بغداد وإبريزها في مطار بيروت".

بعد فترة ليست بالقصيرة أخبروني بأن صوفيا أعلمتهم بأن هناك شخص بنفس الاسم كان يجب أن يصل قبل حوالي عشرين يوما إلى مطار صوفيا وليس إلى ميناء فارنا. وتركوني على ظهر الباخرة. قال لي المترجم: "لا تستبعد بأن البلغار قد يشكون في أمرك. قد يذهب تفكيرهم إلى أن إحدى مخابرات دولة عدوة قد اختطفتك واستبدلتك بآخر وأنت الشبيه المدرب"!

ـ معقولة؟، أجبته مستغرباً.
ـ ليش ما معقولة... ما سامع بالستار الحديدي".
ـ طيب، إذا انطلت مثل هذه الحيلة عليهم فكيف تنطلي على الرفاق العراقيين، فبإمكان البلغار التأكد من ذلك بسهولة عن طريقهم.
ـ طبعاً طبعاً، عود لما توصل إلى صوفيا.

توقفت الباخرة خمس ساعات في ميناء فارنا وأنا على ظهرها. نزل جميع الركاب وبقى على ظهرها المسافرون إلى ميناء أوديسا في الاتحاد السوفييتي. اشتغلت محركات الباخرة ولا أثر للرفاق! وقبل إبحار الباخرة ببضع دقائق غادرتها لأكون ضيفاً عزيزاً ولكن...؟

رافقني خلال اليومين اللذين قضيتهما في فارنا رفيقان. أحدهما يبدو من شكله وطريقة تعامله بأنه ضابط أمن، أما الثاني فيبدو من مراتب الأمن. لا أستبعد بأنني كنت تحت رقابة شفافة، ومن أدلتي على ذلك هي سرقة ورقة مني كنت أكتب عليها لفظ بعض الكلمات البلغارية. كنت مسروراً لوجودي في بلد اشتراكي، وكنا نرتاد مطاعم جيدة ولم تكن تشغلني شكوكهم إطلاقاً. عند وصولي إلى صوفيا أنزلوني في فندق وأبلغوني بأن لا أخرج منه. في اليوم التالي زارني رفيق بلغاري يتكلم العربية وبمعيته رفيق عراقي أعرفه واسمه حمد الله مرتضى (عرفت لاحقاً بأنه مسؤول المنظمة الطلابية في بلغاريا) تصافحنا وتبادلنا كلمات الترحيب. استفسر الرفيق البلغاري من حمد الله: هل تعرفه؟ أجاب حمد الله: " نعم كنا في هيئة حزبية واحدة،

وكـان يتـردد علـى البيـت الحزبـي فـي الحلـة". انتهـت المقابلـة بسـرعة وأخبرنـي البلغـاري بـأنني حـر وأتمكـن مـن التجـول فـي المدينـة وسـأنقل قريبـاً إلـى المدرسـة الحزبيـة، مـع ابتسـامة عريضـة وكأنهـا تقـول: "عـذراً للمضـايقة، الحيطـة والحـذر ضروريان، أليس كذلك؟"

عصر نفس ذلك اليوم، زارني الرفيق ناصر عبود عضو اللجنـة المركزيـة ومسؤول فريقنا الدراسي في المدرسة الحزبية. نقلت في اليوم التـالي إلـى المدرسـة الحزبيـة ومباشـرة إلـى الحجـز الصـحي فـي غرفـة معزولـة لأكثـر مـن عشـرة أيـام، كـإجراء روتينـي يشـمل جميـع الجـدد، حيـث يخضـع المـرء لفحوصـات متنوعـة وللمراقبـة الصحية. تعرفت على ثلاثة رفاق ممن زاروني من وراء الشباك وهم عبد الرزاق الصافي وسليم المرزا وحميد بخش. زودت بكتـاب مدرسـي وباشـرت بدراسـة اللغـة البلغارية ذاتياً.

في المدرسة الحزبية العليا في بلغاريا

لم يكن وقت وصولي للدراسة ملائماً، فقد كان في منتصف السنة الدراسية. فلم يكن صحيحاً قضـاء سنة ونصف فـي دراسـة اللغـة، و فـي الوقـت نفسـه لـم أكـن مـؤهلاً لاختصـار مـدة الدراسـة إلـى نصـف سنة، بـدلاً مـن سنة دراسـية واحـدة كـالآخرين، الذين بينهم خريجو الجامعات. فبالإضـافة إلـى مستوى تعليمـي المتدني كنـت أعـاني من صمم فـي سمعي. كـان ذلـك صـعباً جدا، مـع ذلـك استجبت لتشـجيع المشـجعين، وقـررت السـعي لدراسـة اللغـة فـي نصـف السـنة الدراسـية المتبقيـة! خصصـت لـي معلمة خاصة، لعدم وجود صف جديد. وكلـف الرفيـق عبـد الـرزاق الصـافي مـن قبـل المنظمة لمساعدتي وكان مضطراً لتعليمي غير قليل من قواعد اللغة العربية ليسّـهل علي فهم قواعد اللغة البلغارية.

والصـافي مـن الـذين يحفظـون النكـات ولديـه مخـزون كبيـر منهـا. ومـن نكـات تلـك المرحلة التي اكتشفتها في خزينه، بعد سنين طويلة، هي: كلمـة (په پل نِك) وتعنـي منفضة. لفظها أكثر من مرة، عنـدما كـان يدرسـني، لـم أكـن أسـمعه جيـداً فلـم أتمكـن من تلفظها فقد كنا متقابلين على منضدة عريضة ومتباعدين فـي جلستنا، لا أعـرف ما لذي دفعني للتمادي بالظهور في عدم مقدرتي علـى تلفظهـا فأخـذ يرددهـا إلـى أن بـح صوته. قلت لـه أتركهـا، هذه كلمـة صـعبة. تجاوزنـاها، وواصلنا الـدرس... بعد فتـرة أشـعلت سـيكارة وكانـت المنفضـة بـالقرب منـه فقلـت لـه: " بـروح أبـوك متناوشني هاي الـ (په پل نِك) نسيت شيسموها عدكم بالعربي!". ففغر الصـافي فـاه مندهشاً وبحلق في وجهي وانا صامت أمامه .. ومن ثم انفجرنا سوية ضاحكين.

كانت المدرسة الحزبيـة فـي بلغاريـا، والتـي تقـع فـي ضـواحي صـوفيا، أشـبه بالثكنـة العسـكرية، إذا مـا قورنـت بالمدرسـة الحزبيـة فـي موسـكو. فمـثلاً، بعـد اسـتراحة

الظهيرة يجب على الدارس أن يكون في غرفته ويقرأ وهناك رقابة على ذلك من قبل الإدارة. ويتكرر الأمر بعد العشاء. عصر يوم الأربعاء فقط يمكن النزول إلى صوفيا وبإجازة من مسؤول المجموعة. أما المبيت خارج المدرسة، فقد كان ممنوعاً، ما عدا في عطلة نهاية الأسبوع. الأكل مشترك وهو نوع واحد لجميع طلبة المدرسة. الحمام أسبوعي وأيضاً مشترك، قبل الظهر للرفيقات وبعد الظهر للرفاق. الراتب الشهري يساوي 44% من الراتب الذي يقبضه الدارس في موسكو. كان في المدرسة بضع فرق دراسية عربية وأجنبية صغيرة، وهي من سوريا ولبنان والأردن وأمريكا اللاتينية وقبرص.

لم أتمكن من تعلم اللغة بمستوى يؤهلني للمباشرة بدراسة البرنامج في بدء السنة الدراسية في عام 1962، فواصلت دراسة اللغة لمدة ستة أشهر أخرى، وأكملت السنة الدراسية بدراسة الفلسفة المادية الديالكتيكية ومرحلة من مراحل تاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي. ومن ثم تقرر أن أقطع دراستي وأعود للوطن على أثر انقلاب 8 شباط الأسود عام 1963. وبقية الحكاية وردت في موضوع "العودة للوطن".

محاولة تجميدي

في موضوع "الإفلات من قبضة المجرم ناظم كزار" تحدثت حول الظروف التي دعت الحزب إلى الاحتفاظ بعدد من أعضاء اللجنة المركزية في الأراضي المحررة من الدكتاتورية الدامية في كردستان. وبعد توقف الحملة الإرهابية في خريف 1971، أعيد الرفاق الذين كانوا لاجئين في كردستان إلى مناطقهم. وعدت أنا وعائلتي إلى بغداد. اتصل بي الرفيق بهاء الدين نوري وأخبرني بأني سأجلس في البيت لأن وجهي أصبح معروفاً ومكشوفاً لدى الكثيرين، وإن ظروف العمل السري لا تتحمل مشكلة سمعي الثقيل. قلت له:

"وجهي ليس مكشوفاً أكثر منك ومن آخرين، وإن ثقل سمعي ليس بالأمر الجديد، وإنني اعتبر هذا القرار بمثابة تجميد، وأطلب إعادة النظر فيه. على أثر ذلك نسبت إلى لجنة التنظيم المركزية (لتم) وكان سكرتيرها الرفيق عمر علي الشيخ ومعه الرفيقان مهدي عبد الكريم وعبد الوهاب طاهر أعضاء فيها. كنت شبه مجمد، مهمتي الوحيدة هي حضور اجتماعات الهيئة الحزبية والتي كانت تعقد في بيتنا.

كان يقلقني احتمال تدهور سمعي الذي قد يحولني إلى عضو غير نافع في الحزب. ولكن ماذا لو تمكنت أن أكتب في مطبوعات الحزب؟ بالتأكيد سأكون مفيداً وسأتمكن من الحفاظ على مركزي الحزبي الذي أعتز به. والذي تعمّد بأكثر من انتخاب حزبي، كان آخرها المؤتمر الوطني الثاني للحزب. وكنت على قناعة بأن انتخابي لم يأت لمجرد ورود اسمي في قائمة المرشحين من قبل قيادة الحزب، بل لثقة الكوادر

الحزبية بإخلاصي وتفانيي لقضية الحزب والشعب والوطن. والدليل على ذلك أن اسمي لم يكن في القائمة في الكونفرنس الثالث للحزب الذي عقد في 1967، فرشحت من قبل ممثلي المناطق العربية الأربع، التي عملت فيها جميعاً كسكرتير للجانها. رشحني الرفيق كامل كرم من بغداد والفقيد محمد حسن مبارك من الفرات الأوسط و الرفيق سليم إسماعيل من الجنوبية والفقيد محسن عليوي من الكوت وهي أكبر منظمة في المنطقة الوسطى (لم تكن لجنة المنطقة قائمة آنذاك). طبعاً لم تعترض قيادة الحزب، وقد فزت بعضوية اللجنة المركزية على حساب بهاء الدين نوري الذي أصبح مرشحا لعضويتها.

استحوذت علي فكرة الكتابة رغم عدم واقعيتها بسبب ضعف مؤهلاتي. اتصلت بصديقي صاحب باقر مدرس اللغة العربية وطلبت منه تزويدي بكتب قواعد اللغة العربية التي تدرس في الإعدادية، وزودني بها وبكتاب "كيف تكتب بحثا " لأحد الأساتذة المصريين، وكان كتابا مفقودا من الأسواق في ذلك الوقت ([33] *).

لقاء مع المكتب السياسي

في أحد الأيام درسنا في (لتم) طلباً للرفيق جلال دباغ يطلب فيه إرساله للخارج للدراسة الحزبية، لأنه لم يكمل دراسته بسبب انقلاب 8 شباط الأسود. لاحظت تعاطف (لتم) مع الطلب وموافقتها عليه. تلقفت الفكرة، فإذا كان جلال لم يكمل فأنا بالكاد بدأت. قدمت طلباً للمكتب السياسي وطلبت دراسة لمدة سنتين بعد أن أقنعت أم شروق بضرورة وأهمية ذلك بالنسبة لي.

كان الفقيد زكي خيري المسؤول الأول آنذاك لوجود الرفيق عزيز محمد في الخارج. وكان الرفيق باقر إبراهيم قد عاد للتو من سفرة طويلة في الخارج. ذهبت مع العائلة لزيارته وناقشنا موضوع الدراسة وأبدى تفهما لها، ولكن لم يفهم لماذا سنتين وليس سنة واحدة. وأخيراً أبدى الاستجابة أمام رغبتي الجامحة، وكان عادة ما يحترم قناعاتي.

تمت موافقة المكتب السياسي على الدراسة ولمدة سنتين، واستدعيت للحضور إلى اجتماع للمكتب السياسي في بيت الرفيق كريم أحمد وبحضور الرفيق باقر

---

[33] ـ * في إحدى فترات الانتظار في الشام في الثمانينات قرأت كتاباً لقواعد اللغة العربية بمجلدين، في مكتبة بالقرب من إقامتي في منطقة مساكن برزة، يدرس في الجامعات مع هامش خاص للأساتذة. كم كان بودي أن أحشي تلك المعلومات في رأسي ولكن لم يكن هناك سبيل لذلك، فاكتفيت بالاطلاع على الكتاب وشرائه لاحقاً، بالرغم من أنه كلف ميزانيتي الكثير. وقد استعاره مني أحد الأصدقاء في بلغاريا ليستعين به في تدريس اللغة العربية في جامعة صوفيا ولم يرجعه!

إبراهيم، لا أتذكر إن كان الرفيق عمر علي الشيخ حاضراً أم لا، وكان الفقيد زكي خيري يترأس الاجتماع، وقد وجه كلامه لي قائلا: "إن فريقنا للدراسة في موسكو سيكون كبيراً وستكون مسئول الفريق ومشرفاً على لجنة الاتحاد السوفييتي (الهيئة المسؤولة عن تنظيم الطلبة) وعليك، وأنت تقود مثل هذا الفريق، أن تكون قد استفدت من تجربتك في كردستان.

استغربت من الأمر لأنني لم أحاسب على خطأ ما ارتكبته في كردستان لكي أستفيد من تجربته. لقد كنت مسؤولاً عن "منظمة اللاجئين" وانصرف تفكيري لها فقلت له: "في كردستان كنت مسؤولاً عن تنظيم "اللاجئين" وسارت أمورها على أحسن ما يرام والرفيق أبو سليم (كريم أحمد) كان مشرفاً وهو شاهد على ذلك (هز أبو سليم رأسه مؤيداً)". "لا.. لا، الكلام ليس على المنظمة، بل على علاقتك بأبي سلام (بهاء الدين نوري) في كردستان"، عقب الرفيق زكي.

" طبعاً طبعاً". قلت ذلك بعد أن تذكرت بعض الأمور الشخصية البحتة، وبعضها تافه، حصلت بيني وبين أبي سلام أدت إلى سوء تفاهم بيننا وتحول ذلك إلى قطيعة مؤقتة. وعندما قلت: "طبعاً.. طبعاً" كنت أرغب في غلق هذا الموضوع، لأنني كنت واثقاً من عدم تكرار ذلك. كنت قد نسيت ما حصل بيني وبين أبي سلام وكنت أتصور بأننا تجاوزنا ذلك، فلم أربط محاولة تجميدي ثم إبقائي شبه مجمد، لمدة ثمانية أشهر، بما حصل، خاصة وأنني لم أحاسب عليه، إذا كان ذلك يتطلب فعلاً المحاسبة، بل ولم يوجه إلي سؤال واحد حول الموضوع. ولكن ظهر بأن تصوري لم يكن صحيحاً. ومع الأسف كانت تحصل أحياناً "عقوبات" من خلال الإجراءات التنظيمية، وهي أشبه بضرب تحت الحزام.

فاجأني أبو يحيى بأن طلب مني تسليم الرفيق عبد الرزاق الصافي صورتين والمعلومات الضرورية لحصولي على جواز سفر طبيعي. وعرفت لاحقاً بأن هذه الجوازات تصدر بموافقة قيادة البعث لأعضاء اللجنة المركزية فقط. هيأ لي الصافي الجواز والفيزا السوفيتية ورافقني هو وأخي حميد إلى المطار لأطير مباشرة إلى موسكو. عند وصولي إلى موسكو حُجزت خارجها لمدة يومين، وهو إجراء تقليدي لإجراء الفحوصات الضرورية علي، للتأكد من سلامتي من الأمراض المعدية قبل نقلي إلى المعهد.

في معهد العلوم الاجتماعية في موسكو

في اليوم التالي لوصولي أرسل جيرنيكوف مدير معهد العلوم الاجتماعية (معهد لينين) في طلبي. كان اللقاء دافئاً جداً. طلب مني الإسراع بوصول فريقنا لأنهم بصدد تحديد موعد حفل الافتتاح الرسمي للسنة الدراسية الجديدة قريبا. أخبرته بأن حوالي 45 رفيقاً ينتظرون منذ مدة ليست بالقصيرة في دمشق لعدم وجود أماكن

شاغرة على متن الطائرات القادمة إلى موسكو، ورجوت مساعدته، فوعدني خيراً. وبالفعل بعد بضعة أيام وصل الجميع إلى موسكو!

كان جيرنيكوف، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، شخصية قوية ومحترمة من الجميع ومتنفذة وعلاقته مباشرة بالمكتب السياسي للحزب المذكور، وتحديدا بالعضو المرشح للمكتب السياسي بنماريوف مسئول العلاقات الخارجية في اللجنة المركزية، والمشرف على المعهد. كان جيرنيكوف قد تجاوز الستين من عمره, شعره رمادي اللون، وجهه أحمر ومدور الشكل وبشوش، ويبدو ضخما نسبيا. كان يحترم حزبنا كثيرا لكفاحيته العالية وتضحياته الجسيمة، وقد حضر في إحدى مناسبات عيد ميلاد حزبنا، رغم إنه كان من النادر حضوره لمثل هذه الحفلات، ورفع نخبا بالمناسبة مضاعفا عمر الحزب أمام ممثلي أكثر من أربعين حزبا شيوعيا، نافيا أن يكون كلامه مجاملة، وفسر قوله بان تجربة الحزب الشيوعي العراقي غنية وتساوي ضعف عمره.

كان المدير يعقد لنا، نحن ممثلي الفرق في المعهد، اجتماعات دورية. لم يكن يتساهل في خرق المواعيد إطلاقاً، وكان يعتبر من يتأخر عن موعد ما بأنه لا يحترم نفسه لأنه لا يحترم الآخرين، فاحترام الآخرين ووقتهم هو احترام للنفس أيضاً. نقلت هذه المقولة لقيادة منظمتنا الطلابية في موسكو، وكنت مشرفاً عليها، إذ كانت تعتبر التأخر نصف ساعة عن موعد ما أمراً طبيعياً في موسكو لتباعد المسافات ويسمون ذلك "هاي مواعيد موسكو". عالجت قيادة المنظمة هذه الظاهرة السلبية في نشرة داخلية ووضعت مقولة المدير عنواناً لها.

شيء عن المعهد

يعتبر معهد العلوم الاجتماعية امتداداً لجامعة كادحي الشرق التي درس فيها الرفيق فهد وقادة آخرون من حيث محتواه وأهدافه. وهو مخصص لتعريف كوادر الأحزاب الشيوعية بالنظرية الماركسية ـ اللينينية. ويفترض بالدارس فيه أن يكون قد أكمل الإعدادية. ومن حق قيادات الأحزاب عدم الالتزام بالشرط المذكور إذا ما قدرت بأن الرفيق آهل للدراسة. كان الفريق الذي أقوده يضم رفاقاً ذوي مستوى تعليم متفاوت جداً، فبينهم من أكمل أو لم يكمل السادس الابتدائي، وبينهم خريجو الجامعة. وبنفس هذا التركيب تكونت فرقنا دوماً منذ 1964. وكان المعهد يمنح دبلوماً بعد التخرج لمن يشاء من خريجي الدورة الطويلة الأمد. وقد استلمت في حينه دبلومات الرفاق وأطلعتهم عليها ومن ثم أتلفتها، لأنها من الممكن أن تتحول إلى دليل جرمي ضدهم في بلدنا.

كان معدل الدارسين في المعهد حوالي 300 دارس من 40 بلداً أو أكثر، وكانت غالبيتهم من البلدان النامية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وتتلقى الدراسة

مجاميع أوروبية من البرتغال وأسبانيا واليونان وفنلندا وأفراد من دول أخرى، ولم يكن هناك أحد من البلدان الرأسمالية الأكثر تطوراً مثل الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والمانيا الغربية وايطاليا. كان جو المعهد أممياً وحميمياً، وهناك حرية معينة في المناقشات داخل الصفوف، وليس هناك أي مظهر من مظاهر الثكنة العسكرية التي أشرت إليها في مدرسة صوفيا. ففي موسكو ليس هناك رقابة على التحضير الشخصي أو المبيت خارج المعهد، ولكن اصطحاب أحد إلى المعهد كان ممنوعاً، ودخول قادة الأحزاب يتم بعد موافقة إدارة المعهد مسبقاً. وهذا مفهوم، فكثير من كوادر الأحزاب الشيوعية في المعهد تعمل بشكل سري. ولكن هناك صرامة في تطبيق النظام، فمثلاً لا يسمح للدارس الدخول إلى الصف لو وصل متأخراً، أي بعد المباشرة بالدراسة، وكان عليه أن يستحصل موافقة رئيس قسم التعليم لكي يدخل الصف. وباعتقادي أنه لولا تلك الصرامة لخربت عادات عالمنا الثالث المتخلفة أسس النظام الدراسي في المعهد.

يوجد مطعم كبير في المعهد ويتميز الأكل فيه بالجودة والتنوع والرخص. وكان راتب الدارس يغطي جميع مصروفاته ويزيد. ويمتاز القسم الداخلي بكونه مريح وهو مجاور للمعهد. هناك قاعة كبيرة تتسع لجميع الدارسين والعاملين في المعهد وهي مجهزة تقنياً للترجمة المباشرة بعدد من اللغات. تعرض في القاعة الأفلام وتقام فيها الحفلات العامة، وتلقى فيها صباح كل يوم اثنين محاضرة لجميع الدارسين في المعهد، من قبل أحد قادة الأحزاب الشيوعية، أو دراسات جديدة ذات علاقة باهتمامات المعهد تلقيها شخصيات سياسية وعلمية من خارج المعهد.

تبدأ الدراسة في الصف بقراءة نشرة أخبار عالمية، ويخصص بعض الأساتذة وقتاً محدداً للتعليق عليها، وتكون لكل صف أو صفين متشابهين علاقة بمنظمة حزبية في أحد المصانع للتزود بالمعارف التطبيقية. كما يحضر المستمعون بعض الاجتماعات الحزبية أو الإنتاجية. وتنظم سنوياً سفرة لجميع طلبة المعهد إلى لينينغراد، وتتوج الدراسة بعد الامتحانات بسفرة دراسية تطبيقية أمدها أسبوعاً واحداً إلى إحدى المدن الكبيرة أو إلى إحدى الجمهوريات السوفيتية. كما كان هناك استوديو للبث المباشر خلال فرصة الظهيرة، وأتذكر بأنني ألقيت من خلاله كلمة بمناسبة العيد التاسع والثلاثين لميلاد حزبنا.

فريقنا

تكون فريقنا من 50 رفيقة ورفيقاً، وشكلت للفريق هيئة قيادية كان في قوامها الرفاق عائدة ياسين وقادر رشيد وملا علي. وتوزع فريقنا على أربعة صفوف. زاملني في الصف أحد عشر رفيقاً، من بينهم الرفيقتان عائدة ياسين ولينا (اسم مدرسي) وهما الفتاتان الوحيدتان في الفريق العراقي كله، اللتان ساهمتا في الدراسة ولأول مرة بعد استئناف الإرسال إلى المعهد في النصف الثاني من عام

1964. أما الباقون فهم كل من سامي عبد الرزاق ومحمد عبد الزهرة حموزي وآخرون أتذكر أسماءهم المدرسية فقط وهم سردار وسمير وصادق وعادل ورافد ومحجوب ومجيد. كنا ندرس أربع ساعات قبل الغداء إحدى مواد البرنامج الذي مر ذكره آنفاً. وبعد الغداء مباشرة، أي في وقت القيلولة، لدينا ساعتان للغة الروسية. وفي بعض الأيام هناك ساعتان إضافيتان وعادة ما تكون محاضرة عن حركات التحرر الوطني. كان معظمنا يغفو مراراً في هاتين الساعتين. وننجز تمارين اللغة في المساء ونحضر لليوم التالي. كان الأسلوب المتبع في دراسة العديد من المواد هو الأسلوب النشط، أي أن الدارسين هم الذين يحاضرون والمحاضر يكمل أو يصحح.

كانت مارينا، الشابة الجميلة، المتمكنة من اللغة العربية، أستاذتنا في الفلسفة ومتخصصة بتاريخ الفلسفة، وتحضّر أطروحة في هذا الميدان. وقد درستنا سنة كاملة تاريخ الفلسفة وبالأسلوب الكلاسيكي وبدون ملازم أو مصادر. وأكثر من مرة طالبناها وطالبنا المسؤولين بالاكتفاء بذلك والتحول إلى المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، فكان جواب الأستاذة وكذلك المشرفين هو تذكيرنا بمقولة انجلس وهي: "إن دراسة تاريخ الفلسفة ينمي لدى المرء ملكة التأمل الفلسفي". وكان بعض الرفاق يعلقون على ذلك بالإشارة إلى رفيق، أسمر وسيم شعره مجعد، بالقول بأنه الوحيد الذي اكتسب ملكة التأمل الفلسفي، لأن الأستاذة مارينا كانت تمدحه على استيعابه الجيد أمام المشرف، في حين كان الآخرون يعتقدون بأن للمدح دوافع رومانطيقية.

مشكلة مع أستاذ

كان أستاذنا في الاقتصاد السياسي دانتسوف شاب في الخامسة والثلاثين متوسط القامة، قصير الشعر، وجهه مثلث وصارم. وهناك انتفاخ مبكر تحت جفنيه ويمشي منحنياً قليلاً بحقيبته اليدوية. كان متمكناً من اللغة العربية ويتكلم الإنكليزية، ومتفتحاً فكرياً. ومنه سمعت لأول مرة ما يلي: "إننا لم نر الإمكانيات الكبيرة التي تتمتع بها الرأسمالية في تجديد نفسها ذاتيا". كان مثل هذا الكلام في بداية السبعينيات كلاماً مثيراً، لأن الوثائق الرسمية للحركة الشيوعية كانت تتحدث عن الأزمة المستعصية وغير القابلة للحل التي يعاني منها النظام الرأسمالي العالمي.

كان دانتسوف يبالغ في حزمه إلى حد التجاوز ويؤنب المقصر تأنيباً لاذعاً، وكنا نتحمل ذلك. وفي أحد الأيام أخطأ أحد الرفاق في الإجابة على سؤال فمسك دانتسوف الرفيق من ظهره وظل يدفع به من بداية الصف إلى نهايته حيث يجلس الرفيق، استغربنا تصرفه وتمنينا أن لا يتكرر.

تطلب وضعي كمسؤول فريق أن أكون قدوة للآخرين في الدراسة، وهي مهمتنا الأساسية من وجودنا خارج الوطن. ولم أكن أقصر في ذلك. وفي أحد الأيام لم أتمكن أن أحضر جيداً للاقتصاد السياسي، لسبب طارئ وخارج عن إرادتي، فجلست مبكراً وتمكنت أن أقرأ ثلاثة أسئلة من أربعة. سألني دانتسوف السؤال الرابع، أجبته بناء على معلوماتي القديمة ولم يكن الجواب كاملاً، وانطوى على خطأ ما، فصحح الخطأ. بعد فترة أخذ يتحدث عن القيمة الاستعمالية للسلعة، فقد كنا في بداية المنهج الدراسي، فقال: "هذا الكرسي الذي بيدي مثلاً، فيه قيم استعمالية كثيرة، فإنني أتمكن أن أجلس عليه وأتمكن أن استخدمه كحطب للمدفأة، ومن ثم رفع الكرسي إلى الأعلى وقال: أتمكن أن أهوي به على رأس واحد لا يعرف اقتصاد سياسي".

كان واضحاً بأنه يقصدني أيضاً، فقررت أن أتحرك لوضع حد لهذا الوضع الشاذ، فاتصلت بالأستاذة الأقدم، مسؤولة صفنا اوليانوفا، الحائزة على ميدالية لينين. عندما عرفت اوليانوفا بالوضع طلبت مني أن أخذ ساشا رئيس قسم المترجمين (وليس مترجمنا لأنه صديق دانتسوف) وأشتكي عليه عند جيرفينكوف، مساعد المدير لشؤون التعليم، ومرجعي الإداري بصفتي مسؤول فريق. وأشارت لي بأن دانتسوف مغرور، وذلك برفع أنفها بسبابتها إلى الأعلى. ومن حسن الحظ، لم أجد ساشا وبالتالي لم أتمكن القيام بأي عمل في ذلك اليوم.

شكوى لدى المدير

كان الرفيق عزيز محمد يرقد في المستشفى، فاتصلت به تلفونياً وأخبرته بتفاصيل سلوك الأستاذ، وأخبرته بأن مترجم صفنا صديقه. وجيرفينكوف صديقه أيضاً. فطلب مني الرفيق عزيز أن أذهب إلى مدير المدرسة وأشتكي عليه. لم أخذ مترجم صفنا آرتينوف، وأخذت المترجمة تمارا (صديقة العراقيين)، والتقيت بمرجعي الإداري جيرفينكوف وطلبت منه مواجهة مع المدير. عندما عرف السبب ألح علي أن أتحدث معه في الموضوع فرفضت ذلك. فما كان منه إلا الاستجابة لطلبي. في طريقنا إلى المدير قالت لي تمارا: " زين سويت ما اتكلمت وياه لأن دانتسوف وجيرفينكوف "ط.. فد لباس" أي انهما متطابقان.

قيمت إيجاباً مستوى دانتسوف وطريقة تدريسه النشطة، في لقائي مع المدير، وانتقدت أسلوب تعامله معنا وقلت له، فحوى ما أوصاني به الرفيق عزيز محمد وهو: "إنه يتعامل معنا وكأننا تلاميذ مدرسة في حين إننا كوادر حزبية نناضل في ظروف صعبة وخطيرة من أجل حرية وطننا وشعبنا ولرفع راية الشيوعية في بلدنا. وعرضت على المدير تفاصيل تصرف الأستاذ وأضفت: "نحن موجودون في هذا المعهد للتعلم، ولو كنا نعرف ما ندرسه لما أتينا إلى هنا، فلماذا يتعامل معنا بهذه الطريقة. كانت المترجمة تمارا تترجم بحماس أما جيرفينكوف فقد شحب

وجهه. قال لي المدير ووجهه محمراً: "اسمع سامر (اسمي في المعهد) أعطني مهلة شهر واحد، إذا ما عجبك الأستاذ تعال إلى هنا وأخبرني وسوف لن يبقى في المعهد.

توقعت موقفاً متعاطفاً من المدير معنا، ولكن لم أتوقع أن يصبح مصير الأستاذ في المعهد متعلقاً بقرار منا. تمارا ركزت نظرها علي تريد رصد رد فعلي، ولم تتمكن أن تكتم الفرحة في عيونها. اهتز كياني فرحاً لشعوري بإزالة ما لحق بي وبرفاقي من حيف وحاولت أن أكتم ذلك بكل ما أوتيت من قوة، لكي لا أبدو شامتاً و أجرح مشاعر جيرفينكوف، صديق دانتسوف، لأنني كنت معجباً به وبتعاونه وكانت علاقتنا دافئة. شكرت المدير على موقفه وودعته.

ذهبت إلى الصف وأخبرت الأستاذ بأن تأخري جرى بمعرفة الرفيق جيرفينكوف. بعد فترة وجيزة جاء رسول على دانتسوف وسلمه رسالة فغادر دانتسوف الصف. أخبرت الرفاق في الصف بمحتوى لقائي مع المدير وقد اندهشوا للنتائج. وكنا ننتظر بلهفة عودة الأستاذ.

موقف الأستاذ

لم يتأخر الأستاذ. وقد جلس متضائلاً أمام الصف واعترف بأنه ارتكب بحقنا أخطاء كبيرة وخاصة تجاه أبو شروق (كان الأساتذة الذين يتكلمون اللغة العربية وكذلك المترجمون ينادونني بكنيتي)، وأضاف: "إن أبا شروق أحسن مني في كل شيء ما عدا أنني أعرف الاقتصاد السياسي أحسن منه". واعتذر وطلب الصفح، متعهداً بعدم تكرار مثل هذه الأخطاء. عندما كان يشيد بي خطر ببالي بأن الأستاذ لا بد أنه قد سمع بالمثل القائل "شيّم المعيدي وأخذ عباته" عندما أنهى كلامه، توجه نظره وكذلك أنظار جميع الرفاق في الصف نحوي. فقلت: "يسرنا إنك أدركت أخطاءك وسنرى الأمور في التطبيق العملي". اندهش الرفاق في الصف لموقفي لأنهم توقعوا أن أصفح عنه. وشرحت لهم دوافعي وهي أولا: ليبق رهين تعهداته وذلك أكبر ضمان لمواصلته معنا بدون مشاكل، فهو أستاذ اقتصاد سياسي جيد. وثانيا: لكي لا يعتبرنا "معدان".

ذيول القضية

لقد أنهى الأستاذ معنا البرنامج بدون مشكلة واتسمت علاقته معنا بالاحترام المتبادل، أما مترجم صفنا فلم يغفر لي تجاوزه وذلك باصطحاب غيره عند ذهابي إلى مواجهة المدير وظلت علاقتنا باردة. كان هناك أيضاً أستاذ آخر للاقتصاد السياسي اسمه ببوف وهو صديق العراقيين، لأنه درّس بعض قادة حزبنا، لكنه قاطعني ولم يكن يسلم علي. وعندما انتهت الدراسة وكنت على وشك العودة إلى

الوطن، أمسك ببوف بمعصمي وسحبني إلى إحدى زوايا مقهى المعهد وقال لي: "هل تعرف لماذا قاطعتك؟
ـ أجل بسبب الأستاذ دانتسوف؟
ـ صحيح، إنه تلميذي وأنا علمته الحزم وقد تأسفت لأنك اعترضت على ذلك.
ـ لم أعترض على حزمه وهذا الجانب يعجبني فيه، ولكن اعتراضي على شيء آخر. وشرحت له تصرفات دانتسوف الخاطئة.
ـ هذه أول مرة أسمع الامر بهذه الصورة.
ـ طبعا ، لأنك سمعت دانتسوف ولم تسمعني. (ثم أضفت)، أنت عالم وخبرتك غير قليلة في الحياة، ألم يكن الأجدر بك أن لا تكتفي بسماع طرف واحد وتصدر حكمك وتتخذ موقفاً خاطئاً مني وتقاطعني أكثر من سنة؟
ـ خجل وقال لي: "صحيح صحيح، الحق معك". افترقنا بشكل عادي، دون رغبة في الإطالة من قبل الطرفين.

يلتقي المدير عادة بكل صف عند انتهاء مهمته ويسمع رأي الدارسين وملاحظاتهم. وعند اجتماع المدير بنا مدحت الأستاذ دانتسوف وأكدت بأنه استفاد من التجربة ولم يكرر خطأه. علمت من الرفيقة عايدة ياسين أن المدير خرج من غرفته بعد لقائنا ليفتش عن الأستاذ دانتسوف، وعندما التقاه هنأه على التقييم الإيجابي الذي سمعه باسم صفنا. وكنا قد سمعنا في حينه بأن الأستاذ كان مرشحاً لمنصب معين وقد توقف ذلك جراء شكوانا عليه. وقد التقى بي الأستاذ وشكرني على تقييمنا الإيجابي له. وعند زيارة الأستاذ لبغداد بعد حوالي خمس سنوات لإلقاء محاضرة في إحدى المؤسسات الرسمية، دُعي إلى عشاء في بيت الرفيقة سهيلة البراك، حضرها الرفيق عزيز محمد وحضرتها بناء على رغبة الأستاذ دانتسوف نفسه وقضى جلّ الأمسية في التحدث معي وكان ذلك مؤشراً على تجاوزه لما حصل بيننا، وقد سرني ذلك.

وبمناسبة لقاءات المدير بالفرق الدراسية عند انتهاء الدراسة، هناك نكتة شائعة في المدرسة يقولها فريق ما على فريق آخر لا يعجبه. يروى أن فريق X أخبر المدير بأنهم فهموا واستوعبوا بشكل جيد مواد البرامج الأساسية الأربعة ما عدا بضع نقاط وهي، في الفلسفة لم يستوعبوا المفهوم الفلسفي للمادة. وفي الاقتصاد السياسي لم يفهموا قانون فائض القيمة. وفي تاريخ الحركة العمالية لم يفهموا رسالة الطبقة العاملة. أما في تاريخ الحزب الشيوعي فلم يفهموا علامات الوضع الثوري اللينينية. وأكد الفريق على استيعابهم للماركسية ـ اللينينية باستثناء النقاط الأربعة. فعلق المدير بالقول: "لم تفهموا شيئاً في الماركسية ـ اللنينية"!

كونفرنس المعهد

عقد الكونفرنس التقليدي السنوي للمعهد في ربيع 1973. وكان على كل فريق وطني المساهمة فيه باختيار موضوع من قائمة عناوين طويلة لمداخلة لا تتجاوز الـ 15 دقيقة بضمنها الترجمة الفورية. كلفنا أكثر من رفيق في الفريق العراقي ولكن الجميع اعتذروا واعتبروا هذه المهمة هي مهمتي بلا نقاش، لكوني عضواً في اللجنة المركزية. لم أكن أرغب بذلك لأني كنت مرهقاً، فبالإضافة إلى الدراسة ومسؤولية المنظمة في المعهد كنت أشرف على لجنة الإتحاد السوفييتي (الهيئة المسؤولة عن تنظيم الطلبة). وكانت اللجنة تعاني من مشاكل صعبة وخاصة الخلاف بين سكرتير اللجنة الرفيق خليل الجزائري آنذاك وأبرز عضو فيها الرفيق عبد الأمير الموسوي، بحيث اقترحت في أحد اجتماعات اللجنة معاقبة الاثنين معاً بسبب المشاكل التي يسببونها للمنظمة. ولكن اللجنة تفاجأت بالمقترح، فالعادة الجارية أما تحيز المشرف إلى هذا الجانب أو ذاك وأما التوفيق بين الطرفين. ولم ترتق اللجنة في نظري إلى مستوى معالجة المشكلة وتغاضت عن المقترح. وبالإضافة إلى المهام المذكورة، كنت على علاقة بمسؤول فريقنا في مدرسة الشبيبة.

نعود إلى الكونفرنس. قرأت الدراسات والمواد المطروحة للمناقشة وكان من بينها دراسة بعنوان "آفاق رحبة للجبهات الوطنية في المشرق العربي" بقلم البروفسور اوليانوفسكي، الباحث المعروف في الدائرة الأيديولوجية في الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ونائب رئيس قسم العلاقات الخارجية في الحزب. يتحدث الكاتب في إحدى فقرات دراسته عن إمكانية اندماج الأحزاب الشيوعية بالأحزاب الديمقراطية الثورية، كأفق منظور في البلدان التي تتعاون فيها هذه الأحزاب والمقصود العراق وسوريا. لقد استفزتني الموضوعة وكتبت مداخلة تحت عنوان "تقوية وتعزيز الأحزاب الشيوعية في حركة التحرر الوطني واجب أممي"، أشرت في المداخلة إلى وجود نزعة في الحركة الشيوعية العالمية لا ترى ضرورة لوجود أحزاب شيوعية قوية ومستقلة في البلدان النامية. وأن هذه النزعة تعول على الأحزاب الديمقراطية الثورية (البرجوازية الصغيرة) في إنجاز المهام الوطنية الديمقراطية والتحول إلى الاشتراكية وأن الحديث عن إمكانية اندماج الأحزاب الشيوعية بالأحزاب الحاكمة هو بمثابة تصفية للأحزاب غير الحاكمة. واستشهدت بفقرة ضافية من دراسة اوليانوفسكي، دون ذكر اسمه إنما قلت: "أحد الكتاب". ودعمت وجهة نظري بأقوال لينين حول ضرورة أن ينظم العمال أنفسهم في بلدان حركة التحرر الوطنية، مهما قل عددهم في تنظيم سياسي مستقل. وانتقدت جريدة "البرافدا" على نشرها خبراً عن حل الحزب الشيوعي المصري نفسه وكذلك الحزب الرديف الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو)، واعتبرت ذلك دليلاً على وجود تلك النزعة.

مداخلة مثيرة

كنت أعرف بأن المداخلة سيكون لها وقع الحجر في بركة ماء راكدة، ولكن من أول لقاء مع الأستاذة سوخانوفا التي كانت تشرف على مداخلتي، أدركت أن الأمر أكبر مما تصورته. كانت الأستاذة تدرسنا تاريخ الحركة العمالية. وهي لا تعرف اللغة العربية وقد جاءتنا مؤقتاً، أعجبنا أسلوبها فتمسكنا بها واستجابت الإدارة لرغبتنا. كانت سوخانوفا شقراء، طويلة ورشيقة عمرها حوالي خمسة وخمسين عاما، وقورة جداً وذكية متمكنة من اللغة الانكليزية. أتذكر أعطتنا مرة صفحتين فقط من البيان الشيوعي وطلبت منا أن نجد العبارة الأكثر جوهرية فيها، فلم نفلح. وظهر أن العبارة تتعلق برسالة الطبقة العاملة، وفحواها أن الطبقة العاملة عندما تحرر نفسها تحرر بقية الطبقات معها، أي الفلاحين وسائر الكادحين من الاستغلال. في حين ذهب تفكيرنا إلى عبارة فحواها: عندما تتحول الطبقة العاملة من العمل بذاتها إلى العمل لذاتها، أي التحول من النضال المطلبي إلى النضال السياسي.

نعود إلى الأستاذة، فقد عرفت منها بأنها تخلت عن عدد من المداخلات كان ينبغي أن تشرف عليها كي تتفرغ لموضوعي. كنا ندقق كلمة بعد كلمة وجملة بعد جملة ونحن نقارن الترجمة الروسية بمساعدة المترجم. ولشدة توترها ترددت في لحظة معينة فأخبرتها، إذا كانت المداخلة مضرة أو تسبب مشكلة للحزب الشقيق فإني مستعد لسحبها. وكنت أثق بنزاهتها ومصداقيتها، فأجابتني: "لا، المشكلة ليست هنا إنما في مكان آخر ستعرفه لاحقاً".

واجهتني مشكلة ضيق الوقت المخصص للمداخلة فتبين إذا ما وافق المستمعون على المواصلة فسأمنح خمس دقائق إضافية. كان العراقيون يشكلون ربع القاعة تقريباً فاتفقنا على الموضوع. وفعلاً عندما أوقفت ولم أكن قد أكملت المداخلة، طلبت أخذ رأي الجمهور، فوافق الجمهور! فأكملت قراءة المداخلة. وجاء سؤال عراقي مبيت لأكمل ما أنوي توضيحه. والغريب في الأمر أننا كنا نتفق على مثل هذا التحايل (استغلال الثغرات في التعليمات) دون أن يخطر ببال أحد منا، ولو للحظة واحدة، عدم صواب التحايل على التعليمات.

غبن

انعقدت الجلسة الختامية للكونفرنس في اليوم الثالث وكنت على المنصة مع عدد آخر من ممثلي الفرق الكبيرة وبعض مسؤولي المعهد وشخصيتين من طرف اللجنة المركزية. وكان لكل منهما دراسة تتباين بعض الشيء في الموقف من الديمقراطيين الثوريين وآفاق تطورهم في حركة التحرر الوطني بين متفائل وآخر أقل تفاؤلاً. وكان اوليانوفسكي أحدهما وهو المتفائل وكانت الكلمة الأخيرة له باعتباره مشرفاً على الكونفرنس من قبل اللجنة المركزية. تحدث اوليانوفسكي كثيراً وعرض أهم الأفكار في دراسته ومن ثم قال: "سأتحدث الآن عن شيء يخصني. لقد انتقد أحد المساهمين في الكونفرنس فقرة في دراستي، ولكن مع

الأسف أن هذا المساهم لم يفرق بين نقطة الكاتب وزر الجاكيت، ولأنه لم يضع النقطة في مكانها فقد غير معنى كلامي".

وبدلاً من أن يوضح ما الذي كان يقصده وما الذي تغير، راح يؤكد إخلاصه للماركسية ـ اللينينية وللأممية البروليتارية ولحركة التحرر الوطني، بشكل حماسي وديماكوكي وينتزع بذلك التصفيق الحماسي والأكثر فأكثر حماساً، ليسجل انتصاراً ساحقاً على "خصمه". ومع انتهاء كلمته وقف الجميع لينشد النشيد الأممي "هبوا ضحايا الاضطهاد"، ليعمق شعوري بالاضطهاد ويسبب لي خيبة أمل. فلم أكن أتصور بأن تزييف الحقيقة بهذا الشكل ممكن أن يحصل هنا أيضاً!

خرجت من القاعة وذهبت إلى مقهى المعهد بعد لحظة وصلت الأستاذة المشرفة وسألتها فوراً:

ـ هل حقاً هناك تلاعب في موقع نقطة ما في المقتطف؟
ـ بالتأكيد لا.
ـ لماذا يزيف اوليانوفسكي الحقيقة إذاً؟ أهذه هي المشكلة التي قلت بأنني سأعرفها لاحقاً؟
ـ اهدأ ... اهدأ سيتصلح كل شيء.
ـ سأقابل المدير وأعرض عليه الأمر.
ـ المدير مجاز.
ـ أترك الموضوع لي وسأتدبر الأمر.
ـ طيب، اتفقنا.

أخبرت بالتهيؤ لموعد مع أوليانوفسكي في اليوم التالي للمحاضرة. وصلت إحدى سيارات اللجنة المركزية السوداء إلى المعهد في الموعد المقرر ونقلتني إلى اللجنة المركزية. وإلى مكتب اوليانوفسكي الفخم، بعد المرور بمكتب السكرتيرة. استقبلني اوليانوفسكي بحفاوة، بدت لي مبالغاً بها. جلسنا وجهاً لوجه. قال بأن المكان الذي أجلس فيه قد جلس فيه قبلي عزيز محمد وعامر عبد الله. وأخبرني بأن الموضوع الذي أثير في الكونفرنس يمكننا مناقشته في الصف. وإنه يريد أن يلتقي بفريقنا الوطني تنفيذاً لالتزام مسبق (كان في برنامج فريقنا الوطني لقاء برفيق من اللجنة المركزية)، وإنه يريد أن يعرف ما الذي يشغل بال الرفاق. طرحت عليه جملة أسئلة تتعلق بالوضع الدولي والعربي والداخلي. وافترقنا بسلام.

حضر لقاء فريقنا الوطني مع اوليانوفسكي جميع أساتذة الفريق بصفوفه الأربعة. وكان مدير الجلسة المترجم العربي الأقدم ساشا، الذي أخبرنا بأن الحديث سيكون لاوليانوفسكي وبعد حديثه يمكن طرح الأسئلة. وإن وقت الاجتماع محدد وسينتهي في ... تحدث اوليانوفسكي كثيراً وكرر جميع أفكاره التي عرضها في الكونفرنس،

بهذا الشكل أو ذاك، واستغرق حديثه الوقت المخصص ولم يبق منه سوى عشر دقائق. مع ذلك طلبت الكلام وقلت: " لم أكن أريد التحدث في هذا اللقاء ولكن حديث الرفيق اوليانوفسكي حول الموضوع، الذي طرح في الكونفرنس، هو الذي دفعني لذلك. وبعد أن كررت ما ورد في مداخلتي في الكونفرنس وناقشت بعض الإضافات الضرورية في حالات كهذه، أعلنت بأن هذه هي سياسة حزبنا حسب فهمي لها، ومن واجبي الدفاع عنها. انتهى الوقت وانصرف المجتمعون. كان الفريق الوطني متفقاً معي جملة وتفصيلاً ولم يكن هناك ولا رفيق واحد معارضاً أو متحفظاً على ما طرحته.

أرسلنا تقريراً عن الموضوع إلى قيادة حزبنا مرفقاً بمداخلتي. وقد وصلنا رأي المكتب السياسي وهو، إن المكتب السياسي متفق مع الآراء الواردة في مداخلتي، ولكن يخشى أن يكون طرحها في مثل هذا المحفل ينطوي على إساءة لشخصية بارزة في الحزب الشقيق.

رفع الغبن

يحتفل الاتحاد السوفييتي سنويا في 9 مايس بيوم التحرير وسقوط النازية عام 1945. وتقام في المعهد عادة حفلة بهذه المناسبة. عندما دخلت قاعة الاحتفال، عصر ذلك اليوم من عام 1973، جلب انتباهي وجود كبار المسؤولين وجميع الأساتذة جالسين في القاعة. وهناك ميكرفون يتوسط المسرح. وفي موعد بدء الحفل ظهر مدير المدرسة على المسرح بوقاره المعهود وبيده ملف. ألقى كلمة تتضمن رداً على أفكار اولياونوفسكي وتناغماً مع أفكاري دون ذكر الأسماء. شككت بسمعي بادئ ذي بدء، ولكن حدسي تحول إلى حقيقة عندما شاهدت أنظار المسؤولين والأساتذة تتجه نحوي، وأنا بهذه الحالة وإذا بالمدير يتوقف ليخرج عن السياق ويقول: "اعتقد إنكم عرفتم بأن الحديث يتعلق بالكونفرنس". تصفيق حاد في القاعة.

وعندما أراد الاستشهاد بلينين فتح الملف (لا يحبذ في المعهد الاستشهاد بلينين بدون نص مكتوب) وقرأ نصاً، هذا فحواه: "إن دعم وتعزيز استقلالية الأحزاب الشيوعية في حركة التحرر الوطني واجب أممي". وعندما أنهى كلمته قال: "وهذا رأي المكتب السياسي".

ضجت القاعة بالتصفيق. اختطفوني الرفاق السوريون والسودانيون وأقاموا على الفور حفلة أنخاب وتعليقات استمرت إلى منتصف الليل. وخسرتني هذه الحفلة مشهداً رائعاً تمنيت لو كنت فيه. عرفت بعد انتهاء الحفل في القاعة الكبيرة، بأن الرفاق العراقيين وقفوا خارج القاعة مصطفين يستقبلون المهنئين أساتذة ودارسين فضلاً عن مدير المدرسة الذي صافحهم جميعاً. شاهدت في اليوم التالي

الأستاذة المشرفة، فتحت يديها ما أن لمحتني وفعلت الشيء نفسه وتعانقنا على الطريقة الروسية، ومن ثم سألتني: "هل أنت راض بالنتيجة؟". أجبتها: "لم أكن أحلم بها". وعلمت منها بأنها كانت تتابع الموضوع، بمثابرة مع المدير. في الامتحان النهائي للصف أبت الأستاذة أن تمتحنني، فلم تدعني أن أسحب أسئلة الامتحان، وقالت: "دعنا نتحدث في السياسة قليلاً بدلاً من الامتحان. لم تكن حرب تشرين 1973، قد انتهت بعدُ، فتحدثنا حولها.

زارنا الرفيق عزيز محمد في المعهد بعد حوالي الشهرين من انتهاء الكونفرنس. كنا على موعد مع المدير. بعد أن تسلقنا بضع درجات ونحن متجهون إلى الطابق الأول حيث يقع مكتب المدير، توقفت واقترحت على الرفيق عزيز أن يقابل المدير بمفرده، أي بدوني، كي يسأله عما حصل في الكونفرنس. بعد اللقاء أخبرني الرفيق عزيز بأنه قال للمدير: "إننا متفقون مع جاسم فيما طرحه في الكونفرنس، ولكننا خشينا أن يسيء ذلك للرفيق اوليانوفسكي" فأجاب المدير: "لقد أساءوا لجاسم، أما هو فلم يسئ لأحد".

لم أكن أتوقع جواباً بهذه القوة، وقد منعتني قوته ومستوى وعيي آنذاك من أي تعليق. في حين لم يكن من الصحيح السكوت على قضايا تتعلق بمصير الحزب والوطن تجنبا للإساءة لهذا أو ذاك، بل بالعكس فإن السكوت على الخطأ هو الإساءة الحقيقية لأطراف لم نكن نحب الإساءة إليها. وهذه العبرة تحافظ على كامل حيويتها اليوم أيضاً. فالحزب الشيوعي العراقي يتعرض اليوم لضغوط شديدة من اليسار العربي والعالمي تطالبه بسياسة لا يجمعها جامع مع مصلحة الحزب والوطن. ولكن سيأتي ذلك اليوم الذي يرى فيه أي منصف بأن الحزب في نهجه السياسي العام كان صائباً.

لقاء أم شروق في موسكو

تبادلت أجمل الرسائل مع أم شروق في فترة الدراسة في موسكو. وقد أرسلها الحزب إلى الاتحاد السوفييتي في صيف 1973 للعلاج. وقضينا فترة استجمام في مصحات اللجنة المركزية في يالطا على البحر الأسود. كانت بمثابة شهر عسل حقيقي، حرمنا منه عند زواجنا لأننا كنا مختفين.

صورة من موسكو

العودة من الدراسة

كان في الدورة الطويلة الأمد صف آخر إضافة لصفنا، ومجموع الدارسين في الصفين 24 رفيقاً، وكان من المفروض أن يتفرغوا، لمدة ستة أشهر، لكتابة البحث. كان رأي الأساتذة بأن عدداً قليلاً منهم سوف يتمكن من إنجاز مثل هذه المهمة. ولم يكن من الممكن إبقاء البعض وإعادة البعض الآخر. وبعد التشاور مع الأطراف المعنية وفي مقدمتها حزبنا تقرر عودة الجميع، بدون كتابة البحث.

مهمات مهمة ومتنوعة

عدت إلى العراق في نهاية كانون الثاني 1974. وفي أول اجتماع للجنة المركزية، في ربيع السنة المذكورة، انتخبت عضواً في سكرتارية اللجنة المركزية وأعيد انتخابي إليها بعد المؤتمر الثالث أيضاً. وأصبحت سكرتيراً للجنة التنظيم المركزية وعضواً في لجنة العمل الأيديولوجي (لعد)، وكان سكرتيرها الفقيد زكي خيري. وكنت مشرفاً على لجنة التوجيه الفلاحي. ومشرفاً على المدرسة الحزبية في بغداد. وبعد عودتي من موسكو ببضعة أشهر باشرت في كتابة المقالات في الثقافة الجديدة ومن ثم في طريق الشعب والفكر الجديد. وعندما اطلعت سوخانوفا،

الأستاذة في معهد موسكو، على أحدى مقالاتي في مجلة "الثقافة الجديدة" في أيلول 1974، وكانت بعنوان "حول أهمية وإمكانية تحقيق حلف العمال والفلاحين في البلدان النامية"، حملت المعهد على ترجمته وتبنيه كمرجع. وفي زيارتي للمعهد بعد حوالي السنة اقترحت علي توسيع الموضوع وتحويله إلى أطروحة. أخبرتها بأني سأحاول التوسع في هذا الموضوع إذا سمحت لي ظروف عملي، ولكن ليس كأطروحة. وفعلاً سنحت لي فرصة للتوسع في الموضوع، عندما كلفت بحضور مؤتمر عالمي نظمته مجلة "قضايا السلم والاشتراكية" في أولان باتور عاصمة منغوليا مخصص للحركة الفلاحية والمسألة الزراعية. فكتبت دراسة في حوالي 50 صفحة ضمت إلى مجلد يحوي دراسات المؤتمر المذكور مترجماً للغات الأربع الحية. وقد استخلصت من الدراسة مقالاً نشر في مجلة الحركة الشيوعية العالمية "قضايا السلم والاشتراكية".

عقوبة

عندما كنت عضواً في لجنة العمل الأيديولوجي (لعد) وكان سكرتيرها الرفيق زكي خيري، ارتكبت خطأ، لتجاوز صلاحياتي، استحققت عليه عقوبة التنبيه، وهي أخف عقوبة في سلم العقوبات الحزبية. وهذه هي العقوبة الوحيدة التي اتخذت بحقي في تاريخي الحزبي الذي امتد أكثر من نصف قرن. وسبب العقوبة هو كراس بعنوان "الدولة الوطنية والتطور اللا رأسمالي" مؤلفه كاتب سوفيتي اسمه نيكيتين. وردتنا كمية كبيرة من الكراس المذكور من السفارة السوفيتية عام 1975. قرأت الكراس ووجدت فيه ترويجاً لفكرة اندماج الأحزاب الشيوعية بالأحزاب الديمقراطية الثورية. وكنت أعتقد بأن مجرد مناقشة هذه الفكرة في المنظمات الحزبية من شأنها أن تضعف الحزب، لما تنطوي عليه من إيحاء بأن المقصود هو الاندماج بحزب البعث. فطرحت الموضوع في لجنة العمل الأيديولوجي، أو ربما على الرفيق زكي خيري وحده، واتفقنا على عدم صلاحية الكراس للتثقيف.

كانت اللجنة المذكورة تجتمع في المدرسة الحزبية والتي هي في نفس الوقت مقر لمنظمة بغداد والكراس المذكور كان موجود فيه. أخبرت الرفيق كامل كرم عضو مكتب منظمة بغداد بالتريث في توزيع الكراس. بعد فترة استفسر كامل مني عما تقرر بشأن الكراس.، فاستفسرت من الفقيد زكي خيري سكرتير (لعد) عن رأيه في إتلاف المطبوع فأيد ذلك ليس تصريحاً، بل "على لسان الطير". أبلغت كامل بإتلاف المطبوع، فأتلفه. وكنت أتصور بأن قيادة الحزب لا مانع لديها في ذلك مستنداً إلى دعمها لموقفي في كونفرنس موسكو.

اعترض المكتب السياسي على إتلاف الكراس. وأفاد الرفيق زكي خيري بأنه كسكرتير للجنة العمل الأيديولوجي (لعد) ليس لديه ولا للجنته صلاحيات تنفيذية باعتبار (لعد) لجنة اختصاص ليس إلا، وثبت ذلك في محضر المكتب السياسي.

فحُملت وحدي مسؤولية إتلاف الكراس. وقد ذكرت آنفاً بأن التصرف كان تجاوزاً لصلاحياتي، ولم يكن من الصحيح بناء موقفي على تصور موقف قيادة الحزب قبل أكثر من عامين. في حين كنت على احتكاك مباشر ويومي بها. إن سكرتارية اللجنة المركزية (سلم)، والتي أنا عضو فيها، تجتمع أسبوعياً وهو المكان الصحيح لطرح الموضوع فيها. لمَ لمْ أقم بذلك؟ هل كنت أخشى أن ترفض (سلم) مقترحي القاضي بإتلاف الكراس؟ ربما.

نقد ذاتي

وبالمناسبة، أرجو أن لا يفهم من رأيي هذا بأني كنت معارضاً للأخطاء التي عانى منها نهج الحزب السياسي والفكري في تلك الفترة، بل بالعكس فقد كنت أحد المساهمين في رسم ذلك النهج. فقد كنت عضواً في لجنة إعداد مشروع برنامج الحزب الذي أقره المؤتمر الثالث للحزب عام 1976. وكانت اللجنة برئاسة الرفيق زكي خيري وعضوية الرفاق عمر علي الشيخ وعبد الرزاق الصافي ورحيم عجينة وكاظم حبيب وأنا. وقد عملت اللجنة لشهور عديدة وقرأنا ودرسنا مصادر كثيرة ووثائق مختلفة وناقشنا طويلاً. وهذه اللجنة نفسها سافرت إلى موسكو (باستثناء كاظم حبيب لالتزاماته الوظيفية) واستمعت إلى رأي وفد من الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، الذي كان برئاسة الدكتور بلياييف والرفيقين ريزينكوف ونيجكن، بالمشروع وناقشتهم طيلة أربعة أيام وسجلت بذلك محاضر جلسات مفصلة اطلع عليها جميع أعضاء اللجنة المركزية. وكان النقاش ديمقراطياً وشفافاً. وجرى التأكيد باستمرار من قبل الرفاق السوفيت بأننا غير مجبرين على تبني أي رأي غير مقتنعين به وإننا مسؤولون عن سياستنا أولا وأخيراً. ولكن لا أعتقد بأنهم كانوا غافلين عن مدى الضغط المعنوي الذي تشكله آراؤهم على الوفد وعلى اللجنة المركزية.

بعد عودة الوفد تبنت قيادة الحزب موضوعة طريق التطور اللا رأسمالي والذي تحول لاحقاً إلى طريق التوجه الاشتراكي. وشكل المكتب السياسي هيئة مصغرة لدعم الموضوعة من الرفاق نزيهة الدليمي ومهدي الحافظ وأنا. واجتمعت الهيئة ووزعت العمل وكان نصيبي الجانب النظري العام. وهكذا ظهر أول مقال في صحيفة "طريق الشعب" حول الموضوع باسمي (وقد أبلغتنا قيادة البعث استياءها من المقال)، والثاني باسم الدكتورة نزيهة الدليمي، والثالث كتبه الرفيق كريم أحمد عضو المكتب السياسي متطوعاً. واكتفت الهيئة بذلك، وانتهت مهمتها.

كان هناك اتجاهان بين أنصار طريق التطور اللا رأسمالي أو التوجه الاشتراكي في الحركة الشيوعية العالمية، الأول: يرى اشتراك الشيوعيين في قيادته شرط لنجاحه (وكنت مع هذا الاتجاه). والثاني: يرى بأن دور الشيوعيين ممكن أن يقتصر على دعم وتأييد قيادة "الديمقراطيين الثوريين". وكان الاتجاهان المذكوران موجودين

في الحزب الشيوعي العراقي أيضاً الاتجاه الأول مثبت في وثائق المؤتمر الثاني والاتجاه الثاني ضعيف وجد تعبيره في مواقف معينة، والموقف المعارض لحرق كراس نيكتين لم تكن أسبابه تنظيمية بالدرجة الأولى بل فكرية. على أي حال لم تزك الحياة كلا الاتجاهين!

وهكذا فإن مسؤوليتي لا تقل عن مسؤولية إي من المساهمين الرئيسيين في رسم تلك السياسة، والتي أقرت بموافقة جميع أعضاء المكتب السياسي وجميع أعضاء اللجنة المركزية تقريباً، وأقرها المؤتمر الوطني الثالث الذي حضره 300 مندوب منتخب من قبل المنظمات، وتحفظ 33 منهم على موضوعة التطور اللا رأسمالي، وثلاثة تحفظوا على النهج العام لسياسة الحزب، وهم الرفاق نزار ناجي يوسف وبهاء الدين نوري وحاجي سليمان (أبو سيروان). وإذ أشير إلى سعة تأييد الكادر لتلك السياسة فإنني لا أبغي التقليل من مسؤولية المساهمين الرئيسيين في رسمها، ولكن لا أريد إعفاء الآخرين من مسؤولياتهم، لأن ذلك لا ينمي الشعور بالمسؤولية والاستقلالية الفكرية لدى الكادر الحزبي وكل أعضاء الحزب. علماً بأنني على قناعة تامة بأن أصوب سياسة للحزب لم يكن بمقدورها التأثير على مجرى تطور الوضع السياسي في العراق باتجاه منع أو عرقلة تركز وتمركز الدكتاتورية الصدامية، ولكن كان بالإمكان، في حالة انتهاج الحزب سياسة صائبة، أن يكون في وضع أفضل نسبياً لمقاومة النظام، وهذا بحد ذاته أمر لا يستهان به مأخوذاً بعواقبه المستقبلية.

الدروس المستخلصة

تشير تجربتنا في العراق والتجربة العالمية إلى عدم وجود طريق مضمون للتطور الاجتماعي سوى طريق النظام الديمقرطي المؤسساتي، بما يعنيه من إقامة مجتمع مدني ومجلس نواب ودستور دائم والفصل بين السلطات، وإقرار حق تقرير المصير للقوميات، وفصل الدين عن الدولة، وضمان حقوق الإنسان، ومساواة المرأة بالرجل بالحقوق والواجبات ... وإن الكفاح من أجل المزيد والمزيد من العدالة الاجتماعية يمر عبر تحقيق وترسيخ النظام الديمقراطي ومن ثم تطوير الديمقراطية في مختلف نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وصولا إلى الاشتراكية. ولكن لم يكن هذا هو مستوى وعينا، ولا مستوى وعي اليسار العالمي الذي كنا جزءاً منه.

12

القمع الوحشي

تعرض الحزب الشيوعي العراقي إلى حملة قمع وحشية استهدفت تصفيته عام 1978. وأدت الحملة عملياً إلى سحق منظماته في طول البلاد وعرضها خلال

العام المذكور. وتواصلت الحملة بعدئذ مستهدفة إحباط أية محاولة للملمة البقية الباقية والمبعثرة من منظماته هنا وهناك. وقد عايشت تلك الحملة منذ بدايتها حتى نهاية عام 1979. ولي الشرف بأني كنت آخر رفيق من أعضاء اللجنة المركزية بقي في المقر العام من بين 12 رفيقة ورفيقاً مركزياً كانوا يداومون يومياً في المقر. ولي الشرف أيضاً بأني كنت آخر عضو لجنة مركزية غادر العراق من مجموع خمسة وعشرين عضواً أصيلاً، اثنان منهم كانا في الأراضي غير الخاضعة للسلطة في كردستان وأما الآخرون فقد غادروا العراق بقرارات حزبية. أذكر ذلك مضطراً لأن بعض كتاب المذكرات نسوا أو تناسوا ذكر اسمي في مواقع وفعاليات هامة كثيرة ولم أهتم لذلك ولكن ساءني أن تناسوا هذين الموقعين بالذات.

كنا مستهدفين، الرفيق باقر إبراهيم وأنا، بالاسم في المرحلة الأخيرة من بقائنا في العراق. وكانت تهديدات جهاز الأمن تصلنا عبر العناصر التي يطلق سراحها. وكان مما يغيظ السلطات هي النشرات الداخلية والإخبارية التي كنا نعممها والتي تتضمن أخبار حملة التضامن مع حزبنا، وأخبار الاعتقالات التي كنا ندينها وننـدد بها وبالقائمين بها بشدة في تعليقاتنا عليها. وقبل هذا وذاك، فالذي كان يغيظهم أكثر هو مواصلتنا العمل رغم شدة الإرهاب الوحشي. واعتبروا ذلك تحدياً كبيراً لهم ولإرهابهم الفاشي.

وواصل ذلك التحدي من بعدنا شيوعيات وشيوعيون آخرون في مدن وأرياف العراق في المنطقة العربية وفي كردستان ـ الأنصار الشيوعيون، وكثير ممن خرجوا من الباب، ما خرجوا إلا لكي يعودوا من الشباك، بمن فيهم غالبية أعضاء اللجنة المركزية. وضحى المئات من الشيوعيين بحياتهم في سبيل حرية العراق وسعادة شعبه. ويواصل الشيوعيون اليوم أيضاً كفاحهم وتضحياتهم من أجل تلك الأهداف النبيلة، متحدّين أنواع المخاطر والصعوبات مستهدين بمصالح شعبهم ووطنهم، أولاً وقبل كل شيء. وذلك بتكريس جهودهم من أجل تطوير العملية السياسية الجارية في وطننا الحبيب، والتي تستهدف إقامة نظام ديمقراطي اتحادي مستقل.

غداة المؤتمر الثالث

ذكرت في موضوع سابق بأن الانتهاكات وحملات الإرهاب البعثية لم تتوقف ضد الحزب الشيوعي وأعضائه وأنصاره، كانت تضعف أو تتوقف لفترات قصيرة، وكانت تشتد بالارتباط مع أي نجاح يحققه الحزب في تعزيز وتوسيع نفوذه. فبعد فترة قصيرة من المؤتمر الثالث للحزب، المنعقد في أيار 1976، والذي أضفى زخماً قوياً على نشاط الحزب ومكانته وعزز نفوذه، تصاعدت المضايقات والانتهاكات ضد الحزب وأعضائه. وأخذت الخلافات السياسية والفكرية تثار بوتيرة أشد في سكرتارية الجبهة. وقد تعرض الحزب لضغوط كبيرة من قبل البعث لتبني

أو تأييد مواقف أو سياسات تتعارض مع نهجه السياسي، ورفض الحزب ذلك ورفض إصدار أي بيان باسم الجبهة يتعرض لمبادئه وعلاقاته بحركة التحرر الوطني العربية أو بعلاقات الحزب الأممية. فعلى سبيل المثال، رفض طلبهم بوصف النظام السوري بالعميل. ورفض طلبهم بالتهجم على منظمة التحرير الفلسطينية وياسر عرفات عندما اختلف البعث معهما. وقاوم الحزب ضغوطهم من أجل تغيير موقف الحزب من القضية الفلسطينية. ورفض طلبهم بعدم ذكر اسم الحزب الشيوعي الإسرائيلي في صحافة الحزب.

رد فعل البعث على تقرير اللجنة المركزية في آذار 1978

كان على اللجنة المركزية أن تدرس تدهور الأوضاع وقد قامت بذلك، ولو أن ذلك جاء متأخراً، ففي اجتماعها الكامل المنعقد في آذار 1978. وضعت اللجنة المركزية النقاط على الحروف في أهم القضايا الملتهبة، واقترحت المعالجات الضرورية بما في ذلك المطالبة بإنهاء فترة الانتقال وإجراء انتخابات لجمعية تأسيسية تضع دستوراً دائماً للبلاد.

كان رد فعل البعث عنيفاً على تقرير اللجنة المركزية، بالرغم من أن معالجاته كانت في إطار ما سمي خطأ بالحلقة المركزية ـ الجبهة الوطنية والقومية التقدمية. وجند حزب البعث صحيفة "الراصد" للتهجم على التقرير سياسياً وفكرياً. وظل يطالب الحزب بسحبه والتراجع عنه. إلا أن طلب حزب البعث جوبه بالرفض المطلق. وهذا دليل قاطع على خطأ الادعاء القائل بأن الحزب الشيوعي العراقي كان يمكن أن يسير مئة سنة وراء النظام البعثي لو ترك النظام الشيوعيين على ما كانوا عليه، بل ويمكن اعتبار مثل هذه الإدعاءات مجرد تخرصات حاقدة على الحزب [34].

وجاء وصول الشيوعيين الأفغان إلى السلطة في نيسان، مدعومين من السوفيت، ليثير الهلع في قلوب البعثيين. فدعوا في صحيفة "الثورة" إلى الحيطة والحذر من تكرار ذلك في أماكن أخرى، ويقصدون بذلك العراق.

***

كانت سياسة البعث، قبل قيام الجبهة وبعدها، قائمة على إبقاء الحزب الشيوعي العراقي في دائرة محددة والسعي إلى إعادته إلى هذه الدائرة كلما خرج منها. وقد رسم طه الجزراوي بيده دائرة على ورقة ليوضح مقصدهم للرفيقين عامر عبد الله ورحيم عجينة وذلك في وقت مبكر، وتحديداً عقب الهجوم على عمال الزيوت النباتية والتجمع الجماهيري في ساحة السباع في بغداد في تشرين الثاني 1968.

[34] ـ مذكرات بهاء الدين نوري، ص 466.

أما بعد عشر سنوات من التاريخ المذكور، فقد تحولت تلك السياسة إلى نهج التخلص من الحزب الشيوعي، أما بإخراجه من الساحة كلياً أو تحويله إلى حزب كارتوني لا حول له ولا قوة ينفذ ما تطلبه منه سلطة البعث إرضاء للرجعية العربية، وخاصة العربية السعودية وإرضاء للغرب، وخاصة أمريكا. وقد أشار المخلوع صدام حسين عن الوجهة السياسية الجديدة في أحد اجتماعات اللجنة العليا للجبهة آنذاك بقوله : "إن تحالفهم مع الحزب الشيوعي العراقي لا يشكل قوة لهم وإنما يشكل عبئاً عليهم، فدول المنطقة والدول الغربية غير مرتاحة من هذا التحالف" [35]. فلا غرو من أن يحمل عزة الدوري معه 500 نسخة من صحيفة "الراصد"، أخذها من المطبعة بنفسه، عند سفره إلى السعودية عربوناً للحلفاء الجدد. وقد وصلتنا في حينها رسالة تتضمن الخبر المذكور من عامل يعمل في المطبعة التي طبعت الصحيفة المذكورة.

نعود إلى رد فعل البعث على تقرير اللجنة المركزية في آذار وعلى الانقلاب في أفغانستان. فقد اعتقلت سلطة البعث المجرمة وقدمت للمحاكمة عدداً من الرفاق وأصدقاء الحزب العسكريين والعاملين في القوات المسلحة بتهمة التآمر على نظام الحكم وحكمتهم بالإعدام، ونفذ حكم الإعدام بواحد وعشرين منهم في 18 و 19 أيار 1958، بينهم سهيل شرهان وبشار رشيد. وبعد وصول برقيات المطالبة بإيقاف الإعدامات من برجنيف وغيره من رؤساء الدول الاشتراكية، أعدم عشرة رفاق آخرين في 27 و 28 و 29 أيار!

عقد اجتماع طارئ للجنة المركزية في 28 أيار 1978، وترأس الاجتماع الرفيق زكي خيري لغياب الرفيق عزيز محمد خارج البلد. لم يكن تدهور الوضع السياسي والجهة التي تتحمل مسؤوليته وهو حزب البعث محل نقاش، ماعدا صوت خافت يحمل الحزب قسطاً من المسؤولية جراء محتويات تقرير اللجنة المركزية في آذار. ولم يكن هناك خلاف على ضرورة اتخاذ تدابير الصيانة. وكان هناك رأي غالب يدعو إلى السعي لإيقاف التدهور في الوضع بخلفيتين مختلفتين، واحدة تدعو لذلك لكسب الوقت وللتغطية على تدابير الصيانة، والأخرى تأمل بعودة المياه إلى مجاريها مع البعث. ولم أكن مع القسم الأخير. ولم يصدر من الاجتماع أي بيان. وفي حزيران عقد ثاني اجتماع طارئ للجنة المركزية لم يختلف في نتائجه عن الأول، سوى أن صوت المطالبة بالإسراع في اتخاذ تدابير الصيانة والرد على حملة البعث الإعلامية كان أقوى.

من القضم التدريجي إلى الانقضاض العام

---

[35] - أنظر د. رحيم عجينة، الاختيار المتجدد، ص 97 و 134.

تولى المكتب السياسي وضع خطة لتدابير الصيانة. عَرفت لاحقاً أن أهم ما فيها تشكيل قيادة ظل من الرفاق عمر على الشيخ عضو المكتب السياسي مسؤولاً وعضوية الرفيق سليمان يوسف عضو اللجنة المركزية و عائدة ياسين العضو المرشح للجنة المركزية. وربطت بهم منظمات وكوادر وهُيئت لهم أجهزة طباعة. وتقرر فرز التنظيمات والرفاق المكشوفين وربطهم بالرفاق العلنيين، واعتماد اللامركزية في العلاقات التنظيمية. وتقرر كذلك انتقال ثلث أعضاء اللجنة المركزية إلى الخارج. ووزعت سكرتارية اللجنة المركزية (سلم) باقتراح من لجنة التنظيم المركزية (لتم) مبالغ من المال على شبكة واسعة من الكادر وإخفاء مبالغ أخرى في أماكن مختلفة ظلت تحت سيطرة المكتب السياسي حتى بعد خروجنا من العراق.

وبغياب سكرتير اللجنة المركزية الرفيق عزيز محمد، وبغياب مساعده الرفيق باقر إبراهيم، عقد القائم بأعمالهما في سكرتارية اللجنة المركزية الرفيق عمر علي الشيخ اجتماعاً لها ، ولم يكن قد بقي أحد من أعضائها سوى ماجد عبد الرضا وأنا، لدراسة تدابير الصيانة. فقدمنا قائمة طويلة من المقترحات، عرفنا فيما بعد بأن المكتب السياسي شطب حوالي 40% منها بدعوى أنها تخلق تطيراً في المنظمات.

تراجع غير منظم

بعد فترة اكتشف البعث بأن الحزب يعتزم التحول إلى العمل السري. فقد كانت بعض التدابير، مثل نقل أجهزة الطباعة، تتم في المقرات العلنية التي تخضع لمراقبة متنوعة مثل الإنصات والكاميرات الخفية. فغيرت السلطة خطتها من القضم التدريجي بالحواشي والأطراف وبالمنظمات الأبعد كالبصرة والمحافظات الجنوبية إلى الانقضاض على جميع المقرات وقيادات المنظمات. وشملت الاعتقالات أعضاء وأعضاء مرشحين للجنة المركزية مثل عادل حبه وكاظم حبيب وفخري كريم ومحمد جواد طعمة (أبو زيتون) وتعرض بعضهم للاعتداء. واعتقل لاحقاً الرفيق ماجد عبد الرضا عضو سكرتارية اللجنة المركزية.

واتبع نظام البعث مختلف الأساليب الدنيئة والوحشية لتغيير معتقدات المناضلين السياسية والفكرية وانتزعت في تلك الأجواء الإرهابية الفظيعة تواقيع الألوف من المناضلين على تعهد لا مثيل له في التاريخ، يؤدي بموقعه إلى الإعدام إذا ما عاود نشاطه السياسي السابق. وهكذا فقد تجاوزت الأحداث خطة المكتب السياسي لتدابير الصيانة وصرنا أمام واقع جديد، ألا وهو التراجع غير المنظم في إطار رؤية غير واضحة سياسياً، وتبعاً لذلك غير واضحة تنظيمياً. وأصبحت المهمة هي محاولة إضفاء بعض التنظيم على التراجع. واعتمدت تنفيذ هذه المهمة على الكادر المتطوع لها. وكنت أحدهم فتقرر بقائي في المقر العام كآخر رفيق مركزي.

***

في بداية تشرين الأول أخبرتني ابنتي شروق، وكانت في الصف الثاني المتوسط، بأن رئيسة الاتحاد الوطني لطلبة العراق في مدرستهم قد استدعتها وقالت لها: "إنك الوحيدة التي لم تنتم للاتحاد ، ويجب أن تنتمي"!
-"أنا لا أنتمي للاتحاد، إن والدي عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، وخالي استشهد تحت التعذيب بيد حزب البعث". أجابت شروق، ما لقنته أمها لها لمثل هذه الحالة، وهي ترتجف من الخوف.
- "احنا نعرف ... نعرف كل شيء عن أبوك، سأعطيك فرصة أسبوعين للتفكير".

ذهبت، قبل انتهاء المهلة، إلى المدرسة والتقيت برئيسة الاتحاد وبعد مناقشة قصيرة أخبرتها بأني ولي أمر شروق ولا أوافق على انتمائها لمنظمتهم. نظرت إلي نظرة وعيد، وانتهى اللقاء. لم تعد رئيسة الاتحاد تضايق شروق، ولكن شروق كانت تشكو لي من عزلتها في المدرسة فخفت عليها أن تتعقد. استفسرت من الرفيق حميد بخش (أبو زكي)، الذي كان قد أرسل زوجته البلغارية وطفليه تواً إلى بلغاريا، وكان عضواً في لجنة التنظيم المركزية وأنا مسؤولها، عن مدى إمكانية الدراسة لأعمار مثل سن شروق في بلغاريا، فأجابني:

- أبو شروق الحجي بيناتنا، لأن أخاف يسمعوني ويعتبروني متطير، البعث ما راح يخلي لا شروق ولا أم شروق ولا أخو شروق ولا عائلة أي كادر حزبي، يجب التهيؤ لإخراج الجميع إلى خارج البلاد".
- هيجي تشوف؟.
- بالضبط.

وكما أشرت آنفاً فقد رفضت، بعض مقترحات (سلم) واعتبرت تطيراً، من قبل المكتب السياسي وكانت أخف بكثير من مقترح أبو زكي.

وعندما أستحضر الآن أجواء بداية تشرين الأول 1978، أرى بان تعميم مقترح أبو زكي كان من شأنه أن يخلق الرعب في أوساط البقية الباقية من الكوادر والتنظيمات. ولا يساعد على إضفاء بعض التنظيم على التراجع غير المنظم. وفي نفس الوقت كان رأي أبو زكي صحيحاً وبالتالي يجب اتخاذ التدابير الضرورية له. كنا في مأزق حقيقي. وهذا مثل واحد على المأزق الذي كنا فيه عند تصدينا لمعالجة تدابير الصيانة في تلك الفترة. هذا على صعيد الموقف العام. أما على صعيد الموقف الشخصي فقد كنت مقتنعاً برأي أبو زكي فطلبت من أم شروق أن تجدد جواز سفرها وجوازات الأبناء في أول فرصة. وكانت الجوازات تجدد في بداية السنة، فجددتها في اليوم الثاني من سنة 1979، وأمنتها خارج البيت في مكان لا يمكن أن تطالها يد.

***

ربطت بي بضعة خطوط تنظيمية وبعض الكوادر شبه المكشوفة، عزلت من تنظيمات بغداد. كنت أتابعها خارج المقر. وارتبط بي محسن عليوي (أبو عليوي) عضو لجنة المنطقة الوسطى وكانت ترتبط به جمهرة من الكوادر والرفاق من البصرة والناصرية وديالى. وارتبط بي كذلك الرفيق إدريس عبد الله، العضو المرشح للجنة المنطقة الجنوبية، وكانت معه جمهرة من الكوادر والأعضاء وكان الجميع يدبرون أمور سكناهم بأنفسهم.

***

في تشرين الثاني 1978، أي في ذروة الحملة الوحشية كان لدى الرفيق مهدي الحافظ موعداً مع نعيم حداد. التقيته، قادماً من اللقاء، في حديقة المقر. وقد أخبرني بأنه كان بصدد تقديم مناشدة لقيادة البعث لإيقاف الحملة. إلا أن نعيم أخبره أن لا فائدة من ذلك فكل شيء منتهي ومقرر، أي لا تراجع عن تصفية الحزب. منذ ذلك التاريخ تحكمت هذه الحقيقة في تصرفاتي فكنت مع خروج من يريد السفر خارج البلاد أو من هو غير ملائم لسبب من الأسباب للعمل السري، ومع بقاء الرفاق المتحمسين للبقاء والملائمين للعمل السري بهدف تأسيس منظمات وبيوت سرية. وكانت هناك شكوى من الهجرة الجماعية ومحاولة إيقافها أو الحد منها ولكن دون جدوى، لعدم توفر ما يسند تلك المحاولات. ولم يكن هناك خلاف على إخراج أكبر عدد من الصحفيين والأدباء والفنانين والكوادر العلمية، خاصة وأنهم لا يحتاجون إلى مساعدة في سفرهم، وبإمكان العديد منهم تدبير أموره المعاشية في الخارج.

لقطات من نهاية عام 1978

* كانت إحدى الخطوط التي تتصل بي يقودها الرفيق الدكتور أبو نوال، خبير بيئي وموظف في الدولة، ومعه مجموعة بينهم كوادر علمية وفنانون على اتصال فردي معه. عرفت أن بإمكانه السفر موفداً بمهمة خارج البلاد. طلبت منه أن يسافر ولا يعود إن أمكنه ذلك، سألني:

- وجماعتي إشلون، بيمن يرتبطون؟

- أتركهم وأطلب منهم ما يتصلون بأحد.
- زين وإذا تأخرت شنو مصيرهم؟ استفسر مندهشاً.
- شوف رفيق أبو نوال إذا توقفت الحملة ترجع وتتصل بيهم، وإذا ما توقفت لابد وأنهم سيتعرضون للاعتقال. فالأفضل أن نجنبهم هذا المصير. وبإمكانهم أن يتابعوا بهذا الشكل أو ذاك أخبار الحزب. وإذا أعيد بناء التنظيمات فسيجدون طريقهم إليها.

لم يقتنع الرفيق تماماً ولكنه نفذ التوجيه. التقيته بعد حوالي تسع سنوات في صوفيا وأخبرني بأنه على صلة بجماعته ويتراسل معهم. وثمن عالياً الإجراء الذي اتفقنا عليه والذي كان خرقاً لتقاليد العمل الحزبى في كل الظروف والأحوال، إلا في تلك الظروف الشاذة بالذات. وقد سلمهم في بداية التسعينيات إلى قيادة الحزب.

* أعتقل المحامي حسيب الساقي (أبو حمدان) الذي كان يتابع الأمور التي تتطلب مراجعة الدوائر الرسمية والسفارات في تلك الفترة. وأجبره المجرمون على إعطاء تعهد. ذات ليلة ، كنت جالساً مع عائلتي كالعادة في صالون البيت، سمعت نقرات خفيفة على زجاج النافذة فاستدرت وإذا بي أشاهد الرفيق أبو حمدان. استقبلته بـ(يفداك من راعك)، واختليت به في غرفة الضيوف. اعتذرالرفيق لعدم تحمله التعذيب وأكد بأن التعذيب لا يمكن أن يغير أفكاره ومعتقداته الفلسفية والسياسية. وكانت عيون الرجل مغرورقة بالدموع . كان أبو حمدان متوسط القامة ضئيل الحجم، عمره يناهز الخمسين عاماً. كان ينجز أعماله المتنوعة بدقة وهدوء وبدون أي تبجح. دمث الأخلاق، نزيه، الجميع يحترمونه.

تأثرت بموقفه. كان بودي أن أقول له: إننا لا زلنا نعتبرك عضواً في الحزب. ولكن لم يكن من الصحيح قول ذلك، لأننا كنا نعتبر من يعطي تعهداً مستقيلاً من الحزب. فقلت له: " أبو حمدان نحن نعتبرك على ملاكنا، وبإمكانك أن تتصرف من هذا المنطلق، ولكن بشكل ملائم وبدون أن تعرض نفسك إلى أية مضايقة. وأرجو أن لا تتصل بأحد". وشاع تطبيق عبارة "نعتبرك على ملاكنا" آنذاك على الحالات المماثلة.

* سبق وأن جاءنا الفقيد معن جواد، عضو منطقة الفرات الأوسط وممثلنا في لجنة الجبهة في محافظة بابل، إلى المقر العام وأخبرني بأن مدير الأمن في المحافظة، والذي هو في نفس الوقت ممثل البعث في لجنة الجبهة، طلب منه التعاون معهم كمندس في حزبنا (خط مايل)، وفي هذه الحالة سيحافظ على وضعه الوظيفي ولا يمسه أحد بسوء، أو أن يوقع التعهد سيء الصيت. لقد طلبنا منه ترك المحافظة والاختفاء في بغداد. عاد في كانون الثاني 1979، ليخبرني بأنه القي القبض عليه في بغداد، وعصبوا عينيه ووضعوه في شِوال (كونية) وأخذوه إلى مكان يجهله. وعندما أزالوا العصابة من على عينيه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام "زميله" عضو لجنة الجبهة مدير أمن محافظة بابل نفسه. فوضع الأخير الخيار السابق أمامه وطلب منه الاختيار فوراً، وسوف لن يعطيه فرصة أخرى للهرب. فطلب الرفيق معن منه مهلة لثلاثة أيام للتفكير بالأمر، ومنح ذلك بشرط أن لا يخرج من البيت ويكون بيته في المحاويل تحت المراقبة. فاستغفلهم وتسلل من البيت في جنح الظلام وجاء وعرض الأمر علي . فسألته:

- هل أنت مستعد للسفر غداً؟.
- اندهش وأجاب: طبعاً ... طبعاً.
- السفرة بيه مشي هوايه، بيك حيل؟
- "ولا يهمك شكد ما جان بس أخلص من هالورطة".

أخبرته بأن السفرة ستكون إلي الكويت ولدينا هناك محطة تساعده للانتقال إلى بلد آخر. ولا يمكن أن يحمل معه أكثر من كيس نايلون لقليل من الملابس الداخلية ...الخ. ألحقته بوجبة كانت مهيأة للسفر. كانت عناوين الخارج محصورة عندي عندما كنا في المقر العام وكنت أزود المهاجرين برسالة لتلك العناوين ومن خلال ذلك تعرفت على إمكانية تهريب بعض المناضلين إلي الكويت. وكنت أستخدمه للضرورات.

وقد وصل معن سالماً إلى الكويت ومنها إلى لبنان. لم أعرف بأن عملي ذاك كان بمثابة ضربة موجعة للبعث، لإخراجي لقمة دسمة من فمهم كانوا بصدد بلعها حسب تصوراتهم الشريرة، إلا بعد أن اطلعت في الشام عام 1980 على كتيب صادر من أجهزة البعث الأمنية يشير إلى تهريبي معن جواد، ويتهجم علي تهجماً عنيفاً ويلفق تهماً دنيئة ضدي لا تليق إلا بكاتب الكتاب وحزبه، حزب البعث المجرم. وعندما لاحظ الرفيق باقر إبراهيم انزعاجي الشديد من ذلك، لفت انتباهي إلى أن الهدف من كتابة مثل هذه التلفيقات هو تحديداً لإضعاف معنويات المناضلين، ولم يفتني ذلك، ولكني تأثرت مؤقتاً، لأنني أعرف، كأي مناضل واعٍ، بأنهم يستهدفون إضعاف معنوياتي بتلك التهم الدنيئة، لذلك دست عليها بحذائي وواصلت المسير بمعنويات أعلى.

الأيام الأخيرة للمقر العام

بقي الرفيق حميد بخش (أبو زكي) معي عندما بقيت وحدي، كرفيق مركزي في المقر. وكانت إحدى المهمات الملقاة على عاتقنا هي إخراج بقايا أرشيف الحزب من المقر وإرساله إلى خارج البلد. وقد تمكن أبو زكي إنجاز هذه المهمة بنجاح رغم الظروف الصعبة التي كانت تحيط بالمقر. كان عليه أن يخرج المواد من المقر الخاضع للرقابة ويسلمها إلى موظف يعمل في السفارة البلغارية. وبعد أن أنهى مهمته توادعنا وسافر ليلتحق بعائلته ويواصل دراسته. لقد كان أبو زكي باسلاً كما هي عادته وخاصة في المحن والظروف الصعبة.

في بداية شباط 1979 كنت خارجاً من المقر متجهاً إلى البيت بسيارة المقر وكان يسوقها الرفيق عقيل الذي لاحظ سيارة أمن تتابعنا. طلبت منه مراوغتها والتخلص من متابعتها قبل إيصالي إلى البيت. وضيعناها فعلاً ولكن بعد أن ترجلت وانطلق عقيل وسار مسافة لا بأس بها، تمكنت سيارة الأمن من العثور عليه، وضاعت

علينا أخباره وأخبار سيارة المقر أيضاً. على أثر هذا الحادث قررت الإقامة في المقر لبضعة أيام لإنجاز بعض الأعمال قبل نقل مكان عملي إلى مقر صحيفة "طريق الشعب" أبقيت في المقر الرفيق أبو سمرة (استشهد في كردستان) ومعه رفيق آخر. وطلبت من الرفيق بوتان كريم أحمد (استشهد في كردستان أيضاً) الانتقال معي إلى مقر الجريدة.

أبواب المقر في أيامه الأخيرة كانت مغلقة، وكان الرفيق الوحيد الذي يخرج لشراء بعض الحاجيات هو كواش خدر (أبو سمرة) الذي أبدى استعداده للبقاء كآخر رفيق في المقر وكان له ذلك. أبو سمرة رفيق باسل بكل معنى الكلمة ومحبوب من قبل الجميع، ينجز مهامه بدقة وهدوء. كان يعمل حارسا في المقر، وفي الفترة الأخيرة أصبح المسؤول الأول عن إدارة شؤون المقر. بقي على اتصال بي في الجريدة لبضعة أيام لحين استلام السلطات الأسلحة النارية الخفيفة المعارة لنا لحراسة المقر، وبحضور الرفيق عبد الرزاق الصافي. أغلق أبو سمرة المقر وسلمني المفتاح وسافر مع رفيق له إلى كردستان. استشهد الرفيق في قرية سماقولي، وهو في طريقه للالتحاق بقاعدتنا في بهدنان، جراء هجوم طائرتي هليكوبتر على القرية المذكورة.

بوتان كريم أحمد التحق للعمل في المقر في الظروف الصعبة. وبالارتباط مع خطة سحب العاملين المجربين في جهاز المقر للطباعة إلى الاختفاء، تعلم بوتان الضرب على آلة الطابعة وكذلك استخدام الرونيو وبسرعة. وصمم على البقاء معنا إلى آخر أيام المقر. ولم يكتف بذلك، بل وأبدى استعداده للانتقال معي إلى الجريدة لمساعدتي في أمور الطباعة، وكان له ذلك. كان بوتان شجاعاً، وجديا، يعمل بدون كلل وبلا ضجيج، وكان دقيقاً في عمله. وقد بقي معي في الجريدة إلى أن أوعزت له بالسفر إلى كردستان.

الرفيق بوتان كريم أحمد

لم ينقطع الرفيق الصافي عن المقر فقد كان يزورنا بوتيرة متقاربة. وذات يوم في بداية شباط خرجت معه إلى مقر الجريدة وبعد الدوام أوصلتني سيارة الجريدة للبيت.

في الجريدة

أصبح دوامي في الجريدة بعد خروجي من المقر. كنت مرجعاً للشؤون التنظيمية وعضواً في هيئة تحرير الجريدة أساهم في مناقشة المقالات السياسية الهامة وأطلع على المقالات الافتتاحية، وقد شاركت الصافي مكتبه.

كانت لدي توصية حزبية منذ أن كنت في المقر بأن أختفي، مجرد شعوري بخطورة مباشرة. وذات يوم ذهبنا، ماجد عبد الرضا والصافي وأنا، لحضور تعزية. بعد خروجنا تابعتنا سيارة أمن حتى وصولي إلى البيت. في اليوم التالي قرأت في نشرة محدودة التوزيع (توزع على الوزراء وكبار المسؤولين في الدولة) خبراً يفيد بأن جاسم الحلوائي نشر مقالاً في جريدة "الاتحاد" الإسرائيلية حول المسألة الزراعية والحركة الفلاحية. وحقيقة الأمر هو إن مجلة الحركة الشيوعية العالمية "قضايا السلم والاشتراكية" قد نشرت لي المقال المذكور ونشرته جريدة "الاتحاد" لسان

حال الحزب الشيوعي الإسرائيلي، دون الإشارة إلى المصدر. اعتبرت نشر الخبر إنذاراً فقررت الاختفاء تحوطاً.

كنت أتصور بأن الذين اختفوا قبلي قد أسسوا بيوتا حزبية وسأجد مكاناً جاهزاً لي ما أن أختفي. فقد كانت مبالغ محترمة تحت تصرفهم، وهناك عوائل كثيرة يعتمد عليها وفي متناول اليد مهاجرة من المحافظات الجنوبية إلى بغداد. لكني فوجئت بأن تصوراتي لم تكن في محلها، فمرجعي الحزبي الرفيق باقر إبراهيم لم يكن لديه مكان ثابت فهو يتنقل بين بضعة بيوت عادية ويعتقد أن لا جدوى من تأسيس بيوت حزبية. وربما كان يعتبر بأن ذلك من مهام قيادة الظل التي عُزلنا، هو وأنا عنها. وأخبرني بأنهما، هو وخضير عباس، سيغادران العراق وسأكون معهما. كتبت في اليوم التالي رسالة لأم شروق أخبرها بالأمر. وقبل إرسال الرسالة صدر عفو عام عن المعتقلين فتوقفت الحملة الإرهابية نسبياً وتأجلت السفرة إلى أجل غير مسمى. وتقرر أن أزاوج بين الاختفاء والعلن فكنت أداوم في الجريدة لبضعة أيام في الأسبوع وأختفي بضعة أيام أخرى.

بعد خراب البصرة!

في هذه الفترة، أي في شباط 1979، وبعد خراب البصرة، فوتح الحزب بإعادة التحالف. كانت الخطوة مناورة بعثية تستهدف الحط من سمعة الحزب السياسية وتحويله إلى حزب كارتوني أو حزب ضئيل الحجم والقوة والنفوذ. لذلك فإن الاعتقاد بإمكانية إعادة التحالف كان يعني القبول بالمصير المذكور. أما فكرة الاستفادة من عرض البعث لتخفيف الضغط علينا فقد رفضت باعتبارها غطاء لتمرير سياسة إعادة التحالف. وإذا لم تكن كذلك وكانت مجرد مناورة فإن عمرها قصير، والرابح فيها، في المحصلة النهائية، السلطة البعثية، لانعدام توازن القوى. كان رأيي هو أن نشترط ، أولا وقبل كل شيء، إلغاء التعهدات التي أجبر المواطنون على التوقيع عليها وإلغاء المادة 200 التي بموجبها سيعدمون، إذا ما عاودوا نشاطهم السياسي السابق. كان يُنظر إلى هذا الشرط باعتباره شرطاً تعجيزياً، وكنت أعرف ذلك، ولكنه كان أيضاً منطقياً، وإلا فكيف نعمل مع شخص مهدد بالإعدام؟ ويبدو لي بأن المتتبعين لتاريخ الحزب الشيوعي العراقي لا يعرفون الكثير عما جرى في التاريخ المذكور، لذلك سأتوقف عنده.

في شباط المذكور أرسل صدام حسين بطلب الرفيق مكرم الطالباني العضو المرشح للجنة المركزية وأهم ما قاله له: " ناقشنا في القيادة عودة التحالف مع الحزب الشيوعي وإن الرفاق في القيادة يعتقدون بعدم إمكانية تحقيق ذلك، وقد اختلفت معهم لأني أعتقد خلاف ذلك ..." وطلب صدام عرض الموضوع على قيادة الحزب. وقد وعده مكرم بذلك.

عقد اجتماعان للرفاق المركزيين في الداخل حضرهما كل من مكرم الطالباني وسلام الناصري وماجد عبد الرضا وعبد الرزاق الصافي وباقر إبراهيم وكان الأخير هو المسؤول الأول في الداخل، وأستثنيت لأسباب الصيانة! ولأن مركز ثقل القيادة كان في الخارج، فقد تقرر إرسال عبد الرزاق الصافي إلى الخارج لعرض الطلب على قيادة الحزب. وقد عاد الصافي بمذكرة تتضمن شروطاً، كانت من وجهة نظر حزب البعث تعجيزية. فقد جاء في مذكرة القيادة القطرية الجوابية المؤرخة في 8 آذار ما يلي: "أنكم رحتم تسطرون (شروطاً) تعرفون حق المعرفة بأنكم لا تملكون أي أساس مادي وعضوي لفرضها على أرض الواقع" [36]

كنت آنئذ أداوم في مقر الجريدة. وقد ناقشت الرفيق مكرم الذي كان متجاوباً مع عرض البعث، ولاحظت بأن الرفيق لا يعرف أو لا يريد أن يعرف ما حل حقيقة بالحزب وخاصة منظمات الحزب التي تعرضت للتحطيم في طول البلاد وعرضها. و قد برر تجاوبه بوعود وأقوال صدام فقط. وشعرت بأن مكرم لم يكن يرى بديلاً مجدياً آخر آنذاك.

كنت أزاوج في تلك الفترة بين العمل في الخفاء والعلن. كانت فترة صعبة جداً بالنسبة لي شخصياً. فالقسم العلني هو مؤسسة إعلامية تعمل تحت بصر وسمع حزب البعث وجهاز أمنه، والقسم الآخر هو المركز القيادي الوحيد الباقي في الداخل. كنت حريصاً جداً على أن لا أكون سبباً في حصول كارثة. كنت أناور وأعاني كثيراً لكي أطمئن بأني غير متابع كي أختفي. وفي هذه الفترة بالذات أصبت بداء الذبحة الصدرية، وكانت تلك مقدمة للجلطة القلبية التي أصبت بها وأنا في إيران بعد سبع سنوات.

لقطات في الجريدة

رغم المدة القصيرة التي قضيتها في الجريدة، فهي لا تتجاوز الشهر، فقد علقت بذاكرتي بعض اللقطات وهي:

* أم سليم، ربة بيت، زوجة الرفيق كريم أحمد الداود عضو المكتب السياسي، عمرها حوالي الخمسين عاما، متوسطة القامة، متينة البنية، بيضاء اللون. ما أن تبدأ بالكلام حتى يحمر وجهها. لديها خمسة أبناء، بنتان وثلاثة أولاد، ثاني أولادها بوتان الذي انتقل من المقر إلى الجريدة معي، كما مر ذكره آنفاً. أم سليم كانت الشخص الوحيد الذي يزورنا في المقر العام، عندما كنا "محاصرين" فيه لتطمئن على بوتان. وقد جلبت لنا في أحدى المرات (دولمة). طلبت منها عدم المجيء إلى المقر حرصاً على سلامتها وقد رفضت طلبي بحسم، تراجعت أمام رفضها ولم أكن

[36] - باقر إبراهيم. مصدر سابق، ص 167

أتراجع أمام غيرها فتلك كانت مسؤوليتي وقراري. ولكن وجدت أن ليس من حقي منعها فهي أم.

جاءتني أم سليم ذات يوم إلى الجريدة. جلست أمامي. كانت متوترة ومحمّرة الوجه سألتني بعصبية وبنبرة وكأن لديها دين بذمتي:

- إنت ليش متنطيني شغل؟ آني شنو هيج كاعدة بالبيت كلشي ما أسوي؟.
- أم سليم، شنو الشغلة اللي تكدرين إتسويها؟.
- آني كلشي أكدر أسوي، آني ما أخاف (وبتوتر أعلى وبعصبية أشد). إنطيني رفاق وآني أوصلهم إلى كردستان.

أم سليم لم تعد تطيق توديع ابنها بوتان عند خروجه من البيت صباحاً وبقاءها في البيت غير متأكدة من عودته. إنها تريد القيام بعمل ما يخدم قضية ابنها ولا يقل خطورة على حياتها من الخطورة التي يمكن أن تتعرض له حياته. تصورت وهي تتكلم، بأن هناك أم ترى ابنها محاطاً بالنار فلا طاقة لها لمشاهدة المنظر بدون تقديم يد المساعدة، وحتى إذا تطلب منها ذلك أن تقتحم النار بنفسها.
- زين... كلش زين أم سليم، بس نحتاجج أخبرج.

صورة أم سليم وكلامها، بمصداقيتهما وعنفوانها ظلا عالقين في ذاكرتي كإحدى تجليات عاطفة الأمومة المقدسة. لم أكن أشك بإمكانية أم سليم على إيصال رفاق إلى كردستان فهي لديها علاقات جيدة بالأحزاب الكردية. ويمكن أن تستفيد من ذلك. وقد فاتحت ثلاثة رفاق، ثلاثتهم رفضوا السفر إلى كردستان مبدئياً، وقبل أن يعرفوا أية تفاصيل. وهم كل من سلام الناصري ومحمد كريم فتح الله وماجد عبد الرضا.

أم سليم زوجة الرفيق كريم أحمد

*** ذات يوم وجدت أبو حمدان في مكاتب صحيفة "طريق الشعب" فوجئت بوجوده واستفسرت منه:**

ـ ها أبو حمدان شتسوي هنا؟.
ـ أدقق بعض الأوراق.
ـ مو كتلك لا تتصل بأحد؟.
ـ مو أبو مخلص كلفني!.
ـ أرجوك هسه تطلع، وأرجوك متقبل أي تكليف بالمستقبل من أي أحد. آني راح أوضح الموضوع للرفيق أبو مخلص.
ـ كيفك رفيق! قال ذلك وخرج.

عرفت من أبي مخلص بأنه فهم من حديثي له حول لقائي بأبي حمدان، والذي مر ذكره، بأني أريد إخباره بأن الرجل مزكى، فاستند إلى ذلك لتكليفه بمهمة تقع ضمن اختصاصاته، في أجواء العفو العام.

* في مقر الجريدة بالتأكيد، ولكن قبل أم بعد العفو العام، هذا ما لا أتذكره، لاحظت أحد الرفاق من كوادر الحزب يروي لعدد من الرفاق المسؤولين في أحد مكاتب الجريدة حكاية والآخرون يصغون له باهتمام. شاهدت ذلك وأنا مار من أمام باب المكتب المذكور، فسلمت عليهم. كان المفترض في هذه الحالة أن يدعوني الراوي للجلوس لسماع الحكاية، إلا أن شيئاً من هذا القبيل لم يحصل. فتوجست خيفة. عندما خرج الرفاق عرفت بأن الكادر المذكور كان قد أستدعي للأمن العام. ولأن من واجبي أن أعرف مواقف الرفاق، دخلت على الرفيق وقلت له: "يفداك من راعك". فروى لي قصة استدعائه من قبل الجلادين في الأمن ... وكيف أنه قال لهم: "إنني رجل علم وهاي رگبتي مثل الشعرة گدامكم إذا جنت أكذب عليكم. وحني كتفه ومد عنقه إلى الأمام ممثلاً الحركة التي قام بها في الأمن. وأنهم طلبوا منه أن يكتب لهم بحوثاً في مجال اختصاصه يحتاجونها. فوقع لهم تعهداً بذلك. بعد أن أنهى كلامه قلت له: "رفيقي العزيز أبو ... كيف تبيح لنفسك وأنت رجل علم ورفيق متقدم في الحزب الشيوعي العراقي ولديك تجربة كبيرة في المعتقلات والسجون أن تتحدث بهذا الأسلوب أمام الجلادين؟ لماذا تحني رقبتك أمامهم؟ من الذي قال لك بأننا يجب أن نقول الصدق أمام هؤلاء؟ وكيف توقع تعهداً للأمن بمساعدتهم حتى ولو كان ذلك في اختصاصك؟"

ـ ولكن ألم يلق الرفيق د. كاظم حبيب محاضرات في الأمن في ميدان اختصاصه؟
ـ صحيح، لقد جرى ذلك، ولكن بموافقة المكتب السياسي، وفي ظروف أخرى غير هذه الظروف ، التي حطموا لنا فيها جميع تنظيمات الحزب. وتعهدك سيكون الخطوة الأولى، ولن يتركوك وفي آخر المطاف سيطلبون منك تنفيذ كل ما يرغبون..
ـ وما العمل؟.
ـ تگدر تسافر للخارج؟
ـ لو أريد أسافر باچر أگدر أسافر، عندي قريب بالكويت أگدر أكلفه يسوي لي دعوة، وفوراً راح يسويها.
ـ سافر بأسرع وقت. والأفضل تسافر وعائلتك وياك حتى لتتعرض للمضايقات من بعدك.

كان الرفيق حريصاً أن لا ينزلق المنزلق الذي حذرته منه، فضحى بالكثير من الامتيازات وسافر هو وعائلته وابتعد عن العسف. كان لقمة أخرى دسمة يخطط الجلادون لابتلاعها وساهمت بإحباط مخططهم.

* في مقر الجريدة، وفي نفس تلك الفترة القصيرة، قابلت عدداً من الرفاق الذين أطلق سراحهم بالعفو العام. أحدهم الرفيق هندال جادر حاجم الحمال والكادر الحزبي (عضو عمالية البصرة) والنقابي المشهور، الذي تظاهر عمال المسفن في البصرة عام 1959، مطالبين بإطلاق سراحه بالأهزوجة المشهورة (حي ميت، هندال إنريده) وقد أطلق سراحه بعد ساعتين من اعتقاله. وصمد في التعذيب الذي تعرض له على أثر انقلاب شباط الأسود عام 1963. وهو الذي كسر شوكة الجلاد عبود الكرخي مدير أمن البصرة عام 1967، وخرج من التوقيف بعد أكثر من شهر من التعذيب، دون أن يعطي براءة. (وقد كنت آنئذ سكرتيراً للجنة المنطقة الجنوبية ومقيماً في البصرة).

كان هندال مثالاً للمناضل الصلب. وقد شاهدت بأم عيني آثار التعذيب الوحشي على جسده الطاهر عند مقابلتي له في الجريدة. لقد استشهد هندال تحت التعذيب في بداية الثمانينات عن عمر يناهز السبعين عاماً. وقد اطلعت على وثيقة [37] المصادقة على تنفيذ حكم إعدامه موقعة من قبل المخلوع صدام حسين ومؤرخة في 8 أيلول 1983، ضمن عشرين كادراً حزبياً جميعهم من البصرة. بينهم العضو المرشح للجنة المركزية الرفيق محمد جواد طعمة (أبو زيتون) والرفيقة فريال أحمد حسن الأسدي وزوجها محمد قريشي وهاشم حاتم عبد الله. لقد كانوا أبطالاً حقيقيين في مقاومتهم أعتا دكتاتورية على الأرض. ولا بد أن يأتي ذلك اليوم الذي سيشيد فيه أبناء البصرة التقدميون نصباً تذكارياً لهؤلاء الأبطال الخالدين في مدينتهم، طال أمد ذلك أم قصر.

[37] - الأرشيف العراقي في الدانمارك. موقع الكتروني، الأرشيف 20.10.2005

الرفيق هندال جادر الحمال

* لقد زارنا في الجريدة أيضاً الرفيق هاشم حاتم، عضو عمالية البصرة ومدرس الفلسفة في المدرسة الحزبية في المحافظة، وبمعيته الرفيق وليم شمعون عضو عمالية البصرة أيضاً. كنت قد تعرفت على الرفيق هاشم في المدرسة الحزبية في موسكو. لقد غادرت موسكو بعد وصوله ببضعة أشهر، وكان يدرس في فريق آخر. ومع ذلك، فقد سنحت لي الفرصة للتحدث معه بحكم إقامته سوية مع صديقي الرفيق أنور طه. كان هاشم لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، متوسط القامة، اسمر ووسيم. شعره بني وسرح وطويل، وعيناه خضراوان. ذكي ورزين، ومثقف. خريج ثانوية التجارة موظف حكومي صغير. ترك وظيفته لدى التحاقه بالدراسة في موسكو. كنت أتوسم فيه سمات قيادية واضحة وتوقعت له مستقبلاً واعداً. وقد التقيته ثانية في البصرة في أحد إشرافاتي على المنطقة الجنوبية بعد لقائي به في موسكو بأربع سنوات.

جلسنا هاشم ووليم وأنا في غرفة صغيرة وشبه مهجورة ومنزوية في الجريدة. جلس الاثنان متقابلين وأنا بينهما على شكل مثلث. كان هاشم جالساً منحني الرأس واضعاً كفيه في حضنه يعصرهما ويعصر جسمه بساعديه. رفع رأسه ونظر إلى وليم وعاد كالسابق دون أن ينظر إلي. رفع رأسه ثانية، دون أن يفتح عينيه تماماً، وقال ما فحواه: "رفيق أبو شروق، مع الأسف الشديد لم أتمكن أن أقف الموقف المرجو مني. لقد انتزع الوحوش مني تعهداً بعدم معاودة أي نشاط شيوعي،

ولكنهم لم يتمكنوا أن ينتزعوا ضميري الشيوعي، وسأبقى أحيا وأعمل وأموت بما يمليه علي هذا الضمير من التزامات تجاه حرية وطني وسعادة شعبي، وفي الحيز والشكل الذي ترتأونه".

كان الرفيق وليم، وهو خياط، يعمل في مدينة البصرة لم أتعرف عليه سابقاً، يثني على كلام هاشم، مستثمراً التوقفات والفرص التي كان يمنحها هاشم له ليعبر عن مكنونات نفسه. عندما أنهى هاشم الكلام فتح عينيه على سعتهما، لأول مرة، ونظر مباشرة في عيني نظرة متسائلة: هل تصدقني؟ وقبل أن أقولها بلساني اختطف من عيني: "أصَّدقك" فاغرورقت عيون هاشم بالدموع، ومن خلال دموعي، أنا، لاحظت وليم يكفكف، هو الآخر، دموعه!!

رأيت أن كليشة "أحنا نعتبركم على ملاكنا" ليست على قدر المقام فقلت لهما:"نحن نعتبركما جزءاً لا يتجزأ منا وبإمكانكما التصرف على هذا الأساس، ولكن بحذر شديد.. إن هذه التعهدات التي تنتزعها سلطة البعث الغاشمة منافية ليس لشرعة حقوق الإنسان، التي تحمل توقيع العراق فحسب، وإنما منافية لنصوص الدستور المؤقت أيضاً. والأفضل إعطاء انطباع عام بأنكما تركتما العمل. ومن الضروري تجنب الاتصال بالمنظمة، لأن هناك اختراقاً أمنياً قد حصل فيها، ونحن بصدد معالجة ذلك.

أرادا إعادة المبلغ المودع لديهما لأحوال الطوارئ وقدره 200 دينار لدى كل واحد منهما. رفضت استعادته. وأخبرتهما بأنهما يتمكنان من التصرف به باعتباره ملكهما عسى أن يساعدهما على العودة للحياة الطبيعية والعمل. عرفت لاحقاً باستشهاد الاثنين ببطولة وقد ورد أسم هاشم في الوثيقة التي ورد ذكرها في أعلاه.

الرفيق هاشم حاتم

الاختفاء نهائياً

مساء 11 آذار 1979، كان لدي موعداً مع الرفيق محمد حسن عيدان (أبو ثائر) الذي يعمل سائقا في الجريدة، كان عليه أن يوصلني إلى شارع عام، كشارع الجمهورية مثلاً وينصرف. وكنت أستأجر تكسي بعد التأكد من أنني غير متابع وأذهب إلى منطقة لقاءاتي السرية، ولا أذهب إلى البيت المحدد إلا بعد التأكد من سلامة الوضع. عصر اليوم المذكور، عادت شروق من المدرسة وأخبرتنا بأن هناك عناصر أمن يقفون مقابل بيتنا. خرجت أم شروق لتستطلع الوضع متحججة بإلقاء القمامة في الحاوية، وتأكدت من الأمر. قررت الاختفاء نهائياً لأن التوليف بين العلنية والاختفاء لا يتحمل إطلاقاً أن أكون تحت مراقبة دائمية و مباشرة.

خرجت مع العائلة عند مجيء الرفيق محمد حسن وتوجهنا إلي ساحة النهضة في بادئ الأمر لاستجلاء الوضع، لاحظنا دراجتين ناريتين تتابعاننا. طلبت من الرفيق أبو ثائر التوجه إلى مطبعة الجريدة. واصلت الدراجتان متابعتهما عن قرب وسط دهشة الأطفال وصياحهم لرؤية مثل هذا المشهد في الواقع أيضاً، وليس في الأفلام فقط. بعد تأكد المتابعين بأننا متوجهون للمطبعة، التي تقع بالقرب من مديرية الأمن العامة، توقفا عن المتابعة. ترجلت في باب المطبعة ورجوت من الرفيق محمد حسن إيصال العائلة إلى البيت.

التقيت في المطبعة بالرفيق الصافي وأخبرته بقراري، واتفقنا على ترتيبات جديدة لإدامة الصلة بين الجريدة والتنظيم السري. قررت الخروج من المطبعة بأسرع وقت. تعهد الرفيق محمد حسن عيدان بإخراجي منها وإيصالي بسلام حيثما أشاء. استخدم الرفيق محمد سيارة جيب وساقها وأنا بمعيته في طريق خلف المطبعة وغير سالك ومليء بالحفر والحجارة. وكان يسوق دون إشعال مصابيح السيارة لا الخلفية ولا الأمامية. وظل على هذه الحالة حتى وصل إلى شارع رئيسي. ثم تجولنا في شوارع بغداد حتى تأكدنا بأننا غير متابعين. ترجلت في شارع الجمهورية وأخذت تكسى وذهبت لموعدي السري.

لقد أعتقل الرفيق محمد حسن عيدان في عام 1979 ومعه في السيارة التي كان يسوقها كل من الرفيقين محمد كريم فتح الله وسلام الناصري، وتعرض لتعذيب بشع من قبل جلاوزة الأمن. وواجهوه أيضا بتهمة تهريبي ولم يصدقوا بأنه أوصلني إلى شارع الجمهورية. كانوا يريدون منه مكاناً محدداً، فاضطر إلى الادعاء بأنه أوصلني إلى مدينة الحلة. وفي مدينة الحلة دلهم على مكان بالقرب من أحد البيوت الذي ظهر بأنه بيت أحد البعثيين الموثوق به، فتعرض محمد حسن لتعذيب أبشع. وقد أطلق سراحه في العفو العام الذي صدر في صيف 1979. وكان في وضع صحي سيئ جدا، وقد توفى بعد فترة وجيزة جراء تسميمه بمادة الثاليوم.

الإقامة مع الناصريين
(نسبة إلى لواء الناصرية، محافظة ذي قار الآن)

قررت أخذ تدبير أمر إقامتي على عاتقي بعد تجربة اختفائي السابقة حيث لاحظت أزمة الإقامة. وأنا في الجريدة تعرفت على بعض الإمكانيات، وقد استقر بي المقام عندما اختفيت نهائياً في بيت حزبي في البياع، يقيم فيه كل من الرفيق مزهر هول الراشد (أبو كريم) والرفيقة موناليزا أمين منشد (أنسام) وأختها الصغيرة كوثر والرفيق محسن خزعل نايف (أبو فكرت). كنا نسمي البيت دائرة السفر، فمن هذا البيت تم التخطيط وتوفير مستلزمات تسفير عشرات، إن لم يكن مئات، الكوادر بمختلف الطرق غير الشرعية للخارج، وأنقذوا من الوقوع بيد العدو. وفي هذا البيت كنا نصدر نشرة أخبار تساعدني الرفيقة أنسام في تحريرها وتكثيرها.

الرفيق أبو كريم فلاح من قضاء الشطرة التابع لمحافظة الناصرية. كان عمره حوالي الأربعين عاماً، متزوج ولديه خمسة أبناء. متوسط القامة، أسمر اللون. سكرتير محلية الناصرية وعضو مرشح للمنطقة الجنوبية (تقدم لهذا المركز الحزبي قبل استشهاده بحوالي الشهرين). كان والده شيوعياً وكان أبو كريم يقرأ أدبيات الحزب ونشراته في خلية والده منذ صغر سنه. خلال حملة القمع الوحشي وهجرة الكثير من شيوعيي الناصرية إلى بغداد، ساهم أبو كريم مساهمة فعالة في جمعهم وتنظيمهم في بغداد. وتسفير الكثيرين منهم خارج الوطن. كان أبو كريم

مخلصاً ومقداماً وموضع ثقة رفاقه، ولديه قدر كبير من ملكة الفراسة واستقلالية التفكير، ويهتم بتطوير معارفه.

الرفيقة أنسام معلمة، عضو محلية الناصرية، عمرها 28 عاما. سعة وجمال عينيها تجلب انتباه المرء، ما أن يقع نظره عليها، وجهها مشرق ويزيده إشراقاً ابتسامتها الودودة. إنها ذكية، مثقفة، الكتاب أتيسها، متواضعة. تعاني من تشوه ولادي في عمودها الفقري. ولكن ذلك لم يسبب لها عقدة أو يؤثر على توازن شخصيتها.

جميع المقيمين في البيت من الناصرية. وفي هذا البيت شعرت بأن شيوعيي الناصرية لديهم مشاعر حب خاصة تجاه الحزب الشيوعي العراقي. فلأن الرفيق فهد من الناصرية ولأن أول خلية شيوعية ولدت في الناصرية، فإن الناصريين يشعرون بأنهم أم الحزب الشيوعي العراقي وأبوه معاً. وعندما واجهت أنسام برأيي هذا، متصوراً بأنها ستنفي ذلك، وإذا بها تؤكده، فقلت لها:

ـ ولكن ذلك يحملكم مسؤولية إضافية.
ـ ونحن جديرون بها. قالت ذلك وصدر بريق خاطف من عينيها يتحدى الموت ويشعرك بمصداقية التحدي.
ـ "والنِعم". قالها الرفيق أبو كريم الذي كان يتابع حديثنا موجهاً نظرة ثاقبة نحوي... لم تزوغ إلا بعد أن قلت: "وثلث تنعام".

واستشهد الاثنان وهما يقاومان نظام البعث الدكتاتوري. الرفيق أبو كريم تحت التعذيب، ومونـاليزا في حركة الأنصار في أيلول 1986.

أنسام من عائلة شيوعية مناضلة التزمت طريق الكفاح من أجل حرية العراق وسعادة شعبه وقدمت في سبيل ذلك تضحيات غالية، لاسيما في مقارعتها التي لا تلين لدكتاتورية صدام ونظام قمعه الوحشي. وقدمت تضحيات جسيمة في هذا الطريق. فتعرض جميع أفراد العائلة للتشريد. وبالإضافة إلى استشهاد أنسام فقد أعدم المجرمون شقيقتها الرفيقة سحر أمين وهي في التاسعة عشرة من عمرها وصُرع زوجها الرفيق صباح طارش أمام عينيها وهو يقاوم وحوش البعث بشجاعة نادرة.

ولم تكن أنسام وحدها من العائلة نصيرة في كردستان، بل كان معها أشقاؤها: الشاعر والصحفي المعروف داود أمين (أبو نهران)، وسمير وزوجته، وأمير. وسار في طريقهم بقية أشقائهم وهم كل من: انتصار وكوثر وجمال. وكانت أمهم خير معين لهم وقد عانت الكثير من التشرد والحرمان من أجل أن يبقى أبناؤها مرفوعي الرأس والهامة فألف تحية لهذه الأم ولعائلتها ونتمنى لها الصحة والعمر المديد.

الرفيقة سحر أمين منشد

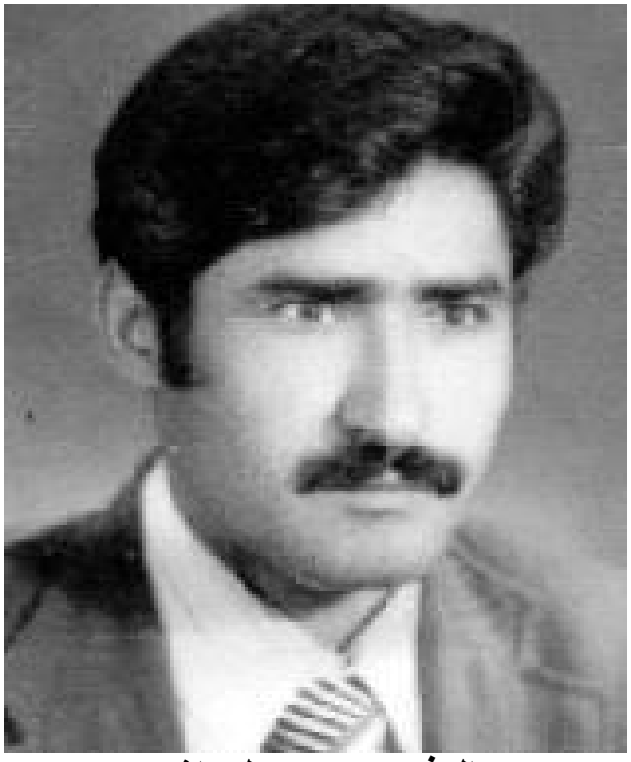

الرفيق مزهر هول راشد

الرفيقة موناليزا أمين منشد ـ أنسام

وقائمة الشهداء في مقاومة الإرهاب الوحشي الصدامي في الناصرية تضم إضافة إلى الذين مر ذكرهم العشرات من الكوادر. بينهم عدد كبير من الرفيقات وعلى سبيل المثال لا الحصر: الرفيقة نجية الركابي وزوجها فيصل ماضي وهدية الركابي

وزوجها حسن مرجان والطيار لطيف مطشر وعبد العال موسى الشرباجي وابنه مناضل والرفيقة زهرة ذياب والرفيقة حرية افعيل.

موقف جدير بالتوضيح

كان البريد المرسل من الصافي يمر عبري إلى الرفيق باقر إبراهيم، فأستبقي الأخبار العامة لتنظيم نشرة أخبار داخلية، ولأعلق على ما يتطلب التعليق، ومن ثم أرسله للرفيق باقر إبراهيم. وبعد حوالي أسبوعين من اختفائي، أي في النصف الثاني من شهر آذار 1979، اطلعت على رسالة للصافي يقترح فيها سفره والرفيق مكرم الطالباني للخارج لإيصال جواب البعث لقيادة الحزب. فاقترحت بدلاً من الصافي ماجد عبد الرضا، على أن لا يعود الأخير لأنه قد تحول إلى عبء على الحزب جراء موقفه الضعيف في الأمن العام. وهكذا كان، فقد سافر ماجد ولم يعد. وهذه لقمة أخرى ساهمت في إخراجها من فم البعث، ولكن، مع الأسف، إلى حين.

وموقف ماجد جدير بالتوضيح. لقد باشرنا القيام بحملة عالمية بعد اعتقاله في المطار، من قبل جلاوزة الأمن، عندما كان يهم بمغادرة العراق في أواسط كانون الأول 1978، تحت شعار "أنقذوا حياة ماجد عبد الرضا"، وإذا بي أراه صباح أحد الأيام في مكتبه في المقر العام للحزب بعد أربعة أيام من اعتقاله، يوظب الملفات كعادته وكأن شيئاً لم يكن. لقد دُهشت، إنه يحاول أن يبدو اعتيادياً، ولكنه يتحاشى النظر في عيني، في حين كان ذلك ما يهمني بالضبط فوراء الأكمة ما وراءها، وإلا فكيف يطلق سراحه؟ عرفت منه بأنهم سحبوا جواز سفره ولم يطلبوا منه معلومات وإنما ناقشوه وعرضوا عليه منصباً وزارياً. وكان يرى ضرورة دراسة المقترح بجدية! استغربت مقترحه وأشعرته بذلك صراحة بقولي له "بكل عقلك تحجي". ما أن بدأت الحملة العالمية بالمطالبة بإطلاق سراحه حتى أعتقل ثانية، وفي هذه المرة أدخل المجرمون، بأساليبهم الوحشية، الرعب في قلب الرجل. ومن تلك الأساليب وضعه في غرفة مظلمة وإسماعه أنين وصياح أشخاص يتعرضون للتعذيب، وما شابه ذلك من أساليب التعذيب النفسي.

طلبوا من ماجد إيقاف الحملة العالمية ضد الحكومة لكي يطلق سراحه. ولم يكتفوا بوعوده لهم، إنما طلبوا منه كتابة مقال في "طريق الشعب" باسمه الصريح. كانوا يستهدفون الطعن بمصداقية حملة الحزب ضد القمع الوحشي. كان رأيي هو أن نعمل على إيقاف الحملة لإنقاذ حياته أولاً، ويمكن بعدها نشر المقال. ولاحظت تفهماً من ماجد والصافي لرأيي. فوجئت في اليوم التالي بمقال على صفحات جريدة "طريق الشعب" بتوقيع ماجد عبد الرضا وبتاريخ يوحي بأنه غير معتقل. كنت قد اطلعت للتو على المقال عندما وصل الصافي إلى المقر. برر الصافي تمرير المقال، باعتباره رئيس تحرير الصحيفة، بإلحاح من ماجد. انتقدت الصافي بقوة (وربما بعصبية بسبب ميانتي معه) على رضوخه لإلحاح ماجد.

نشأت لماجد علاقة بالأمن بسبب جواز سفره المحجوز لديهم. أكثر من تلفون وأكثر من لقاء حول الموضوع. لم يختلف ماجد معي بأن في الأمر ابتزازاً. اقترحت عليه السفر إلى كردستان وتدبير أمر سفره من هناك إلى خارج الوطن، ولكنه رفض. استغربت موقفه أشد الاستغراب عندما رفض إعطائي صورة له لكي أنظم له هوية مزورة قد يحتاجها إذا ما اضطر للاختفاء. ولم يكتف بالرفض، إنما حذرني من تدبير ذلك لأي أحد باعتبار أن ذلك عمل خطير! في حين لبى الآخرون طلبي بسرعة مثل سلام الناصري والصافي ومحمد كريم فتح الله. وهكذا فإن إخراج ماجد إلى خارج العراق كان ضرورياً.

في الاجتماع الكامل للجنة المركزية في موسكو صيف 1980، حوسب ماجد وعوقب بتخفيضه من عضو لجنة مركزية إلى عضو مرشح على موقفه غير الصحيح في الأمن، وعلى نشر المقال. طرحت موقف الصافي الخاطئ على الاجتماع واقترحت توجيه عقوبة التوبيخ له، ألا أن الاجتماع اكتفى بالإيضاح والنقد الذاتي الذي قدمه الصافي.

تسفير الصافي

في 5 نيسان 1979، وجهت السلطة إنذاراً للجريدة مدته شهر. وقبل انتهاء المدة طلب الصافي مكاناً للإقامة. جاء جواب الرفيق باقر إبراهيم، بأن نخبر الصافي بعدم وجود إمكانية لدينا وليتدبر أمر اختفائه بنفسه. اعترضت على ذلك، ورأيت من غير الصحيح عدم مساعدة الصافي، وهو عضو في المكتب السياسي، حتى إذا تطلب الأمر إقامته معنا. فكان جواب أبو خولة، هو أن أقوم أنا بذلك إن رغبت. وفعلا استلمت الصافي مساء أحد الأيام من الرفيق ناصر السعودي، واختفى معي في نفس البيت.

كان الرفيق ناصر جاسم السعودي (أبو نشوان) يساعدنا باستصدار جوازات سفر اعتيادية مستندة إلى وثائق مزورة، بالتعاون مع الرفيق محسن خزعل نايف (أبو فكرت). وقد تمكن الحزب من إخراج عدد كبير من الرفاق عن هذا الطريق. ومن الطرائف التي نقلها لنا أبو فكرت في هذا المجال، هي أن ضابط الجوازات قال لناصر في إحدى المرات: "هذا الاسم عليه منع!"

- ما معقولة، رجاء إتأكد زين. أجابه ناصر.
- يگلي إتأكد، مو هاي القائمة كدامي.
- "بس آني متأكد هذا مو الاسم المقصود". (كان ناصر مع أبي فكرت يختارون الأسماء بشكل عشوائي ويهتمون أكثر بالأوصاف)

قال ناصر ذلك وطلب السماح له بمساعدة الضابط للتثبت من ذلك. وقد أثبت ناصر للضابط من خلال السجل بأنه ليس الاسم المقصود. وحصل على الجواز.

أصبحت دائرة الناس التي تعرف ما يقوم به ناصر واسعة. ولإبعاده عن الخطر تقرر إنهاء مهمته وتسفيره للخارج. واتفقنا معه على أن جواز الصافي سيكون الأخير. وقد سارت الأمور وفق الخطة المقررة وسافر الصافي بمعية الرفيق ناصر بالقطار. واستلمنا برقية بخروجهم من الحدود العراقية بسلام، عبر أم نشوان.

الأمن يتحرون بيتي

كانت المراسلة بيني وبين الرفيق أبو خولة تجري بواسطة الرفيق أبو كريم من جانبي وخضير عباس السماوي (أبو سهيل) من جانب أبو خولة في شوارع بغداد. في بداية مايس لم يحضر أبو سهيل للموعد. تبين أنه قد اعتقل. بعد فترة قصيرة أطلق سراحه. وعلمت بأنه أعطى تعهداً ولم يلحق ضرراً بأحد، على حد تعبيره أمام أحدى العوائل (أم هديل وأبو هديل) التي كنت أتردد عليها أحياناً. وقد استفسر أبو هديل مني عن رأي في قول أبو سهيل بأن موقفه "لم يلحق ضرراً بأحد" فأجبته "بأن سمعة الكادر الحزبي جزء من سمعة الحزب" وأتذكر جيداً كيف نظر أبو هديل نحو أم هديل وقال لها "هذا الصحيح". وبدا لي بأنه سمع رأي آخر مخالفاً لرأيي من كادر قيادي كان يتردد عليهم. التقيت بأبي سهيل واطلعت منه على أجواء الأمن، في تلك الفترة التي كان القمع الوحشي في ذروته، وخلاصة ذلك، في الدقيقة الأولى لدخول المناضل دائرة الأمن يطلبون منه موعده ومسؤوله، إذا ماطل أو لم يستجب، تحيطه مجموعة من الجلاوزة، لا يتركونه إلا أن يعترف أو يوقع وهو ينازع بين الحياة والموت. وقال أبو سهيل "إن الأمن متحامل إلى أقصى الحدود عليك وعلى أبي خولة ويهددون ويعدون بأنهم سيقطعونكم إرباً إربا، عندما تقعون بأيديهم، وإني أنصحكم بأن تسافروا بأسرع وقت إلى الخارج".

- وكيف أطلق سراحك دون الاعتراف على موعد أو مسؤول؟
- لقد خدعتهم وأنقذت نفسي بإعطائي تعهد دون أن أؤذي أحداً.

بعد لقائي بأم شروق، التي قطعت أي اتصال بها منذ اختفائي، أخبرتني بأنه جرى تحري دارنا في بداية مايس (نفس تاريخ إلقاء القبض على الرفيق أبو سهيل) وإن ضابط الأمن قال: "إن هناك اعتراف على جاسم". جواباً على استفسارها عن أسباب التحري.

كنت مسؤول أبي سهيل، قبل اختفاء الرفيق أبي خولة. وكنا نلتقي في بيتنا. وعند اعتقاله كان متأكداً من أنني لا أقيم في البيت. وكانت لدى أبي سهيل صلات حساسة أخرى، غير صلته بأبي كريم، من بينها علاقته بالرفيق محمد جاسم اللبان عضو

المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي حاليا، وكان الأخير حلقة وصل بالسفارة السوفيتية. لقد أعتبر موقف أبي سهيل ضعيفاً عند دراسته من قبل الجهات الحزبية المسؤولة في الخارج، كما علمت.

بيت حزبي جديد

في الأيام الأولى لاختفائي طرحت فكرة تأسيس بيت حزبي جديد على الرفيق أبي كريم، الذي تحمس لها. وقد تمكنا من تأسيس بيت في العامرية وأقيم فيه عائلة الرفيق عبد الزهرة لازم. وكنت قد انتقلت للإقامة فيه منذ نهاية شهر أيار.

جمع شمل العائلة مؤقتاً

كنت قد اتفقت مع أم شروق على موعد لقاء في بيت أحد الأصدقاء لكي تختفي العائلة تمهيداً لسفرها خارج البلاد، على أن تترك البيت بما فيه وأن تضيّع نفسها والأطفال قبل المجيء إلى الموعد. ولم تقصّر أم شروق فقد قامت مع أبنائنا بجولة زارت فيها أختها في الصويرة وأخذت من هناك جوازات السفر التي كانت مخبأة عند صديقة لأختها. ومن ثم زارت كربلاء وبقيت في النجف يومين عند أقربائها. وأخيراً عادت إلى بغداد وإلى مكان اللقاء.

كان قد مر على افتراقي عن العائلة حوالي ثلاثة أشهر. وخلال هذه الفترة جرى تغير هام على هيأتي، فشاربي طال كثيراً وشعري بات مصبوغاً باللون الأسود، ولم يتعرف علي ابني صفاء في بادئ الأمر.

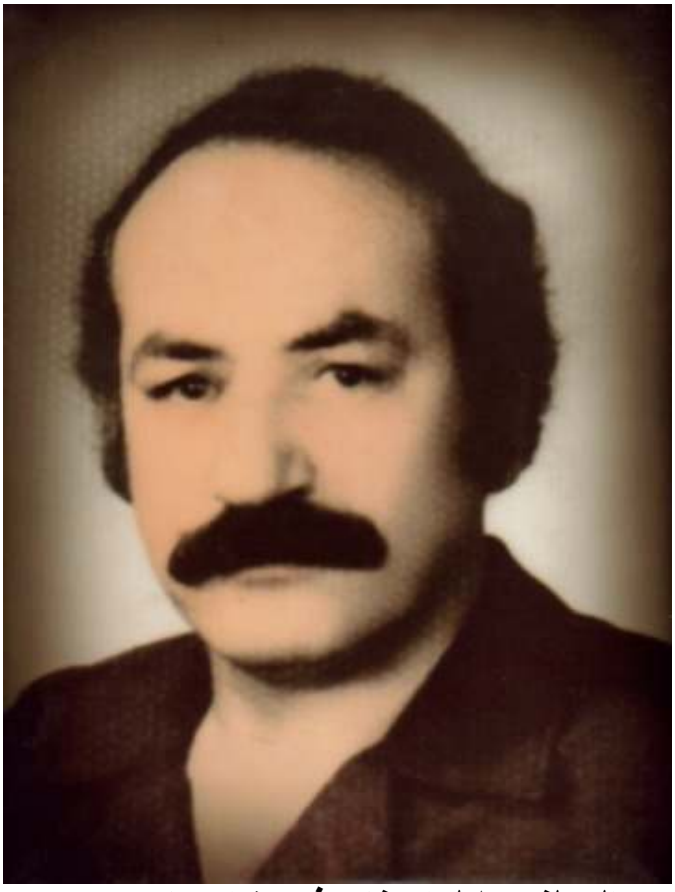

المؤلف خلال اختفائه في بغداد عام 1979

كان اللقاء حاراً ومشوباً بالدهشة والقلق. كان الوقت في عز ظهيرة صيفية في الأسبوع الأول من حزيران. لم أتأخر كثيراً في بيت الصديق، أخذت العائلة بتكسي إلى بيت الناصريين. استقبلتنا أنسام بوجه شاحب، وقبل أن أفتح فمي لأسألها ما الخبر، أخبرتني بأن أبا فكرت لم يعد البارحة مساء، وإن أبا كريم أخذ الوثائق الموجودة في البيت وقال: "أنا ذاهب إلى أبي شروق". طلبت منها أن تترك البيت فوراً. أما نحن فقد تركنا البيت وسط ذهول أطفالنا الذين لم يفهموا من الأمر شيئا، إلا بعد شرحه لهم لاحقاً. لم يكن لدي سوى البيت الجديد فاستقرت العائلة فيه. وانتقل أبو كريم أيضاً ليقيم معنا.

جبار عگار

لم يعترف أبو فكرت على البيت ولم يلحق أي ضرر بما يعرفه من أسرار. وقد أطلق سراحه. وكتب رسالة ذكر فيها ما جرى له بالتفصيل، وقرع نفسه لأنه خذلنا لعدم تمكنه من الصمود والامتناع عن إعطائه تعهد. ولثقتي بصدقيته حاولت الالتقاء به ولكنه رفض ذلك بإصرار. ورفض كذلك لقاء الرفيق أبي كريم. كان يصعب عليه أن يلتقينا ولديه موقف ضعف. فقد نشأت بيننا فضلاً عن العلاقات الرفاقية علاقات

صداقة. كان أبو فكرت عاشقاً حقيقياً وكانت حبيبته في الناصرية، وقد تزوجها لاحقاً. وكان لديه كاسيت للمطرب جبار عگار وهو يغني ويعزف على الربابة. وما دام أبو فكرت في البيت، كان علينا أن نسمع المطرب المذكور ويسمعه معنا سابع جار! قلت لأبي فكرت ذات يوم: "أبو فكرت، أستاهد (أعتقد) أكو غير جبار عگار مغنين، شتگول نسمع غيره، دورات. مثل عبد الوهاب، فريد الأطرش، أم كلثوم؟" أجاب أبو فكرت:"إي صحيح اكو، بس مو مثل هذا، هذا يفتت الصخر!".

وهذه "الأستاهد" مستعارة من نكتة بدوية. يقال إن بدوياً وزوجته كانا في السنين الأولى من زواجهما، فكانت البدوية تتكحل يومياً وتقول لزوجها: "ابن عمي، هالليلة يمعة (جمعة)!" فيجيبها البدوي"على بركة الله!" وهكذا استمر الحال حتى تعب صاحبنا البدوي، فجاءته زوجته مساء أحد الأيام كالعادة مكحلة وقالت له: "ابن عمي هالليلة يمعة!"

"بت عمي، أستاهد بين الجمعتين سبيت (سبت)، ما تگليلي وين صار؟ أجابها البدوي. متسائلاً.

الذبحة الصدرية

كنا في هذا البيت، كما هو الحال في بيت الناصريين، نقرأ الكتب ونسمع الأخبار ونناقش ونقضي سهرات سمر لطيفة، وهنا كنا نحاول أيضاً تسلية الصغار، خاصة وأنهم ممنوعون من الخروج حتى إلى حديقة البيت. ولكن يبقى القلق يشوب حالة الاختفاء مهما حاول المرء نسيانه أو تجاهله. وقد حصلت لدي، بوجود عائلتي معي، نوبة من نوبات الذبحة الصدرية التي كنت أبدو فيها وكأنني على وشك الموت. فظلت هذه الصورة عالقة في ذاكرة أم شروق تؤرقها خلال فراقنا، فوق قلقها علي من الاعتقال. لم تبق العائلة معي سوى ثلاثة أسابيع، بعد التأكد عن طريق إمكانياتنا الخاصة، من عدم وجود منع سفر عليها، سافرت إلى براغ بسلام.

أبو كريم أهلا بالثقة

اشتدت الحملة قساوة بعد أن يئست السلطة من ترويض الحزب سياسياً. فوجهت ضربات جديدة إلى بقايا العقد التنظيمية في بغداد والبصرة. ووصلت إلى بيتنا الحزبي. ففي 30 تموز كان الرفيق أبو كريم ينوي السفر إلى الشطرة للقاء عائلته بطريقة سرية. وكان قد اشترى بعض الهدايا البسيطة لأطفاله وزوجته، ووضّب حقيبته الصغيرة قبل أن يخرج من البيت، لينفذ موعداً، قبل سفره، مع رفيق مسؤول عن الصلة بإحدى العقد في البصرة اسمه جاسم الجميلي.

تأخر الرفيق أبو كريم، وكان التأخر حتى لمدة ساعة مقبولاً بسبب الازدحام في المرور. ولكن أبو كريم تأخر كثيراً. وفقاً لقواعد العمل السري كان يجب علينا الخروج من البيت. ولكن لم يكن لدي بيت احتياط جاهز أدق بابه دون سابق إنذار وفي وقت متأخر من الليل. مع ذلك عندما هممت بالخروج طلبت ربة البيت مني أن أصطحبهم معي! ومع أنَّ الرفيق عبد الزهرة لازم (أبو ظافر) قام بإقناع زوجته بالعدول عن رأيها، ولكن موقف الزوجة سبب لي إحراجاً وتماهلت في الخروج. ولكن أكثر ما أخَّرني عن الخروج من البيت، هو ثقتي بأبي كريم، لو لم أثق به ثقة عالية جداً لخرجت فوراً، حتى لو أدى بي الحال للمبيت في ركن حديقة عامة. أتلفنا ما لدينا من مستمسكات. لا أعرف إن كنت نمت ساعة أو ساعتين، مليئة بكوابيس التعذيب. خرجت من البيت قبل بزوغ الشمس، وخرجت العائلة في نفس اليوم. لقد استشهد البطل أبو كريم. قتله الوحوش، جلاوزة نظام القمع الوحشي، نظام حزب البعث المقبور.

بعد بضعة أيام كبس البيت من قبل الأمن باعتراف من جاسم الجميلي الذي عن طريقه كنا قد عرفنا بأن البيت معروض للإيجار. وقد علمنا لاحقاً بأن المراسل من البصرة هو الذي اعترف على جاسم وإن صاحب العنوان في البصرة هو الذي اعترف على المراسل. وهكذا فإن ضربة معينة وقعت في مدينة البصرة أدت إلى الوصول إلى بيت مركزي جراء التعذيب الوحشي. ولو لا استشهاد الرفيق أبي كريم لكانت الخسارة أفدح.

لفت انتباهي موقف الرفيق أبي ظافر في تلك الليلة. فقد كان يتصرف برباطة جأش عالية ولا يظهر عليه أي خوف. وكان يشجع خروجي منفرداً من البيت خلافاً لزوجته التي كانت تروم أن أصطحب العائلة معي، كما أسلفت. الرفيق عبد الزهرة من مواليد العمارة، متوسط القامة ، وجهه مدور، وشاربه اسود وكث، رأسه كبير وأصلع قليلاً. مدرس لغة إنكليزية .كان حارساً قومياً في عام 1963، ليس عن قناعة وإنما انجرافاً مؤقتاً مع التيار. بعد سقوط البعث في تشرين الثاني عام 1963، أخذ عبد الزهرة يبتعد عن الفكر القومي ويتوجه تدريجياً نحو الفكر الماركسي من خلال مطالعاته الواسعة فقد كان مثقفاً. وأصبح شيوعياً في بداية السبعينيات. وكان آنذاك قد انتقل إلى البصرة. كان الرفيق متواضعاً ومنسجماً مع نفسه، فقد كانت لديه ملاحظات انتقاديه على سياسة الحزب حول القضية الفلسطينية، من منطلق قومي. وبصرف النظر عن مدى صواب ملاحظاته، فقد أعجبني تصريحه بذلك دون خوف من اتهامه أو تذكيره بجذره القومي، مما يشير إلى ثقته العالية بنفسه. كانت زوجته منهارة معنوياً. وعند لقائي الوحيد به بعد خروجنا من البيت، أخبرني بأن زوجته مصرة على تسليم نفسها لإعطاء التعهد والعودة لوظيفتها. أخبرته أنه ما دامت مُصرِّة على ذلك، رتب معها إفادتها وبشكل لا يلحق الضرر بأحد.

رد فعل!

أخبرني الرفيق باقر في منتصف آب 1979 عن عزمه على السفر، على أن ألتحق به بعد إتمام مستلزمات سفري. فوجئت بالأمر لأنني لم أكن أتصور ذلك، حيث أن صحتي كانت تتدهور وحاجتي إلى العلاج في الخارج، لتعذر العلاج في الداخل لأسباب أمنية، معروفة لديه ولدى قيادة الحزب. هذا فضلاً عن أنني لم أكن محسوباً على قيادة الظل. أضف إلى ذلك أنني لم أكن مقتنعاً بخلو بغداد حتى من عضو لجنة مركزية واحد، ولم أكن أعرف حتى تلك اللحظة بوجود الرفيقة عايدة ياسين (أم علي)، المرشحة لعضوية اللجنة المركزية، في بغداد. وكان رد فعلي قوياً ومعبراً عن مشاعري وعن رأيي في الموقف من مصلحة الحزب فقلت للرفيق أبي خولة نصاً: "أرجو أن تخبر قيادة الحزب بأني غير مستعد لمغادرة العراق إذا لم يحل محلي عضو في اللجنة المركزية".

حاول الرفيق أبو خولة أن يخفي دهشته من موقفي، ولم يعلق لحراجة موقفه. بعد ذلك عرفت بوجود أم علي في بغداد، ونظمت لي علاقة بها. وسلمني أبو خولة الرفيق هيثم الصكر الذي كانت لديه إمكانيات، كنت بأمس الحاجة إليها. وعرفني أبو خولة بالجهة المسؤولة عن تسفيري وطريقة ذلك. وسافر في 19 آب 1979.

الأمانة التاريخية

لم يسبقني الرفيق أبو خولة بالسفر إلى الخارج ببضعة أسابيع كما جاء ذلك في مذكراته، فعائلته بالذات سافرت بعد حوالي شهرين من سفره وأثناء وجودي، كما سيأتي بيان ذلك. ولم تكن عدم الدقة هذه، فيما يتعلق الأمر بشخصي، هي التي أزعجتني في مذكراته، بل "نسيانه" اسمي في مواقع هامة تشرف المناضل الشيوعي وأي مناضل قارع الدكتاتورية والأنظمة الرجعية، وهي جزء هام من تاريخي السياسي الذي أعتز به. وأجد من واجبي الإشارة إليها، على سبيل المثال لا الحصر. فقد جاء في مذكرات باقر إبراهيم الصفحة 171 ما يلي:

"وكنت قد خططت لأكون آخر أعضاء القيادة الذين يسافرون بعد أن أحكم طوق الملاحقات حولنا. ولكن تأخر وصول وثائق سفر أحد أعضاء اللجنة المركزية العاملين معي في بغداد، اضطرني لاستباقه ببضعة أسابيع.المقصود بأحد أعضاء اللجنة المركزية، هو كاتب هذه السطور. أما لماذا لم يذكر كاتب المذكرات اسمه؟ يبدو أنها محاولة لتغييب دوره المشرف.

وفي الصفحة 155 ما يلي: "ظل أحد أعضاء سكرتارية اللجنة المركزية (سلم) في المقر العام ويرتبط ببعض التنظيمات الحزبية السرية". من الجدير بالملاحظة أن سكرتارية اللجنة المركزية تتكون من خمسة رفاق فقط يرأسها الرفيق عزيز محمد

ويساعده الرفيق باقر إبراهيم والباقون ثلاثة رفاق فقط، هم كل من الرفيق عادل حبه، الذي نسب اليها في النصف الثاني من عام 1977 بديلا عن الدكتورة نزيهة الدليمي التي أصبحت ممثلا للحزب في مجلة "قضايا السلم والاشتراكية" في براغ بديلا عن حبه، وماجد عبد الرضا وأنا، مع ذلك "نسى" باقر إبراهيم من منهم بقي في المقر!

وفي الصفحة 71 ما يلي: "حضر الكونفرنس نحو عشرين من كوادر الحزب في المنطقة. وكان بينهم كاتب هذه السطور (باقر) وحسين سلطان وفرحان طعمة وصالح رازقي وكاظم الجاسم وستار معروف و ... الخ". المقصود الكونفرنس الحزبي الذي انعقد في الكوفة لمنظمات الفرات الأوسط عام 1956، وبإشراف سكرتير اللجنة المركزية حسين أحمد الرضي (سلام عادل). وقد "نسى" باقر إبراهيم بأنه جاء إلى مدينة كربلاء خصيصاً لاصطحابي إلى الكونفرنس المذكور، قاطعاً أكثر من 200 كيلو متر بسيارات الأجرة العمومية ذهاباً وإياباً.

وبديهي، أن الأحداث التاريخية ليست ملكاً شخصياً لأحد لكي يتصرف بها المرء كما يحلو له، بل هي ملك للناس، ومودعة كأمانة ليس في ذاكرة الكاتب فحسب، وإنما في وجدانه أيضاً.

إقامتي الجديدة

كانت إقامتي الجديدة في بيت جمال الحجاج (أبو سعدون) مع زوجته أخت الشهيد أسعد لعيبي وأخيه مهدي لعيبي، في منطقة شعبية خاضعة باستمرار للجرد، فكانت حركتي محدودة. وقد حُلت هذه المشكلة باستلامي الرفيق هيثم الصكر. لم يكن بيت هيثم يصلح للإقامة الدائمة ولكنه كان يصلح لإدارة أشغالي فهيثم لديه سيارة وهناك تلفون في البيت، والحركة من وإلى البيت طبيعية. فكنت أقيم يوماً أو يومين عند هيثم أنجز أعمالي التي تتطلب الحركة وأعود إلى قاعدتي، في بيت أبي سعدون، سالماً.

مصير الرفيق أبو هشام

حاولت الاستفادة من العفو العام الذي صدر في آب، فوسعت دائرة حركتي. وجدت طريقاً لإيصال رسالة إلى العضو المرشح للجنة المركزية سكرتير منطقة الفرات الأوسط الفقيد محمد حسن مبارك (أبو هشام)، الذي ضاعت علينا أخباره وأثره لأكثر من عام. أخبرته فيها بأننا نحاول الاستفادة من الظرف للتحرك بحذر نحو بعض العقد المهمة والمفيدة... استلمت منه جواباً يفيد بأنه مقطوع تماماً ولا توجد لديه أية صلة بأحد وإنه سيتحرك لإيجاد بعض الصلات. هذه كانت آخر صلة للرفيق المذكور بالحزب. وباءت كل محاولاتنا لإيجاد أثر له بعد تلك المحاولة بالفشل.

بعد سقوط النظام الدكتاتوري، وبعد حوالي ربع قرن من انقطاع أخبار الرفيق أبي هشام عنا، التقت عائلته بالرفيق سامي عبد الرزاق وذلك في آب 2003. وعلم منها بأن الرفيق أصيب بفايروس الكبد القاتل، فحفر قبراً له في بيته كي يدفن فيه بعد موته. ولكن ابنه لم يدفنه في البيت، بل دفنه سراً بمساعدة صديق له في وادي السلام وذلك عام 2001. ولم يكن الفقيد يخرج من البيت وكان شغله الشاغل هو سماع الراديو. ومشكلة العائلة الآن هي أن جميع وثائق العائلة ليست بأسمائهم الحقيقية. وقد تخرج ابنه هشام باسم آخر من الجامعة. وإنهم بصدد تغيير وثائقهم. وبصرف النظر عن مدى صواب تصرف الرفيق أبي هشام في الاختفاء بالطريقة المذكورة، فإن تصرفه دليل على حرصه على كرامته وشرفه السياسي، لقد كان الفقيد متنوع الإمكانيات وطاقة لا تنضب وقارئاً جيداً.

إحراج!

في نهاية أيلول، وعندما كنت مع الرفيق هيثم في سيارته متجهاً إلى موعد حزبي في أحد البيوت، لاحظ هيثم سيارة مدنية تتابعنا، فالتفت وإذا بسيارة أحد معارفنا ومسؤول تسفيرنا (ع). طلبت من هيثم أن ينصرف بسرعة حال نزولي من السيارة. ترجلت وتوجهت إلى سيارة (ع) متصوراً بأن هناك خطراً على مكان موعدي، وإذا به يطلب مني بطريقة جافة أن أخذ عائلة أبي خولة، المقيمة في بيت أقربائه في "انتظار التسفير" حالاً وبدون توضيح الأسباب. فوجئت بالأمر فلم أكن أعرف شيئاً عن الموضوع. فالاتفاق كان بينه وبين أبي خولة، وبمعزل عني. طلبت منه مهلة ليوم واحد لتهيئة مكان لهم رغم صعوبة ذلك، إلا أنه رفض طلبي بإصرار، كان متوتراً ويرفض المناقشة. وقد وعدني باستلام العائلة بعد أسبوع واحد لتسفيرها.

كنت محرجاً إلى درجة كبيرة جداً. فالعائلة كبيرة (خمسة أشخاص) وعائلة عضو مكتب سياسي يخشاها الناس والوقت ليلاً. خطر في بالي بيت حسن خزعل نايف (أبو عبير) شقيق أبي فكرت الذي زرته مرة واحدة، وهو لا حزبي ولكنه إنسان شهم. أخذت العائلة ورجوته أن يبقيها عنده لمدة أسبوع. وأصبح الأسبوع أكثر من أربعة أسابيع! كنت محرجاً لاستغلالي، مرغماً، طيبة إنسان. على أي حال، ألف تحية وشكر لأبي عبير ولزوجته الجزائرية الفاضلة أم عبير على صبرهما علينا ومساعدتهما لنا. وقد علمت بعدئذ من أم خولة بأن سبب عدم تمكنهم من البقاء في البيت السابق، هو إنهم كانوا مقيمين بصفة ضيوف وأصبح وجودهم ملفتاً للانتباه مع انتهاء العطلة الصيفية وبدء السنة الدراسية الجديدة.

لقد سافرت عائلة أبي خولة في منتصف تشرين الأول أي بعد حوالي الشهرين تقريباً من سفره. وقد ودعتها في بيت العزيزين أم هديل وأبي هديل. وبهذه

المناسبة، بودي أن أحيي بحرارة هاتين الشخصيتين الرائعتين وأقدم لهما جزيل الشكر والعرفان على ما قدموه لنا من حماية ومأوى في أخطر الظروف.

الرفيق أبو عامل

أطلق سراح الرفيق سليمان يوسف بوكا (أبو عامل) في تلك الفترة وكانت المعلومات التي لدينا عنه تشير إلى صلابة موقفه في الأمن. وجدت الرفيقة عائدة ياسين طريقاً للاتصال به. تداولت مع الرفيقة أم علي في وضعه واتفقنا على أن نقترح عليه السفر إلى الخارج. آخذين بنظر الاعتبار حاجته إلى فحوصات طبية للتأكد من عدم إعطائه موادَ قاتلة ببطء، وقد أشيع استخدامها من قبل سلطة البعث ضد خصومها. ولأن الأصول تقتضي إطلاع المكتب السياسي، والذي هو في الخارج آنذاك، مباشرة على موقفه في الأمن. كتبت رسالة بمقترح سفر إلى الرفيق أبي عامل، فطلب اللقاء بي.

رتبت الرفيقة أم علي موعداً ومكاناً للقاء. والتقينا به سوية. فوجئت بهيئة الرفيق أبي عامل، لقد كان شبحاً، عرفت بأن وزنه نقص عشرين أو ثلاثين (لا أتذكر أي الرقمين) كيلو غراماً. تحدث الرفيق بالتفصيل عن سير التحقيق معه. سألته سؤالاً واحدا لم يجبني عليه، كان بمثابة صدمة للرفيقة أم علي، فتولت هي الإجابة بالنفي مرتبكة ومستغربة السؤال. وكان موقفها دليلاً على قلة خبرتها، ولا يقلل ذلك أبداً من بسالة الرفيقة وإخلاصها غير المحدود للحزب وقضيته.

أبدى الرفيق أبو عامل استعداداً جدياً للبقاء في الداخل وأن يدبر أمر اختفائه بنفسه، وإن لديه وسائل طباعة جاهزة للاستخدام. ولا غرابة في وجود مثل هذه الإمكانيات لدى أبي عامل، فإنه أحد أعضاء قيادة الظل التي سبقت الإشارة إليها. أكدت رأيي بضرورة سفره، وقد وافق على ذلك على مضض. وعند استفساره عن مصير أفراد عائلته اقترحت عليه خروجهم جميعا. ولا بد من الانتهاء من "قصة" الرفيق أبي عامل، ولو أن ذلك يؤدي بنا إلى استباق الأحداث قليلاً.

عند خروج الرفيق أبي عامل ووصوله بيروت صدرت "طريق الشعب" وعلى صدرها هذا المانشيت "بطل من هذا الحزب" امتدحت فيه بطولة الرفيق، الذي لم يكن راضياً عن نشر ذلك، كما أخبرني. كان الرفيق أبو عامل قد صوّت ضد التوقيع على ميثاق الجبهة بالصيغة التي أقرت بها. ومع أنه تراجع كبقية المعارضين عند إقرار وثائق أساسية في مؤتمر الحزب الثالث كبرنامج الحزب ونظامه الداخلي، إلا أنه بقي متحفظاً على هذا الجانب أو ذاك من سياسة الحزب. وهكذا صعد ولمع نجم الرفيق أبي عامل عشية الاجتماع الكامل للجنة المركزية الذي عقد في موسكو في نهاية 1981. ولأن الأجواء كانت مشحونة ضد قيادة الحزب لمسؤوليتها عن الأخطاء التي ارتكبت في الفترة الماضية، ولأن الاجتماع يعيد انتخاب المكتب

السياسي، فإن القيادة لم تتصرف تصرفاً صحيحاً، فلم تجرؤ على التوقف بشكل جدي على ما وقعه الرفيق كشرط لإطلاق سراحه، وحسم الموضوع، بل تغاضت عن ذلك. وقد انتخب الاجتماع نفس أعضاء المكتب السياسي السابقين باستثناء الرفيق ثابت حبيب العاني (أبو حسان) الذي حل محله الرفيق أبو عامل عضواً في المكتب السياسي الجديد.

في الاجتماع الكامل للجنة المركزية في عام 1984، في كردستان، وهو أيضاً اجتماع انتخابي. كانت هناك نقطة في جدول عمل الاجتماع، الذي يعده المكتب السياسي عادة، وهي موقف أبي عامل في التحقيق! عند تناول النقطة المذكورة، أفاد الرفيق أبو عامل في الاجتماع المذكور بما فحواه: "لقد تحدثت عن موقفي للرفيق عزيز محمد ولرفاق آخرين في المكتب السياسي بعد إطلاق سراحي، ولم أسمع أية ملاحظة أو سؤال من أحد. الرفيق الوحيد الذي سألني هو الرفيق أبو شروق وذلك في بغداد. وبإمكانه أن يخبركم بالسؤال إياه. وقد أفدت بما فحواه:

"أخبرني الرفيق أبو عامل بأنهم عرضوا عليه أكثر من صيغة تعهد ورفض التوقيع عليها. وكانت تعرض عليه مع خيارين، إما التوقيع وإطلاق سراحه وإما الإعدام. وكان آخرها صيغة مادة قانونية تفيد بأن الذي يقوم بنشاط سياسي (غير بعثي) داخل القوات المسلحة يحكم بالإعدام. وتعهد الرفيق أبو عامل باطلاعه على ذلك، لأنه لم يجد ضيراً من التوقيع على هذا التعهد من وجهة نظر قانونية (كان الرفيق أبو عامل ضابطاً قانونياً في الجيش العراقي) وكان سؤالي: ألا يعني ذلك تعهداً سياسياً؟ ولم يجب الرفيق على سؤالي. بل أجابت الرفيقة أم علي كما أسلفت. وقد أخبرت الرفيقين عمر علي الشيخ وباقر إبراهيم بسؤالي في حينه، وموقف أبو عامل منه. وأضفت في اجتماع اللجنة المركزية المذكور، بأن الرفيق أبا عامل كان على استعداد جدي للبقاء والعمل في تلك الظروف العصيبة. بعد حديثي أُسدل الستار على الموضوع. فقد أخذت اللجنة المركزية علماً به. ولم يُرشح الرفيق أبو عامل للمكتب السياسي.

لقطات من الاختفاء.

*في أحد الأيام نظمت لي الرفيقة أم علي موعداً مع الرفيقة بثينة شريف، وهي واحدة من قادة الحركة النسوية في العراق. وقد التقينا بها وأبدت تحفظاً على طلبنا منها السفرَ إلى خارج العراق. فاسترجعت بثينة الذكريات المرة لتغربها بعد انقلاب شباط الأسود 1963. و قبلت أخيراً بالسفر على مضض. لم يكن البيت يصلح لمثل هذه اللقاءات لكثرة عدد الذين تواجدوا فيه، ولمعرفتهم المسبقة بأن مسؤولاً حزبياً سيحضر اللقاء. رجوتُ الرفيقة أم علي أن تتجنب وتجنبني مثل هذه الأماكن، وقد تفهمت ملاحظتي، ووعدتني أن تأخذ ذلك بنظر الاعتبار.

*الرفيق هيثم صكر لم يكن يعرفني، فعندما طلبت منه يوماً أن يجلب بطاريات وشاحنة لسماعتي وأعطيته مواصفات ذلك، وجد في الأمر تعقيداً. وتسهيلاً للأمر طلب مني أن اصطحبه إلى محل في الكرادة الشرقية، وفي وقت الدوام حيث لا يوجد ازدحام، وأن أختار ما أشاء فيه. لقد تمنعت، فلم أكن أرغب في الخروج من البيت إلى السوق لأسباب شخصية بحتة. إن مجرد معرفة هيأتي الجديدة من المعارف، إن لم تكن مبررة، فهي غير صحيحة. ولكني شعرت بأن الرفيق هيثم اعتبر تمنعي مبالغة في الحذر إن لم يكن خوفاً، حيث تعهد بتحمل مسؤولية أي نتيجة سلبية. ولم أكن أتحمل مثل هذا الانطباع السيئ عني ليس لأسباب شخصية فحسب، وإنما للحفاظ على علاقات سليمة بين المسؤول ورفاقه والتي لا يمكن أن تكون كذلك ولدى الآخرين انطباع بأن مسؤولهم غير جريء، لذلك وافقت على مقترحه، وخرجنا من البيت سوية.

الرفيق هيثم الصكر

لم يكن هناك ازدحام في الشارع أما المحل فلم يكن فيه ولا زبون واحد، وما أن دخلناه حتى قال لي الرفيق هيثم: " شوف ولا نفر، ما كتلك".

ابتعتُ ما أحتاج اليه وهممنا بالخروج، وما أن وضعنا خطوتين باتجاه باب المحل بهدف الخروج للشارع، حتى دخل المحل صديقي الرفيق علي النوري. لم يصدق علي عينيه، بادئ ذي بدء، فخلع نظاراته ليمسحها وقبل أن يعيدها كنا قد اقتربنا جداً فعرفني حتى بدون نظارات، ففتح ذراعيه وصاح جا .. وأغلق فمه ولم يكمل اسمي. وكنا قد تعودنا،الرفيق علي النور وأنا، على أن ينادي أحدنا ألآخر باسمه الأول، كما كان الحال في شبابنا. ابتعد عني الرفيق هيثم ليغيّب وجهه. عاد علي يتكلم بصوت عالٍ فقال:"والله آني گلت هسه إنت هنا" (يقصد في العراق)

ـ علي نصي صوتك أحنا بمحل عام ... ليش باقي لي هسه، مو گتلك سافر؟
ـ ها إتخاف علي أنهار بالتعذيب؟ ... آني مدبر حالي هسه.
ـ مو هذا قصدي ... أصلاً حرامات توگع بيد هذوله المجرمين الكلاب. تره هالمرة مو مثل ذيج المرة، وافترقنا.

في الحملة الإرهابية في زمن ناظم كزار، خدع الرفيق علي النوري البعث وتظاهر بأنه قد ترك العمل السياسي ... وبعلم قيادة المنظمة المسبق. يبدو أنه أراد تطبيق تلك التجربة الناجحة على ظرف مختلف. وقد زرنا، أم شروق وأنا زوجة علي الفاضلة وأبناءه في خراسان عام 1984، وكانت بمعنويات عالية. وقد خصص لها صديقنا المشترك العزيز كاظم الصايغ مرتباً شهرياً كمساعدة. ولم تكن هي أصلاً في ضائقة مالية فقد كانت تعمل كمعلمة. وقد عادت للعراق بعد سقوط النظام واسترجعت بيتها وعادت إلى وظيفتها. شوهد الرفيق علي آخر مرة في 31 آب 1981 من قبل أخي مجيد في معتقل كربلاء الانفرادي بلحية طويلة جداً وقد صُفي أخيراً لأن هامش مناوراته مع العدو قد تقلص ووصل إلى الخطوط الحُمر التي لم يكن مستعداً لتجاوزها.

أعود للرفيق هيثم فقد التقيته بعد خروجي من المحل فقلت له: "ها ... هاي التريدها؟" قلت له ذلك لأنه كشف غير مبرر، في عرف العمل السري، فوجودي في العراق وهيأتي الجديدة المتخفي بها، يجب الحرص على إبقائهما محصورين في أضيق نطاق. " توقعت هذا السؤال ومحضّر لك الجواب، هاي أول مرة وآخر مرة تطلع للسوق... التوبة!" أجاب هيثم.

عرفت لاحقاً بأن الرفيق علي النور جلب أحدى الرفيقات من كربلاء إلى باب محل أشقائي في الكاظمية طالباً منهم إيصالها لي، لحراجة وضع الرفيقة الأمني. وكان يؤكد لهم وجودي أمام نفيهم لذلك. ولم يستلموها.

* أصبت في أحدى الليالي في بيت الرفيق هيثم بذبحة صدرية، أخبرني هيثم بأن العائلة قلقة وإن أخته (ربة البيت) تستفسر إلى مَن يتوجهون لو وافاني الأجل، فهم

لا يعرفون أي عنوان أو طريق يوصل لأهلي. فوجئت بالطلب ولم يخطر ببالي أن أموت بهذه الطريقة في الأربعينيات من عمري. أعطيتهم الحق في قلقهم وطلبهم، و لكن لم أتخذ أي إجراء، ومن ثم نسيت الأمر.

المغادرة

وصلتني رسالة وكانت بخط الفقيد ثابت حبيب العاني (أبو حسان) تطلب مني السفر للخارج وقد غادرت العراق في العشرة الأخيرة من تشرين الثاني 1979، أي بعد ثلاثة أشهر من سفر باقر إبراهيم وليس بعد بضعة أسابيع، كما جاء في مذكراته. وقد سلمت كل ما لدي من إمكانيات بما فيها المالية والرفيق هيثم صكر بإمكانياته المتنوعة للرفيقة عائدة ياسين.

الخلاصة

لقد تعرض عشرات الألوف من الشيوعيات والشيوعيين وأصدقائهم للاعتقال والتعذيب، في حملة القمع الوحشية الأخيرة والتي استمرت حتى سقوط سلطة البعث. واستشهد المئات والمئات من خيرة كوادر الحزب وأعضائه، من بينهم الدكتور صفاء الحافظ والدكتور صباح الدرة، وكذلك الكثير من نشطائه في حركة الأنصار. ولم يقتصر القمع الوحشي على الشيوعيين وأصدقائهم فحسب، بل شمل ذلك جميع القوى الديمقراطية، بما في ذلك الأحزاب الكردية، والقومية المعتدلة وحزب الدعوة وغيرها من القوى والشخصيات المعارضة للنظام.

واستمر القمع حتى سقوط النظام الدكتاتوري محملاً بأوزار المقابر الجماعية وحملات الأنفال سيئة الصيت واستخدام الأسلحة الكيمياوية في حلبجة وغيرها. انهار النظام مخلفاً وراءه مئات الألوف من المعوقين والأرامل والأيتام، جراء حروبه العبثية. هذا إضافة إلى الجهل والفقر والفساد الإداري والولاء الطائفي بديلاً عن الولاء للوطن. وعمت ثقافة العنف والإجرام والسلوك الوحشي لأيتامه الذين تحالفوا مع قوى الإرهاب العالمي، من أيتام ونسل نظام طالبان المقبور، للقيام بالقتل الجماعي لأبناء الشعب العراقي بمن في ذلك النساء والأطفال والشيوخ الأبرياء، وتدمير البنية التحتية للبلد، بحجة مقاومة المحتل. إنهم يستهدفون، في حقيقة الأمر، العملية السياسية التي قضت على سلطتهم ومصالحهم غير المشروعة وإلى الأبد.

ومن تحت هذه الأنقاض وما خلفته عواقب الحرب التدميرية من خراب في مؤسسات الدولة، تنهض روح العراق المتمثلة بكل القوى الديمقراطية المكافحة والتواقة لإقامة نظام ديمقراطي اتحادي مستقل يحقق طموح الشعب الكردي في تقرير مصيره، ويقيم مجتمعاً مدنياً ودولة قانون قائمة على فصل السلطات وفصل

الـدين عـن الدولـة. وضـمان حقـوق الإنسـان ومسـاواة المـرأة بالرجـل فـي الحقـوق والواجبات، نظاما يضمن حقوق مختلف القوميات كالتركمان والكلدان والآشوريين والأقليـات الدينيـة. وبـذلك لا يـتخلص الشـعب العراقـي مـن دوامـة القمـع الوحشـي حسب، بل ومن كل أشكال العنف السياسي والطائفي.

من شهداء القمع الوحشي

الرفيقة عائدة ياسين (أم علي)

الرفيق ستار خضير

الرفيق محمد الخضري

13
سنوات بين دمشق وطهران

في دمشق

ذكرت في مسلسل القمع الوحشي بأني غادرت العراق في نهاية 1979. سافرت بجواز سفر أردني مزوَّر إلى الكويت برفقة عائلة كريمة ومن ثم إلى موسكو عبر براغ. لم تطل فترة بقائي في موسكو. التقيت الرفيقين عزيز محمد وباقر إبراهيم وقدمت لهما تقريرا شفويا عن الوضع في الداخل وعن الإجراءات التي اتخذتها قبل مغادرتي. والتقيت لأول مرة، بعد افتراقنا في بغداد، بأم شروق التي كانت قد باشرت الدراسة في معهد العلوم الاجتماعية في موسكو. ومن ثم التقينا بأبنائنا في المدرسة الأممية الداخلية ستاسوڤا في مدينة إڤانوڤا الواقعة على بعد 300 كم في الشمال الشرقي من موسكو. غادرت موسكو متوجها إلى دمشق، بجواز سفر يمني صادر من السفارة اليمنية في موسكو، في اليوم الثاني من كانون الثاني 1980 تنفيذا لقرار حزبي بلغت به من قبل الرفيق عزيز محمد. والتحقت بي أم شروق بعد شهر واحد.

أم شروق ـ دمشق عام 1980

أقمنا في دمشق في شقة كبيرة نسبيا، منحها الحزب الشيوعي السوري لحزبنا لمدة سنة واحدة، والتحق للإقامة فيها معنا الرفيق باقر إبراهيم وزوجته. وأقام فيها بشكل مؤقت العديد من الرفاق على سبيل المثال: عبد الرزاق الصافي وعامر عبد الله وماجد عبد الرضا وثابت حبيب العاني وزكي خيري وسواهم. وكانت الشقة بمثابة مقر لعمل قيادة الحزب، ففيها تعقد اجتماعات أعضاء اللجنة المركزية المتواجدين في سوريا ولبنان، وفي هذه الشقة نوقش وأقر بيان اللجنة المركزية الذي أدان عدوان الحكومة العراقية على إيران في 22 أيلول 1980. كما كانت تعقد في الشقة أحيانا اجتماعات المكتب السياسي.

شكلت في دمشق هيئة حزبية صغيرة سميت (ناظم) من الرفيق باقر إبراهيم سكرتيرا وعضوية الرفيق مهدي عبد الكريم وأنا. كانت (ناظم) بمثابة لجنة تنظيم مركزية ترتبط بها جميع المنظمات خارج الوطن والعقد التنظيمية في الداخل باستثناء كردستان، التي كانت تحت إشراف المكتب السياسي ضمن الاستعداد للتهيئة للكفاح المسلح. وقد قررت اللجنة المركزية حل لجنة (ناظم) في اجتماعها

المنعقد في موسكو في حزيران عام 1980. كانت هناك لجنة لتنظيم الرفاق الموجودين في سورية وتنسق مع منظمة لبنان في بعض الشؤون اليومية و تتكون من الرفاق صاحب الحكيم وجميل الياس ومحمد النهر وكنت سكرتيرها. وكانت ترتبط بي بعض العقد التنظيمية في داخل الوطن.

قضينا أم شروق وأنا أكثر من عام واحد في الشام زارنا فيها أخي حميد، ما أن استلم مني خبرا وعنواناً للصلة بي في دمشق. ومن ثم زارنا أخي خليل وعائلته وحميد وعائلته أثناء وجود أبنائنا. ولم تكن تدابير الصيانة تسمح باستضافتهم في شقتنا فأقاموا في فندق. وكانت أحوال أخوتي المالية جيدة فقضينا أوقاتاً ممتعة. وقد جاء خليل بسيارته الخاصة فتجولنا بها لمشاهدة الكثير من المناطق الأثرية والسياحية من بينها تدمر ومعلولة وبلودان وعين خضرة وعين فيجة وسواها. وقضينا بضعة أيام في اللاذقية على ساحل البحر. وزوداني الأخوان ببعض النقود لمواجهة متطلبات أبنائنا. وزارتنا كذلك أم نغم أخت أم شروق وأقامت في الشقة معنا. وقمت مع العائلة بسفرة إلى لبنان لمدة أسبوع قضيناها في المدرسة الحزبية، الواقعة في جبل لبنان الرائع، والتابعة للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والتي كان يديرها ويدرس فيها رفاقنا. كانت إقامتنا في دمشق بمثابة سفرة سياحية. لم نشعر في سوريا بالغربة لوجود العديد من عوائل رفاقنا وأصدقائنا ولتماثل البيئة ولمشاعر السوريين الطيبة تجاه العراقيين.

المؤلف مع الرفيقة نزيهة الدليمي والرفيق عبد الرزاق الصافي ـ دمشق في نهاية عام 1980

إلى طهران

في نهاية عام 1980، وعندما كان الرفيق عزيز محمد يهم بالخروج من باب شقتنا سلمني رسالة وقال لي: "الرسالة من المكتب السياسي وهي لك".

قال ذلك وغادر بسرعة قاطعا علي الطريق بأي سؤال. كانت الرسالة تتضمن قرارا يقضي بانتقالي إلى إيران لاستلام مسؤولية المنظمة وتمثيل الحزب أمام الجهات السياسية التي لنا علاقة بها. لم أجد تفسيرا لعدم التشاور معي قبل اتخاذ القرار، خاصة وإن اثنين من أعضاء المكتب السياسي كانا يقيمان معي في نفس الشقة آنذاك وهما الرفيقان زكي خيري وثابت حبيب العاني. خمنت بأن تسليمي الرسالة، بالطريقة التي مر ذكرها، لم تكن سوى محاولة لتحاشي مناقشتي. وقد وافقت مباشرة على تنفيذ القرار لا لتجنب الدخول في إيراد ومصرف، كما يقول المثل العراقي، مع المكتب السياسي، وإنما لقناعتي بأن الموقع هو المكان الملائم بالنسبة لي في ذلك الوقت. فقد كانت وجهة الحزب هي العودة من الخارج إلى كردستان العراق لخوض الكفاح المسلح ضد النظام الدكتاتوري، والانطلاق من هناك لإيجاد تنظيمات في المنطقة العربية من العراق. وكانت طبيعة إمكانياتي ككادر ميداني تنسجم مع وجودي في وسط هذه المعمعة. ولكن استخدامي لسماعة الأذن كانت تحول دون تحقيق ذلك، فبطاريات السماعة يجب شحنها وهذا يتطلب توفر الكهرباء، والسماعة بحاجة إلى صيانة وتصليحات وكل ذلك غير متوفر في جبال كردستان بالطبع، وتتوفر في المدن الكبيرة فقط. وإلى جانب ذلك فإن موقعنا في إيران أخذ يتحول إلى أحد القواعد الخلفية الأكثر أهمية لقواعد قوات الأنصار. وإيران لا تعتبر موقعا حزبيا آمنا فمنظمتنا تعمل بشكل سري، خاصة بعد أن ألقي القبض على الرفيق عادل حبه عضو اللجنة المركزية مسؤول المنظمة في طهران في ربيع عام 1980. ولم يكن من تقاليدنا الحزبية التهرب من المسؤوليات التي تحيط بها المخاطر. كل هذه العوامل دفعتني إلى الموافقة على قرار المكتب السياسي حتى دون الاستفسار عن حيثياته ولا عن أسباب الطريقة غير العادية لإبلاغي به.

عملية جراحية فاشلة

استقبلت أم شروق خبر موقعنا الجديد بترحاب وشجعتني عليه. كان تحفظي الوحيد والذي بحت به لأم شروق، هو إن موقعي الجديد سيبعدني عن مركز ثقل نشاط الحزب لأن موقع قيادة الحزب سيكون في كردستان، وهذا ما لا أرغب به. وبقي أمل الالتحاق بكردستان متوقفا على إجراء عملية جراحية ثالثة للأذن، وهذه المرة ليس في موسكو وإنما لدى أشهر طبيب جراح في المانيا. وأجرى لي الطبيب المشهور العملية في بداية عام 1982 في برلين الشرقية. وفشلت العملية الجراحية فشلاً ذريعاً، وفقدت السمع نهائيا في أذني اليسرى، حيث أتلف الجراح عصبها

السمعي خلال العملية. وكانت الطبيبة التي تقرر إجراء العملية قد نصحتني بعدم إجرائها وسألتني: " لماذا تريد إجراء عملية لأذنك وأنت تسمع جيدا بواسطة السماعة؟".

- أريد أن أتحرر من السماعة فهي تعيق حركتي وتلزمني بالإقامة في أماكن محددة.
- ولكن العملية فيها مجازفة فقد تفقد سمعك.
- ولكن نجاحها له أهمية فائقة بالنسبة لي.
- أنا أنصحك بعدم المجازفة والأمر متروك لك.
- مادام الأمر متروك لي، فأنا قررت إجراءها.

عند خروجي من المستشفى وتوديع الطبيبة إياها استفسرت منها مازحا :

- ألا تعطيني موعداً لإجراء عملية لأذني اليمنى؟!
- لا يوجد طبيب يجري عملية جراحية لأذن لمن فقد السمع بأحد أذنيه. أجابت بهذه الجدية والحسم الألمانيين ولكن بلهجة ودية حيث كانت تعرف بأني أمزح معها وأروم تأكيد عدم مسؤوليتها عن فشل العملية.

محمد أمين

لنعد إلى قرار الحزب، فبعد حديثي مع أم شروق وفي نفس ذلك اليوم الذي استلمت فيه الرسالة، وقبل عودة الرفيقين زكي خيري والعاني إلى الشقة، ذهبت إلى مكتبات دمشق واشتريت كتابين لتعلم اللغة الفارسية، وعند عودتهما وجداني منكبا على دراسة اللغة الفارسية! درست اللغة بجدية تامة. كنت أعرف بعض الأوليات التي تعلمتها وأنا في مسقط رأسي كربلاء. كنت أفهم الحديث اليومي باللغة الفارسية وأتمكن من الإجابة باختصار. فقد كان بيتنا الذي نشأت فيه يقع في محلة العباسية الشرقية (المگلع) التي نادرا ما تسكنها أو تزورها عوائل إيرانية ولا تُسمع فيها اللغة الفارسية، ولكن في خان أبو الدهن ، حيث يقع محل عملنا، يتفاهم أكثر من خمسين عامل وحرفي باللغتين العربية والفارسية.

وأتذكر بأن الرفيق عبد الرزاق الصافي فاجأني خلال وجودنا في صوفيا عندما أخبرني بأن علي أن أقوم بالترجمة في اللقاء المقرر عقده بين وفدنا ووفد حزب توده إيران ، على هامش مؤتمر الحزب الشيوعي البلغاري الذي انعقد عام 1976، فقد اعتذر البلغار عن توفير مترجم وكان من المتعذر تأجيل اللقاء. فاعتذرت لعدم إحاطتي باللغة السياسية والأدبية الفارسية، فطلب الصافي مني أن أجرب وإذا تعذر التفاهم فسنتحول إلى اللغة الروسية. وكان وفدنا برئاسة الرفيق عزيز محمد وعضوية الرفاق الصافي وآرا خاجدور وأنا، أما الوفد الإيراني فقد كان برئاسة الرفيق أيرج إسكندري سكرتير اللجنة المركزية ولكن نورالدين كيانوري عضو الوفد هو الذي تحدث في اللقاء! وفعلا لم أتمكن من أداء مهمة الترجمة وتحولنا إلى اللغة الروسية، وكنا أربعتنا ضعيفين بها.

تأخر سفرنا إلى طهران لبضعة أشهر لأسباب فنية تتعلق بتوفير جوازات السفر الملائمة لي ولأم شروق. وخلال هذه الفترة تعلمت القراءة باللغة الفارسية وواصلت تعلمها ذاتيا في إيران وأخذت أترجم المواد السياسية التي تنشر في الصحف وأدبيات المعارضة التي نقدر بأن من المفيد اطلاع قيادة الحزب وجهاز إعلامنا عليها. وترجمت كراسا مهما لقائد منظمة فدائيي خلق - الأكثرية فروخ نگهدار، طبعه الحزب في كراس ونشر في مجلة النهج أيضاً. كنت أتفاهم باللغة الفارسية بدون أي مشكلة وأفهم أي حديث سياسي أو أدبي ولكن لم أتحدث بطلاقة في هذا المجال، ولم أتعلم الكتابة لعدم حاجتي لها ضمن مهمتي المكلف بها. إن تعلم اللغة ساعدني على متابعة الوضع السياسي بشكل جيد فكتبت بضعُ مقالات نشرت في الثقافة الجديدة تعالج بعض جوانب الوضع السياسي، وهي الآن غير موجودة في متناول اليد. أتذكر عنوان أحدى المقالات وكان "إلى أين تسير الثورة الإيرانية ؟" وكتبته بعد الضربة التي وجهت إلى حزب توده إيران . وكنت أنشر، خلال وجودي في إيران، باسم مستعار وهو محمد أمين.

في طهران لأول مرة

في آذار عام 1981 سافرنا أم شروق وأنا ومعنا الفقيد مهدي عبد الكريم إلى طهران. في مطار طهران كان التفتيش دقيقا وصادروا راديو الفقيد مهدي عبد الكريم لأنه يحوي موجة F M !

المؤلف وعائلته، صفاء بين أمه وأبيه وشروق وسفانة. أخذت الصورة في دمشق عام 1981 عشية فراق طويل نسبيا بين الوالدين والأبناء

استقر بنا المقام، أم شروق وأنا، في بيت الرفيق فلاح، مسؤول المنظمة الذي كان يقيم مع عائلته المهجرة في جنوب طهران. والعائلة من معارفنا في بغداد. ومعرفتي وصداقتي الشخصية مع فلاح تعود إلى عام 1964 حيث باشرنا بإعادة بناء منظمة بغداد وكان عضوا في مكتب لجنة المنطقة وكنت سكرتيرها. ومن ثم التقينا في المنطقة الجنوبية وكان أيضا في مكتب لجنة المنطقة وسكرتيرا للجنة محلية البصرة وكنت سكرتيراً للجنة المنطقة. كنا منسجمين ومتفاهمين وكانت علاقتنا ودية، لذلك فقد فرحنا للقائنا مرة أخرى. وتوقعنا نتائج مثمرة ونجاحا في مهمتنا.

التأشيرة في جوازاتنا تسمح لنا بالبقاء لمدة شهر واحد قابلة للتمديد لفترة قصيرة. ومن المتعذر الحصول على إقامة بالاعتماد على جوازاتنا، فكانت المهمة الملحة أمامنا هي إيجاد وثائق شخصية تسمح لنا بالإقامة في إيران بشكل شرعي، وقد تم إنجازها بيسر. كنت أحمل هوية المهجرين العراقيين الخضراء الأصولية والصادرة من دائرة رسمية باسمي الصريح، بدون لقب. كانت أوليات المعاملة نصف ورقة مكتوب عليها بضعة كلمات فقط وهي: "إلى من يهمه الأمر... حامل الورقة كان

لاجئا في معسكرنا". مع ختم وتوقيع وتاريخ واسم معسكر من المعسكرات الملغية. فبدلنا الاسم فقط . رافقني إلى الدائرة رفيق طيب وبسيط كمترجم. استفسر مني المسؤول في الدائرة: "هل أنت عراقي؟"

ـ باله، أجبته بالفارسية ، نعم.
ـ ما هي مهنتك؟.
ـ تاجر.
فجأة قاطعنا مرافقي وانبرى قائلا:
ـ أستاذ لا تهتم لمنظره (الفقير) فهو ليس كذلك ، فلديه حقيبة دبلوماسية ولم يجلبها خوفا من سرقتها من راكبي الدراجات النارية!

لم يطرح المسؤول أي سؤال إضافي علي بعد سماع ما قاله مرافقي. فمنحني الهوية دون إطالة. وكان من حقي تسجيل أسماء أفراد عائلتي في الهوية فسجلت اسم أم شروق الصريح. وظلت "الحقيبة الدبلوماسية" موضع تندرنا لفترة من الوقت بيني وبين الرفيق فلاح.

طهران

العاصمة طهران مدينة كبيرة جداً. إنها مدينة عملاقة بحجمها وعمرانها وكثافة سكانها (حوالي 14 مليون نسمة الآن) وجميلة بشوارعها العريضة والمشجرة وبساحاتها ومتنزهاتها الواسعة. تقع المدينة في شمال إيران على السفح الجنوبي لجبال البرز، وعلى ارتفاع 1200 متر فوق سطح البحر، وفي شمال السهل المركزي لإيران. و مما يزيد طهران جمالا هو وجودها بمحاذاة جبل دماوند المغطى بالثلوج طوال أشهر السنة والذي يمكن مشاهدته من جميع أنحاء طهران، وهو جبل مخروطي الشكل وبركان خامد منذ ملايين السنين. ويتمتع أهالي طهران بالتزلج عليه خاصة في فترات الشتاء.

كانت طهران عبارة عن قرية ملحقة بالعاصمة التقليدية السابقة مدينة رَي، التي دمرها المغول في عام 1220، وتحولت إلى عاصمة في نهاية القرن الثامن عشر. وبنيت بشكل حديث في عهد رضا خان مؤسس الدولة البهلوية في الربع الأول من القرن العشرين. ومن أعالي جبل البرز تنحدر الشوارع وعلى جانبيها قنوات مياه الأمطار ومياه الثلوج المذابة حتى جنوب المدينة . وأجمل وأطول وأشهر شارع فيها هو شارع مصدّق ([38] *) (خيابان مصدّق) والذي تحول لاحقا إلى شارع ولي العصر (خيابان ولي عصر) وهو يخترق المدينة من أقصى شمالها إلى أقصى

[38] ـ * مصدّق رئيس وزراء إيران الأسبق والذي أممت حكومته شركة النفط البريطانية وذلك في عام 1951 وألغي قرار التأميم بعد إسقاط حكومته في عام 1952 بانقلاب الجنرال زاهدي وهو الانقلاب الذي خططت له وأشرفت على تنفيذه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

جنوبها وطوله أكثر من 10 كم. وهو شارع مشجّر بكثافة وعامر بالمحلات التجارية والفنادق والمطاعم والكثير من العمارات الشاهقة وتقع فيه العديد من دور السينما.

يتقاطع شارع ولي عصر وكذلك الشوارع الأخرى المنحدرة من الشمال بشوارع عمودية تمتد من الشرق إلى الغرب بحيث يتحول الكثير من أحيائها السكنية إلى مربعات هندسية . ومن أهم هذه الشوارع هو الشارع الذي يمتد من ساحة الإمام الحسين (ميدان إمام حسين) شرقا حتى ساحة الحرية (ميدان آزادي) غربا، مرورا بساحة فردوسي (ميدان فردوسي) وساحة الثورة (ميدان انقلاب) ويحمل الشارع اسمين الأول: شارع الثورة (خيابان انقلاب) وهو الذي يقع شرق ساحة الثورة والثاني: شارع الحرية (خيابان آزادي) وهو الذي يقع غربها. وتعد ساحة الحرية أكبر ساحة في طهران ويتوسطها معلم بارز وهو نصب الجندي المجهول الذي يشاهد على شاشة التلفاز برفقة أخبار إيران. وتتسع الساحة لمليوني إنسان.

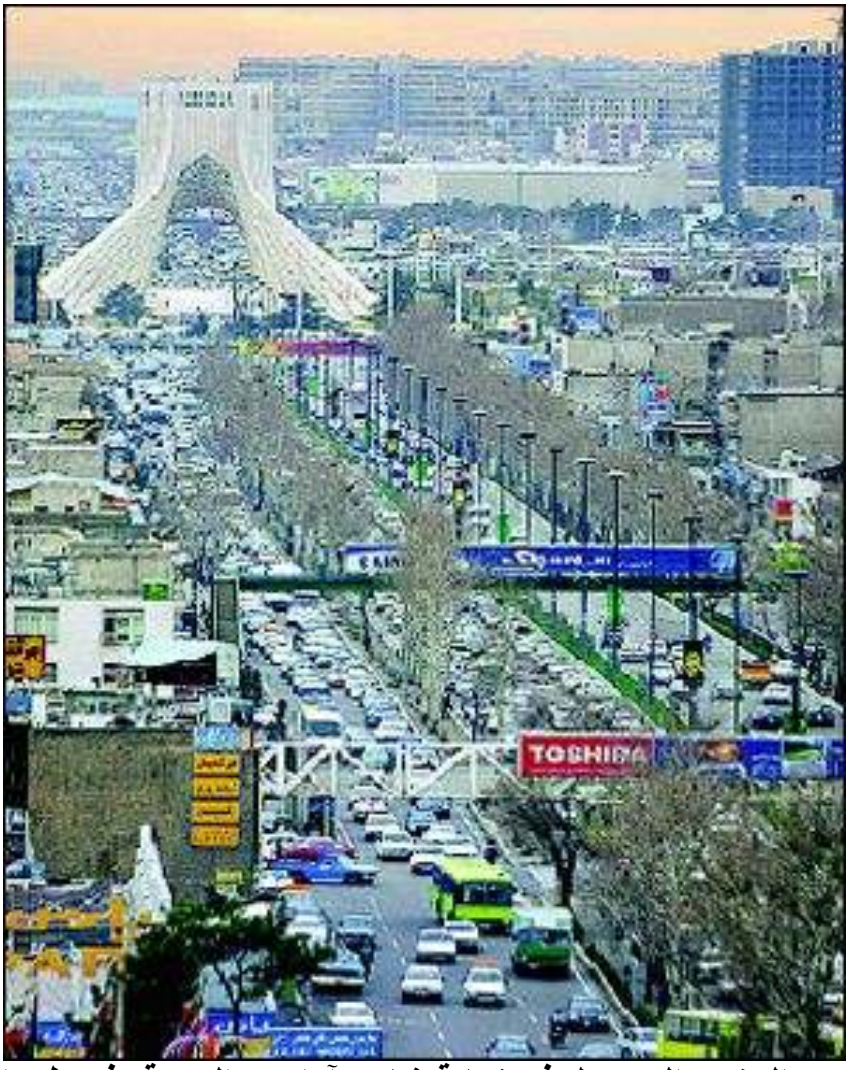

نصب الجندي المجهول في نهاية شارع آزادي (الحرية) في طهران

وهناك ساحات واسعة ومهمة تجاريا ولكن لا يعتبر أي منها مركزا(سنتر) للمدينة. ومن الساحات الكبيرة جدا والهامة هي ساحة الثورة (ميدان انقلاب) وتقع غرب تقاطع شارع مصدق وغير بعيد عنه. وساحة خراسان (ميدان خراسان) والتي تقع في جنوب طهران وساحة خميني (طوب خانة سابقاً) والتي تقع فيها بناية التلفونات المركزية، و على مسافة غير بعيدة من الساحة يمتد بازار طهران الشهير وهو أكبر سوق تجاري في إيران وكان له دور ووزن كبير في السياسة قبل سيطرة رجال الدين على السلطة وبعده. أما جامعة طهران، والتي تقام فيها صلاة الجمعة، فتقع في شارع الثورة بالقرب من ساحة الثورة. وتوجد أكبر وأشهر محلات بيع الكتب في الجهة المقابلة للجامعة.

وهناك العديد من المتنزهات الجميلة المنتشرة في المدينة ومن أكبرها وأوسعها متنزه الأمة (بارك ملت) ويقع في شمال المدينة. وعلى أعالي سفح جبل البرز تقع مصايف طهران سربند ودربند في شمرانات والتي يلجأ إليها الطهرانيون لتفادي حر الصيف الجاف. وكنا نصطحب الرفاق المتوجهين إلى كردستان إلى مشاهدة هذه المصايف التي شوه روحها النظام الجمهوري الإسلامي بتحريمه الموسيقى والغناء والسفور وتنوع المشروبات ووسائل اللهو البريئة، بما في ذلك الشطرنج.

إيران واسعة جدا مساحتها حوالي 1,6 مليون كيلو متر مربع. والفرق بين درجة الحرارة بين محافظة أذربايجان الغربية في غرب إيران ومحافظة بلوجستان في شرقها تصل أحيانا إلى 35 درجة وأكثر! فلا غرو أن يجد المرء بعض أنواع الخضر والفواكه الطازجة، في غير موسمها، في أسواق طهران. فالبطيخ الأحمر (رقي) على سبيل المثال لا الحصر، موجود على مدار السنة في أسواق العاصمة. هواء طهران شديد التلوث جراء كثافة وسائط النقل في المدينة ولاستخدام النفط في الصناعة والتدفئة. ولم يتمكن النظام من معالجة هذه المشكلة البيئية التي ورثها من نظام الشاه بل فاقمها.

إن الانقسام الطبقي الحاد بارز للعيان لمن يزور شمال طهران وجنوبها. وكانت مهمتي تتطلب زيارة أحد التجار في شمال المدينة ومن ثم زيارة الرفيق فلاح مباشرة في جنوب المدينة فكنت ألاحظ التناقض والاختلاف في كل شيء. فهناك الغنى والرفاهية في شمال المدينة من جهة، والفقر والبؤس في جنوب المدينة من جهة أخرى. ويلاحظ هناك اختلاف كبير حتى في العادات والتقاليد. كان ذلك يذكرني دائما بكلمة واحدة قالها فردريك انجلز عندما تجول بعربة لمشاهدة الأحياء الفقيرة في لندن نهاية القرن التاسع عشر وهي: "أمتان" (مثنى أمة). لقد استمر هذا الانقسام الطبقي بل وتعمق أكثر في ظل سلطة رجال الدين.

تطلب الأمر بعد حصولنا على الهوية، العثور على مسكن لنا في طهران. وقد عثرنا على شقة صغيرة في الطابق الثالث في بيت من ثلاثة طوابق يقع بالقرب من ساحة الثورة. صاحب البيت وعائلته كانت تقيم في الطابق الأول، وفي الطابق الثاني كان يقيم ابن صاحب البيت وزوجته. لم نكن نحتاج إلى الكثير من الأثاث، إذ أن معظم الإيرانيين يجلسون ويأكلون ويستقبلون ضيوفهم على الأرض. تبرع لنا أحد التجار من أصدقائنا بتلفزيون صغير، أسود وأبيض، وثلاجة صغيرة. واكتفينا بشراء الفراش ودولاب ملابس وأدوات مطبخ. وحصلت على البطاقة التموينية من الجامع. وأراد المسؤول أن يمارس دوره في "النهي عن المنكر" فنبهني إلى خاتم الزواج الذهبي في إصبعي ولم أفوتها له لمقتي الأشخاص الذين يتدخلون في خصوصيات الآخرين، وقلت له: "أنا ابن كربلاء وأعرف ما هو الحلال وما هو الحرام". فصمت وهز رأسه معبرا عن عدم قناعته.

ملامح الوضع السياسي في إيران عند وصولنا

عندما وصلنا إلى طهران عاصمة إيران في ربيع عام1981 لم يكن رجال الدين المتشددون والمتهالكون على السلطة والجاه قد أحكموا سيطرتهم على الوضع، رغم مرور سنتين على اندلاع الثورة. كان الوضع السياسي متأزما بسبب احتدام الصراع بين الليبراليين من جهة ورجال الدين المتشددين من جهة أخرى. كان تاريخ إيران يكتب بسرعة فائقة في تلك الأيام، فلم ينته صيف ذلك العام إلا وقد أحكم رجال الدين، الموالون لولاية الفقيه قبضتهم على السلطة بانقلاب "شرعي".

كان الليبراليون ممثلين بالسيد أبو الحسن بني صدر بوصفه رئيسا للجمهورية وقائدا عاما للقوات المسلحة وحليفه المهندس مهدي بزركان زعيم حركة الحرية (نهضت آزادي) وفريقه في مجلس الشورى الإسلامي (البرلمان) المتحالف مع نواب الجبهة القومية (جبهه ملى) . وكان الليبراليون مدعومين، عملياً، من أكبر قوة سياسية جماهيرية منظمة ومعارضة للنظام في الشارع، ألا وهي منظمة مجاهدي الشعب الإيراني (مجاهدى خلق إيران) بزعامة مسعود رجوي. ومدعومين أيضا من الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني ومنظمة فدائيي الشعب الإيراني ـ الأقلية (فدائى خلق إيران ـ أقليت) ومنظمات يسارية أخرى مثل الكفاح والكادحين وكوملة و...الخ

لقد ساهمت جميع تلك القوى السياسية وسواها في الثورة الإيرانية. إن أول خلاف هام شق صفوفها هو الموقف من طبيعة النظام كونه الجمهورية الإسلامية (جمهورى إسلامى) في مسودة الدستور. وعارضت هذه الصيغه جميع الأحزاب والقوي السياسية الليبرالية وحلفائها، وكذلك حزب توده (الحزب الشيوعي الإيراني) وفدائيي الشعب الإيراني ـ الأكثرية (فدائى خلق إيران ـ أكثريت) ، وطرحت هذه القوى بدلا عنها جمهورية ديمقراطية إسلامية. وخلال المناقشة

صرح الخميني تصريحه الاستبدادي المعروف: "جمهورية إسلامية، بدون حرف زيادة أو نقصان". أما التعارض الثاني فكان حول تكريس موضوعة "ولاية الفقيه" في مسودة الدستور، خلال مناقشتها في البرلمان، وقد عارضته نفس القوى التي عارضت صيغة هوية النظام.

لقد اكتفى الليبراليون وحزب توده بتحفظاتهم التي أبدوها في المجلس التأسيسي وصوتوا بـ(نعم) في الاستفتاء على مسودة الدستور. وصوت بـ(لا) كل من مجاهدي الشعب والحزب الديمقراطي الكردستاني ومنظمة فدائيي الشعب - الأقلية، ومنظمات يسارية أخرى مثل الكفاح والكادحين و...الخ وكذلك منظمة جماهيرية كبيرة وهي منظمة فدائيي الشعب - الأكثرية. ولكن المنظمة الأخيرة أخذت تقترب سياسيا وأيديولوجيا من حزب توده. ولم تعد معارضة للنظام في ربيع عام 1981.

وهناك حدثان سياسيان هامان صدّعا العلاقة بين الليبراليين ورجال الدين المتشددين، الأول هو استيلاء الطلبة المؤيدين لنهج الخميني على السفارة الأمريكية وحجز جميع العاملين فيها كرهائن وذلك في 4 تشرين الثاني 1979 . والثاني هو الحرب العراقية - الإيرانية التي اندلعت في 22 أيلول 1980، ووجه التصدع هنا ليس في الموقف من الغزو الأجنبي على بلادهم، فقد كانوا موحدين على ضرورة إلحاق الهزيمة بالمعتدي، وإنما مَن الذي يقود الانتصار، هل هو الجيش مدعوما من الليبراليين، أم الحرس الثوري المدعوم من رجال الدين المتشددين؟ على هذا الأمر جرى صراع مرير سنتلمس عواقبه في سياق الموضوع.

الطرف الثاني في الصراع مثله هاشمي رفسنجاني رئيس البرلمان وآية الله بهشتي رئيس مجلس القضاء الأعلى والأمين العام للحزب الجمهوري الإسلامي ومحمد علي رجائي رئيس الوزراء وعلي خامنئي ممثل الإمام في مجلس الدفاع الأعلى وخطيب صلاة الجمعة في طهران، وتدعمهم غالبية برلمانية إضافة إلى الحزب الجمهوري الإسلامي والحرس الثوري (الباسدار) وحزب الله ومنظمة التعبئة (البسيج) المسلحة وسواها من المنظمات التي كانت تحت سيطرة رجال الدين. ويتلقى هذا التيار الدعم من غالبية رجال الدين وليس جميعهم. فقد نأى غالبية آيات الله العظمى بأنفسهم عن السلطة ونهج الخميني وخاصة شريعتمداري الأكثر نفوذاً في آذربايجان والذي أتهم بمساهمته في مؤامرة لقلب نظام الحكم. وقد شاهدته على شاشة التلفاز يدلي باعترافاته!

وفي الوقت الذي كان فيه نفوذ الليبراليين أقوي بين قادة الجيش، فإن الحرس الثوري كان تحت سيطرة رجال الدين بالمطلق. وقد لعب الصراع بين الحرس والجيش دورا مضرا وخطيرا في الحرب لصالح استمرار احتلال صدام لأراضي خمس محافظات إيرانية وإفشال الكثير من الخطط العسكرية بسبب التجاذب بين

الحرس والجيش. فقد كان رجال الدين و قادة الحرس الثوري يضغطون لتنفيذ خطط عسكرية لم تنضج مستلزماتها معتبرين نداء الله أكبر أثناء الهجوم بديلا أكثر فعالية من تلك المستلزمات، ومستجيبين لضغط جماهير الباسدار المتلهفين لملاقاة حور العين. وعندما آلت الأمور إلى رجال الدين، خاضوا العديد من المعارك العسكرية الفاشلة وقدموا تضحيات بشرية جسيمة غير مبررة، معزّين أنفسهم وذوي الضحايا بالجنّة.

وكان موقف الخميني في البدء محايداً بين اللبراليين وبين رجال الدين المتهالكين على السلطة التنفيذية وفي مقدمتهم هاشمي رفسنجاني وبهشتي وخامنئي. وكان الخميني لم يزل مصراً على فتواه بعدم تبوء رجال الدين مسؤوليات في السلطة التنفيذية. ولكن لم يرق لهؤلاء موقف الخميني المحايد وكتبوا رسالة للخميني في بداية عام 1980 موقعة من قبل بهشتي وأردبيلي وخامنئي وباهنر ورفسنجاني يطالبون فيها بدعمهم في الصراع الدائر بين الجبهتين، ولكنهم ترددوا في تقديمها إلى الخميني وقدمت بعد مرور سنة كاملة مرفقة برسالة من رفسنجاني مؤرخة في 24 كانون الثاني 1981 [39].

انقلاب!

لم يطع الموقعون وأنصارهم فتوى إمامهم لعدم قناعة غالبيتهم بها. فقاموا بالالتفاف عليها بتقليص صلاحيات رئيس الجمهورية المنتخب من خلال تشريعات البرلمان أو الضغط على الخميني للقيام بذلك مباشرة أومن خلال العمل كمستشارين في الوزارات. وتابعوا زحفهم وفرضوه كأمر واقع. فبعد إزاحة بني صدر من منصب القائد العام للقوات المسلحة بأمر من الخميني في 11 حزيران 1981 وإغلاق صحف المعارضة الليبرالية، خرجت مظاهرات في طهران وفي أنحاء أخرى من إيران مع أو ضد بني صدر وكان حراس البرلمان يستقبلون النواب الليبراليين عند دخولهم مبنى البرلمان بشعارات معادية. وفي تلك الأيام حصل انفجار كبير في ساحة قصر بني صدر ولم يسفر عن خسائر بشرية. وجاء البيان الأول لانقلاب رجال الدين، على شكل قانون أقره مجلس النواب، من فقرة واحدة وهي: " لمجلس الشورى الإسلامي الحق في إعطاء رأيه بعدم الكفاءة السياسية لرئيس الجمهورية، ويصدر المرشد بمقتضى ذلك أمرا استنادا للمادة 110 من الدستور".

وقد صدر القانون بالتشاور المسبق مع الخميني. وصادق مجلس الشورى الإسلامي بالأغلبية الساحقة على عدم الكفاءة السياسية لرئيس جمهورية وهو

---

[39] ـ هاشمي رفسنجاني، مذكرات وخواطر، كتاب بعنوان "تجاوز الأزمة". إصدار دار النشر للمعارف الثورية ـ طهران شتاء عام 1998، باللغة الفارسية. نص الرسالتين في مقدمة الكتاب.

المنتخب مباشرة من الشعب وفقا للدستور! وصادق مجلس الخبراء فورا على رأي البرلمان واصدر الخميني أمراً بعزله، وبلغ بني صدر به في 17 حزيران 1981. وعلى أثر ذلك شُكل مجلس رئاسة مؤقت من رؤساء السلطات الثلاث طبقا للدستور يضم كل من رفسنجاني وأردبيلي ورجائي. وهكذا نجح الانقلاب "الشرعي".

اختفى بني صدر، اعتقلت زوجته ومن ثم وضعت تحت الرقابة في منزلها. كان الخميني ضد السماح لبني صدر بالهروب إلى خارج إيران، وأرسل له خبرا يطمئنه فيه على حياته بعد أن طرق سمعه بأنه يخاف من الإعدام، إلا أن الخبر لم يصله، فقد ضاع أثره على متابعيه، حيث تكفلت بحمايته منظمة مجاهدي خلق، ذات الخبرة الواسعة في العمل السري. و وصل بني صدر إلى باريس برفقة مسعود رجوي في 29 تموز 1981.

ردود الفعل على الانقلاب

أعلنت منظمة مجاهدي خلق، و معها عدد من المنظمات الصغيرة نسبيا وهي الكفاح والكادحون وفدائيو خلق إيران ـ الأقلية و...الخ، الكفاح المسلح ونزلوا إلى الشوارع في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم 20 حزيران ليفجروا الثورة المسلحة! وهاجموا بعض المراكز الحكومية في طهران ومدن أخرى. وقد تصدى لهم الحرس الثوري وحزب الله واللجان الثورية (الكميتة) وتغلبوا عليهم وفرقوهم في طهران والمدن الأخرى قبل حلول المساء. وكانت النتيجة في طهران 16 قتيلاً و154 جريحاً وإحراق وتخريب بعض السيارات.أما في كردستان إيران التي كان الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني مسيطرا على مناطق واسعة فيها ومشتبكا بالسلاح مع السلطات، فقد وقف مع بني صدر وأخذ يوسع من دائرة نفوذه.

وفي أواخر شهر حزيران من نفس العام تعرض علي خامنئي لمحاولة اغتيال كادت تودي بحياته بانفجار قنبلة موقوتة كانت موضوعة تحت منضدة الخطابة في مسجد أبي ذر. وقد رقد في المستشفى مدة طويلة وخرج من المحاولة ويده اليمنى مشلولة تماما. وفي اليوم التالي لمحاولة اغتيال خامنئي؛ أي في 28 حزيران، انفجر مقر الحزب الجمهوري الإسلامي في الصالة التي كان بهشتي يحاضر فيها، بحضور مجموعة من أعضاء الحزب في مجلس النواب وفي الجهاز القضائي والحزبي. و كان عدد ضحايا الانفجار "72" شخصاً بينهم بهشتي و27 نائبا وأربعة وزراء وعدد من وكلائهم وعشرين جريحاً. وحصل الحادث جراء انفجار قنبلة موقوتة كانت موضوعة في سلة مهملات داخل القاعة. وقد وضعها عضو منظمة مجاهدي خلق المدعو محمد رضا كلاهى، المندس في الحزب الجمهوري الإسلامي. كان كلاهي طالب في المرحلة الأولى من كلية العلوم والصناعة، وغادر البناية قبيل الانفجار بعشر دقائق بحجة شراء آيس كريم!! وقد انتشرت في حينها

شائعة تفيد بأن الضحايا أكثر من العدد المعلن، وإن الرقم 72 هو مجرد تشبيه لشهداء واقعة الطف في كربلاء التي استشهد فيها الإمام الحسين (ع) وصحبه. وما هذا التشبيه إلا كذبة الغرض منها إعطاء قيمة دينية للضحايا والحدث، وذلك من شأنه أن يخفف من شماتة الأعداء وملامة الأصدقاء لقادة إيران الجدد على إهمالهم لتدابير الصيانة وإيمانهم الساذج بالقضاء والقدر. وبعد حوالي عشرين سنة يظهر رفسنجاني ليؤكد في مذكراته بأن العدد كان أكثر من 72 وقد سمع ذلك في اليوم الثاني للحدث أثناء حضوره الفاتحة ويعترف بأنه "...تقرر عدم تغيير الرقم نظراً لقيمته ومغزاه ومكانته لتشابهه مع عدد شهداء كربلاء"!! [40].

لم يتوقف مسلسل التفجيرات واغتيال المسؤولين الكبار وتفجير الباصات بعد إقصاء بني صدر في حزيران عام 1981، ولست بصدد التوقف عندها، فقد كانت يومية تقريبا. ولم يكن قد مر على انتخاب محمد علي رجائي رئيساً للجمهورية وتشكيل الوزارة برئاسة باهنر سوى 37 يوما حتى انفجر مقر رئاسة الوزراء وقتل الاثنان وجرح معهم مجموعة من قادة الشرطة والجيش، توفى بعضهم لاحقا. اقتصر تشكيل مجلس الرئاسة هذه المرة على رئاسة السلطة التشريعية والقضائية؛ أي رفسنجاني وارديبلي، وقد أفتى مجلس الخبراء بجواز ذلك باعتبارهم أكثرية. وقد كلف آية الله مهدوي كني برئاسة الوزارة بديلاً عن باهنر.

فتاوي روح الله الموسوي الخميني

و خلال البحث عن مرشح جديد لرئاسة الجمهورية، بعد إزاحة بني صدر، اقترح رفسنجاني اسم السيد علي خامنئي، ولكن الخميني رفض ذلك ولم يجد من الصلاح أن يتبوأ هذا المنصب رجل دين. وكان الخميني آنذاك، اثر انفجار مقر الحزب الجمهوري الإسلامي، قد تراجع كثيرا عن فتواه القاضية بعدم زج رجال الدين في السلطة التنفيذية. فقد أصبح باهنر رئيسا للوزراء وبعده مهدوي كني والاثنان من رجال الدين. وفي هذه المرة وعندما طرح اسم خامنئي كمرشح لرئاسة الجمهورية، بعد مقتل رجائي في الانفجار، وبضغط شديد من رجال الدين، الذين ذاقوا حلاوة السلطة ولم يعد هناك من هو قادر على كبح جماحهم، تراجع الخميني عن فتواه فوافق على ترشيح رجل معوق وعليل لأكبر منصب في دولة كبيرة مثل إيران تعج بالكفاءات والمواهب. وتنفس رفسنجاني الصعداء فلم يعد هناك عائق أمامه كي يتبوأ أعلى منصب في الدولة وتحقق له ذلك فعلا، فقد أعقب خامنئي مباشرة في رئاسة الجمهورية .

وهنا لا بد من التوقف عند موقف الخميني من فتاويه . فمن المعروف عدم جواز إلغاء الفتوى أو التراجع عنها بعد صدورها، وفقا للفقه الإسلامي، حسب معلوماتي. فالفتوى تبقى سارية المفعول أو تضمحل باضمحلال أسبابها الموجبة. ولكن

[40] ـ المصدر السابق، ص 186.

الخميني تراجع تدريجيا عن أهم وأخطر فتاويه. وهذا الخرق الذي من شانه التقليل من قيمة رجال الدين والدين نفسه، هو الذي يدفع رجال الدين الحريصين على الدين فعلا أن يدعوا إلى فصل الدين عن السياسة، فالشؤون السياسية اليومية لا تقبل فتاوي دينية أو عدم تراجع عن أي موقف عند الضرورة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، تراجع الخميني عن فتواه بعدم زج رجال الدين في السلطة التنفيذية، كما لاحظنا ذلك تواً. كما تراجع عن فتواه بعدم دخول الجيش الإيراني للأراضي العراقية أو مهاجمة مدن العراق. وبالنظر لكثرة تراجعه عن فتاويه راح معارضوه يتندرون عليه بالقول بأن الخميني يفتي صباحاً ويتراجع مساءً . وعند قراءتي لمذكرات رفسنجاني لاحظت حصول ذلك فعلاً. ففي صباح يوم 14 أيار 1981 اتصل أحمد الخميني برفسنجاني وأخبره بصدور فتوى من الإمام الخميني يمنع فيها إذاعة أي شكل من أشكال الموسيقى، حتى تلك التي تصاحب الأناشيد (ولم يكن قد بقي منها آنذاك سوى الشكل الأخير) وستذاع الفتوى في نشرة أخبار الظهيرة، طالبا منه مراجعة الإمام برفقة بهشتي لتدارك الأمر و إيقاف تلك الفتوى. لم يذهب رفسنجاني وأحد أسباب ذلك هو الإشكال الشرعي في الأمر حيث يقول: "إذا هي فتوى فيجب إطاعتها". ذهب بهشتي وحمل الإمام على التراجع عن فتواه [41]. فما هي عواقب سيطرة رجال الدين على السلطة وتطبيق ولاية الفقيه على إيران والإيرانيين ؟ سأشير إلى بعض أهم جوانب ذلك.

استبداد رجال الدين المتشددين

إذا كان رجال الدين المتنفذون في الدولة والحياة السياسية في إيران لم يتحملوا الإسلاميين الليبراليين ، خلافا لدعوات الخميني، الذي كان يدعوهم إلى التعاون معهم ومع رئيس الجمهورية بني صدر حتى ربيع عام 1981، فإنهم مع الخميني لم يتمكنوا أن يتحملوا معارضة سلمية وشرعية حقيقية، ولذا استخدموا جميع الوسائل لعزلها وتهميشها وتصفيتها، لأنهم ضد التعددية وضد التداول السلمي الحقيقي للسلطة. لقد منع الخميني مسعود رجوي من الترشح لانتخابات رئاسة الجمهورية في كانون الثاني 1980 عندما أصدر رسالته الاستبدادية والمنافية للقانون والقاضية بإلغاء ترشيح مَن لم يكن قد صوت بنعم في الاستفتاء على الدستور. كما منع الخميني رجوي من الدخول إلى مجلس الشورى الإسلامي (البرلمان) بعد فوزه في الانتخابات البرلمانية والتي حصل فيها على 550 ألف صوت، في ربيع نفس العام.

وكانت اجتماعات مجاهدي خلق الجماهيرية المجازة وسواهم تفرق بهراوات حزب الله. ولم يقتصر هذا الأمر على المعارضة بل شمل جميع القوى السياسية بما في ذلك المساندة لنهج الإمام. وقد شاهدت ذلك بأم عيني عند حضوري وأم شروق اجتماعا جماهيريا نظمته منظمة فدائيي خلق ـ الأكثرية، في ساحة الحرية في الأول

[41] ـ المصدر السابق، ص 107 و108

من أيار عام 1981، الذي حضره حوالي 200 آلف شخص، غالبيتهم من الشبيبة، بملابسهم النظيفة والزاهية ووجوههم الجميلة يستمعون إلى الخطب وينشدون الأناشيد الوطنية والتضامنية. وأثناء استمتاعنا بهذا الجو البهيج والحماسي سمعنا صيحات تردد "الله اكبر.. خميني رهبر". وأخذت الحجارة تتساقط على المجتمعين من قبل مجاميع تهرول بجانب الاجتماع، وتدل أشكالهم وملابسهم ولحاهم على أنهم من حثالة المجتمع. وسرعان ما شاهدنا دماء البعض ممن هم قريبون منا تسيل على وجوههم وملابسهم. وانتهى الاجتماع والوجوه واجمة حزينة، بعد أن كانت الابتسامة تزين شفاه الجميع.

وعندما توصد أبواب البرلمان، المكان الصحيح الوحيد لتنظيم الصراعات السياسية والاجتماعية سلميا، أمام المعارضة الحقيقية لأي نظام، تفتح أبواب السجون ويمارس التعذيب الوحشي مع المعتقلين وتصادر حرية الرأي. وعندما يكون النظام دينيا مستبداً، كما هو حال نظام ولاية الفقيه، فعندئذ تداس حقوق الإنسان وحقوق القوميات بأبشع الصور ويدخل المجتمع في دورة عنف لانهاية لها. وهذا ما حصل في إيران. فقد دفع النظام مجاهدي خلق والقوى السياسية التي تمثل القوميات غير الفارسية والأقليات الدينية والمذهبية وسواها من قوى المعارضة قسراً إلى استخدام العنف المقابل والذي لم يتوقف حتى اليوم. ويتحمل النظام المسؤولية الأولى عن ذلك. ولا يغير من طبيعة الحكم الإيراني شيئا عند إدانتنا لأساليب مجاهدي خلق الإرهابية وسياساتها الخاطئة و مصيرها المؤسف فهي أيضا تتحمل المسؤولية في هذا المآل.

بعد أن نجح قادة نظام ولاية الفقيه بتهميش المعارضة توجهوا نحو الأحزاب والقوى السياسية السائرة على نهج الإمام السياسي ولكن غير المتطابقة معه، مثل حزب توده إيران ومنظمة فدائي خلق ـ الأكثرية، اللذان طالبا بإيقاف الحرب بعد خروج القوات العراقية من الأراضي الإيرانية. فوجه النظام ضربة واسعة وعميقة لحزب توده إيران في بداية شباط 1983 بهدف إزاحته من الساحة السياسية بذريعة وجود " نية " لدى الحزب للقيام بانقلاب عسكري ولتجسسه لصالح الاتحاد السوفييتي. وتعرض قادة الحزب والمئات من أعضائه إلى أبشع أنواع التعذيب واستشهد 11 منهم تحت التعذيب أو نتيجة له ولسوء الظروف السجنية. في حين تعرض عدد كبير منهم للإبادة الجماعية. واجبر العديد من قادة الحزب وأعضائه على توقيع اعترافات كاذبة وعرضها على التلفاز لتضليل الرأي العام. إن انتزاع الاعترافات الكاذبة هو أسلوب قديم قدم الاستبداد على وجه الأرض ومرافق للأنظمة الاستبدادية والدكتاتورية والفاشية.

لقد فضحت بعض الصحف الإصلاحية، في عهد خاتمي تلك الممارسات المأساوية البشعة حيث نشرت صحيفة "همشهري" الشهرية في طهران مقالة مثيرة تحت عنوان " عقدان من الاعترافات التلفزيونية " ألقت الجريدة فيها الضوء على

مهزلة الاعترافات الملفقة ضد حزب توده وضد مختلف التيارات السياسية بحيث شملت بعض كبار رجال الدين في إيران مثل آية الله العظمى شريعت مداري والذي تعتبر منزلته الفقهيه أقدم وأرفع من الخميني . ونشرت المجلة مذكرة نوري الدين كيانوري الأمين العام الأسبق للجنة المركزية لحزب توده والموجهة إلى المرشد الأعلى علي خامنئي والمؤرخة في شباط عام 1989 ، وقد سلم كيانوري نسخة منها إلى لجنة حقوق الإنسان التابعة لهيئة الأمم المتحدة عند زيارتها لسجن أيفين، ومما جاء فيها: ([42] *)

ليس لدي علم دقيق بعدد أولئك الذين أعدموا بالرصاص (صيف عام 1988) إلى جانب 11 شخصاً قيل أنهم فقدوا ولكنهم فارقوا الحياة في السجن. ولكن لدي أسماء 50 من الذين تم إعدامهم. وبدون أدنى شك فإن من تم إعدامهم يفوق هذا العدد بكثير (يذكر في مكان آخر من المذكرة بأنهم بالمئات). من المثير أنه في هذا القتل الجماعي لم يتم إعدام العدد المحدد ممن كان محكوماً بالإعدام فقط، بل طال الإعدام حتى أولئك المحكومين بالسجن المؤبد أو لمدة عشرين سنة أو 15 سنة أو 5-6 سنوات بدون وجود مستجدات تبرر إعدامهم".

ما هي علاقة رفسنجاني بتعذيب المعتقلين؟

ولدى كاتب هذه السطور ما يشير بأن التعذيب كان يجري بتوجيه من هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس الشورى الإسلامي آنذاك. فقد التقى الأخير، حسب مذكراته، خلال فترة التحقيق مع المحققين المسؤولين مباشرة عنه ثمان مرات، خلال شهرين من 3 آذار إلى 3 أيار، حيث بثت الاعترافات المفبركة على التلفاز (كما أراد الخميني في اليوم الأول من أيار!). وبحث رفسنجاني مع المحققين منذ اللقاء الأول "كيفية التعامل مع قادة حزب توده المعتقلين والذين يرفضون الاعتراف وإن اثنين منهم قد انتحرا"[43] . كان لقاء رفسنجاني الأول مع المحققين بعد 24 يوما من بدء الاعتقالات والتعذيب. وفي ثاني لقاء تحديداً بدأت الاعترافات الملفقة. فما هي الطرق والأساليب التي أمر بها رفسنجاني الجلادين، في لقائه الأول، بحيث أدت إلى اعتراف المعتقلين بجرائم لم يرتكبوها؟ وهل يشّرف رئيس السلطة التشريعية ورجل دين أن يشرف ويوجه تعذيب الخصوم السياسيين حتى الموت أو إلى الحد الذي يفضل فيه المعتقل الانتحار؟ أجاب على هذا السؤال الطهرانيون، الذين يسمون رفسنجاني بالثعلب، عندما لم ينتخبوه كنائب عنهم في

---

[42] ـ * ترجم المذكرة وعلق عليها الكاتب السياسي والخبير بالشؤون الإيرانية الأستاذ عادل حبه ونشرت في جريدة الزمان. ونظرا لأهمية المذكرة فقد أعيد نشرها في الصحف الاليكترونية وموجودة الآن على "موقع الناس" وغيرها من المواقع.

[43] ـ هاشمي رفسنجاني، مذكرات وخواطر، الكتاب المعنون "بعد الأزمة"، ص 419 و424. والكتاب المعنون "الاستقرار والجدال"، ص 16 و37 و42 و56 و60 و52. دار النشر للمعارف الثورية ـ طهران. ربيع 2001 و شتاء 2002، على التوالي. باللغة الفارسية

الانتخابات البرلمانية بعد الدورة التي كان يترأس فيها مجلس الشورى الإسلامي. ويشير الخبراء في الشأن الإيراني بأن الإيرانيين لم يفضلوا أحمدي نجاد، في انتخابات رئاسة الجمهورية الأخيرة، على رفسنجاني حبا بالأول وإنما كرها بالثاني

لم يكتف قادة الجمهورية الإسلامية بمحاولة تدمير وإقصاء المعارضين أو من يعترض على هذا الجانب أو ذاك من سياستهم عن طريق تصفية الآلاف والاحتفاظ بالآلاف في السجون وتشريد مئات الآلاف من بنات وأبناء الشعب الإيراني وبينهم الكثير من الكوادر العلمية والأدبية في شتى بقاع الأرض، وإنما عملوا على إقصاء أولئك الإسلاميين الذين أخذوا يتخلون أو يشككون بمبدأ ولاية الفقيه وحرمانهم من المشاركة في الانتخابات على مختلف المستويات. ومنعت الغالبية من هؤلاء من الترشح لانتخابات رئاسة الجمهورية الأخيرة بقرار من مجلس حراسة الدستور "شوراي نكهبان" وعددهم 997 مواطنا إيرانيا. ولذا أدرجت إيران في صدر قائمة الدول التي لا تحترم حقوق الإنسان، والتي تدنى احترامها لتلك الحقوق في عام 2005 حسب تقارير المنظمات الدولية [44]. وفي هذا الصدد فإن آية الله منتظري، الذي كان وريثاً للخميني وجرى إبعاده لاحقاً ووضع تحت الإقامة الجبرية لاعتراضه على السياسة الاستبدادية لقادة الدولة، هذه السياسة التي أعلن عن ندمه على المساهمة في وضع أسسها في الدستور، يقول: " تصيبني صدمة عندما يقول السادة (قادة النظام) بأن حقوق الإنسان محترمة بالكامل في هذا البلد [45].

إيران تتحمل مسؤولية استمرار الحرب في سنواتها الستة الأخيرة

ومن العواقب الوخيمة لسيطرة رجال الدين في إيران على السلطة هي سياستهم الفاشلة في الحرب مع العراق والتي كبدت الشعبين الإيراني والعراقي مئات الآلاف من أبنائهما بين قتيل ومعوق وأسير. كما ألحقت بالبلدين خسائر مادية تقدر بمئات المليارات من الدولارات نتيجة لإصرارهم على استمرار الحرب بدون مبررات مشروعة. فبعد هزيمة الجيش العراقي في معارك خرمشهر (المحمرة) ومن ثم خروجه من الأراضي الإيرانية في صيف عام 1982، لجأ النظام العراقي إلى مجلس الأمن مطالبا بإيقاف القتال. وصدر قرار من المجلس في تموز يقضي بذلك. إلا أن إيران رفضته، مطالبة بإدانة النظام العراقي ومحاكمته لعدوانه على إيران، إضافة إلى مطالبتها بتعويضات عن خسائرها في الحرب. وكانت هذه المطالب التعجيزية ستارا تخفي وراءه إيران أهدافها التوسعية و حلمها في إقامة نظام إسلامي في العراق تابع لإيران، تحت شعار "الطريق إلى القدس يمر عبر كربلاء"، وهو شعار مشابه من حيث ديماغوغيته لشعار الدكتاتور صدام "الطريق إلى فلسطين يمر عبر عبادان"، ورداً عليه. وكان هناك شعار مكتوب على جدار

---

[44] ـ صحيفة "ميهن" الاليكترونية الإيرانية العدد 94 كانون الثاني 2006

[45] ـ المصدر السابق العدد 95. نفس التاريخ.

بالقرب من بيتنا وهو "إلى الأمام باتجاه كربلاء"، ولم أستطع تجنب النظر اليه للحجم الكبير الذي كتب به، في حين كان مزاجي يتعكر كلما ألقيت عليه نظرة حين خروجي من المنزل في طهران.

لم تهدف تلك الشعارات إلى رفع المعنويات. ولم تكن تعرضات الجيش الإيراني تستهدف تعزيز المواقع الحدودية، كما كانوا يتظاهرون بذلك، بل إن أكثر من 25 تعرضا كبيرا، بعد تحرير الأرض الإيرانية، استهدف أكثرها احتلال البصرة من اجل إقامة حكومة إسلامية عراقية. إن مذكرات رفسنجاني شاهد على ذلك، حيث طالب بعض المتسرعين بإقامة مثل هذه الحكومة في محافظة ميسان عند احتلال جزر مجنون وذلك في تشرين الثاني عام 1982 [46]. وفي النهاية لم تؤد طموحاتهم التوسعية سوى إلى أن يتجرع الخميني السم ليبتلع عناده، ولم تحصل إيران في عام 1988 أكثر مما كانت ستحصل عليه في عام 1982. إن إيران تتحمل مسؤولية استمرار الحرب طيلة السنوات الست الأخيرة منها. فإذا كان صدام مسؤولا عن خسائر إيران خلال السنتين الأوليتين من الحرب، فإن النظام الإيراني هو الآخر مسؤول عن الخسائر التي لحقت بالعراق خلال السنوات الست الأخيرة منها، التي رفض خلالها حكام إيران قرار مجلس الأمن وجميع الوساطات والمقترحات لإيقاف الحرب.

عواقب اقتصادية واجتماعية وأخلاقية

إن العواقب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية لسيطرة رجال الدين على السلطة في إيران كثيرة، وسأشير إلى بعض المعطيات ذات الدلالة الهامة وهي مستقاة من دراسة للدكتور أمان الله قرابي، الخبير الاجتماعي والأستاذ الجامعي، تتناول معالجة ظاهرة البغاء التي تشمل 300 آلف من بنات الشوارع في طهران وحدها، وتتراوح أعمارهن بين 11 إلى 18 عاماً. وفي الوقت الذي يؤكد فيه الباحث بأن الظاهرة تشير إلى ضعف القيم الدينية في المجتمع (في استطلاع أجرته الصحف الرسمية الإيرانية تبين أن 85% ممن ولدوا بعد الثورة لا يمارسون الشعائر الدينية [47])، إلا أنه يؤكد بأن أسباب الظاهرة اقتصادية بالأساس. فهناك أربعة ملايين عاطل عن العمل. والبلد بحاجة إلى مليون فرصة عمل جديدة سنويا، في حين إن ما يتحقق هو من 400 إلى 500 آلف فرصة. وتبلغ البطالة من 20 % إلى 27% في أوساط الخريجين. وهناك تسعة ملايين عازب وعازبة، بينهم 5،5 ملايين من العازبات. ويوجد خمسة ملايين مدمن على المخدرات، ويعيش مليونان من سكان طهران في ضواحيها حياة بائسة [48]. والعدالة التي ينادي بها رجال

---

[46] - هاشمي رفسنجاني. مذكرات وخواطر، كتاب "بعد الأزمة"، ص 302، باللغة الفارسية.
[47] - عادل حبه. مقال بعنوان "هل هو تمهيد لفرض ولاية الفقيه على العراقيين؟ نشر في 30 أيار 2005 في الصحف الكترونية، وهو موجود في "موقع الناس" والمواقع الأخرى.
[48] - "ميهن" صحيفة الكترونية إيرانية العدد 96 آذار 2006.

الدين ليلاً ونهارا كانت نتيجتها، وهم في قيادة السلطة لأكثر من ربع قرن، زيادة الأغنياء غنى والفقراء فقراً ، حيث "يعيش أكثر من نصف الشعب الإيراني تحت خط الفقر العربي - الإسلامي، وتفتك البطالة بأكثر من عشرين بالمائة منه ، ويتعاطى ثمانون بالمائة من الشعب الإيراني المخدرات، حسب آخر تقرير دولي نشر" [49]. هذا في الوقت الذي يذهب نصف الدخل القومي الإيراني إلى جيوب 10% من الطبقة الغنية في إيران، حسب أحدث تقرير للبنك الدولي [50].

هذه بعض العواقب السلبية لسيطرة رجال الدين على الدولة. إن نظام ولاية الفقيه يعيش أزمة اقتصادية، سياسية، اجتماعية وأخلاقية عميقة منذ سيطرة رجال الدين على السلطة، وإن الطبقة العاملة وبقية الكادحين متذمرون من الأوضاع المعيشية. وتتوق الشبيبة (يتخرج 100 آلف شابة وشاب سنويا من الجامعات لا يجد معظمهم فرصة عمل أمامهم) إلى تجديد حياتها وتطوير النظام القائم ليواكب إيقاع القرن الواحد والعشرين في تطوره العلمي التكنولوجي والسياسي. وتشعر هذه الفئة وجميع الفئات الواعية في المجتمع بأنها ليست أقل جدارة من شبيبة تعيش في دول جارة حيث تتمتع بالديمقراطية وبحرية الفكر والتعددية والتداول السلمي الحقيقي للسلطة. ولكن النظام الشمولي ، نظام ولاية الفقيه يقف عائقا أمام كل هذه الطموحات، ويحاول تصريف الأزمة من خلال فتحه معركة مع المجتمع الدولي حول الطاقة النووية وذلك باللعب على مشاعر الاعتزاز الوطني والقومي للإيرانيين.

السفور والحجاب

ذكرت سابقا أن السلطة كانت منقسمة بين نفوذ الليبراليين من جهة ونفوذ رجال الدين المتشددين ورجعيتهم من الجهة الأخرى. وكان الصراع محتدماً بينهما عندما وصلنا إيران في ربيع عام 1981. كانت طهران هي الأخرى منقسمة إلى قسمين من حيث درجة تمتعها بالحرية، أي شمالها وجنوبها. كان شارعا الحرية والثورة ، يقسمان طهران إلى قسمين، وهما الحد الفاصل بين شمالها وجنوبها. في الشمال كنا نسمع مختلف الأغاني والموسيقى في الشارع العام ونرى السافرات ونشهد المناقشات الحرة، في حين لا يوجد أي أثر لكل ذلك في الجنوب. كانت أم شروق تحمل في حقيبتها اليدوية شالا تغطي به رأسها عندما نجتاز شارع الحرية متجهين نحو الجنوب وتخلعه في شمال المدينة. ولم يدم هذا الأمر طويلا ، فما أن انتهى "زواج المتعة" بين الليبراليين ورجال الدين المتشددين حتى تساوى الشمال مع الجنوب في نهاية العام المذكور. فلم تعد هناك في الشمال موسيقى ولا سافرات ولا وسائل لهو بريئة ولا سينمات، بعد إحراق بعضها، ولا مناقشات حرة.

---

[49] - د. شاكر النابلسي. صحيفة إيلاف الاليكترونية، العدد 1842 الأربعاء 7 يونيو 2006.
[50] - د. كاظم علمداري. الحلقة 14 من سلسلة مقالات تحت عنوان " لماذا هزمت الإصلاحات". صحيفة "إيران امروز" الإيرانية الاليكترونية، 20 حزيران 2006.

إن المناقشة الحرة (بحث آزادى) هي أول ظاهرة غريبة علينا وجلبت انتباهنا في الشارع عند وصولنا طهران. كنا نرى مجموعة من الناس متجمهرة حول بائع ــ وعلى الأغلب بائعة شابة ــ صحف منظمة سياسية معينة أو حامل لأدبياتها وتجري مناقشات سياسية حول شتى الأمور وبحرية تامة. وكثيرا ما يدير النقاش البائع، ولكن ليس بالضرورة، إذ كان من الممكن أن يتولى ذلك مرافق له أو أي أحد من المساهمين العاديين. وبالرغم من عدم استيعابنا لكل ما يقال لمحدودية إلمامنا باللغة الفارسية، إلا أننا كنا نقف ونصغي ونستمتع مبهورين بذلك، نحن المحرومين من أية مناقشة سياسية حرة، فما بالك بمناقشة في الشارع العام وفي الهواء الطلق. ولم تحدث أمامنا مشاجرة بالرغم من حدة المناقشات وتقاطعها.

ولما قضي على السفور نهائيا وتحجبت جميع النساء، بدأت حملات الميلشيات المرتبطة بأعلى هرم السلطة تطارد النساء في شوارع طهران وخاصة الشمالية. كان منظراً يثير السخط والاستنكار والاشمئزاز حقاً ، شباب من حثالة المجتمع ملتحين ووسخين يتراكضون وراء الفتيات والنساء، بحجة الحجاب السيئ (بد حجاب). كانت هذه الحثالات تدفع النساء وتتهجم عليهن بألفاظ نابية وتحشرهن في سيارة، ثم تنسحب وكأنها أحرزت النصر في ساحة الوغى. كانت بعض الفتيات يتركن بضعة خصلات أو مقدمة شعرهن مكشوفا ، لاعتقادهن بأن وجوههن تبدو كوجه البومة بدون ذلك، وهذا ما يعرضهن للملاحقة. لقد استمرت هذه الحملات لسنوات عديدة دون جدوى. فنزوع ألإنسان نحو الجمال من الغرائز الطبيعية. ولذلك نشاهد فشل النظام الجمهوري الإسلامي في القضاء على هذه الظاهرة، بل وأكثر من ذلك فقد توسع تأنق الفتيات ليشمل تحوير الزي الإسلامي ليبدو لائقاً بالمرأة. وأكبر دليل على فشل النظام هو إحياء تلك الحملات المخزية، والمنافية لأبسط حقوق الإنسان، في عهد الرئيس المتعصب والرجعي أحمدي نجاد.

أم شروق وأبو شروق في طهران 1983

***

آخر اجتماع للجنة المركزية في المهجر

انعقد آخر اجتماع للجنة المركزية خارج الوطن في كانون الأول 1981 في موسكو. وكان اجتماعا كاملا، يحضره عادة المرشحون لعضوية اللجنة المركزية أيضا. تقرر في هذا الاجتماع تبني أسلوب الكفاح المسلح باعتباره الأسلوب الرئيسي في الكفاح من أجل إسقاط النظام الدكتاتوري وإقامة البديل الديمقراطي. وتبنى الاجتماع كذلك شعار تعريق الكفاح المسلح.

حسم تشخيص الكفاح المسلح، على أنه الأسلوب الرئيسي في الكفاح، النقاش حول هذا الموضوع في قيادة الحزب، وقد بوشر بتنفيذه على شكل حركة أنصار في كردستان العراق، وكانت المستلزمات المادية والبشرية الأولية قد شرع بتراكمها تدريجيا، وفي ظروف صعبة، منذ نهاية عام 1979 "وظل التخطيط لتعريق الكفاح المسلح ضعيفاً وأثار تفسيرات متباينة، وقد اخفق الحزب في تحقيقه، لأنه كان فوق طاقته، فتنفيذه كان يتطلب تنظيمات حزبية متينة غير جريحة، خارج كردستان، واستعدادات مدروسة وظروفاً ملائمة نسبياً. هذا إلى جانب اندلاع الحرب العراقية - الإيرانية التي شملت عملياتها مناطق واسعة في الوسط والجنوب خصوصاً مناطق

الأهوار، فضلاً عن ضرورة فهم أن الكفاح المسلح كأسلوب عنفي هو اشمل من حركة الأنصار التي تجسد أحد أشكاله" [51].

جرى في هذا الاجتماع انتخاب المكتب السياسي والتغيير الوحيد الذي حصل، هو انتخاب الرفيق سليمان يوسف بوكا (أبو عامل) بديلا عن الرفيق ثابت حبيب العاني، كما ذكرت ذلك آنفاً. وتقرر في هذا الاجتماع عقد المؤتمر الوطني بعد سنة واحدة. ناقش الاجتماع قضية تثبيت عضوية عدد من الرفاق المرشحين للجنة المركزية منذ المؤتمر الثالث الذي انعقد عام 1976 وكان بينهم كل من حميد مجيد موسى وفخري كريم وحاجي سليمان (أبو سيروان) وحسين سلطان. وقد تقرر أن يتم تقديم الكادر بالارتباط مع الموقف من العمل في الداخل استلهاما لتجربة الحزب بعد انقلاب شباط الفاشي، ولقرب انعقاد المؤتمر الرابع. وبسبب تأخر انعقاد المؤتمر المذكور فقد درست وثبتت عضوية الرفاق المذكورين، باستثناء الفقيد حسين سلطان، في اجتماعات اللجنة المركزية قبل انعقاد المؤتمر.

تأخرت عودتي إلى طهران حتى شباط عام 1982 لسفري إلى برلين لإجراء العملية لأذني والتي تطرقت اليها سابقا. وقبل مغادرتنا، أم شروق وأنا، دمشق علمنا بأن عائلة أخي مجيد، زوجته (أم دنيا) وأربعة أطفال، مرمية على الحدود العراقية - السورية المغلقة ويحملون جوازات مرور غير قابلة للعودة! وتطلب السلطات السورية تزكية لهم لإدخالهم ... عند وصول العائلة إلى دمشق تبرع الرفيق (أبو سعيد بهرز) مشكوراً بإسكانهم مع عائلته في شقتهم بالرغم من صغرها. علمنا من أم دنيا أن السلطات الأمنية اعتقلت أشقائي الستة وزوجاتهم وأطفالهم وجدتي، التي يناهز عمرها الثمانين عاما، في 6 كانون الثاني 1982. وصادرت وثائقهم وصورهم وزجت بهم، وعددهم 27 شخصاً، كرهائن في معتقل الفضيلية. وكانت السلطات الأمنية تطالب بعودتي. وعند تسفيرهم قال لهم احد ضباط الأمن: "روحوا ناموا على گلب (قلب) جاسم".

قبل سفرنا بيومين إلى طهران وصلت عائلة أخي قاسم أيضا إلى الحدود وقد أدخلت إلى سوريا بعد تزكيتها. ولتعذر تأخرنا عن السفر فقد كتبت قائمة بأسماء بقية العوائل وأودعتها في مقر حزبنا. وبالفعل وصلت بقية العوائل تباعاً، باستثناء عائلة أخي خليل وجدتي اللتين أعيدتا من الحدود بسبب غلق الحدود العراقية - السورية تماماً، وأعادتهما السلطات العراقية إلى المعتقل ثانية.

***

السلطات الإيرانية تتربص بنا

[51] - تقييم حركة الأنصار التابعة للحزب الشيوعي العراقي في الفترة ما بين 1979-1988 الذي أقره المؤتمر السادس المنعقد في عام 1997.

مع تطور حركة الأنصار التابعة للحزب الشيوعي العراقي في بداية ثمانينات القرن الماضي، أصبحت منظمتنا في إيران تكتسب أهمية أكبر وتحولت إلى قاعدة خلفية حيوية للحركة، وحلقة وصل هامة بين الداخل والخارج. وكان تحركنا في إيران سريا يتم بأوراق من الأحزاب الكردية بقدر ما يتعلق الأمر بحركة رفاقنا الأنصار، من قواعدهم وانتقالهم إلى طهران وارومية وبالعكس، ولمراجعة دوائر الإقامة والسفر وسواها. وفي لقاءات نادرة جمعت ممثلي قيادة حزبنا، الرفيق يوسف حنا في بداية الثمانينات، ولاحقا هو والفقيد الدكتور رحيم عجينة ، مع قادة الحرس الثوري (الباسدار) بحضور ممثلي أحزاب كردية على الحدود بين كردستان العراق وإيران، اخبر رفاقنا الجانب الإيراني بأننا لا نطلب أية مساعدة منهم أكثر من السماح لنا بمعالجة مرضانا وجرحانا في المستشفيات الإيرانية وغض النظر عن مرور منتسبينا عبر إيران إلى كردستان العراق. وكان موقفهم دائما هو الوعد بدراسة الطلب الأول، والذي بقي مجرد وعد، ورفض الطلب الثاني بذريعة أن سوريا تسمح لنا بالعبور.

كنا حذرين في تحركنا وفي سلوكنا السياسي. لم ندع حصول أي نوع من التشابك التنظيمي أو السياسي مع حزب توده إيران، مكتفين بالعلا قة الرسمية معهم. وعندما تعرضوا للضربة الواسعة التي أشرت اليها قدمنا لهم المساعدة الممكنة دون أن نقوم بدورهم النضالي. فقد احتضن الحزب العشرات منهم، وكذلك من منظمة فدائيي خلق ـ الأكثرية، كضيوف في قواعد أنصارنا في كردستان العراق لحمايتهم وتقاسم لقمة العيش معهم. كان الرفاق في منظمة طهران، وهم بضع عشرات من المهجرين العراقيين وغالبيتهم من الأكراد الفيلية، يقرأون المطبوعات السرية لحزب توده وسواها من المنظمات المحظورة، ولكن من غير المسموح لهم إيصالها للإيرانيين وفقا لقرار منظمتنا. وعندما كلفنا من قبل قاطع السليمانية بإيصال مطبوع ورسالة مرسلة من التودويين إلى عنوان في طهران، ــ كانت قيادة القاطع المذكور تتصل بنا مباشرة لتمشية الأمور الروتينية، لسهولة صلتهم بنا ــ اعتذرنا عن القيام بذلك. وأكدنا لقيادة الحزب استعدادنا لتقديم أية مساعدة ممكنة للتودويين على أن لا نأخذ دورهم النضالي وأن لا يحصل تشابك مع قاعدتهم، ودعمت قيادة الحزب موقفنا هذا. وفعلا، كنا نوصل، عبر قيادة حزبنا، جريدة "مردم"، التي تصلنا إلى طهران مطبوعة في الخارج، بكميات محترمة إلى قيادة منظمتهم في قواعد الأنصار.

والى جانب الحذر السياسي، كنا حذرين أمنيا، فالنظام الإسلامي أعاد مسؤولين كبار من جهاز الأمن السابق (السافاك) للجهاز الجديد. لم يكن لدينا تلفونات ولا سيارات خاصة، وكان بالإمكان أن يكون لدينا ذلك فطبيعة عملنا تتطلبه، وربما كانت تفيدنا بعض الشيء. ولم يكن لدى قيادة الحزب تحفظ على حيازتنا لها، خاصة بعد أن سمعت من ممثل أحد الأحزاب الحليفة لنا عن حاجتنا للسيارة. مع ذلك لم تغرُّنا مميزات السيارة والتلفونات وفضلنا الصيانة عليها. لقد تعمدت ذكر هذه

التفاصيل لأن البعض يتصور بأن عدم توجيه ضربة لتصفية وجودنا في طهران يعود إلى غض نظر إيراني عنا، ومن شأن هذا التصور أن يضّيع دروس التجربة. ففي حقيقة الأمر إن الأجهزة الأمنية الإيرانية لم تغض النظر عن أي شيء يمكن أن يوصلها إلى المنظمة وأسرارها . فعلى سبيل المثال لا الحصر، اعتقلت مراسلنا الرئيسي مع قيادة الحزب الرفيق رحيم الشيخ علي (حيدر فيلي) ، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الكردستاني ووزير الاتصالات في حكومة كردستان العراق في الوقت الحاضر، وتعرض لتعذيب بشع وبقي معتقلا أكثر من خمس سنوات، ولولا صموده البطولي لتعرضت المنظمة إلى كارثة. واعتقل مراسل آخر وهو الرفيق أبو زكي الذي تعوق عقليا جراء ما تعرض له من تعذيب في المعتقل. واعتقل مراسل ثالث بين الرضائية والقاعدة. وألقي القبض على الرفيق رحيم عجينة وتعرض إلى معاملة منافية لأبسط الحقوق التي تنص عليها القوانين الدولية، وبقي سبعة شهور في المعتقل ، قضى 185 يوما منها في زنزانة انفرادية. وأعتقل كذلك الرفيق أسعد خضر(أبو نجاح) وزوجته أم نجاح في مطار طهران وأحتجزا شهورا عديدة وعوملا معاملة لا إنسانية. وأعتقل الرفيق أنور طه (أبو عادل) وهرّبه الرفاق من المعسكر ومن ثم سُفر خارج إيران. وطورد الرفيق عامر عبد الله في طهران من قبل سلطات الأمن، وساعدته ظروف معينة للتخلص منهم. وعندما علمت بأن الباسدار استفسروا عني في الفندق الذي كنت أقيم فيه في الرضائية، غادرت المدينة فورا ولم أعد أتوقف في المدينة المذكورة في سفراتي من طهران إلى قاعدتنا في كردستان.

المؤلف وعلى يساره الرفيق عامر عبد الله وعلى يمينه أم شروق والرفيق علي الجبوري - أبو أثير، في بيت صديق في إيران عام 1982

وكان حزب البعث، بأسلوبه الخاص، يحرض علينا. فقد وزع منشورا يحمل توقيع الحزب الشيوعي العراقي، يحتج فيه على الاضطهاد الذي يعانيه الشيوعيون في إيران ويستنكر اعتقال الرفيق عادل حبه ومطاردة الرفاق جاسم الحلوائي وآخرين في كرج. يوجد في كرج مقر الحزب الديمقراطي الكردستاني، وكنت مع آخرين نتردد عليه ولم نطارد في يوم ما هناك إطلاقاً. وكانت معلوماتنا تشير بأن هناك قوى إسلامية عراقية متشددة هي الأخرى تحرض علينا، واستفحلت هذه الظاهرة الأخيرة في النصف الثاني من عقد الثمانينات، ولم أكن موجوداً في إيران.

في شتاء عام 1982 حاولت السلطات الأمنية الإيرانية إلقاء القبض على الرفيق عزيز محمد الأمين العام للجنة المركزية لحزبنا. كان خالو حاجي ممثل الحزب الاشتراكي الكردستاني (حسك) يتابع معاملة جواز الرفيق عزيز في دائرة السفر والإقامة عندما تعرفت المخابرات على صورة الرفيق عزيز وطلبوا من خالو حاجي، الذي أنكر معرفته بمكانه، إحضاره فورا تحت تهديد ووعيد شديدين . كان الرفيق عزيز يقيم في شقتنا في طهران عندما زارنا الرفيق فلاح، وهو الرفيق الوحيد الذي يعرف بيتي من بين رفاق منظمة طهران، وأخبرنا بالموضوع وأضاف بأن خالو حاجي خائف جداً وينتظر رأينا. اتفقنا أن نأخذ منه الجواز ونعفيه من المهمة. في عصر نفس ذلك اليوم وكنا نتجول، الرفيق عزيز وأم شروق وأنا، في شوارع هادئة قريبة لبيتنا، اتصلت بخالو حاجي من تلفون عمومي وبعد التحيات ناولت سماعة التلفون للرفيق عزيز الذي شكره ورفع معنوياته وطمأنه وقال له: "لقد أديت مهمتك ولست مسؤولا عن عدم إنجازها و أرجو أن تعود إلى عائلتك"، وذلك ردا على أسف خالو حاجي لعدم إنجازه المهمة.

خالو حاجي

خالو حاجي شخصية فريدة من نوعها. كان مسؤولا عن جهاز مخابرات الحزب الديمقراطي الكردستاني (باراستن) في السليمانية في سبعينيات القرن الماضي قبل أن يصبح عضوا في اللجنة المركزية لـ (حسك) وممثلهم لدى السلطات الإيرانية وبعض أطراف القوى السياسية العراقية. كان يهتم بكسب ثقة الباسدار للاستفادة من ذلك في تمشية مختلف الأمور لحزبهم وحلفائهم في إيران. خالو حاجي رجل متوسط القامة في الأربعينيات من عمره، له لحية كثة سوداء، بشوش الوجه وذو طبع مرح. ولم تكن لحيته وحدها دليل على "إسلاميته" أمام الباسدار وإنما لزواجه بامرأتين ، والأمر الأخير كان يشهره دائما أمام الباسدار بمجرد التشكيك بإسلاميته باعتباره اشتراكيا. كان كريما معنا و بيته في أرومية محطة لنا، وفي

نفس الوقت لم تكن قيادة حزبنا تبخل عليه وعلى حزبه بأي مساعدة ممكنة. خالو يكيل المديح والثناء لنا ويميزنا عن الآخرين ويبدي الاستعداد لمساعدتنا بأقصى ما يستطيع. ولا أعرف إن كان مصدر ذلك خبرته أم بتأثير زوجته الثانية المنحازة فكريا وسياسيا لحزبنا، أو لربما إلى العاملين معا. إنه لا يعرف شيئا اسمه مشكلة، فهو "حلال المشاكل". وعندما تواجهه مشكلة أمنية يستلهم خبرة عمله السابقة بالباراستن ويقوم، حسب تصريحه لنا، بالتفكير في ما يدور في خلد الخصم لمعرفة خططه، لكي يضع الخطة الملائمة. عندما فاتحته بنيتنا إيصال إذاعة من طهران إلى رفاقنا في كردستان، لم يتردد في الموافقة على مساعدتنا بشرط استلامها خارج المكان الموجودة فيه. أخبرته بأنه سيستلمها من الرفيق فلاح. وبالفعل فقد وصلت الإذاعة سالمة إلى الرفاق في كردستان، بعد بضعة أسابيع من أحداث بشت آشان التي تكبدنا فيها خسائر جسيمة بالأرواح والممتلكات، ومن بين تلك الخسائر الإذاعة. وكانت الجديدة أفضل من القديمة. وعندما كنت أقول لخالو حاجي من الضروري التحوط والانتباه في تعامله مع الباسدار، كان يجيب: "لا تخاف أنا مشتغل بالباراستن".

ولكن خوفي كان في محله. فقد أخبر الباسدار، بعد اعتقال حيدر فيلي، عندما سألوه بهذه الصيغة الخدّاعة: " إن مهمة حيدر فيلي مراسل في الحزب، أليس كذلك؟". "نعم". أجابهم خالو حاجي، ظنا منه بان حيدر قد اعترف بذلك. ولم يتمكن خالو حاجي من الاستمرار بذلك الوضع، ففي ليلة ظلماء هاجر هو وعائلته إلى لندن في أوائل التسعينات.اغتيل خالو حاجي في آذار عام 1994 في السليمانية، أثناء الاقتتال بين الأخوة، واتهم الحزبان الديمقرطي الكردستاني والاتحاد الوطني، أحدهما الآخر، ببيانات عامة بالحادث. وإذا صح ادعاء الطرفين، فإن ذلك يعني بأن خالو حاجي ربما لم يخطأ في قراءة عقلية الحزبين، بل أخطأ في قراءة عقلية ثالثة أو تجاهلها غفلة. تحية لروحه وعزاؤنا لعائلته.

نعود إلى الرفيق عزيز محمد الذي تعرقل سفره وفقا للخطة المرسومة، وبقي في طهران حوالي الشهرين . وعندما زار وفد من جمهورية اليمن الديمقراطية برئاسة عبد القادر باجمال وزير الصناعة آنذاك ورئيس الوزراء الحالي للجمهورية اليمنية، طهران في أواخر شهر كانون الثاني عام 1983، طلب من علي خامنئي رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية آنذاك اصطحاب عزيز محمد معه عند مغادرة طهران. ولم يعترض خامنئي على ذلك. وفي ليلة السفر سلمت الرفيق عزيز إلى القنصل اليمني الذي كانت تربطني به علاقة منتظمة. وتنفسنا الصعداء عندما علمنا، في اليوم التالي، بأن السفر قد تم بسلام.

الرفيق عزيز محمد وبجانبه هناء صادق ابنة خال المؤلف وابنها مازن والمؤلف وزوجته.أخذت الصورة في شقة المؤلف في طهران نهاية عام 1982

طبيعة مهامنا في إيران

كانت هناك في طهران هيئة حزبية يقودها الرفيق فلاح وفي عضويتها الرفاق سيد هاشم وأبو فاطمة وحيدر فيلي، و ثلاثتهم متفرغون ويرتبط بهم عدد صغير من الرفاق المتفرغين أيضا. وكان هناك مراسلان بيننا وبين الشام لا علاقة لهم بالهيئة المذكورة. كانت إحدى المهام البارزة التي تقوم بها المنظمة تقديم المساعدة إلى الرفاق الذين يصلون من كردستان للعلاج في طهران وذلك بمرافقتهم ومساعدتهم في الترجمة و تدبير إقامتهم في الفنادق. واستفاد الرفاق من فندق بعينه حيث تمكنوا من بناء علاقات جيدة مع صاحبه. أما بالنسبة للكوادر الحزبية، فقد كانوا يقيمون في بيوت الرفاق أو في غرفة مؤجرة لهذا الغرض. كان الباسدار يتحرى الفنادق أحيانا ويكتفي بالتأكد من حيازة الشخص على ورقة السماح الصادرة من الأحزاب الكردية ومن صلاحيتها. وفي وقت من الأوقات كانت لدينا أوراق مختومة وموقعة سلفا، نملأها ونستخدمها عند الضرورة. ويتحرى الباسدار أحيانا الحاجيات الشخصية. فعثروا في إحدى المرات على صورة كارل ماركس لدى أحد الرفاق، واكتفوا بتمزيق الصورة والتهجم على الرفيق. وفي أحد الأيام بلغ عدد الرفاق

الذين يقيمون بشكل مؤقت في طهران لأسباب مختلفة حوالي خمسين رفيقاً وغالبيتهم للعلاج.

يمكن أن يستشف المرء من حادث تمزيق صورة ماركس بأن الإيرانيين كانوا يعرفون بأن هناك شيوعيين يأتون إلى طهران للعلاج و لكن كانوا يغضون النظر عن ذلك. أما الأمور الأخرى فلم يكن يعرفون بها، فهي بطبيعتها خطيرة وغير قانونية وكنا مضطرين للقيام بها. كانت تحول مبالغ من الخارج إلى كردستان وعلينا إيصالها سرا بعشرات الرحلات الخطرة سنويا وكان يقوم بذلك رفاق بواسل وأمناء وهم حيدر فيلي وأبو زكي ونوري وعادل ميران.

وكانت هناك آلية للتعامل مع هذا الموضوع لا تدع مجالا لأي تلاعب. ففي أول زيارة قمت بها إلى قيادة الحزب في كردستان، وكنا، للتو، قد أتممنا صفقة. استفسر مني أحد رفاق اللجنة المركزية عن جانب منها فأجبته... وإذا بالرفيق يشكك بقضية معينة. لقد كان ذلك بمثابة صدمة لي، أنا أقول له بأن هذا هو أحسن سعر موجود في السوق لهذه البضاعة، وهو يذكر لي سعراً آخراً. فكرت مليا في الأمر ووجدت من الضروري اتخاذ تدابير من شأنها أن تقيني من أي شك. أخبرت الرفيق عمر علي الشيخ (أبو فاروق) عضو المكتب السياسي، وكان مرجعي الحزبي، بما سمعته وأضفت:

"إن أي صفقة لا تتم إلا بقرار نتخذه سوية الرفيق فلاح وأنا، وإن أي تلاعب يتطلب تواطؤاً مع التاجر ومع الرفيق سيد هاشم الذي يعمل معنا ويساعدنا في هذه الأمور. فهل يعقل أن يحصل ذلك؟" "لا"، أجاب عمر وأضاف: لا تهتم لكلام الرفيق فهو قد يمزح معك. فقلت له: "أنا لا يعجبني هذا المزاح وأقترح ما يلي: مادامت هناك ثقة بالآلية التي اتفقنا عليها، فإنني أرى أن لا نجيب على أي استفسار يتعلق بهذا الموضوع. إلا للجهة الحزبية المسؤولة. ومن جانبنا سوف لا نسمح بتدخل أحد في هذا الشأن".

وفعلا، لم يتدخل أحد في هذا الموضوع إطلاقا، ما عدا الرفيق عزيز محمد عندما كان مقيما في طهران وأراد الإحاطة ببعض المعلومات في هذا المجال، وحصل على ذلك من الرفيق فلاح. ونحن من جانبنا كنا ملتزمين بشكل صارم بالآلية. وكان الرفيق فلاح ينظم تقريرا شهريا بالحسابات المالية، أطلع عليه وأرسله إلى أبي فاروق. ولم يقع أي خطأ أو صدفة سيئة في هذا المجال طيلة سنوات عملنا في هذا الميدان. وقد توثقت الآلية المذكورة بعد تعرف العديد من الرفاق القياديين على الجهات التي نتعامل معها.

علاقات عامة

كان لدينا عدد من العلاقات العامة في طهران. صلتنا بحزب توده كانت بالمناضل المعروف الشاعر والكاتب حسن قزلجي عضو اللجنة المركزية الذي استشهد في المعتقل في الضربة الأخيرة لحزب توده عن عمر يناهز الثمانين عاما. كان قزلجي يتكلم العربية بلكنة كردية فقد عاش في العراق حوالي عشرين عاما هارباً من نظام الشاه. واشتغل عاملا زراعيا في الريف وعامل بناء في المدن بما في ذلك بغداد. واستقبلني في أول لقاء المناضل المعروف رضا شلتوكي عضو المكتب السياسي، وهو من ضباط حزب توده والذي قضى 25 عاما في سجون الشاه، ووجدته رفيقا متواضعا. وقد مات هذا المناضل أيضا في المعتقل في الضربة الأخيرة لحزب توده. وكانت علا قتنا بفدائيي خلق - الأكثرية أيضا منتظمة و أغلب اللقاءات تجري في شوارع طهران مع أحد كوادرهم الشابة، واستقبلني في أول لقاء المسؤول الأول في المنظمة فَروخ نگهدار، وهو شاب غاية في التواضع والهدوء، وكنت أسائل نفسي وهو جالس أمامي أليس هدوؤه ظاهريا؟ فالأسلوب الأساسي لكفاح منظمتهم في زمن الشاه هو الاغتيالات، وهي أول منظمة دعت الجماهير إلى الهجوم على الثكنات والاستيلاء على الأسلحة. وعند لقائي كانوا قد استكملوا تحويل منظمتهم من منظمة "مسلحة" إلى منظمة سياسية جماهيرية. وأخبرونا في اللقاء بأنهم يقرون جميع بيانات الأحزاب الشيوعية الصادرة من مؤتمراتها العالمية. وكانت لدي علاقة منتظمة ووطيدة مع قنصل جمهورية اليمن الديمقراطية، وهذه القناة كانت حيوية بالنسبة لنا، فعن طريقها كنا نستلم الكتب والمطبوعات والبريد الحزبي أحيانا. أما العلاقة بحدك فكانت تتم مع عثمان قاضي وشوكت عقراوي في كرج. وقد التقيت مرة واحدة بالسيد مسعود البارزاني. ولهذا اللقاء دواعي تستحق التوضيح، بالرغم من أننا سنستبق الأحداث.

وصل إلى طهران من وكردستان الرفيق باقر إبراهيم وزوجته في نهاية عام 1984، وكانا يحملان رسالة من المكتب السياسي تشير إلى أن مجيئهما إلى طهران للعلاج ولتسفيرهما إلى سوريا إذا ما توفرت إمكانية ذلك. كانت إمكانية تسفيرهما معدومة تقريبا. الطيران الإيراني كان متوقفا بين طهران ودمشق تماما، وكان الحصول على تذكرة لرحلة قريبة على الطائرة السورية غير ممكن إلا عن طريق السفارة السورية التي لا علاقة لنا بها، هذا فضلا عن عدم حيازة باقر وزوجته على جوازات سفر. وصل طهران في حينه خمسة رفاق من سوريا وغادرونا إلى كردستان. طرحت فكرة الاستفادة من جوازاتهم والتي تحمل تأشيرة لمدة شهر لتسفير بعض الرفاق الذين ينتظرون في طهران، إذا ما أفلحنا في تزويرها. هناك إذا بصيص أمل في تسفير باقر وزوجنه، فتحركت شخصيا لتحري الإمكانيات. كان هناك رفيق موجوداً في طهران لديه إلمام بتزوير الوثائق فاتصلت به وأبدى استعداده لتدبير الأمر. أرسلنا مراسلا جلب لنا جوازات الرفاق الذين غادرونا، وزوّرناها. كانت هناك فرصة واحدة للسفر في مدة التأشيرة وهي على الرحلة القادمة على الطائرة السورية. فكرنا بتوسيط الحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك)، لتأمين تذكرتين من السفارة السورية. سافرت إلى كرج

والتقيت بالسيد عثمان قاضي الذي قال لي: "إن هذا الأمر ليس من صلاحياتنا وربما يتمكن (أبو مسرور) مسعود البارزاني من مساعدتكم، وهو ليس في المقر الآن وذهب إلى البيت".

طلبت منه أن يخبر السيد مسعود برغبتي في اللقاء به. وقد لبى الطلب مشكوراً. عرضت الموضوع على السيد مسعود وأخبرته بان عدم سفر المعنيين على الرحلة القادمة يعني فشل المشروع. طرح البارزاني علي سؤالا واحد وهو:"هل بإمكاني معرفة اسم الرفيق المسافر؟" زودته بالاسم. وكلف هو بدوره السيدين عثمان قاضي وشوكت عقراوي بتدبير الأمر. وعندما ودعت البرزاني قال لي: "بلغ تحياتي لأبي سعود (عزيز محمد) وقل له نحن على العهد باقون". كبر الرجل في عيني، فتذكر العهود والوفاء بها هي من أهم خصال الزعماء الحقيقيين والناس المحترمين.

عند عودتي ذهبت إلى شارع سلسبيل، وهو شارع جميل غير بعيد عن بيتنا، كنا نتمشى فيه عصر كل يوم. وكنت أتوقع أن أجد أبا خولة وأم خولة، اللذين كانا يتابعان جهودنا خطوة فخطوة، برفقة أم شروق. وعثرت عليهم فعلاً. كان أبو خولة يائساً من الحصول على مساعدة (حدك) لذلك فقد تفاجأ بموقفه الإيجابي. سافر باقر إبراهيم وزوجته وكنا قلقين عليهم بعض الشيء لأن اسم زوجته في الجواز كان اسما مذكراً. ولم يجر تغييره لأنه لم يكن من الأسماء الذكورية الشائعة.

***

إطلاق سراح الرهائن

كتبت رسالة إلى المكتب السياسي في حزيران 1982 أطلب فيها إجازة لمدة شهر للالتقاء بأبنائنا في شهر تموز على حسابنا الخاص. وقبيل استلامي الجواب وفي اتصال هاتفي مع الشام أخبرني الرفيق عبد الرزاق الصافي بنبأ إطلاق سراح جميع أخوتي المعتقلين ووصولهم إلى دمشق، ودعاني للتوجه إلى الشام وأكد على ضرورة ذلك. وكان الرفيقان الصافي وزكي خيري فقط من أعضاء المكتب السياسي موجودين في الشام آنذاك. فتصورت بأن هناك ضرورة عاجلة لسفري، فقررت السفر مع أم شروق. وكنت على قناعة بأن مغادرة موقعي قبيل موعد الإجازة التي لم أشك بأن المكتب السياسي سيوافق عليها ، لن تترك أية عواقب سلبية على سير عمل المنظمة. وزيادة في الحيطة، نظمت صلة تلفونية أسبوعية بيني وبين الرفيق فلاح للتشاور والمتابعة. وصل الرفيق الصافي إلى طهران وهو في طريقه إلى كردستان عشية سفرنا. وعند استفساري عن مبررات وضرورة سفري، أوضح بأنه كان يروم معرفة كيفية السفر ومسالك الطريق ولا توجد ضرورة للسفر الآن. أخبرته بأنني لم أفهم الأمر على هذه الصورة وإننا أنجزنا

معاملة الجواز ويُلزمنا ذلك بمغادرة الأراضي الإيرانية، وأرجو توضيح الالتباس لرفاق المكتب السياسي.

استأجر الحزب بيتا بسيطاً ولكنه كبيراًً في منطقة دمّر، الواقعة في ضواحي دمشق، وجمعَ فيه عوائل إخوتي، وصرف لهم مخصصات شهرية، توقفت بطلب من إخوتي حال وصولهم.علمت من إخوتي بأنه قد أطلق سراح جميع المعتقلين من عوائل الشيوعيين الذين كانوا موجودين في معتقل الفضيلية كرهائن، بناء على قرار عفو صدر من رأس النظام. وجاء هذا القرار على أثر محاولة النظام الفاشلة لإعادة العلاقات مجدداً مع الحزب الشيوعي. كما جاءت الإشارة إلى ذلك في الموضوع المعنون "حقيقة علاقة القيادة السوفيتية بقيادة الحزب الشيوعي العراقي في عقودها الأخيرة". وجرت محاولة فاشلة لعرض عملية إطلاق السراح في التلفزيون العراقي لأغراض دعائية. فقد نظم ما سمي بالاحتفال للمعتقلين في قاعة مجهزة بالكاميرات بعد إحضار مجموعة من سجن نقرة السلمان وأخرى من سجن الحلة. كان عدد المعتقلين أكثر من 100 شخص بينهم نساء وأطفال، وبين المعتقلين نسبة غير قليلة من الأكراد.. وحضر "الحفل" عدد كبير من كوادر أجهزة الأمن يقدر عددهم بأكثر من 20 موظفا جلهم مدراء مكاتب. وطلب مدير الأمن العام فاضل البراك من بضعة معتقلين التحدث، كان أخي حميد من بينهم. وسأتركه يتحدث بنفسه وبآرائه:

"شكرت السيد الرئيس على قرار العفو، وتمنيت أن يتوسع ليشمل الآخرين. فقاطعني البراك بالقول:
- لا شأن لك بالآخرين، تحدث لنا عن خيانة الشيوعيين وتعاونهم مع إيران.
- أشك بتعاون الحزب الشيوعي مع الحكومة الإيرانية لوجود خلافات سياسية وفكرية واسعة بينهما.
- الم تشاهد التلفزيون عندكم في المعتقل؟ البراك مقاطعاً.
- التلفزيون يعكس وجهة نظر واحدة.
استهجن البراك رأيي وطلب مني التحدث عن خيانة جاسم (المزعومة) لوطنه. تحدثت عن الصراعات الدموية التي مرت بها الأحزاب والتي لم تجلب أي خير للوطن، وكيف أن تعاونها كان وراء ثورة 14 تموز... لم يرق الحديث للبراك فقاطعني بعصبية طالبا مني الإجابة على السؤال والدخول في الموضوع ومضيفا باستهجان:
- يريد يلقي علينا محاضرة.
فرددت عليه بأني أريد توضيح الخلفية التاريخية. وواصلت الحديث، فتطرقت إلى تأميم النفط، وكيف اغرورقت عيوننا، جاسم وأنا، بالدموع عندما سمعنا بقرار التأميم. وهناك الكثير من الإنجازات الوطنية والاجتماعية التي تحققت في ظل التعاون وفي عهد الجبهة... فقد البراك أعصابه فأوقفني عن الكلام و راح يتهجم علي وعلى العائلة."

ـ استفسر أخي مجيد عن مصير العوائل المسفرة فرد البراك:
ـ لا توجد مشكلة يذهب واحد منكم ويجلبها أو (مستدركا وآمرا مدير المكتب الأول) زودوا الحلوائيين أخوة جاسم كلهم بالوثاق الضرورية ليسافروا وليذهبوا حيثما يشاؤون ...
وأنهى البراك الاجتماع الذي تردد فيه اسم رأس النظام أكثر من مرة ولم يصفق المعتقلون، ولم يبث اللقاء بالطبع". انتهى حديث أخي حمبد.

استدعت إدارة المعتقل جميع المعتقلين المعنيين بالأمر تدريجيا وأطلقت سراحهم. بقي أخوتي وعائلة حسين سلطان، التي تربطنا بها علاقة نسب، بضع ساعات إضافية. وقبل إطلاق سراحهم أعادت السلطات الأمنية وثائقهم وصورهم ومكنتهم من السفر، بالرغم من أن السفر كان محضوراً على العراقيين بسبب الحرب.

عدد من أشقائي وعائلاتهم. أخذت الصورة بعد إطلاق سراحهم في حزيران عام 1982 على أثر العفو العام حيث كانوا محجوزين كرهائن

أشقاء المؤلف الستة على يمينه حميد خليل مجيد وعلى يساره سمير جليل قاسم
أخذت الصورة في دمشق بعد إطلاق سراحهم في عام 1982

وصل أبناؤنا أيضا من الاتحاد السوفييتي، فقضينا وقتاً ممتعاً مع أخوتي وعوائلهم في مصايف سوريا. وعلى البحر في اللاذقية. وعندما استمزج أخوتي رأي الحزب في موضوع بقائهم أو عودتهم، ترك الحزب الأمر لهم ليقرروا ما يرتأونه. بقي منهم اثنان مع عوائلهم وعاد الباقون . وقد أودع الأخوين حميد وخليل لدينا مبلغا من المال كأمانة، مع صلاحية الصرف منها لتغطية نفقات أبنائنا. و صرفنا جُل المبلغ لطول فراقنا الذي استمر سنوات طويلة بسبب منع السفر على جميع العراقيين، باستثناء لقاء واحد مع أخي حميد في كردستان العراق، ولهذا اللقاء قصة، جديرة بأن تروى، كما أعتقد.

كنت عائدا للتو إلى طهران من اجتماع اللجنة المركزية الذي عقد في كردستان في تموز عام 1984،عندما استدعيت من المكتب السياسي لكي ألتقي بأخي حميد الموجود في كردستان، في موقع غير بعيد عن موقع قيادة الحزب. عرفت من

المكتب السياسي بأن حميد مرسل من قبل سلطات البعث، والمطلوب معرفة ما عنده. التقيت بأخي حميد، وكان لقاء حارا... و شكا لي من جروح وآلام في رجليه جراء السير لمسافات طويلة. وسأعطي الكلام له ليروي ما حدث بنفسه.

"أرسل مدير المكتب الأول في مديرية الأمن العامة، المتخصص بالشيوعيين، رسولا وطلب مني السفر إلى كردستان للاتصال بباقر إبراهيم وثابت حبيب العاني لكي أقول لهما:
ـ ما معنى فاشية ودكتاتورية وإسقاط سلطة ... وما اليها، ونحن نخوض حرب وطنية ضد غزاة...
وعندما استفسرت منه عن أسباب اختياري أجاب الرسول:
ـ نحن نثق بأنك ستنقل مانريده بأمانة وستكون رسول سلام بيننا. سنوصلك بالقرب من المنطقة التي يوجد فيها المتمردون، وستذهب إليهم. إنهم لن يؤذوك إذا ما تعرفوا على شخصيتك، وطلبت منهم اللقاء بأخيك جاسم. فأجبته بأنني غير مستعد للاتصال بأشخاص، أما إذا تريدون الاتصال بالحزب فلا مانع لدي.
ذهب الرسول وعاد بعد أسبوع ليخبرني بموافقتهم على الاتصال بقيادة الحزب واستعدادهم للقاء بين الطرفين في أي مكان تقرره قيادة الحزب. وذكرت كل ذلك في الرسالة التي أرسلتها إلى قيادة الحزب عند وصولي أول قاعدة أنصار تابعة لكم".
انتهى كلام أخي حميد

أخبرت الرفاق في المكتب السياسي، وكانوا إضافة إلى عزيز محمد كل من عمر علي الشيخ وكريم أحمد، بنص الحديث. وبرغبة حميد بالبقاء في كردستان وعدم العودة. بعد التداول بينهم حدثني الرفيق عزيز قائلاً: "مثلما تعرف فإننا خرجنا للتو من اجتماع اللجنة المركزية والذي تناولنا فيه الوضع السياسي ولا جديد لدينا بالنسبة لما يطرحونه من أسئلة. و كان بودي أن ألتقي بحميد، ولكن الرفاق لم يحبذوا ذلك. فما رأيك أنت: "أنا الآخر لا أحبذ اللقاء، خاصة وهو مرسل من جهة أمنية، وليس سياسية". أخبرت أخي حميد بأن يخبر الجهة التي أرسلته بأن لا جديد لدينا. وبإمكانه أن يوصل لهم نسخ من الأدبيات التي اطلع عليها في المقر. وكان رأي الرفاق مطابق لرأيي في عدم تحبيذهم بقاءه وينصحون بعودته، وإلا فقد يعرض عائلته للانتقام.

علمت من حميد بعد سنوات طويلة من الانقطاع بأنه سلم الأدبيات لرسول مدير المكتب الأول بعد عودته من كردستان، وبعد فترة أستدعي للأمن العامة والتقى بمدير المكتب الأول. كان المدير غاضباً واعتبر جلب حميد للأدبيات وتسليمها لهم بمثابة تعاطف مع محتواها، وإلا لما حملها لهم. وطلب حميد عدم تحميل الأمور بما لا تحتمل، فهو رسول وما على الرسول إلا البلاغ المبين. بعد ذلك طلب من حميد أن يتحدث عما رآه وسمعه. فقال له حميد: "هذا الطلب خارج الاتفاق، لقد ذهبت

بمهمة سياسية وليست أمنية وإني أعتبر مهمتي انتهت. فغير المسؤول الأمني الموضوع. وسرعان ما أنهى اللقاء.

إن مثل هذا الموقف المتزن من حميد، وهو في دائرة أمنية بعثية، ليس بغريب عليه، وقد تطرقت في ذكرياتي إلى العديد من هذه المواقف المحسوبة سياسيا. وهناك موقف لا بد من ذكره قبل إنهاء هذا الموضوع. فقد أعتقلت السلطات الأمنية حميد في عام 1965؛ أي في عهد عبد السلام عارف، وطلبت منه أن يرشدهم إلى بيتي، وأمام إصرارهم على معرفته بالبيت ونكرانه لذلك، تعرض للتعذيب. وكان يعرف بيتي فعلا. ومن أجل التخلص من هذا المأزق الحرج كاد أن يضحي بحياته عندما أقدم على الانتحار وقطع شرايين يده اليسرى في موقف الأمن العامة. ونجا بأعجوبة من الموت لأنه نزف كثيرا من دمه قبل علاجه. وأطلقوا سراحه بعد أن قالوا له: "نحن سنطلق سراحك لأننا تأكدنا من عدم معرفتك بيت جاسم، وليس لمحاولتك الانتحار"!

باعتقادي من غير الصحيح إنهاء هذا الموضوع وإبقاء طلب السلطات الأمنية من أخي حميد الاتصال بباقر إبراهيم وثابت حبيب العاني، دون سواهم، عائما. كان تقديري للأمر في حينه هو أن البعث يتوسم فيهما مرونة سياسية. أو إنه يحاول اللعب على التركيب القومي داخل الحزب بهدف شق وحدته. وأضيف الآن، ربما كان البعث يعول على الرفاق العرب في قيادة الحزب، في تغيير سياسة الحزب لصالحه في الحرب العراقية الإيرانية لاعتقاده الخاطئ بذيلية مواقف الرفاق الأكراد للأحزاب الكردية. وعند استفساري من الرفيق عمر علي الشيخ، باعتباره مرجعي الحزبي، كما سبق وأن ذكرت ، عن مغزى طلب الأمن، في بداية الأمر، من أخي حميد الاتصال بالرفيقين المذكورين تحديدا، أفاد بأنه لا يعرف.

***

محاسبة

لنعد إلى الشام، كنت آمل في كل مخابرة تلفونية مع الرفيق فلاح في طهران أن يخبرني بوصول رد إيجابي من المكتب السياسي على طلبي الإجازة لتكون سفرتي شرعية. وأخيراً، وقبل أن تنتهي إجازة أبنائي، أخبرني الرفيق فلاح بوصول رسالة من المكتب السياسي يستغربون فيها مغادرة موقعي. فقطعت السفرة وعدت إلى طهران في أول طائرة، وبقت أم شروق لاستكمال المشوار مع أبنائنا لحين عودتهم إلى الاتحاد السوفييتي. سافرت إلى كردستان حال وصولي إلى طهران. حاسبني الرفيق عزيز محمد بحضور الرفيق الصافي واعترفت بان مغادرة موقعي، والتي حصلت باستدعاء من قبل عضو مكتب سياسي، كانت تتطلب موافقة مرجعي الحزبي والذي هو في كردستان وليس الشام. وكان الرفيق عزيز مهتما أكثر بالجانب العملي، وأفاد بأنه كان من الممكن الاستفادة من سفرتي لإيصال أمر ما من

كردستان للشام لو كان لديهم علم بسفري. وعلمت لاحقا بأن الأمر كان استفساراً من قيادة الحزب موجها للرفاق هناك حول رأي السوفيت في عرض حزب البعث لعودة حزبنا للجبهة، وقد تمكن المكتب السياسي من إرسال الاستفسار للشام خلال وجودي فيها، وحملت جوابه معي عند عودتي منها. وقد أشرت إلى تفاصيل ذلك ووثقته في مسلسل " حقيقة علاقة القيادة السوفيتية بقيادة الحزب الشيوعي العراقي في عقودها الأخيرة". لقد ضمنت توضيحاتي مع نقد ذاتي في رسالة موجهة إلى المكتب السياسي . وأشرت في هذه الرسالة إلى أنني أتحمل أجور السفرة من جيبي الشخصي. واكتفى المكتب السياسي بالنقد الذاتي الذي قدمته.

وخلال وجودي بالقرب من مقر المكتب السياسي عرفت السبب المباشر لاحتجاز إخوتي وعوائلهم. فقد علمت باعتقال مراسل في بغداد كان يرتبط بي، عندما كنت مقيما في دمشق، جراء اعتراف عليه. واعترف هذا المراسل علي تحت وطأة التعذيب الوحشي الذي تعرض له. وتزامن الحادث مع اعتقال عائلتي الكبيرة. ومما رجح قناعتي بذلك هو قول السلطات الأمنية لإخوتي: "ها .. جاسم گاعد (جالس) بسوريا ويخرب علينا".

وأتذكر حادثا طريفا مع المراسل المذكور. فعندما سلمته الحقيبة، التي أخفينا المواد فيها، طلبت منه أن يحزر في أي مكان من الحقيبة أخفينا المواد، فلم يحزر ذلك. فقد أشار إلى قعرها وسقفها، ولما نفيت ذلك وقف المراسل وعلى شفته ابتسامة مطمئنة لشعوره بأن البريد مخبأ بشكل جيد وليس هناك خطورة كبيرة في الأمر، وهذا ما كنت أستهدفه من هذا الاختبار. ثم أخبرته بالمكان وبطبيعة المواد وكانت كمية محترمة من جريدة "طريق الشعب" ومقالات مختارة من مجلة الثقافة الجديدة، مطبوعة على ورق شفاف وبحجم صغير جدا، مخبأة في حفرة في المحيط الخشبي للحقيبة وبشكل فني يصعب اكتشافه. وكنا نجلب مثل هذه الحقائب من طهران لعدم توفرها في سورية. وكان الصديق العزيز كاظم الصايغ هو الذي يقوم بترتيب الحقيبة، ومنظمة بيروت هي التي تطبع المواد. وقد وصلت الحقيبة سالمة إلى بغداد ووزعت المواد، أما الاعترافات فقد جاءت لاحقا.

***

هل بقت الحرب تحررية وعادلة من جانب إيران في صيف عام 1982؟

كنت أنام وأصحو في إيران على شعارات رجال الدين المتشددين التي كانت تعكس طموحاتهم وأهدافهم في احتلال العراق وإقامة النظام الجمهوري الإسلامي التابع لهم. وكان ذلك يقلقني سياسيا. و تحولت تلك الشعارات إلى التطبيق العملي في صيف عام 1982 بعد تحرر الأراضي الإيرانية ولجوء العراق إلى مجلس الأمن

مطالبا بإيقاف القتال والقبول بمبدأ المفاوضات بين الطرفين المتحاربين لإنهاء النزاع. وقد صدر قرار من مجلس الأمن بهذا الصدد، رفضته الحكومة الإيرانية وواصلت حربها وقامت بتعرض عسكري خطير استهدف اقتطاع البصرة، ولم يعد لدي أدنى شك بضرورة إجراء تغيير في موقفنا السياسي. فالحرب لم تعد من جانب إيران لا تحررية ولا عادلة. فعندما استدعيت لحضور اجتماع اللجنة المركزية في أيلول من العام المذكور، طلبت لقاءً بقيادة حزب توده والذي غير موقفه معتبرا أهداف الحكومة الإيرانية من مواصلة الحرب هي أهداف توسعية، وأخذ يطالب بإيقافها. التقى بي الرفيق رضا شلتوكي عضو المكتب السياسي وأبلغني بأن نور الدين كيا نوري الأمين العام للجنة المركزية كان يروم المجيء إلى اللقاء وتعذر عليه ذلك وبلغني تحياته وأسفه لعدم لقائي. شرح لي شلتوكي الوضع السياسي وبين حيثيات موقفهم الجديد من الحرب، وبدوري أخبرته بأن موقفنا لم يتبدل من الحرب لحد تلك اللحظة وسيدرس الموضوع في اجتماع اللجنة المركزية الذي يوشك على الانعقاد.

سافرت إلى كردستان وتحديداً إلى وادي ناوزنك، حيث مقر قيادة الحزب، ورافقتني أم شروق في هذه الرحلة. التقيت بالرفيق عزيز وسلمته تقريرا باللقاء مع حزب تودة وأخبرته برأيي القاضي بإعادة النظر في موقفنا من الحرب، وأخبرني بوجود رسالة من الرفيق زكي خيري تطالب بذلك أيضا، وصرح لي بأنه هو الآخر يشعر بضرورة تحريك موقفنا.

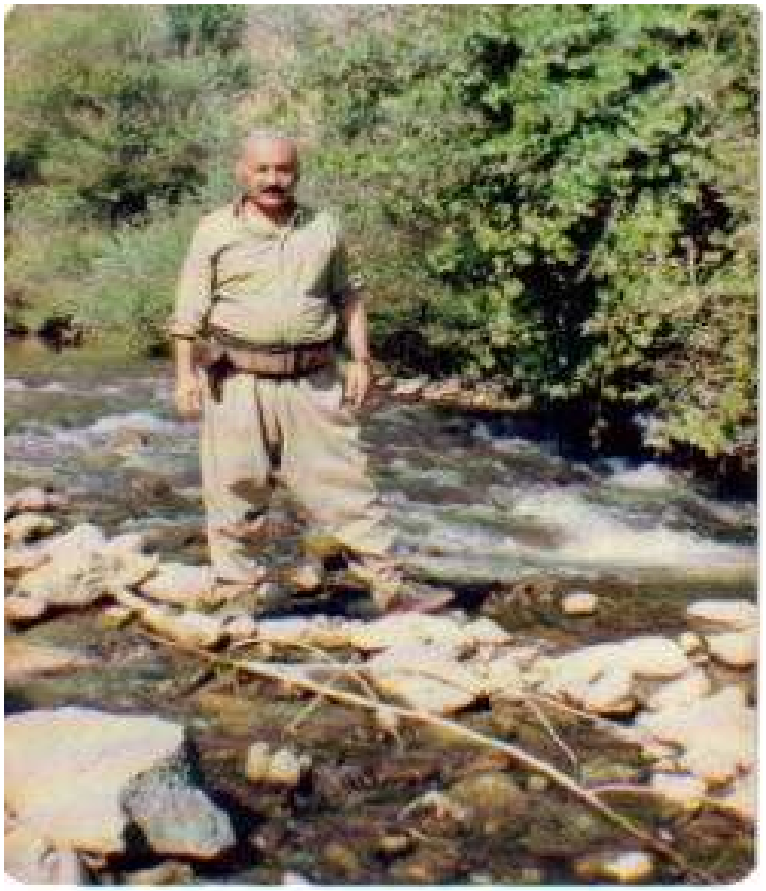

المؤلف في كردستان

بادرت بطرح رأيي في اجتماع اللجنة المركزية واقترحت تغيير شعارنا السياسي المركزي من "إسقاط الدكتاتورية وإيقاف الحرب" إلى "إيقاف الحرب وإسقاط الدكتاتورية". وكان عدد من الرفاق يتعاطفون مع إجراء تغيير على سياسة الحزب، وأتذكر بأن الرفيق كريم أحمد تطرق إلى ذلك أيضا. وسرعان ما تعرض هذا الموقف من قبل الرفاق المتشددين إلى هجوم متطرف صاعق محملا الموقف الداعي للتغيير، تداعيات خاطئة، من قبيل، إن التغيير في الشعار المركزي يستهدف، لاحقا، التخلي عن شعار إسقاط السلطة تمهيدا للمصالحة والتحالف معها تحت شعار الدفاع عن الوطن. وباعتقادي إن أحد أسباب تلك التداعيات الخاطئة، هو رد فعل خاطئ على الأخطاء التي أرتكبت في فترة تحالف حزبنا مع حزب البعث.

بعد مرور سنتين، وبدون تغيير في مواقف الطرفين المتحاربين، ولكن بعد أن أصبحت الأهداف الإيرانية تفقأ العين على الأرض، استوعبت اللجنة المركزية التغيير الذي جرى على طبيعة الحرب، سائرة في ذيل الأحداث بامتياز، مزودة السلطة الدكتاتورية بأوراق إضافية تخدم دعايتها المضادة للحزب، فغيرت اللجنة المركزية الشعار السياسي المركزي للحزب من "إسقاط الدكتاتورية وإيقاف الحرب" إلى "إيقاف الحرب وإسقاط الدكتاتورية"، وذلك في اجتماع اللجنة

المركزية المنعقد في تموز عام 1984. أما التداعيات التي كانت تخشاها اللجنة المركزية من تغيير الشعار المذكور، الذي غير أولويات الحزب السياسية، فلم تؤكد الحياة صوابها، فمن المعروف أنها لم تحصل بعد تغيير الشعار المركزي، فالموقف من السلطة الدكتاتورية لم يتغير. ووجود رفيق واحد في قيادة الحزب، وأقصد الرفيق زكي خيري، تبلورت آراؤه تدريجيا لتطابق تلك التداعيات لا يشفع للجنة المركزية خطأها في عام 1982، لأن خيري ظل يغرد خارج السرب لابتعاد أطروحاته عن الواقع. ووصل به الأمر عام 1986 أن يدعو إلى : " ... إقامة حكومة دفاع وطني يشارك فيها الحزب الشيوعي العراقي والأحزاب الراغبة في الدفاع عن الوطن وحزب البعث" [52].

كان رد العراق على الهجمات الإيرانية في الجبهة بصواريخ أرض ـ أرض مؤثرا جداً، حيث تعرضت الكثير من المدن الإيرانية القريبة من الحدود إلى قصف صاروخي مستمر كمسجد سليمان، بهبهان، دزفول، مهران، انديمشك، خرم آباد، بختران وايلام. وكانت خسائر الإيرانيين جسيمة بالأرواح والممتلكات، وأحرجت، نداءات السكان المطالبة بالحماية من الصواريخ ، السلطات الإيرانية، وكانت هجرة سكان تلك المدن إلى أماكن أخرى تضاعف من مشاكل البلد. أما قصف طهران بواسطة الطائرات فلم يكن ذو جدوى ماديا، ولكن منظر مضادات الطائرات الإيرانية البائسة، والتي تبدو كلعب أطفال، كان يثير السخرية. وكنا، أم شروق وأنا، نجلس على سطح الدار ونتفرج لعدم وجود قبو في البيت أو ملجأ نحتمي به. ولم تقع إصابة بالقرب منا، وإنما حصل انفجار شديد قريب من بيتنا، من أعمال القوى المعادية للحكومة، هشم زجاج نوافذ شقتنا ولم نصب بأذى، وقد أصلحت الحكومة هذه الأضرار بسرعة.

قراءاتي في طهران

لم يكن لدي عمل يومي أتابعه عند إقامتي في طهران، وأقصد به عمل يومي روتيني، إلا إذا اعتبرنا مطالعة الصحف والمجلات الإيرانية صباح كل يوم عملا! أما الترجمة أو كتابة مقال، التي كنت أقوم بها أحياناً، فإنها لا تستغرق مدة طويلة. أما مهامي الأخرى فلم تكن يومية ولا كثيرة. كان العمل الروتيني اليومي للمنظمة كلا موحدا وتنهض به لجنة مسؤولة وسكرتيرها الرفيق فلاح، وهو رفيق ديناميكي وكفوء سياسيا وتنظيميا. وكان بإمكانه أن يقوم بما أقوم به من مهام إضافة إلى مهامه. وعندما مر علينا الرفيق الصافي في طهران قال لي وبحضور الرفيق فلاح:"خوش مساعد عندك"، ويقصد بذلك الرفيق فلاح. أجبته: " ليش هو المساعد يو (أم) أنا؟"

[52] ـ زكي خيري. مصدر سابق، ص 234.

كان ذلك الوضع يولد لدي شعوراً بأن طاقاتي مجمدة ولا ضرورة لوجودي في طهران، مما يستدعي مصارحة الحزب بذلك. ولم يكن أمامي من حل وقتئذ سوى طلب نقلي من طهران إلى مكان آخر. وبما أنني لا أستطيع الإقامة في كردستان بسبب سماعة الأذن، فذلك يعني نقلي إلى دول المهجر،حيث كانت الإقامة فيها أشبه بالسياحة. ولم أكن أرتضي لنفسي بتقديم مثل هذا المقترح. كنت مستسلما للقدر، مكتفيا بقناعة الآخرين بضرورة وجودي بمن فيهم الرفيق فلاح، الذي كان ولا يزال ([53] *)، يعتقد بأن إشرافي على المنظمة كان مفيداً وضرورياً.

كنت أقضي أوقات فراغي بالقراءة، وكانت قيادة منظمة حزبنا في اليمن ترسل عن طريقنا إلى قيادة الحزب في كردستان ما يصدر من كتب سياسية ونظرية جديدة. كنت أقرأها ومن ثم أرسلها. ومن الأدب الكلاسيكي الذي قرأته آنذاك هي مجموعة رسائل لكارل ماركس وفردريك إنجلز. وهناك فكرة مهمة وردت، على الأرجح. في آخر رسالة لانجلس، لاحظت بعض أصدقائي غير مطلعين عليها، يقول فيها: "لقد أولينا اهتماما كبيرا لتأثير المادة على الفكر وقصرنا في توضيح تأثير الفكر على المادة".

وقرأت للمفكر الكبير حسين مروة كتابه الموسوم "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية". وهو كتاب تراثي وفلسفي غزير فكريا وجذاب جداً. قرأه الرفيق عزيز محمد أيضا في شقتنا في طهران. وصحح الكتاب لدينا فكرة خاطئة وهي أن الشيعة يساريون في الإسلام. في حين إنهم معتدلون وأساس اعتدالهم يكمن في التقية. والطريف في الأمر إن مصدر الفكرة الخاطئة كان نفسه بالنسبة لكلينا، وهو مقالات السيد أحمد عباس صالح في مجلة "الطليعة" المصرية والتي نشرت في ستينيات القرن الماضي تحت عنوان "اليمين واليسار في الإسلام"

و قرأت في طهران كتبا باللغة الفارسية، ومما قرأته الشاهنامة للحكيم أبو القاسم الفردوسي، وهي الملحمة الفارسية التي تعتبر مصدراً أساسيا في التراث القومي الفارسي، يعتز بها الإيرانيون أيما اعتزاز. وتمتاز لغة الشاهنامة بخلوها من أية كلمة أو جذر لكلمة عربية. وقرأت بعض الروايات لكتاب إيرانيين معاصرين. وأهم ما قرأته بالفارسية هو تاريخ العالم منذ نشوء المجتمع البشري حتى انتصار الثورة الفرنسية العظمى في عام 1789، وكانت مجموعة مجلدات ضخمة، استأجرتها من مكتبة غير بعيدة عن بيتنا بمبلغ متواضع. و ساعدتني أم شروق في جلبها للبيت وإعادتها للمكتبة.

تجوالنا في إيران

[53] ـ * اطلع الرفيق فلاح على مسودة هذا الموضوع (سنوات بين دمشق وطهران) لأغراض التوثيق، وأبدى عليه، مشكورا، ملاحظات مفيدة.

لم نتجول في إيران كثيرا، زرنا ساحل بحر قزوين ومدينتي قم ومشهد فقط، كان يقيم في المدينة الأولى ولدا خالتي، أما في الثانية فقد كانت تقيم زوجة وأطفال صديقي الرفيق علي النوري، وقد تحدثت عنه وعن عائلته في موضوع سابق.

سافرنا، أم شروق وأنا، مع أخي مجيد وعائلته، الذين كانوا في سفرة سياحية في إيران، إلى ساحل بحر قزوين بالقرب من مدينة (بابل سر) الواقعة في محافظة مازندران. وهذا البحر هو نفسه بحر الخزر الذي يُعد أكبر مسطح مائي مغلق على سطح الأرض، إذ تبلغ مساحته حوالي 371 ألف كم مربع، ويبلغ أقصى عمق له 980 م. ولذا فهو يتصف بخصائص البحار والبحيرات في آن واحد. وتطل على البحر خمس دول هي كل من روسيا وأذربيجان وإيران وتركمانستان وكازاخستان .

لقد حولت الجمهورية الإسلامية هذا الساحل، الذي كان يعج بالسياح والحياة، إلى مكان بائس، لا يؤمه سوى عدد قليل من الناس. فقد نصبت السلطات الإيرانية حواجز تحجب الرؤيا عن القسم الذي ترتاده النساء. كما فرض على النساء السباحة بملابسهن العادية وحجابهن! أما المكان المخصص للرجال فهو بعيد عن مكان النساء، وبالرغم من ذلك فعلى الرجل أن لا يبتعد في البحر أكثر من 200 متر عن الساحل. وهذه المسافة هي طول حاجز داخل البحر يفصل قسم النساء عن الرجال. ويقوم الحرس على الساحل بملاحقة المخالفين . وكل ذلك لكي لا يسمح للرجال رؤية امرأة تسبح، ولو عن بعد! إن أوقات السباحة محددة، حيث تمنع السباحة خلال سويعات الظهيرة. هذه الظروف البائسة كانت عاملا هاما في اختصار مدة بقائنا ومغادرة الساحل إلى حيث لا رجعة.

تقع مدينة قم في القسم المركزي من إيران وعلى الحدود الجنوبية لمحافظة طهران، وهي أصغر محافظة من المحافظات الإيرانية الثمان والعشرين. ويتوسط المدينة مرقد السيِّدة فاطمة المعصومة بنت الإمام موسى بن جعفر وأخت الإمام الرضا (ع). وهي مدينة دينية وقاعدة أساسية من قواعد الطائفة الشيعية. المدينة تبدو فقيرة وكئيبة.

أما مدينة مشهد فتعتبر من كبريات مدن إيران ومن أعظم مدن خراسان ويقع فيها مرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع) . المدينة فسيحة، وخلافا للمدن الشيعية الأخرى فهي بهيجة، وفيها الكثير من الحدائق بل وحتى السينمات. ومن المعروف أن الإمام الرضا كان أميرا في المدينة وكان يخرج لصلاة المغرب والعشاء على عزف موسيقي خاص. وهذا التقليد لا يزال ساريا لحد الآن، وقد شاهدنا الفرقة الموسيقية، وهي على شكل تماثيل تعزف وتتحرك آليا، واستمعنا لعزفها. وغير بعيد عن مدينة مشهد تقع مدينة طوس التاريخية. و زرنا فيها قبر الشاعر والحكيم أبو القاسم الفردوسي مؤلف الشاهنامة. و شاهدنا النسخة الأصلية مكتوبة على الجلود وبحجم كبير جداً.

ما الذي يراه الإنسان في اللحظات الأخيرة من حياته؟!

في عام 1985 علمنا أن السلطات الإيرانية تروم استبدال الكارت الأخضر (هوية العراقيين المهجرين) بآخر، بعد التحقيق الدقيق معهم. وقد حصلنا على نموذج للاستمارتين اللتين يجب ملأهما. لاحظنا أن من الصعوبة بمكان إدراج أية معلومات غير صحيحة فيهما. فالمعلومة غير الدقيقة في إحداهن تكشفها الأخرى. وإضافة إلى ذلك سيجري تحقيق على انفراد مع كل فرد من العائلة لاكتشاف الكذب. وكان كارتنا الأخضر المزور وسيلتنا الوحيدة، أم شروق وأنا، للإقامة في إيران، كما أشرت إلى ذلك سابقا. وعند التداول في الأمر مع الرفيق فلاح توصلنا إلى خطورة امتثالي وأم شروق أمام تحقيق منفرد عن كيفية "تسفيرنا" تفصيلا. فقد كان من الضروري أن نتجنب مثل هذا التحقيق. وبعد جهد جهيد تمكنت من الحصول على وثيقة إيرانية مزورة تؤهلني للإقامة في إيران، وأبطلوا اسمي على الكارت الأخضر، فتحررت من متطلبات التبديل، وبقي اسم أم شروق على الكارت. وقد علمنا أنه من الممكن أن تحصل أم شروق بسهولة على كارت أخضر جديد مستقل بالاستناد إلى القديم الذي يحمل اسمها فقط ، على أن تقدم طلبا بذلك لدائرة النفوس وأن أرافقها مع وثيقتي الجديدة. وبهذه الطريقة نتخلص من الوثيقة القديمة التي تحمل اسمي. فكنا نخطط لذهاب أم شروق للتحقيق لاستبدال هويتها الخضراء لصعوبة تدبير هوية إيرانية مزورة لها.

كانت أم شروق تروم الذهاب إلى السوق لشراء بعض الهدايا لأبنائنا، فقد كانت تنوي السفر إلى دمشق بعد ثلاثة أيام، عندما رجوتها مرافقتي لإنجاز معاملة الهوية أولا والذهاب إلى السوق لاحقاً، وذلك في يوم 24. آب 1985. توجهنا إلى دائرة النفوس وقدمنا الطلب، فتعرضنا إلى تحقيق دقيق واتسمت إجاباتنا بالارتجالية . فعندما سؤلنا عن أسباب طلب هوية جديدة في الوقت الذي تتمكن أم شروق استخدام القديمة. أجبت بأن هناك مشاكل بيننا ونفكر بالطلاق. وعند الاستفسار من أم شروق أين تقيم، أجابت بأنها تقيم لدى معارف عراقيين واسم رب العائلة محمد جاسم! وأعطت عنوانا وهميا. وكنت مترجما لها خلال وجودنا في هذه الدائرة. دارت المعاملة من الطابق الأرضي إلى الطابق الثالث دورة مكوكية ، وأنا أصعد وأنزل الدرجات بسرعة وأداري قلقي. وأخيرا استقرت المعاملة لدى المدير في الطابق الثالث. تصفح المدير المعاملة وأعاد ذلك أكثر من مرة، ونحن نشاهده من خلال باب مكتبه المفتوح، فهمست بأذن أم شروق: "يبدو بأنه لم يصدق ادعاءاتنا، ومن الضروري أن نظهر أمامه كزوجين على وشك الطلاق".

وأخيراً طلبنا المدير الذي أعاد التحقيق معنا وأعطينا نفس الأجوبة السابقة. وقع المعاملة وحولها إلى الطابق الأرضي، فتنفسنا الصعداء. صرفوا، في الطابق الأرضي، هوية جديدة لأم شروق وحولت المعاملة للمدير في الطابق الثالث لكي يوقعها. شعرت ببعض الألم في صدري وضيق في تنفسي. أخبرت أم شروق بأنني

تعبان ولم أتمكن من أن أتسلق السلالم حتى الطابق الثالث مرة أخرى، وطلبت منها الذهاب وحدها خاصة وإن الأمر لا يحتاج إلى كلام، وإنه مجرد توقيع. أنجزت المعاملة وحصلت أم شروق على الهوية. وعندما أصبحنا في الشارع العام قالت لي أم شروق: "وأخيرا صارت عندي هوية". "أخشى أن يكون ثمنها غاليا". قلت ذلك من شدة الألم الذي كنت أعانيه في صدري، ليس إلا.

أخذ الألم يشتد في صدري، وصرت أنحني ونحن نسير نحو الشارع العام لاستئجار تكسي يوصلنا إلى البيت. عند وصولنا الشارع العام لم أتمكن من الوقوف فطلبت الاستراحة قليلا، وجلست على الرصيف. أخذ الألم يزداد وأصبح ساحقا في عظم القص. لم نحصل على تكسي. اقترحت على أم شروق الذهاب إلى بيت قريب إلينا يعود لصديق عراقي للاستراحة أولا، ومن ثم الذهاب إلى البيت. وافقت أم شروق على مضض بدافع تجنيب الآخرين المضايقة. عندما وصلت بيت الصديق، استقبلتنا، زوجته الصديق، الفاضلة أم وصال. تناولت قرص اسبرين واضطجعت على فراش مفروش على الأرض. أم وصال لديها هواية متابعة الشؤون الطبية والأمراض في المجلات والصحف، ويبدو أنها كانت قلقة، لذلك عادت إلي بعد فترة وجيزة واستفسرت عن حالتي فأخبرتها بأن الألم أخذ ينتشر في كتفي وعضدي الأيسر أيضا. فاقترحت علينا الذهاب إلى المستشفى فلم نؤيد ذلك. تجاهلت أم وصال رفضنا وطلبت تكسي بالتلفون. نوّينا أن نذهب بالتكسي إلى البيت بدلا من المستشفى لجهلنا وعدم معرفتنا بمخاطر ما أعاني منه. عندما حاولت أن أنهض وأتوجه إلى التكسي تعذر علي ذلك بدون مساعدة أم شروق وأم وصال. عند ذاك فقط اقتنعنا بالذهاب إلى المستشفى . وما أن فحصوني في المستشفى (تهران كلينك) حتى شخصوا السبب وهو القلب. بعد فترة وجيزة جاء من يبشرني بوجود سرير لي في العناية الفائقة، وكان السرير مؤقتا ([54] *) وقد وضعوه في الصالة الصغيرة أمام الباب وأتاح ذلك الوضع إمكانية مشاهدتي من وراء الباب، وكانت أم شروق هناك.

كنت فاقداً لوعيي تقريبا. شعرت بأن حياتي قد انتهت بدون أدنى ريب. وما أن خطرت هذه الفكرة ببالي حتى مرت في ذاكرتي سنوات حياتي كشريط سريع ومتسلسل. وعندما انتهى الشريط كنت متراضيا مع روحي ومت!! كم من الوقت استغرق سير الشريط ، هذا ما يصعب علي تحديده ولكن شعرت بأن الأمر لم يكن يعدو أكثر من لحظات أو ربما ثواني وليس أكثر من ذلك. لم أشاهد أي نور في

[54] ـ * المستشفيات الخاصة في إيران لا تدخل مريضا إلى المستشفى مهما كانت حالته خطرة إذا لم يكن لديها سريرا له في العناية الفائقة. ولا تتحمل مسؤولية تصرف كهذا لو مات المريض على عتبة باب المستشفى. ولكنها تتحمل مسؤولية، إذا أدخلت مريضا إلى المستشفى يتطلب وضعه سريرا في العناية الفائقة ولم توفره له. وقد أدخلوني لوجود سرير على وشك الإخلاء، وهذا هو سبب البشارة التي استغربتها في حينه.

نهاية نفق في اللحظات الأخيرة من حياتي ولم التق بوالدي أو بأي من أقربائي الموتى أو بعزرائيل أو الأولياء الصالحين كما يروي البعض ممن مر بنفس الحالة.

ويبدو بأن هناك نوع من التناقض بين عدم التأسف لمفارقة الحياة وبين حب الإنسان لها من خلال عنايته الكبيرة بصحته وتجنبه المخاطر غير المبررة التي تحيق به ... ولكن يبدو أن هذا التناقض ظاهري، فالذي يعتقد بأن الإنسان، كأي ظاهرة بيولوجية أخرى، هو الآخر يولد وينمو ويموت، سوف لن يأسف في اللحظات الأخيرة على مفارقته الحياة، عندما يصبح الموت أمرا واقعا. فلا غرو أن نجد الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران، الذي عرف من أطبائه موعد وفاته تحديدا، يقطف الزهور التي تزين نعشه عشية وفاته من حديقة قصر الإليزية الغنية بأجود أنواع الزهور.

ولا أجدني بحاجة لسرد كل ما ورد في الشريط الذي ذكرته فقد سجلت جُل ذلك في الكتاب. كان الشريط يسير بوتيرة واحدة وعندما وصل في لحظاته الأخيرة، توقف هنيهة عند العائلة الصغيرة المتكونة من خمسة أشخاص. فكرت بمصير أبنائي الثلاثة وشعرت بالاطمئنان عليهم، فهم يدرسون وبإمكانهم أن يكملوا مشوارهم. وفكرت بمصير أم شروق وشعرت ببعض القلق لأني لم أوفر لها شخصيا ما يضمن مستقبلها. وسرعان ما طمأنت نفسي بمساعدة الحزب لها، وثقتي بها بأنها ستتجاوز الصعاب التي ستواجهها بصبرها وحسن تدبيرها وخصالها الحميدة الأخرى. وتوقفت عند نفسي فوجدتها راضية، فانا أموت في مكان جئت اليه بقرار من الحزب الذي يجسد أمانيي الوطنية والإنسانية، فمت قرير العين بهدوء غير نادم على أي شيء وغير آسف على مفارقتي الحياة والى الأبد!! وسأعطي الكلام لأم شروق لتروي ما شاهدته.

" كنا عدداً من النساء نقف خلف الباب وننظر من خلال زجاج غرفة العناية الفائقة وكنا نشاهدك ونشاهد تخطيط قلبك على الشاشة، فجأة نفخت نفخة قوية ورميت يديك إلى الوراء وأخذ تخطيط القلب يرتجف وتحول إلى ما يشبه الخط المستقيم. في هذه اللحظة صاحت إحدى النسوة في داخل الصالة (مرد) أي مات، فجلست على الأرض وضربت الأرض ولطمت وجهي وقلت: "ماذا سأقول لأبنائه الثلاثة؟" وإذا بإحداهن تقول لي: "انهضي... انهضي قلبه يعمل".

"وعندما نهضت شاهدت رئيسة الممرضات في القسم تضغط على صدرك، ثم عاد تخطيط القلب، بعد قليل، إلى الارتجاف والسير باستقامة تقريبا. فجلست ولم أقم هذه المرة، عندما نبهوني بأن القلب أخذ يعمل. شعرت بدخول عدد من الأشخاص إلى غرفة الإنعاش. بعد حوالي عشرة دقائق خرج أحد الأطباء فسألته عن حالتك فقال: "برگشت" أي رجع. وبعد حوالي الساعة سمحوا لي بالدخول عليك. فأزاحوا شيئا يشبه الغليون من فمك. تكلمت معي ولكن بصعوبة واستفسرت مني عما جرى

لك، فهونت عليك الأمر... فقلت لي: "كنت أشعر وكأنما أغمى علي". انتهى حديث أم شروق.

فحصني في صباح اليوم التالي أحد الأطباء واستفسرت منه عما أصابني فأجاب: "سكتة قلبية". بعد ذهاب الطبيب، وكنت غافيا عندما أحسست بأن أحد ما يمَسد بيده على ذراعي، وحين فتحت عيني وجدت فتاتين جميلتين على رأسي وابتسامة حلوة على شفاههن، وابتعدتا عني بسرعة ما أن نظرت إليهن بعد أن سمعتهن تقولان: "الله يحبك". ظهر إن الفتاتين كن ممن شاهد السكتة القلبية التي تعرضت لها، ولديهن مريضة في نفس الصالة. وعرفت لاحقا بأن الإيرانيين يتبركون بالأشخاص الذين ينجون من السكتة القلبية، ويعتبرون الناجي موضع رعاية إلهية خاصة. وصادفت الفتاتين بعد ذلك مرتين على الأقل تنظران من بعيد إلى الغرفة التي كنت أرقد فيها، بعد خروجي من غرفة الإنعاش، وتبتعدان حالما تشاهداني. وفي إطار مباركة الإيرانيين هناك حادث طريف يستحق أن نستبق به الأحداث قليلا.

أرسلني طبيبي إلى التخطيط في أول وآخر مراجعة لي بعد خروجي من المستشفى ببضعة أسابيع. وكان يرافقني الرفيق أبو فاطمة. عند دخولنا غرفة تخطيط القلب استقبلتنا ممرضة شابة، رشيقة، متوسطة الجمال. وما أن استلمت رسالة الإحالة ، حتى استفسرت من أبي فاطمة:

- وأنت ماذا تريد؟
- أنا مترجم.
- تفضل أخرج من الغرفة، فإنه لا يحتاج إلى مترجم.
- أنا صديقه ومرافقه أيضا.
- تخطيط القلب لا يحتاج إلى مرافق. تفضل انتظره في الخارج.

استغربنا أشد الاستغراب من طلبها. رجوت أبا فاطمة أن ينتظرني خارج الصالة. لم يخطر ببالي في حينها سوى إنها تريد أن تتبرك بي بطريقة ما. توجهت الممرضة إلى إحدى زوايا الصالة لتكتب اسمي في السجل وتوجهت أنا إلى مصطبة التخطيط، وكلي شوق لمعرفة ما تبغيه. بعد برهة وقفت أمامي وقالت:

- أنا واحدة من الذين كانوا في صالة الإنعاش.
- يعني إنك واحدة من الذين أنقذوا حياتي، أليس كذلك؟
- لا... لا... هذا كثير.. أنا واحدة من اللواتي ساهمن. كنا أربع نمسك بك وأنت تنتفض وترمينا أربعتنا بعيدا عنك. لقد أعطوك ثلاث صدمات كهربائية. لم يكن الجهاز عندنا فجلبوه من صالة إنعاش تقع في طابق آخر. كان يكفي أن يتوقف المصعد لبضعة دقائق حتى ينتهي كل شيء. إنك محظوظ جدا لإحضار الجهاز في الوقت المناسب.

شكرتها وتمنيت لها أجمل الأمنيات. قلت لأبي فاطمة بعد خروجي من غرفة التخطيط: "يظهر ليس كل الإيرانيين يتبركون بالناجي من السكتة القلبية، إن هذه الممرضة تثق بجهاز الصدمة الكهربائية أكثر من أي شيء آخر".

(تهران كلينك) واحدة من أحسن المستشفيات الخاصة في إيران وفيها جميع الاختصاصات وأطباؤها من خريجي البلدان الغربية. ورغم مرور أكثر من ست سنوات على قيام الجمهورية الإسلامية فإن التطرف الإسلامي المعادي لحقوق الإنسان لم يمسها كثيراً. فالأطباء وجميع الموظفين يشدون الأربطة. وغالبية المضمدات يرتدين الحجاب بطريقة يضفي جمالا على جمالهن وينسجم مع مكياجهن. النظافة والدقة والنظام تذكرك بمستشفيات البلدان المتحضرة. ولم تكن المستشفى مكلفة بالنسبة لنا فالدفع بالعملة المحلية. وكنا نعالج فيها الأنصار في الحالات التي تتطلب ذلك.

لم أوافق على مقترح أم شروق القاضي بتأجيل سفرتها إلى الشام لصعوبة التأجيل ولعدم وجود حاجة ماسة لوجودها وأنا راقد في المستشفى ، فسافرت بعد ثلاثة أيام من إصابتي. طال رقادي في المستشفى حوالي الأسبوعين. كنت في فترة النقاهة عندما بلغت بقرار انتقال إقامتي من طهران إلى الشام. باشرت بمعاملة الجواز. كان سفرنا خارج إيران يتطلب إجراءات على جوازنا الصادر من أحد البلدان العربية لبقائنا في إيران مدة أطول مما هو مسموح به والتي هي شهر واحد. وهذه المعاملة تمر بدائرة الأجانب (بيكاناكان)، الوثيقة الارتباط بالمخابرات، للتأكد من حامل الجواز أمنياً. ويتم ذلك بتزكية خطية من أحد الأحزاب الكردية التي تدعي بأن المومأ اليه من أنصارها أو كان ضيفا عندها. وعادة ما يرافق ممثل عن تلك الأحزاب صاحب الجواز، الذي يمثل أمام أحد المسؤولين، ويكون مترجما أيضا. وكانت مثل هذه الإجراءات تنجز بسهولة أكثر الأحيان. وتتعرقل أحيانا. وكنت اقلق في كل مرة أضطر فيها للمرور بهذه الدائرة، بعد أن كشف حزب البعث عن وجودي في طهران، وكان الوضع يتطلب التظاهر بعدم إلمامي باللغة الفارسية. في هذه المرة، وجه المسؤول الإيراني فجأة سؤالا مباشراً إلي بدلاً من توجيهه إلى المرافق المترجم، فلم أجبه وبالتالي لم أقع في الفخ. وأخيرا انتهت الإجراءات، وسلمنا الجواز للرفيق سيد هاشم لكي يؤمن تذكرة سفر إلى دمشق.

جاء نسيبي عبد الله عطية شناوة، شقيق أم شروق، بإجازة من موقع إعلامنا الأنصاري في كردستان،لمرافقتي والاعتناء ني خلال فترة النقاهة. وكنا نقيم في بيت الرفيق أبي فاطمة، عندما زارني الرفيق فلاح ليخبرني، بأن جوازي قد ضاع، ولا يعرف سيد هاشم كيف حصل ذلك، فقد كان الجواز معه عند مجيئه للبيت ولم يجده صباح اليوم التالي وقد فتشوا غرفته جيدا ولم يجدوه. أزعجني الخبر وكان من الممكن أن تكون وطأته أثقل لو لا تمهيدات الرفيق فلاح وتهيئته لي قبل إخباري.

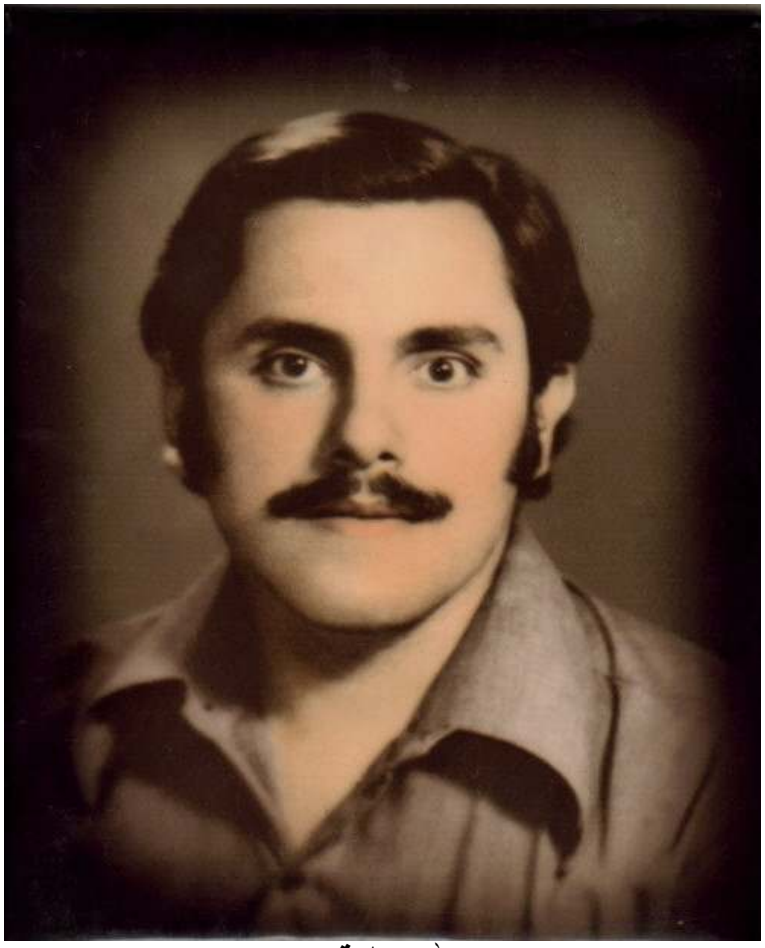

عبد الله عطية شناوة

ساعدنا حزب كردي حليف على تدبير جواز مرور (ليسه باس)، وزرت مرة أخرى دائرة الإقامة والسفر وتمت الأمور بدون عراقيل، ووصلت مطار دمشق في أواخر تشرين الثاني عام 1985. لم تسمح لي سلطات المطار بالخروج . ولم تجد محاولات وجهود رفاقنا لحل المشكلة ، بل ولم تجد برقية وزارة الداخلية التي جلبها موظف منها إلى المطار. بعد انقضاء بضع ساعات على بقائي في المطار جاءني أحد العناصر وأخرجني من كمرك المطار ومن هناك إلى قبوه ، حيث كان اثنان آخران ينتظران. فعصبوا عيني وأصعدوني إلى سيارة جيب عسكرية. وعندما استفسرت عن السبب أجابوني بخشونة: "بعدين تعرف"!

أزالوا العصابة عن عيني عندما وصلنا مركزا ، جميع الموظفين فيه يرتدون الملابس المدنية، عرفت لاحقا بأنه أمن المطار. أجرى معي أحد المحققين تحقيقا عن أسباب استخدامي جواز مرور وكيف ضاع جواز سفري. أجبت على الأسئلة بعد أن أخبرته بأني عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. كان المحقق روتينيا ومؤدبا. أدخلت التوقيف. كان هناك حوالي خمسة أشخاص معي في الغرفة. بعد فترة فتح أحد العناصر الباب ، وسرعان ما قام الآخرون واستداروا

نحو الحائط، بقيت جالسا في مكاني، وتهيأت لخوض معركة معينة، وإذا بعنصر الأمن يتجاهل عدم وقوفي كالآخرين، ويبادر بالقول: "لا ..لا ..لا ضرورة لقيامك، أنت مريض". ثم نادى على أحد الموقوفين باسمه وقاده إلى خارج الغرفة. ولم يستدر الآخرون إلا بعد أن سمعوا صفقة الباب. بعد يومين جرى معي تحقيق ثان، وكان واضحا بأن المحقق من جهاز آخر،لأنه أجاب على استغرابي من تكرار نفس الأسئلة في التحقيق الأول بأن "هذا التحقيق لا علاقة له بالتحقيق الأول".

كنت مطمئناًً بأن الرفاق سيتابعون قضيتي وسيطلق سراحي. في اليوم الرابع من توقيفي نقلوني إلى مكان آخر وزجوا ني في موقف، لم أر شبيها له في حياتي. غرفة 3× 7 أو 8 أمتار وليس أكبر من ذلك أبدا، فيها حوالي ستين موقوفاً. يضطجع قسم منهم على الأرض وتتداخل أرجلهم مع الذين يضطجعون في الجهة المقابلة لهم، وقسم يقف بالدور، شققت طريقي بالكاد وجلست في نهاية الغرفة شبه المظلمة. القمل يدب في كل مكان وتراه على أرجل الموقوفين أو على الأرض والبطانيات، وجو الغرفة خانق جداً. استفسرت من المحيطين ني عن أسباب اعتقالهم واعتقال الآخرين، فاتضح لي بأن غالبيتهم موقوفون بسبب عبور الحدود من لبنان أو الأردن إلى سوريا أو بالعكس، بشكل غير شرعي. وقضى الكثير منهم شهورا عديدة في الموقف. كنت أفكر بقيمة الإنسان وحقوقه في عالمنا العربي... وفكرت في نفسي وكيف سأعيش في هذه الغرفة ... وإذا بالحرس ينادي علي. عندما خرجت من الغرفة وجدت نفسي أمام ضابط شرطة كبير بملابسه الرسمية. قدم نفسه ومد يده وصافحني واعتذر للمضايقة التي تعرضت لها... واليوم فقط عرفوا أين أنا؟ وسيطلق سراحي. ثم قادني إلى مكتبه، وجلس في كرسيه وراء المكتب. تحدثنا عن الوضع في إيران... وأبدى الاستعداد لمساعدتي في أي وقت أشاء. شكرته وقلت له: "عندنا ممثل يتصل بكم وعن طريقه سأقدم طلباتي، إن وجدت". بعد فترة وصلت سيارة من مكتبنا في دمشق وغادرت دائرة المخابرات السورية.

بعد أن حصلت على جواز جديد ، أخبرنا الرفاق في طهران بأنهم وجدوا جوازي الضائع. وتبين أن الرفيق سيد هاشم كان متعباً جدا ودائخ عندما أخفى الجواز في مكان غير اعتيادي حرصا منه عليه. لذلك لم يتذكّر المكان في حينه. وعثر عليه، صدفة، بعد فوات الأوان.

***

خروجي من اللجنة المركزية

لم أتمكن من حضور المؤتمر الوطني الرابع للحزب الذي انعقد في تشرين الثاني 1985، فقد كنت في دور النقاهة الذي يتطلب ، حسب توصيات الطبيب، أن لا أمشي بدون مرافق ،ويجب أن أرتاح إذا ما مشيت كيلو متراً واحداً، في حين كان

الوصول إلى مكان المؤتمر في كردستان يتطلب بضع ساعات مشيا على الأقدام في طريق جبلي.

كان اسمي في قائمة المرشحين للجنة المركزية "أبو سمير". ولم يعرفني بهذا الاسم، الذي استخدمته في إيران فقط، سوى عدد محدود من المؤتمرين ولم أنتخب للجنة المركزية. لا أستبعد بان ترشيحي بهذا الاسم كان له دور سلبي في عدم انتخابي، واليكم دليلي: في صيف العام الماضي (2005) جرى حوار بيني وبين الرفيقين داود أمين (أبو نهران) والرفيق عبد المطلب البلجاني (أبو قصي) وكان الاثنان مندوبين في المؤتمر الرابع، وبحضور الرفيق يونس بولص متي (أبوسيفان)، واليكم نص الحوار:

ـ أبو نهران: أبو شروق كتاباتك تعكس حيوية وذاكرة جيدة .. لماذا لم ترشح لعضوية اللجنة المركزية في المؤتمر الرابع؟.
ـ أبو قصي: صحيح والله، أنا الآخر عندي نفس السؤال؟.
ـ أبو شروق: كنت مرشحا وأنتم لم تنتخبوني!.
نفى أبو نهران وأبو قصي علمهما بالترشيح وتساءلا:
ـ كيف ومتى حصل ذلك؟
ـ أبو شروق: كنت مرشحا باسم أبو سمير.
ـ أبو نهران وأبو قصي: ولماذا أبو سمير، ومن يعرف أبو سمير؟
ـ أبو شروق: علمت بأن الرفيق عزيز محمد قام في المؤتمر وأوضح من هو أبو سمير.
ـ أبو نهران: أنا لم أسمع ذلك.
ـ أبو قصي: أنا كنت مرهقا في العمل اليومي ، ولم أكن في القاعة دائما وربما كنت خارجها، عند توضيحات الرفيق عزيز محمد.
ـ أبو شروق: لا قيمة كبيرة لمثل هذه التوضيحات في لحظة الانتخابات. ويضيف "مازحاً" فالدعاية الانتخابية تكون قد انتهت.

على أي حال، لقد باتت مثل هذه الأساليب المنافية للديمقراطية، وإفرازاتها غير السليمة في حياة الحزب الداخلية، في طي الماضي بعد المؤتمر الخامس، مؤتمر الديمقراطية والتجديد.

14
أسئلة وأجوبة

وجه لي السيد يوهان فرانزين الطالب في كلية الدراسات الشرقية في لندن، بعد أن وافقت أن أكون أحد مصادر بحثه، عدداً من الأسئلة تتعلق بتاريخ الحزب الشيوعي

العراقي، مستهدفا منها معرفة مواقفي وتجربتي الشخصية. في أدناه الرسالتان المتبادلتان بيننا.

الأستاذ الفاضل جاسم الحلوائي المحترم
تحية واحترام

مع خالص التقدير لمساعدتكم، سأكون سعيداً وممتناً لإجابتكم على هذه التساؤلات، وعلى موافقتكم على أن تكونوا أحد مصادر دراستي:

1. أي موقف اتخذته من خط أب؟ هل تعتقد بأنه كان من الصواب أن يتخذ هكذا قرار مهم من قبل أعضاء اللجنة المركزية الذين كانوا يعيشون خارج العراق في حينها؟ أي بديل أو بدائل كان يمكن أن تتبع حسب رأيكم؟

2. لماذا اتخذت اللجنة المركزية موقفاً إيجابياً تجاه البعث بعد انقلاب 17 - 30 تموز 1968. أي بعد خمسة أعوام من مجازر شباط 1963؟ هل كنتم على وفاق مع الحزب في هذه المسألة؟

3. هل ترك اتفاق حزب البعث مع البارزاني في آذار 1970 تأثيراً على القضية الكردية في اللجنة المركزية؟ بأية صيغ نوقشت هذه المسألة؟ هل كانت هناك انقسامات بين الأعضاء العرب والأعضاء الكرد في اللجنة المركزية بصدد هذه المسألة؟

4. حول الضغوط السوفييتية: هل كان مهماً اعتماد رأي السوفيت حين تتم مناقشة المسائل المختلفة في اللجنة المركزية؟

5. هل كانت المسائل المختلفة تناقش، عادة، بصيغ مبدأية (على أساس أيديولوجي) أم بصيغ براغماتية (على ضوء ما يفرضه الواقع)؟ أيهما كان الأكثر اعتماداً عند اتخاذ القرارات المهمة في اللجنة المركزية؟

6. هل تعتقد الآن بأن الديمقراطية الحزبية كانت مفعّلة؟ هل كان لديك دور واضح في اتخاذ القرارات المهمة، كعضو قيادي، هل هناك قرارات اتخذت من وراء ظهرك في المكتب السياسي؟

مع التقدير

يوهان فرانزين
12 كانون الثاني 2006

لندن

***

كوبنهاكن5. شباط 2006
السيد يوهان فرانزين
تحية طيبة

استلمت رسالتكم الكريمة والأسئلة المتعلقة بجوانب من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. ويسعدني بأنكم اخترتموني كي أكون أحد مصادر دراستكم. وأملي أن تكون ثقتكم هذه في محلها. وأود الإشارة إلى أن بعض أسئلتكم قد وفرت لي فرصة التوقف لدى قضايا لم أتوقف عندها سابقاً لتمحيصها جيداً ومن جميع الوجوه، فشكراً لكم على ذلك. هذا وأرسل لكم مخطوطة كتاب انوي إصداره يحوي ذكرياتي، آمل أن تفيدكم.

في أدناه جواب أسئلتكم، وإنني على استعداد للإجابة على أي سؤال إضافي، يحفزني في ذلك حرصي على سلامة تاريخ الحزب الشيوعي العراقي وخدمة الحقيقة.
أتمنى لكم الموفقية في بحثكم.

جاسم الحلوائي

***

لقد نشرت الغالبية العظمى من أسئلته وإجابتي عليها تحت عناوين ملائمة في المواقع الاليكترونية، ولأنها هي الأخرى جزء من ذكرياتي، فقد وجدت مكانها في هذا الكتاب.

15

حقيقة علاقة القيادة السوفيتية بقيادة الحزب الشيوعي العراقي في عقودها الأخيرة

السؤال: حول الضغوط السوفييتية: هل كان مهماً اعتماد رأي السوفيت حين تتم مناقشة المسائل المختلفة في اللجنة المركزية؟

الجواب: باعتقادي أن طبيعة العلاقة بين الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي العراقي يكتنفها الكثير من التعقيد، ولا يجوز تبسيطها بالإجابة على السؤال: هل كان مهماً أم غير مهم رأي السوفيت حين تتم مناقشة المسائل المختلفة في اللجنة المركزية؟

وبادئ ذي بدء، أود الإشارة إلى أنه لم يطرح يوماً ما رأي السوفيت بشكل رسمي للمناقشة، ولكن الرأي كان حاضراً في أذهان أعضاء اللجنة المركزية من خلال السياسة المعلنة في وسائل الإعلام ومن قراءاتهم الشخصية ومن محاضر اللقاءات الرسمية بين ممثلي الحزبين ومن النصائح المباشرة وغير المباشرة. والأخيرة كانت كثيراً ما تحصر في المكتب السياسي، حرصاً على عدم ثلم استقلالية القرار. سأذكر العديد من الأمثلة المتناقضة التي عايشتها، بأمل الخروج باستنتاجات موضوعية.

*** لعب رأي السوفيت دوراً هاماً في تبني الحزب الشيوعي العراقي لخط آب الخاطئ. كان رأي السوفيت، باختصار شديد، هو: أن أنظمة مثل أنظمة عبد الناصر في مصر أو بن بلا في الجزائر وما يشابههما يمكن أن تتحول، تحت تأثير النظام الاشتراكي العالمي إلى أنظمة اشتراكية. وأعتبر نظام عبد السلام عارف أحد تلك الأنظمة التي يمكن أن تتماثل مع مصر.**

*** بعد ثمانية أشهر من إقرار خط آب أي في نيسان 1965، اجتمعت اللجنة المركزية (الأعضاء والأعضاء المرشحون المتواجدون في داخل الوطن، وكانت لديهم صلاحية ممارسة مهام اللجنة المركزية) ورفعت شعار إسقاط سلطة عبد السلام عارف، وذلك خلافا لسياسة السوفيت. وقد تحفظ على القرار رفيق واحد والذي كان المسؤول الأول بالوكالة في الداخل، نظراً لوجود سكرتير الحزب خارج الوطن، وهو الرفيق بهاء الدين نوري. ولم يكن خلافه حول طبيعة السلطة باعتبارها دكتاتورية عسكرية ومن الضروري فضح جرائمها وتبديلها، بل كان يروم الاكتفاء بطرح البديل المطلوب وهو شعار حكومة الائتلاف الوطني الديمقراطي.**

وهناك دلالة في طبيعة الحضور، فقد حضر الاجتماع المذكور الرفاق بهاء الدين نوري وسلام الناصري وعامر عبد الله وحسين سلطان وناصر عبود وآرا خاجدور وصالح الرازقي وحميد الدجيلي وتوفيق أحمد وأنا. وجدير بالملاحظة أن الستة الأوائل سبق وأن حضروا اجتماع براغ وأقروا (كان السادس متردداً) خط آب. والثلاثة الأخيرون جدد يحضرون لأول مرة اجتماعا للجنة المركزية. وهكذا فقد تبدل الموقف من السلطة 180 درجة دون تغير السلطة أو طبيعتها. وقد حمل عدم استجابة حكومة عبد السلام عارف، بأي قدر كان، لخط آب الجديد علامات فشل هذا

الخط في التطبيق العملي، وقد لعب هذا العامل فضلاً عن اعتراض القاعدة الحزبية القوي على خط آب الدور الأكبر في تغيير الموقف.

* تبنى السوفيت موضوعة التطور اللا رأسمالي والذي سمي أيضاً التوجه الاشتراكي، وشاع استخدام الموضوعة في الحركة الشيوعية العالمية وذلك منذ ستينيات القرن الماضي. وقد تجاهل الحزب الشيوعي العراقي الموضوعة، منذ نيسان 1965، لدواع أيديولوجية (لتعارضها مع مبدأ دكتاتورية البروليتارية الذي كان الحزب متمسكا به وأكده في برنامجه الذي أقره المؤتمر الثاني المنعقد في أيلول عام 1970) ولم يفتح نقاشاً حولها، لا في كونفرنسه الثالث عام 1967، ولا في مؤتمره الثاني) . ودخل الحزب في تحالف مع حزب البعث عام 1973 وتحول الحزب إلى العمل العلني مع إعلام علني ولم يناقش الموضوعة على أي صعيد، إلا عند الإعداد لوضع مسودة برنامج الحزب الجديد الذي طرح على المؤتمر الثالث عام 1976.

فُتح النقاش في اللجنة التحضيرية وكان سكرتيرها الرفيق زكي خيري نائب السكرتير الأول للجنة المركزية ومعه عضوان من المكتب السياسي وهما عبد الرزاق الصافي رئيس تحرير الصحيفة اليومية للحزب "طريق الشعب" والمهندس عمر علي الشيخ سكرتير لجنة إقليم كردستان، وثلاثة رفاق من اللجنة المركزية وهم الدكتور كاظم حبيب الخبير الاقتصادي وعضو المجلس الزراعي الأعلى في العراق والدكتور رحيم عجينة عضو لجنة العلاقات الوطنية وعضو سكرتارية الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، وأنا عضو سكرتارية اللجنة المركزية وسكرتير لجنة التنظيم المركزية.

لقد عملت اللجنة لشهور عديدة وقرأت ودرست مصادر كثيرة ووثائق مختلفة وناقشت طويلاً، وأخذت موضوعة التطور اللا رأسمالي حيزاً هاماً من وقتها دون التوصل إلى نتيجة محددة. وهذه اللجنة نفسها سافرت إلى موسكو (باستثناء كاظم حبيب لالتزاماته الوظيفية) واستمعت إلى رأي وفد من الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، برئاسة الدكتور بلياييف والرفيقين ريزينكوف ونيجكن، بالمشروع وناقشتهم طيلة أربعة أيام، وطرحت عليهم أسئلة كثيرة حول التطور اللا رأسمالي، خاصة من الفقيد رحيم عجينة وقد علق عليها الدكتور بلياييف بالقول: "إن من يتمكن من الإجابة على كل هذه الأسئلة يُمنح شهادة أكاديمية العلوم السوفيتية، وهي أعلى شهادة علمية في البلد".

سُجلت باللقاء مع العلماء السوفيت محاضر جلسات مفصلة اطلع عليها جميع أعضاء اللجنة المركزية. وكان النقاش ديمقراطياً وشفافاً. وجرى التأكيد باستمرار من قبل الرفاق السوفيت بأننا غير مجبرين على تبني أي رأي غير مقتنعين به، وإننا مسؤولون عن سياستنا أولاً وأخيراً. ولكن لا أعتقد بأنهم كانوا غافلين عن

مدى الضغط المعنوي الذي تشكله آراؤهم على الوفد وعلى اللجنة المركزية. بعد عودة الوفد تبنى الحزب موضوعة طريق التطور اللا رأسمالي / التوجه الاشتراكي.

كان هناك اتجاهان بين أنصار طريق التطور اللا رأسمالي أو التوجه الاشتراكي في الحركة الشيوعية العالمية، الأول: يرى اشتراك الشيوعيين في قيادته شرط لنجاحه (وكنت مع هذا الاتجاه). والثاني: يرى بأن دور الشيوعيين ممكن أن يقتصر على دعم وتأييد قيادة "الديمقراطيين الثوريين". وكان الاتجاهان المذكوران موجودين في الحزب الشيوعي العراقي أيضاً الاتجاه الأول مثبت في وثائق المؤتمر الثاني والاتجاه الثاني ضعيف وجد تعبيره في مواقف معينة. وقد تناولت كل ذلك بالتفصيل في الموضوع المعنون " التثقيف الحزبي"

* يعد مجيء حزب البعث للسلطة عام 1968، واتخاذه جملة من الإجراءات التقدمية على جميع الأصعدة وفي مختلف المجالات، بما في ذلك تطوير علاقاته بالاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية الأخرى ، ولكن دون التخلي عن سياسة حبس الحريات الديمقراطية وقمع المخالفين له، رغب السوفيت بتعاون الحزب الشيوعي مع حزب البعث.

في ربيع 1971، وكان الحزب يتعرض إلى حملة إرهابية واسعة شملت اعتقال وتعذيب آلاف الشيوعيين تعذيباً وحشياً واستشهد الكثيرون منهم تحت التعذيب، أو الاغتيال، في هذا الوقت بالذات استفسر السوفيت من القائم بأعمال السكرتير الأول للجنة المركزية الرفيق زكي خيري عن شروط الحزب للتحالف مع حزب البعث، فأجابه زكي خيري: "إن شرطنا هو أن يدلنا حزب البعث على قبور شهدائنا!"

ذكر الرفيق زكي خيري ذلك في الرسالة الموجهة إلى الرفاق الموجودين في كردستان، كتدبير صياني، وهم كل من كريم أحمد الداود عضو المكتب السياسي، وشاكر محمود ومهدي عبد الكريم وبهاء الدين نوري وأنا أعضاء اللجنة المركزية. وواضح من جواب زكي هو رفض التحدث بالموضوع، إن لم يكن احتجاجا على الوساطة.

* لم يكن موقف الحزب المعادي لسلطة البعث، بعد حملة القمع الوحشي التي تعرض لها عام 1978، وقراره بخوض الكفاح المسلح لإسقاطه، محل قناعة السوفيت. علماً بأن شعار إسقاط السلطة تقرر في اجتماع اللجنة المركزية الذي عقد في موسكو عام 1980. وقرار خوض الكفاح المسلح هو الآخر تقرر في اجتماع اللجنة المركزية في موسكو عام 1981، في البيت الصيفي ليوسف ستالين.

* في صيف عام 1982، وعلى أثر انسحاب الجيش العراقي من الأراضي الإيرانية التي كان قد احتلها في بداية الحرب العدوانية على الجارة إيران، وصل الحزب عرض من صدام حسين عبر الرفاق السوفيت وقد سلموه للرفيق زكي خيري في دمشق والذي أرسله بدوره إلى قيادة الحزب التي كانت قد تجمعت في كردستان. وكان العرض يتضمن نقداً ذاتياً لأخطائه في السنوات الأخيرة تجاهنا، ويدرك صعوبة استعادة الثقة بين الطرفين، وإنه يعفو عفواً عاماً، ويدعو للعودة إلى الجبهة الوطنية والقومية التقدمية والعودة للدفاع عن الوطن، وهو في كل ذلك لا ينطلق من موقف الضعف.

كنت في دمشق ومتوجهاً إلى كردستان فحملني زكي خيري رسالة إضافية تفيد بأن السوفيت متجاوبون مع العرض. ودارت مناقشة بين رفاق اللجنة المركزية انتهت بإرسال جواب قاطع برفض التفاوض أو الحوار [55]. ولم يحصل بعد ذلك شيء ذو بال، في مضمار سؤالك، حتى انهيار الاتحاد السوفييتي.

من جملة الأمثلة أعلاه يجد المرء نفسه أمام ظاهرة تنطوي على علاقات معقدة لا يجوز تبسيطها، كما أسلفت، بالإجابة، كان مهماً أم غير مهم رأي السوفيت حين تتم مناقشة المسائل المختلفة في اللجنة المركزية؟

باعتقادي لم يُعتمد رأي السوفيت في مناقشات المسائل المختلفة بدون قناعة اللجنة المركزية، وليس نادراً أن لا تتم مثل هذه القناعة ويكون موقف اللجنة المركزية مغايراً لرأي السوفيت. وكانت الحالة الفكرية والسيكولوجية في الحزب واللجنة المركزية ومستوى وعيها في هذه المرحلة أو تلك هي المقررة في التحليل الأخير. ولكن هذه الحالة ذاتها لم تكن، في ظروف معينة، بمعزل عن التأثير المعنوي الكبير لرأي السوفيت باعتباره رأي طليعة الحركة الشيوعية العالمية ولا بمعزل عن منطلقات التضامن الأممي البروليتارية الأيديولوجية، وانعدام هذا التأثير في ظروف أخرى رغم كل الاعتبارات!!!

ويغطي مضمون هذا الاستنتاج، في نظري، الفترة التي امتدت من عام 1954، إذ أعيدت علاقات الحزب بالحركة الشيوعية العالمية مجدداً في مؤتمر الكومونولث المنعقد في لندن وحضره الرفيق حسين أحمد الرضي (سلام عادل) ممثلاً عن الحزب، حتى انهيار الاتحاد السوفييتي. وهذه بعض الأمثلة للتدليل على ذلك.

في أيلول 1956، عقد الكونفرنس الحزبي الثاني. وشخص في الوثيقة الصادرة منه والموسومة "خطتنا السياسية في سبيل التحرر الوطني والقومي" طبيعة المعركة مع نظام نوري السعيد "باعتبارها معركة ذات طابع سلمي غالب". وقد جاء هذا التشخيص غير الصحيح متأثراً بما توصل إليه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي

[55]- للمزيد أنظر باقر إبراهيم، مذكرات. ص 208

في الاتحاد السوفييتي بخصوص إمكانية الانتقال السلمي للاشتراكية. وقد صححت اللجنة المركزية هذا الخطأ على أثر انتفاضة تشرين الثاني 1956 التي جوبهت بالرصاص من قبل السلطات، وذلك في بيانها الصادر في 11 كانون الأول 1956، لتقرر بأن الأسلوب العنفي هو الأسلوب الغالب.

بعد ثورة 14 تموز كان المكتب السياسي يطلب رأي القيادة السوفيتية في بعض الأمور، ولا يلتزم إلا بما يقتنع به. ولي في هذا الخصوص مثالان:

الأول: اختلف أعضاء المكتب السياسي فيما بينهم حول حل تنظيمات الحزب في الجيش. فريق يريد حلها حرصاً على علاقة حسنة مع الزعيم عبد الكريم قاسم قائد الثورة والجمهورية، والفريق الثاني يرى إبقاءها حرصاً على مستقبل الثورة، فعبد الكريم قاسم إنسان معرض للموت أو الاغتيال. وباقتراح من عضو المكتب السياسي جورج تلو عرض الموضوع على القيادة السوفيتية، وحمل عامر عبد الله، الذي كان في موسكو، جوابا تحريرياً بخط سوسلوف عضو المكتب السياسي ومسؤول لجنة العمل الأيديولوجي في اللجنة المركزية جاء فيه: "إن احتفاظكم بتنظيمكم الحزبي في الجيش يدل على جديتكم وحرصكم على ضمان انتصار ثورة الشعب" [56]. وأخذ المكتب السياسي بالجواب.

الثاني، أنقله نصاً من كتاب للرفيق زكي خيري وهو: "في بداية 1960، قام قاسم بإجازة جميع الأحزاب التي طلبت الإجازة باستثناء حزبنا، إذ أجاز بدلاً منه حزباً وهمياً بنفس الاسم لداود الصايغ الذي كان من زمن مضى عضواً في اللجنة المركزية لحزبنا وتواطأ مع قاسم لترويض حزبنا عن طريق هذه المناورة الخسيسة... وجاءتنا فتوى من سوسلوف بأن نقتدي بمثل البلاشفة الذين وافقوا على الوحدة مع المنشفيك في المؤتمر الرابع للحزب في استكهولم (مؤتمر الوحدة). فرفضنا هذه الفتوى. وشتان بين المنشفيك الذين كانوا آنذاك الأكثرية في الحزب الروسي وبين داود الصايغ الفرد الصنيعة! الذي لم يستطع حتى جمع الحد الأدنى من المؤسسين(60) توقيعاً. فأوعزنا لبعض رفاقنا غير المعروفين آنذاك بالتوقيع معه ... [57].

فمن غير الصحيح تعليق أخطاء الحزب الشيوعي العراقي على شماعة السوفيت فالحزب وخاصة قيادته هي المسؤولة الأولى عن إنجازات الحزب وإخفاقاته، وهذا لا يبرئ ساحة السوفيت من أي نصيحة أو مواقف أو اتجاهات خاطئة ترتب عليها أي إخفاق. أما الخطأ الأعظم وأقصد الطبيعة غير الديمقراطية للأحزاب الشيوعية

---

[56] - زكي خيري ، صدى السنين في ذاكرة شيوعي مخضرم. ص 228.

[57] - المصدر السابق. 231

السابقة فتتحمل جميع الأحزاب الشيوعية مسؤوليته وفي مقدمتها الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، لكونه طليعة تلك الأحزاب.

وجدير بالإشارة إن الاختلافات في المواقف لم تؤثر على المساعدات التي كان يقدمها السوفيت للحزب، الزمالات الدراسية والحزبية ومقاعد المعالجة والراحة والاستجمام وغيرها من المساعدات المادية المباشرة وغير المباشرة. وسأكتفي هنا بمثل واحد على المساعدة غير المباشرة.

في حملة القمع الوحشي عام 1978، استوعبت جمهورية اليمن الديمقراطية أعداداً كبيرة من الشيوعيين الذين أفلتوا من الحملة للعمل هناك. فعاقب صدام حسين اليمن على موقفها التضامني مع الشيوعيين العراقيين بأن ألغى اتفاقا بين اليمن والعراق كانت تحصل اليمن بموجبه نفطاً بأسعار مخفضة. وعندما سُئل الرئيس السابق علي ناصر محمد عن مبلغ خسارتهم جراء قرار صدام أجاب علي ناصر: "عوضنا السوفيت ضعف خسارتنا لموقفنا المشرف من الشيوعيين العراقيين في محنتهم".

هل حصل يوماً ما ضغط من السوفيت لتبني رأياً محدداً؟ أجل حصل ذلك مرة واحدة ويتيمة، على حد علمي. ولم يكن ذلك اتجاهاً بأي حال من الأحوال. ففي المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي الذي عقد في شباط 1959، طلب الرفاق السوفيت من الرفيق حسين أحمد الرضي (سلام عادل) إضافة عبارة "ابن الشعب البار" إلى ألقاب عبد الكريم قاسم في كلمته التي كان يريد إلقاءها أمام المؤتمر باسم الحزب الشيوعي العراقي، ولم يكن لديهم اعتراض آخر على نصها، فرفض سلام عادل ذلك وجادل السوفيت طويلاً بحضور الرفيق خالد بكداش الذي تدخل في النقاش وخاطب الرضي: "لماذا هذا الإصرار منك على الامتناع؟ لعل الرفاق السوفيت يعرفون عن قاسم ما لا تعرفون"! وفي آخر المطاف تجاوب الرضي وأضاف العبارة [58].

وأحسن خاتمة أراها كجواب لسؤالكم هذا، هي شهادة الرفيق زكي خيري، فهي تلخص حقيقة تلك العلاقة، ويمكن للمرء أن يركن إلى صدقيتها، لأنها صادرة عن ثاني (الأول الرفيق عزيز محمد) أكثر قادة الحزب معرفة بطبيعة علاقة القيادة السوفيتية بقيادة الحزب الشيوعي العراقي في عقودها الأخيرة أولاً، ولأنها صادرة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، لذلك فهي منزهة من المجاملة. وهذا نصها:

"كان الرفاق السوفيت يردون على كل استفسار نوجهه إليهم في المنعطفات السياسية الحادة ويقدمون لنا النصح الخالص. ولم يكن رد الفعل من جانبنا إيجابياً

---

[58] ـ المصدر السابق. ص 200.

دائماً. ولم يقاطعوننا بسبب توترنا بل يواصلون الحوار بروح رفاقية ونفس طويل. وكنا نحن الذين نعرض عليهم خلافاتنا وعلى أشقائنا الشيوعيين الأجانب لنتسلح بفتاويهم في جدالنا مع بعضنا [59].

16

الأيديولوجيا والبراغماتية في سياسات الحزب الشيوعي العراقي السابقة

السؤال: هل كانت المسائل المختلفة تناقش عادة بصيغ مبدئية (على أساس أيديولوجي) أم بصيغ براغماتية (على ضوء ما يفرضه الواقع)؟ أيهما كان الأكثر اعتماداً عند اتخاذ القرارات المهمة في اللجنة المركزية؟

الجواب: كان الحزب الشيوعي العراقي يسترشد بالأيديولوجية الماركسية اللينينية في اتخاذ قراراته الهامة. ولأن هذه الأيديولوجية ليست وصفة جاهزة، وإنما مرشد للعمل، كما يؤكد على ذلك مؤسسوها، وينبغي تطبيقها بإبداع على الظروف الملموسة، فلم تكن تلك الأيديولوجية تحرِّم عملياً، اللجوء إلى البراغماتية [60]، بل تحبذها مسترشدة بمقولات مشهورة باتت من صلب الماركسية، وعلى سبيل المثال:

- النظرية ليست عقيدة جامدة بل مرشد للعمل.
- النظرية رمادية اللون ولكن شجرة الحياة خضراء.
- الممارسة معيار الحقيقة.
- إن دفع الحركة خطوة إلى الأمام خير من دزينة برامج.

---

[59] - المصدر السابق. ص 228

[60] - ملاحظة: يبدو لي بأن هناك سوء فهم حصل ويحصل لدينا في مفهوم البراغماتية. فقد كنا نعتبرها ضربا من ضروب الانتهازية في كل الظروف والأحوال، في حين إنها حاجة ماسة لأي حزب سياسي ، فهي أسلوب تفكير/ أو التعامل مع المشاكل بأسلوب / عملي يحقق الفائدة.

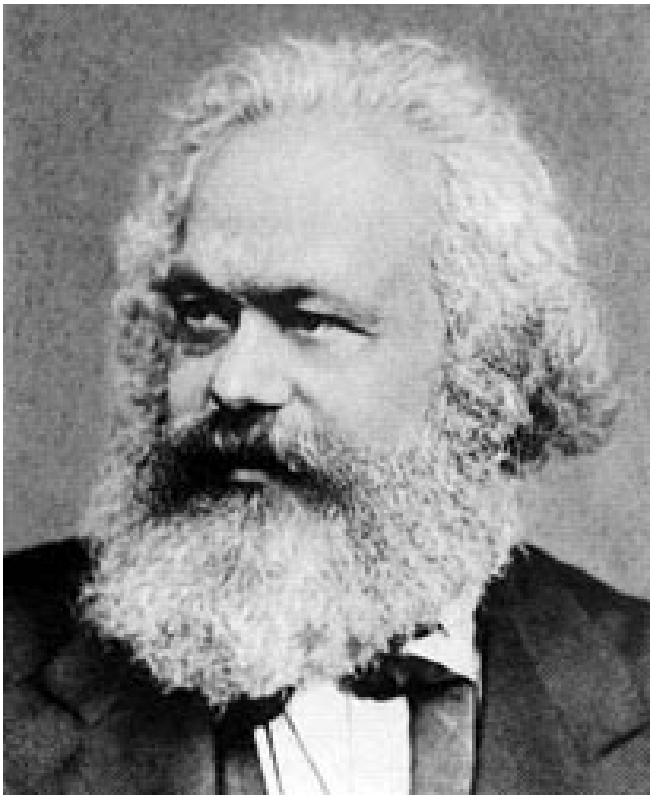

كارل ماركس

تكافح الماركسية ضد الجمود العقائدي، وتحبذ أقصى المرونة في التكتيك مادامت لا تتعارض مع الإستراتيج. وكانت تميّز بشكل صارم بين برنامج الحد الأدنى والذي يغلب عليه الطابع البراغماتي وبرنامج الحد الأقصى الذي يغلب عليه الطابع الأيديولوجي [61]. وسأستعرض محطات هامة عايشتها ومناقشات جديّة خضتها عسى أن توصلنا إلى جواب على سؤالكم.

* كان أول اجتماع أحضره للجنة المركزية في نيسان 1965، وكانت مهمته تصحيح خط آب، الذي كان خطأً سياسياً حرّف الحزب عن أيديولوجيته. وقبل الدخول في تصحيح الخط، سأجيب على سؤالك الأول والمتعلق به: "أي موقف اتخذته من خط أب؟ هل تعتقد بأنه كان من الصواب أن يتخذ هكذا قرار مهم من قبل أعضاء اللجنة المركزية الذين كانوا يعيشون خارج العراق في حينها؟ أي بديل أو بدائل كان يمكن أن تتبع حسب رأيكم؟"

اجتماع اللجنة المركزية في آب والذي عقد في براغ لم يقتصر على الرفاق الذين كانوا في الخارج بل ساهم فيه رفاق من الداخل أيضاً وهم كل من الرفاق عزيز محمد عضو المكتب السياسي وباقر إبراهيم العضو المرشح للمكتب السياسي. وصالح دكلة عضو اللجنة المركزية الذي كان قد هرب للتو من السجن في بغداد. وسافر هؤلاء بطرق ووسائل غير شرعية. وكان من الممكن عقد الاجتماع في

[61] - راجع وثائق المؤتمر الثاني للحزب.

الداخل ولكن كان ذلك يتطلب وقتاً طويلاً لعدم قطع شوط مناسب في إعادة بناء الحزب، يسمح بعودة كل قيادة الحزب إلى الداخل. في حين لم يكن اجتماع اللجنة المركزية يقبل التأجيل، فاللجنة المركزية بدون سكرتير، وهناك حاجة لمكتب سياسي جديد ولتقديم رفاق جدد إلى اللجنة المركزية، هذا فضلاً عن ضرورة وجود خط سياسي جديد مقر من قبلها.

وكان بين رفاق الداخل من هو متحمس للخط المذكور ليس بأقل من المتحمسين في الخارج مثل الرفيق باقر إبراهيم. وكان بين رفاق الخارج من هو معارض للخط السياسي والفكري المذكور مثل عزيز الحاج، وكان آرا خاجدور متذبذباً بين مؤيد ومعارض [62].لقد كنت من مؤيدي خط آب 1964 الخاطئ، ولم أكن في حينها عضواً في اللجنة المركزية، فقد ترشحت لعضويتها في الاجتماع الذي أقر الخط السياسي المذكور. وطبيعي لم يعفن ذلك من المسؤولية بوصفي كادراً حزبياً متقدماً آنذاك.

فخط آب لم يقرره رفاق اللجنة المركزية الذين كانوا في الخارج فقط و"فرضوه" على الداخل كما يستشف ذلك من سؤالك. ولكن ينبغي عدم غض النظر عن الدور الكبير الذي لعبه الرفاق في الخارج في التمهيد سياسياً ونظرياً للخط المذكور. فإذاعة "صوت الشعب العراقي" والتي كانت تبث برامجها من صوفيا وتعمل تحت إشراف قيادة الحزب في الخارج، كانت تبشر بالخط المذكور، و تسمع في كل العراق بوضوح. وكنا في الداخل ننشر ما يذاع منها بانتظام وبدون الرجوع للمركز الحزبي، باعتبارها توجيهات من الهيئات الأعلى. وكنت مشرفاً على جهاز الإنصات والتكثير في حينه. علماً بأن المركز الحزبي في الداخل ذاته كان متعاطفاً مع ما يذاع. إن لم يكن قد دخل في منافسة مع الخارج.

ووجهة الإذاعة وقيادة الخارج لم تكن عفوية. ففي حزيران 1964، عقد اجتماع في موسكو ضمّ، إضافة إلى أعضاء اللجنة المركزية، عدداً من الكوادر الحزبية المتقدمة مثل: نوري عبد الرزاق وماجد عبد الرضا ومهدي الحافظ وهؤلاء من الشخصيات القيادية في المنظمات الديمقراطية العالمية. وثمينة ناجي يوسف وعامر عبد الله وبهاء الدين نوري، والاثنان الأخيران كانا أعضاء في المكتب السياسي ومعاقبين بتجريدهما من أي مركز حزبي. قاد الاجتماع الرفيق سلام الناصري العضو المرشح للمكتب السياسي، وكان الناصري متحمساً للنهج السياسي الجديد متجاوباً في ذلك مع توجه السوفيت في هذا المجال. وجرت مناقشة حيوية في الاجتماع، ولاقى الاتجاه السياسي الجديد معارضة جدية، وكان جميع الرفاق القياديين في المنظمات الديمقراطية من المعارضين، ولكن جرى إقراره بالأغلبية في آخر المطاف. وكان عامر عبد الله وبهاء الدين نوري من المؤيدين للخط الجديد، وقد أنتخبا للمكتب السياسي في اجتماع آب، بعد أن أعيد الاعتبار لعضويتهما في اللجنة المركزية.

---

[62] ـ للمزيد أنظر بهاء الدين نوري. مذكرات، ص 314.

أما البديل لسياسة آب، فكان يمكن طرح النظام الديمقراطي كبديل للنظام الدكتاتوري العسكري. ولإقامة مثل هذا النظام كان من الممكن الدعوة إلى حكومة ائتلاف وطني ديمقراطي مؤقتة لفترة انتقالية (يتفق على مدتها مع الآخرين على أن لا تزيد عن السنتين) مهمتها إجراء انتخاب لمجلس تأسيسي يضع مسودة دستور دائم للبلاد يستفتى الشعب عليه، وتجري انتخابات عامة لبرلمان دائم، ومن ثم حكومة دستورية دائمة. وهذا البديل طرح في السياسة البديلة من حيث الجوهر، لا من حيث الصياغة والتفاصيل المتأثرة بوعينا الحالي.

وخلاصة خط آب هو، أن أنظمة تقودها القوى الديمقراطية الثورية (البرجوازية الصغيرة) يمكن أن تتحول إلى أنظمة اشتراكية تحت تأثير النظام الاشتراكي العالمي، مستندة في ذلك على إشارة ماركس إلى إمكانية انتقال المشاعة الروسية إلى الاشتراكية دون المرور بالمرحلة الرأسمالية بمساعدة مركز متطور. وأعتبر نظام عبد السلام عارف يمكن أن يتماثل مع تلك الأنظمة. إن فرضية إمكانية بناء الاشتراكية من قبل البرجوازية الصغيرة، أثارت علامة استفهام خطيرة على مستقبل الحزب وقلقاً على وجوده. ولم تكن صدفة أن ثبتنا في البيان الصادر عن الاجتماع المذكور جملة لم أنساها حتى الآن وهي: "إن الحزب الشيوعي العراقي وُجد ليبقى". وتضربُ هذه الجملة جذورها عميقاً في الايدولوجيا... في رسالة الطبقة العاملة والحتمية التاريخية... وقد وردت هذه الفكرة التي تبناها الاجتماع في فقرة اقترحها الفقيد عامر عبد الله، والذي يشار له بالبنان باعتباره أحد أبرز قادة الحزب الشيوعي العراقي بركماتية إن لم يكن أبرزهم!!

كانت المناقشات في هذا الاجتماع، الذي دام أربعة أيام، سياسية وأيديولوجية. وصرف الكثير من الوقت على صياغة البيان، فقد أرتؤي المصادقة على البيان الصادر عن الاجتماع بصيغته النهائية، وعدم ترك هذه المهمة للمكتب السياسي كما كان الأمر سابقاً. واحتدم النقاش الأيديولوجي حول، مَن يبني الاشتراكية؟ وتوتر الجو بين الرفيقين آرا خاجدور وحسين سلطان اللذين كانا قد وصلا للتو من براغ. فكان الأول يؤكد بأن ذلك يتطلب قيادة الطبقة العاملة للسلطة، في حين يرد عليه حسين سلطان، بان ذلك ليس شرطاً ومن الممكن أن تضطلع بهذا الدور، في الظروف الدولية المعاصرة، فئات أخرى. وتحول التوتر بين الرفيقين إلى مناوشات كلامية.

كان الرفيقان متقابلين في جلوسهما على منضدة عريضة نسبياً ونهض الاثنان من فرط غضبهما من مقعديهما ملوحين بالأيدي وهما يتبادلان "شتائماً أيديولوجية" على وزن.. الجذور الفكرية اليمينية... والتصفوية ... دكتاتورية البروليتارية ... أو اليسارية... والجمود العقائدي... وذلك بصوت عال أمام دهشة الجميع، وخاصة دهشتنا نحن الجدد الذين نحضر لأول مرة اجتماعاً للجنة المركزية. وكل ذلك جرى

في بيت سري يضم كل قيادة الحزب في الداخل. أُوقف الاجتماع وعاد ليواصل عمله بعد فترة قصيرة، وبعد أن تصالح المتشاجران. وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أشاهد فيها مشاجرة في اجتماع حزبي طيلة حياتي الحزبية التي تجاوزت النصف قرن!

* في هذه الفترة انفجر الوضع الفكري داخل الحزب وجرت نقاشات أيديولوجية واسعة، وقد استبعدت موضوعة التطور اللا رأسمالي من النقاش لدواع أيديولوجية، لتعارضها مع مبدأ دكتاتورية البروليتارية، كما أشرت إلى ذلك في الموضوع السابق. و"حُسمت" بعض المناقشات في الكونفرنس الثالث للحزب عام 1967، و"حُسمت" البقية في المؤتمر الثاني للحزب عام 1970. وفي هذه الفترة بالذات واجه الحزب انقلاب 17 - 30 تموز 1968. واتخذ موقفاً براغماتياً تجاهه. وسأحاول إعطاء فكرة مركزة عن كل ذلك.

المحاور الأيديولوجية الأساسية التي دار حولها النقاش كانت ثلاثة وهي:

أولا: تقييم سياسة الحزب في عهد عبد الكريم قاسم

جرت مناقشات واسعة داخل الحزب، على مستوى الكوادر الوسطية، لسياسة الحزب في عهد عبد الكريم قاسم، استناداً إلى وثيقة من اللجنة المركزية. وقد أقرت الوثيقة، بعد إعادة صياغتها على ضوء المناقشات، في الكونفرنس الحزبي الثالث المنعقد في كانون الأول 1967، مبدئياً. على أن تبقى وثيقة داخلية لحين إقرارها في المؤتمر الثاني للحزب. وقد أقرت الوثيقة في المؤتمر الثاني المنعقد في أيلول 1970، و نشر ملخصها في مقدمة البرنامج الذي أقره المؤتمر تحت عنوان "الدروس المستخلصة" وقد جاء فيها ما يلي: " لقد كان على حزبنا في الوضع الثوري الذي بدأ في 14 تموز 1958، أن يواصل النضال على رأس الجماهير الثورية لتغيير الحكومة وإقامة حكومة ديمقراطية ثورية تمثل الأحزاب والقوى الوطنية التي يعنيها إنجاز الثورة الوطنية الديمقراطية دون أي تساهل في تحقيق هذا الشعار المركزي [63].

وكان الفقيد زكي خيري، الذي ساهم مساهمة أساسية في الدراسة، متحمساً لهذه الموضوعة فأوضح، مستنداً إلى الوثيقة التي أقرها المؤتمر، كيفية تحقيق ذلك وعلى الوجه التالي: "والسبيل الثوري الوحيد الذي كان على الحزب الشيوعي انتهاجه هو أن يطرح برنامجاً ثورياً لإزاحة قاسم وإقامة الحكومة الديمقراطية الثورية التي تحقق الإصلاح الزراعي الجذري وتلبي مطلب الحكم الذاتي للشعب

[63] - وثائق المؤتمر الوطني الثاني للحزب الشيوعي العراقي. أيلول 1970، ص 81.

الكردي وتسحق القوى الرجعية وتضمن المصالح المشروعة للجماهير. ورغم تعذر قيام الجبهة مع الأحزاب البرجوازية فمن شأن هذا البرنامج أن يعبئ القوى الجماهيرية الأساسية المدنية والعسكرية على أساس الحلف المتين بين العمال والفلاحين وبالتعاون الوثيق مع الثورة الكردية من أجل الاستيلاء على السلطة السياسية وقيادة الثورة الديمقراطية حتى نهايتها [64].

وكان منطلق الدراسة أيديولوجي ونصي يستند بالأساس على كتاب لينين "خطتا الاشتراكية الديمقراطية في الثورة الروسية" وعلى شعار الثورة الروسية في مرحلتها الديمقراطية وهو"دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية الثورية". وعلى فهم خاطئ للمقولة الماركسية ـ اللينينية حول الثورة المستمرة. وكل ذلك يضرب جذوره عميقاً في الجمود العقائدي فقد تجاهلت الدراسة اختلاف الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين روسيا بعد الثورة الديمقراطية في شباط 1917، في ظل حكومة كيرنسكي، والعراق في عهد عبد الكريم قاسم قائد ثورة 14 تموز 1958.

وبعيداً عن الجمود العقائدي والنصّية وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي كتب الرفيق زكي خيري ذاته ما يفيد بأن الطريق كان مسدوداً أمام الإطاحة بقاسم فقد كتب يقول: "وفي كل معسكر من معسكرات الجيش كان ضباط من مختلف الميول والاتجاهات يسهرون الليالي يترصد بعضهم بعضاً. كما كان السنتو يترصدنا. والأهم من كل ذلك أن الجماهير لم تكن مستعدة لإسناد أي محاولة للإطاحة بقاسم مباشرة وحتى التنظيم الشيوعي في الجيش لم يكن مضموناً تحركه ضد قاسم دون أن يلمس إسناداً جماهيرياً واسعاً مباشراً مستعداً لدعمه" [65].

وقد تلمس الفقيد زكي خيري، ملامح الموقف الصحيح الذي كان يجب إتباعه في عهد قاسم والذي ينطوي على عبرة تاريخية هامة لحاضرنا ومستقبلنا، فكتب أيضاً ما يلي:" ... كان الأحرى بنا أن نطالب بإنهاء الفترة الانتقالية وإجراء انتخابات عامة حرة تتنافس فيها الأحزاب لانتخاب مجلس وطني تأسيسي يتمتع بالسيادة التامة، أما محاولة القيام بانقلاب عسكري فلم تكن تؤدي في تلك الظروف في ظل نسبة القوى القائمة آنذاك سوى إلى تأليب جميع القوى ضدنا[66].

إن أهمية هذا التقديرات الجديدة تتأتى من كون الفقيد زكي كان أحد أكثر المتحمسين للمنطلقات الجامدة أيديولوجيا، ولأنه كان نائباً لسكرتير اللجنة المركزية وسكرتيرها الفعلي عند بقاء سلام عادل في موسكو حوالي عشرة أشهر، من نهاية آب 1961 حتى أواسط حزيران 1962. وهذه التقديرات تفند الادعاءات

---

[64] ـ زكي خيري وسعاد خيري. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراق، ص 354.
[65] ـ زكي خيري، صدى السنين في ذاكرة شيوعي مخضرم. ص 230.
[66] ـ زكي خيري. المصدر السابق، ص 230.

الاعتباطية القائلة بأن الحزب الشيوعي العراقي ضيع فرصة للسيطرة على السلطة، أو إن السوفيت منعوه من القيام بذلك، في محاولة زائفة لإظهار الشيوعيين العراقيين وكأنهم كانوا بيادق شطرنج بيد السوفيت وهذا ما فندته في جوابي على سؤال سابق.

ثانيا: وضع برنامج جديد للحزب

كانت المنطلقات الأيديولوجية الجامدة، التي عولجت بها مسألة تقييم سياسة الحزب في عهد قاسم، في أساس مسودة البرنامج التي نوقشت في الكونفرنسات المحلية تحضيراً للمؤتمر الثاني للحزب والتي حددت الشعار الإستراتيجي للحزب بإقامة سلطة ديمقراطية ثورية بقيادة الطبقة العاملة. وكان الفقيد زكي خيري يعتبر هذا الشعار قانوناً أو بديهية من البديهيات التي يجب أن تتبناه جميع الأحزاب الشيوعية التي تناضل ضمن المرحلة الوطنية الديمقراطية كما جاء في مقدمة كتابه مع الرفيقة سعاد خيري والمعنون: "دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي". ويلفت هذا الكتاب انتباه القارئ إلى إغفال ذلك من قبل الرفيق فهد فيقول: " لم يدعُ فهد صراحة إلى إسقاط النظام القائم وإقامة السلطة الديمقراطية الثورية بقيادة الطبقة العاملة، وإنما قال في المادة الثانية من "ميثاقنا الوطني": نناضل لإيجاد حكومة تعمل لمصلحة الشعب وجهاز حكومي ديمقراطي صحيح في نظام حكومتنا" [67].

لم أؤيد صيغة الشعار الإستراتيجي واعتبرته يعادل دكتاتورية البروليتاريا من حيث الجوهر، والتي هي ضرورية لمرحلة الثورة الاشتراكية حسب التعاليم الماركسية-اللينينية، في حين إننا نناضل في المرحلة الديمقراطية وأن مستوى تطور البلد السياسي والاقتصادي والاجتماعي لا يستلزم طرح قيادة الطبقة العاملة وحدها للسلطة. واقترحت بدلاً عن ذلك أن تلعب الطبقة العاملة دوراً قيادياً فعالاً في الثورة والسلطة، لأن هناك طبقات وفئات اجتماعية لديها مصلحة في نجاح الثورة الوطنية الديمقراطية.

نوقشت مسودة البرنامج مرتين في اللجنة المركزية في عامي 1967 و1968، وصوّتُ ضد هذه الصيغة وحدي. كان هناك عدد من الرفاق متحفظين ولكن كانوا يتجنبون التصويت العلني، ربما لتجنب المواجهة مع أكثرية ساحقة! أو لحسابات أخرى لا أعرف كنهها. وصوتُ ضدها في المؤتمر الثاني أيضاً، لأن التعديلات التي جرت عليها لم ترضني ولم ترضِ عدداً آخر (أقلية) في المؤتمر، صوت قسم منهم ضدها. أتذكر منهم الرفاق باقر إبراهيم وعدنان عباس وجليل حسون، ولم يصوت قسم آخر. وقد أقر بالصيغة التالية في برنامج الحزب : "جمهورية ديمقراطية ثورية تمثل إرادة الشعب وتلعب في سلطتها الطبقة العاملة وعلى رأسها الحزب

---

[67] - زكي خيري وسعاد خيري. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، ص 118.

الشيوعي العراقي الدور الطليعي والقيادي"، وكان يغلب على مناقشاتنا تلك الطابع الأيديولوجي الجامد. وقد وضع الشعار بعد إقراره في الأرشيف، وليس في التطبيق، لبعده الشديد عن الواقع. ولكن أعطى ذريعة إضافية لتشديد حملة ناظم كزار الإرهابية. وإذا أردت المزيد عن هذه الفترة، فأحيلك إلى موضوع "الإفلات من قبضة المجرم ناظم كزار".

ثالثا: أساليب الكفاح

جرت مناقشات داخلية واسعة في نهاية 1966، حول أساليب الكفاح، اشترك فيها حوالي 150 كادراً، استنادا ًإلى وثيقتين، واحدة تدعو إلى ما يسمى بالعمل الحاسم (انقلاب عسكري) حررها الفقيد عامر عبد الله والثانية تدعو إلى انتفاضة شعبية مسلحة، وكنت طرفاً في الأخيرة مع رفيقين آخرين في اللجنة المركزية وهما كاظم الصفار وباقر إبراهيم. (كان الأخير خارج المكتب السياسي آنذاك) وكانت الوثيقة الأولى براكماتية شكلاً وغير واقعية مضموناً. أما الثانية فكانت أيديولوجية تستند إلى التعاليم الماركسية- اللينينية، ولكن هي الأخرى لم تكن قد نضجت ظروفها. وميزتها أنها كانت تتطلب العمل النشيط بين الجماهير لتعبئتها وتدعو إلى السعي الحثيث لتشكيل جبهة من القوى التي يهمها التغيير، دون إهمال دور القوات المسلحة. وأقرت اللجنة المركزية وثيقة وسطية. وصوت أربعة رفاق ضد عبارة الانقلاب العسكري في الوثيقة، وهم كل من عزيز محمد وسلام الناصري وبهاء الدين نوري وأنا. وصوتُ وحدي ضد الوثيقة كاملة لطابعها الانعزالي فقد اعتبرت الوثيقة الجماهير الشعبية قوة احتياطية للثورة، وبالرغم من إلغاء هذه العبارة من الوثيقة، بعد انتقادي لها، إلا أن هذه الفكرة بقيت تربط السطر الأول بالأخير من الوثيقة، كما صرحت بذلك في الاجتماع. وكان الصفار معتقلاً عند عقد الاجتماع، أما باقر إبراهيم فقد كان مستثنى من الاجتماع، كتدبير صياني.

رابعاً: موقف براغماتي

وهذا الموقف يوضحه جوابي على سؤالكم الثاني والذي هو: " لماذا اتخذت اللجنة المركزية موقفاً إيجابياً تجاه البعث بعد انقلاب 17- 30 تموز، أي بعد خمسة أعوام من مجازر شباط 1963؟ هل كنتم على وفاق مع الحزب في هذه المسألة؟"

جاء الموقف الإيجابي للجنة المركزية تجاه البعث بعد انقلاب 17- 30 تموز بناء على الوجه الجديد الذي جاء به حزب البعث، الذي وعد الشعب، في بيانه الأول بالسير على سياسة مكافحة الاستعمار والتمسك بالتضامن العربي. وأن حكمه جاء رداً على نكسة الخامس من حزيران 1967. وأنه عازم على حل القضية الكردية سلمياً والاستجابة لمطالب الأكراد القومية. وبشر بسياسة الانفتاح على القوى الوطنية والتقدمية وطي صفحات الماضي السلبية. وأكد ذلك مرة أخرى في بيان

رئيس الجمهورية في30 تموز 1968، بعد نجاح الانقلاب التكميلي والذي دعا فيه القوى الوطنية للمشاركة في مسؤولية الحكم. وللموقف خلفيات جديرة بالذكر وهي:

اولاً:على أثر هزيمة 18 تشرين الثاني 1963، التي مني بها حزب البعث، سلطة وتنظيماً، وتشتت شمله، ساد في هذا الحزب شعور بالإثم أدى إلى أن ينتقد نفسه في مؤتمره القومي السادس على تواطئه مع الإمبريالية وإيغاله بمعاداة الشيوعية وبتفريطه بالتضامن العربي وتبنى شعار الجبهة الوطنية بديلاً عن الحزب القائد.

ثانياً: جرى لقاء بين الكادر المتقدم في الحزب الشيوعي العراقي والشخصية المعروفة المحامي مكرم الطالباني (أصبح وزيراً للري، كأحد ممثلي الحزب الشيوعي في حكومة البعث) وأحمد حسن البكر قبل الانقلاب بأكثر من شهر، بناء على طلب البعث ([68] *). تحدث البكر في اللقاء عن ضرورة طي الصفحات الحزينة في ماضي الحزبين. وذكر بأن أخذ السلطة الآن في متناول حزب البعث، ولكنه لا يريد تكرار الماضي والصراع بين القوى الوطنية، وينشد التعاون والمشاركة، وطلب جواباً. لقد ناقشه مكرم ولم يعطه موقفاً محدداً. وقد اطلعت شبكة من الكادر على مضمون اللقاء ودارت مناقشات حوله. وكان الرأي السائد هو رفض التعاون. وكان موقف قيادة الحزب هو أن لا يعطي جواباً.

قبل اجتماع اللجنة المركزية التقى مكرم ثانية بالبكر، وهذه المرة في القصر الجمهوري. ومما قاله البكر: "إنه كان يرغب أن يدخل القصر وحزب البعث على يمينه والحزب الشيوعي على يساره. وأكد على ضرورة التعاون"

وهكذا اتخذت اللجنة المركزية موقفاً إيجابياً، براغماتياً، من الحكومة عن طريق طرح المطاليب المهمة والملتهبة ليمتحن مدى صدق وعودها وشعاراتها التي أطلقتها أمام الشعب وفي مقدمة تلك المطاليب ما يلي:

حل مشكلة الديمقراطية والنظام الديمقراطي وإزالة آثار الإرهاب عن الجماهير والأحزاب الوطنية ومصادرة الحريات، وإنهاء الفترة الاستثنائية ونقل البلاد إلى الحياة الدستورية الديمقراطية، وإيداع السلطة إلى برلمان منتخب من الشعب. وحل

---

[68] ـ * ملاحظة : قبل أن يحصل اللقاء المذكور أعلاه، وفي لقاء بيني وبين الرفيق عزيز محمد في بيت الكادر المتقدم الرفيق كامل كرم في بغداد، أخبرني عزيز محمد بطلب حزب البعث اللقاء بحزبنا. وقد أيدت إجراء اللقاء للتعرف على ما يدور حولنا. وعندما طلب مني أن أذهب أنا إلى اللقاء، أجبته بأني لست الشخص المناسب لمثل هذا اللقاء ويفضل أن يكون ممثلنا شخصية اجتماعية معروفة لأن هذه الأوساط تعير أهمية لذلك، هذا فضلا عن أني أعاني من ثقل في سمعي. وقد تفهم الرفيق عزيز موقفي. وقد كنت مقيما آنذاك في مدينة النجف حيث كنت سكرتيرا للجنة منطقة الفرات الأوسط.

المسألة الكردية حلاً ديمقراطياً وإقرار حق الشعب الكردي في الحكم الذاتي ... وقد كنت على وفاق مع الحزب في موقفه هذا.

من الجدير بالملاحظة، أنه لم يكن مع سكرتير اللجنة المركزية عزيز محمد سوى عضو واحد من أعضاء المكتب السياسي في بغداد وقتذاك وهو الرفيق باقر إبراهيم، والاثنان كانت تغلب عليهما السمة البراغماتية، وقد توصلا إلى التريث في اتخاذ موقف من الانقلاب، ومراقبة تطورات الوضع، وأيد موقفهما الفقيد مهدي عبد الكريم المنسب للمكتب السياسي و قد مهّد هذا الموقف إلى موقف اللجنة المركزية الإيجابي.

كان هذا الموقف البراغماتي صحيحاً. وعندما جرى تقييم سياسة الحزب، لاحقاً، الذي أقر من قبل المؤتمر الرابع عام 1985، بعد أن نوقش داخلياً وأقر في اجتماع اللجنة المركزية، لم يكن هناك أي اعتراض على الموقف المذكور. ولكن التقييم خطّأ مواقف لاحقة للجنة المركزية اتصفت بالتطرف في النهج البراغماتي ألحقت، بهذا القدر أو ذاك، ضرراً بالحزب والحركة. ولكن كما ذكرت في أحد المسلسلات بأني على قناعة تامة، بأن أصوب سياسة للحزب لم يكن بمقدورها التأثير على مجرى تطور الوضع السياسي في العراق باتجاه منع أو عرقلة تركز وتمركز الدكتاتورية الصدامية، ولكن كان يمكن أن يكون الحزب في وضع أفضل نسبياً لمقاومة النظام، وهذا بحد ذاته أمر لا يستهان به مأخوذاً بعواقبه المستقبلية. وإذا أردتم المزيد عن هذه الفترة ودوري فيها فأحيلكم إلى موضوع "التثقيف الحزبي".

***

وللحزب مواقف عديدة، يغلب على طابعها، في نظري، البراغماتية في تاريخه، كانت صحيحة وسأشير إليها باختصار، على سبيل المثال لا الحصر:

* الشعار السياسي الرئيسي الذي طرحه باني الحزب الشيوعي العراقي يوسف سلمان يوسف (فهد) في الميثاق الوطني الذي أقره الكونفرنس الأول عام 1944 وهو برنامج الحد الأدنى جاء بالصيغة التالية: " نناضل لإيجاد حكومة تعمل لمصلحة الشعب وجهاز حكومي ديمقراطي صحيح في نظام حكومتنا".

كان شعاراً ملائماً، واقعياً وعملياً، يعبر عن الحاجات الملحة التي تواجه البلد وممكن التحقيق، ومقبول لدى الأحزاب الوطنية، وحتى أنه دستوري. ولاحظنا كيف تعرض هذا الشعار للانتقاد من قبل الرفيق زكي خيري من منطلق أيديولوجي دوغماتي.

* دخوله الجبهة الوطنية في أيار 1954، لانتخاب برلمان جديد وقد وقع ميثاقها حزبا الوطني الديمقراطي والاستقلال، واستعيض عن توقيع الحزب الشيوعي العراقي بتواقيع ممثلي العمال والفلاحين والمحامين والطلاب والأطباء والشباب. وقد فازت الجبهة بأحد عشر مقعداً في المجلس النيابي رغم التزوير الواسع، واعتبر ذلك إنجازاً للحركة الوطنية. ولم يتحمل النظام الملكي البائد هذه المعارضة فحل المجلس بمرسوم ملكي بعد انعقاد جلسته الأولى. وكان على رأس الحزب آنذاك الرفيقان كريم أحمد وحسين الرضي (سلام عادل)، وكان الأخير مسؤولاً عن لجنة العلاقات الوطنية في الحزب.

وتعتبر هذه الممارسة خاطئة بعرف الجمود العقائدي لأنه يجب أن يكون الدور القيادي في أي جبهة للحزب الشيوعي ([69] *)، في حين كانت القيادة مشتركة مع الأطراف الأخرى. ولم يوقع الحزب باسمه على ميثاق الجبهة، وكانت حصة الأسد من مرشحي الجبهة للأحزاب البرجوازية.

* جبهة الاتحاد الوطني التي أقيمت في آذار 1957 وتنسيق الحزب مع منظمة الضباط الأحرار الذين كانوا بصدد القيام بانقلاب عسكري. وكان سلام عادل على رأس الحزب. والخط السياسي الذي أدى إلى قيام الجبهة كان قد أقر في الكونفرنس الثاني للحزب عام 1956، وقد تعرض هذا الخط الذي كان في صلب انتصار ثورة 14 تموز، إلى انتقاد شديد من منطلقات أيديولوجية جامدة على يد الفقيد زكي خيري والرفيقة سعاد خيري فكتبا ما يلي: " وجاء في التقرير الذي أقره الكونفرنس الثاني والذي نشر في كراس بعنوان: "خطتنا السياسية في سبيل التحرر الوطني والقومي" في تحديد المهمة الرئيسية للمرحلة": إن ما يواجه بلادنا الآن وقبل كل شيء ضرورة تحويل السياسة القائمة من سياسة التعاون مع الاستعمار وتوافق مع الصهيونية وانعزال عن حركة التحرر العربي إلى سياسة وطنية عربية مستقلة. ولذلك فإن مهمة الانتقال إلى الاشتراكية وتحويل السلطة السياسية إلى أيدي العمال والفلاحين وحلفائهم ليست هي المهمة التي تواجهها حركتنا في الظرف الراهن".

ويعلق الكاتبان على هذه الفقرة بالقول: "هنا عودة ثانية إلى الوراء بالنسبة للشعار الإستراتيجي وخلط واضح بين حكومة العمال وفقراء الفلاحين، التي تعني دكتاتورية البروليتاريا الاشتراكية، وبين حكومة العمال والفلاحين جميعاً بما فيهم

---

[69] ـ في مناقشتهما لتقرير الكونفرننس الثاني للحزب يشير الرفيقان زكي خيري وسعاد خيري في كتابهما، " دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي" ص 229، إلى المفهوم الجامد لمبادئ الجبهة على الوجه التالي: "ولم يشر(التقرير)إلى المبادئ الأساسية لتكوين الجبهة الوطنية كما ثبتتها تجارب الحركة الشيوعية العالمية ولخصها الرفيق فهد (أين؟) أي إنه لم يشر إلى القاعدة الأساسية للجبهة وهم العمال والفلاحون ولم يشر إلى دور الحزب الشيوعي القيادي فيها وهذا الخطأ منبثق من الخطأ الإستراتيجي الأساسي في مسألة السلطة".

الأغنيـاء والبرجوازيـة الوسـطية والصـغيرة، والتـي هـي دكتاتوريـة الشـعب الديمقراطية الثورية التي تعني انتصار الثورة الوطنية الديمقراطية الكامل، الذي لم تحققه ثورة 14 تموز جراء احتكار البرجوازية الوطنية للسلطة وعدم تمكن البروليتارية من قيادة السلطة" [70]. ومع أن الكاتبين يؤيدان انعطاف الحزب جدياً نحو الجيش، إلا أن ذلك لم يسلم من تحفظات من منطلقات أيديولوجية جامدة أيضاً فكتبا ما يلي: "بيد أن التركيز على سلك الضباط بدل الجنود ينطوي على خطر إعطاء القيادة لهم وهم على العموم من مختلف فصائل البرجوازية أي تسليم قيادة التنظيم العسكري للقيادة البرجوازية كما جرى فعلاً وفي الواقع الملموس يؤدي إلى ضياع التنظيم"[71].

* عندما رفض الزعيم عبد الكريم قاسم إجازة حزبنا في 1960، بعد أن أجاز بدلاً منه حزباً وهمياً بنفس الاسم، بحجة "قانونية" وهي عدم جواز إجازة حزبين بنفس الاسم. قدم الحزب طلباً ثانياً موقعا من قبل الرفيق زكي خيري وأضيف اسم جريدة الحزب "إتحاد الشعب" بين هلالين بعد اسم الحزب الشيوعي العراقي. ويبدو بان الرفيق حسين الرضي (سلام عادل) كان متحفظا على تلك الإضافة من منطلقات أيديولوجية. ويشير الرفيق زكي خيري إلى موقف الرضي فيقول: "استاء الرضي أشد الاستياء من هذا التدبير التساومي. ولدى محاسبة المعارضة في أيلول 1962، اعتبر ذلك دليلاً على انتهازيتنا (هكذا ورد) وإدخالها النفوذ البرجوازي إلى الحزب" [72].

وهكذا رغم المناقشات الأيديولوجية الواسعة في اللجنة المركزية، فمن الصعوبة الحكم أيهما، الايدولوجيا أم البراغماتية ، كانت الأكثر اعتماداً عند اتخاذ القرارات المهمة في اللجنة المركزية. فهي حسب كل قضية وظروفها. ففي ذروة مناقشاتنا الأيديولوجية وقع انقلاب 17- 30 تموز 1968 وأخذنا نتعامل معه براغماتياً. ولابد من الإشارة بأن دور الأشخاص وطبيعتهم الغالبة، في هذه الفترة أو تلك، براغماتية أم أيديولوجية، ومدى تأثيرهم في القرار، كانت تلعب دوراً هاماً في طبيعة القرار.

وإن استرشاد الحزب بأيدلوجيته لم تمنعه من اتخاذ مواقف وتكتيكات براغماتية كانت في أساس نجاحاته. فنجاح ثورة 14 تموز، والتي كان للحزب دور فعالً فيها، يعود إلى غلبة الطابع البراغماتي في سياسته ونشاطه، قبل وبعد الثورة مباشرة، ولكن الانحراف عن أيديولوجيته (خط آب) أثارت علامة استفهام على ضرورة

---

[70]- المصدر السابق، ص 225

[71] - المصدر السابق، ص 229

[72] - زكي خيري. صدى السنين في ذاكرة شيوعي مخضرم، ص 232. المقصود بالمعارضة في المقتبس هي معارضة داخل قيادة الحزب وكانت تتكون من أربعة رفاق وهم كل من الرفاق زكي خيري ومحمد حسين أبو العيس وعامر عبد الله وبهاء الدين نوري . وقد أتهموا بالتكتل...الخ وجردوا من مراكزهم الحزبية في عام 1962. وقد أعيد النظر في القرار وأعيد الاعتبار لهم في اجتماع آب 1964.

وجوده، فلم يتشفع له آنذاك سوى العودة إلى أيديولوجيته. وكذا الحال بالنسبة للأخطاء التي أرتكبت خلال التحالف مع البعث، فقد كانت ذات طابع براغماتي خاطئ.

وأن الجمع الصحيح بين الايدولوجيا والبراغماتية، أو بالأحرى الاسترشاد بالأيدولوجيا وعدم تحويلها إلى عقيدة جامدة، في سياسة الحزب ونشاطه، كان يحقق مكاسب وإنجازات له وللشغيلة وللوطن ويكسب التضامن لنضاله، ويساهم في التضامن مع نضال الشعوب العربية وشعوب العالم من أجل الحرية والديمقراطية والسلام العالمي. وكانت الإخفاقات والانتكاسات (غير تلك التي يتحمل مسؤوليتها القمع السلطوي) ترافق عادة أما جموده ايدولوجيا أو انحرافه عنها.

هذا الاستنتاج يغطي مراحل مختلفة من تاريخ الحزب والتي انتهت بانتهاء الثمانينات. أما بعد ذلك فهو، باعتقادي، لم يعد يحافظ على كامل صوابه، بعد انهيار النظام الاشتراكي الشمولي، وانتهاء الحرب الباردة ونشوء القطب الواحد، وثورة التكنلوجية والمعلوماتية وتأثيرات العولمة الموضوعية وغير الموضوعية، إلا إذا أخذنا بنظر الاعتبار التجديدات التي جرت ولا تزال على أيديولوجيا الحزب. فمنذ بداية التسعينيات جرت مناقشات واسعة داخل الحزب، تناولت الكثير من المسلّمات وتتوّجت النتيجة في وثائق المؤتمر الوطني الخامس للحزب المنعقد في تشرين الأول 1993، والمسمى "مؤتمر الديمقراطية والتجديد"، وقد حضرته. وكان لي دوراً مشرفاً في المساهمة في التجديد. فقد شكلت هيئة، خلال التهيئة للمؤتمر، لوضع مسوّدة النظام الداخلي الجديد من الرفاق حميد مجيد موسى، الذي أنتخب سكرتيراً للجنة المركزية، لأول مرّة، على أثر المؤتمر المذكور، والرفيق حميد بخش (أبو زكي) وأنا. ومن خلال مقدمة النظام الداخلي يمكنكم الإطلاع على التغييرات التي حصلت على أيديولوجيا الحزب. وقد تكررت المقدمة ذاتها في الطبعات الجديدة للنظام الداخلي في مؤتمري الحزب السادس والسابع المنعقدين في عامي 1997 و2001، على التوالي وقد شاخت بعض أجزاء تلك المقدمة، في نظري، الآن.

وقد واصل الحزب تجديد أيديولوجيته لاحقاً وتبنى التعددية والتداولية. وانخرط في العملية السياسية الجارية في البلد والتي تستهدف تحقيق شعار الحزب الإستراتيجي الذي تبناه منذ المؤتمر الوطني الخامس، وهو إقامة نظام ديمقراطي فيدرالي موحد. كل ذلك التجديد ساعد ويساعد الحزب على مواجهة ظروف فريدة من نوعها وغاية في الصعوبة والتعقيد، وعليه أن يسجل، رغماً عنها ورغم التحديات الكبيرة، حضوراً واضحاً ومؤثراً ومتنامياً.

17
الديمقراطية في الحزب الشيوعي العراقي

السؤال: هل تعتقد الآن بأن الديمقراطية الحزبية كانت مفعّلة؟ هل كان لديك دور واضح في اتخاذ القرارات المهمة، كعضو قيادي، هل هناك قرارات أتخذت من وراء ظهرك في المكتب السياسي؟

الجواب: لم تكن الديمقراطية مفعّلة، ولكنها لم تكن معدومة داخل الحزب الشيوعي العراقي. وسأتناول الموضوع من خلال ثلاث آليات وهي الانتخابات والمناقشات ونظام إدارة الجلسات.

1. الانتخابات: لم تجر انتخابات للجنة المركزية كهيئة، بعد إعدام الرفيق يوسف سلمان يوسف (فهد) ورفيقيه زكي بسيم (حازم) وحسين الشبيبي (صارم) عام 1949، واعتقال أعضاء اللجنة المركزية وسحق منظمات الحزب في الحملة البوليسية في تلك الفترة، إلا في عام 1956، وذلك في الكونفرنس الحزبي الثاني، ومن ثم في الكونفرنس الحزبي الثالث عام 1967. وبعد ذلك في المؤتمر الوطني الثاني. ليتواصل انتخابها في المؤتمرات اللاحقة. واللجنة المركزية هي التي تنتخب المكتب السياسي والسكرتير. وكان مندوبو المؤتمرات يُنتخبون في كونفرنسات محلية.

في أواسط السبعينيات، وعندما كان الحزب علنياً، كانت الخلايا تنتخب سكرتاريها تطبيقاً لمادة في النظام الداخلي موروثة من أول نظام داخلي للحزب. واشترك جميع أعضاء الحزب، بشكل مباشر أو غير مباشر([73] *) في انتخاب مندوبي المؤتمر الوطني الثالث، والذي عقد في مقر الحزب المركزي العلني في بغداد عام 1976.

جميع الانتخابات في الحزب حتى المؤتمر الرابع الذي عقد في عام 1985، كانت غير فعالة، لإجرائها بدون منافسة حقيقية، تماماً كما كانت تجري في الأحزاب الشيوعية الأخرى، لأن آلية الترشيح كانت مركزية. وقائمة المرشحين تساوي، على الأغلب، العدد المطلوب انتخابهم. وإن وجد هامش للمنافسة فهو محدود جداً. فمثلاً، كانت القائمة في الكونفرنس الثالث تضم 16 رفيقا، 13 منهم يُنتخبون كأعضاء والثلاثة الباقون يكونون أعضاء مرشحين وهم الذين يحصلون على أدنى الأصوات. والترشيح من خارج القائمة كان نادراً. وقد حصل "اختراقان" في انتخابات اللجنة المركزية أحدهما في الكونفرنس الثالث، حيث رُشح أحد الرفاق من قبل المندوبين وفاز بصفة عضو. وهو كاتب هذه السطور. والثاني في المؤتمر الثالث حيث فاز الرفيق عمر الياس بصفة عضو مرشح للجنة المركزية من خارج القائمة.

---

[73] ـ * لم يشترك أعضاء الخلايا في انتخاب مندوبي المؤتمر مباشرة بل ساهموا في ذلك من خلال سكرتاري الخلايا المنتخبين.

2. المناقشات: لقد أعيد بناء الحزب الشيوعي العراقي في أربعينيات القرن الماضي، في عِز الستالينية، وكانت مفاهيم كالضبط الحديدي ومفهوم الوحدة الفكرية المنافي للديمقراطية، الذي كان ينص عليه النظام الداخلي للحزب، يضيّق على المناقشات. وإذا ما فرضت الظروف، على الحزب مناقشات سياسية و فكرية حادة، فلم يكن يتحمله الإطار المذكور، فتنشأ أرضية صالحة للانشقاقات، كما حصل ذلك في عام 1953، وأقصد انشقاق منظمة "راية الشغيلة". أو في عام 1967، انشقاق القيادة المركزية، وقد كانا انشقاقين خطيرين في الحزب، الحقا أضراراً فادحة به. وقد حصل كل منهما بعد أربع سنوات من انتكاستي 1949 و1963 على التوالي!

بالارتباط مع الشروع بعقد كونفرنسات ومؤتمرات الحزب، ابتداء من النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي، وما تطلبه ذلك من مناقشة لمسودات الوثائق، تنامت حرية المناقشة في الحزب. ومما ساعد على ذلك هو ارتفاع المستوى الثقافي العام في البلاد والوعي داخل الحزب وعودة مجموعة كوادر درست في الخارج في المدارس الحزبية ومجاميع أخرى أنهت دراستها الأكاديمية في مختلف الدول الأوربية. وكان للرفيق عزيز محمد الذي أنتخب سكرتيراً للجنة المركزية، في تلك الفترة دور في ذلك، فهو بطبيعته ليس بيروقراطياً، ويميل للقيادة الجماعية، وينأى بنفسه عن الخلافات الفكرية والسياسية الحادة في اللجنة المركزية، ويحاول إيجاد الصيغ التوفيقية.

3. نظام إدارة الجلسات: كانت جلسات المؤتمرات والكونفرنسات المحلية على مختلف المستويات تدار سابقاً من قبل قيادة الحزب أو المنظمة المعنية بالكونفرنس، بما في ذلك إجراء الانتخابات. ومنذ نهاية الثمانينات وبداية التسعينيات من القرن الماضي، باشرت بعض منظمات الخارج الأخذ ببعض المبادئ الديمقراطية في إدارة الجلسات. وقد تبلورت أخيراً في نظام متكامل ومكتوب بأدق التفاصيل في "مؤتمر الديمقراطية والتجديد" وتحول الآن إلى جزء من تقاليد العمل. وقواعد هذا النظام، هي نفس القواعد المعمول بها في المنظمات والأحزاب الديمقراطية في العالم. ومن فقراته ما يلي:

"انتخاب هيئة رئاسة للمؤتمر أو الكونفرنس المحلي، وبذلك تنتهي مهمة الهيئة المنتخبة سابقاً".

"انتخاب لجنة اعتماد، والتي من ضمن مهامها إجراء الانتخابات للهيئات القيادية الجديدة، من البداية وحتى النهاية، وبدون تدخل أحد في شؤونها. على أن لا يكون أحد من أعضائها مرشحاً لتلك الهيئات. وتجري الانتخابات بشكل سري". هذا فضلاً عن قواعد التصويت على المقترحات ومشاريع القرارات ...الخ.

***

وفيما يتعلق الأمر بدوري في اتخاذ القرارات المهمة، فأعتقد بأن دور أي عضو في اللجنة المركزية كان مهماً، فقرارات اللجنة المركزية لم تتخذ دائماً بالإجماع وعند ذاك يصبح كل صوت مهماً، على سبيل المثال لا الحصر:

* جرت مناقشة حادة في اجتماع اللجنة المركزية الطارئ المنعقد في 6 نيسان عام 1973، والمكرس لمناقشة عقد التحالف مع حزب البعث. (لم أحضره لوجودي خارج العراق في معهد العلوم الاجتماعية في موسكو) فانقسمت على أثرها اللجنة المركزية إلى قسمين، وصوت لصالح عقد الجبهة سبعة رفاق وعارضها ثمانية رفاق. أعيد النقاش ثانية في اللجنة، وعند التصويت تحول الرفيق أحمد بانيخيلاني من معارض إلى مؤيد. وفي تموز من نفس العام أعلنت الجبهة ([74] *).

* في اجتماع اللجنة المركزية المنعقد في نيسان عام 1965، لم يكن شعار إسقاط السلطة وارداً لا في مسودة البيان الذي طرح للمناقشة من قبل رفاق المكتب السياسي، ولا بعد تعديله على ضوء المناقشات التي جرت في المنظمات. وإنما طرح للمناقشة في الاجتماع من قبل أعضاء اللجنة المركزية. وكان ما ورد في مطالعتي في الاجتماع، بأن الرأي العام في منظمة بغداد (أكبر وأهم منظمات الحزب، وكنت سكرتير لجنتها) يطالب برفع الشعار المذكور، قد لعب دوره في استمالة أعضاء اللجنة المترددين لتبني الشعار.

وطبيعة مهمتي في اللجنة المركزية في الفترة العلنية في سبعينيات القرن الماضي كانت تتيح لي أن العب دوراً لا يستهان به. فقد كنت سكرتيراً للجنة التنظيم المركزية وعضو سكرتارية اللجنة المركزية، والأخيرة هيئة صغيرة من خمسة رفاق، منتخبة من اللجنة المركزية يرأسها سكرتير اللجنة المركزية الرفيق عزيز محمد وهي مسؤولة عن إدارة شؤون العمل اليومي للحزب، ولديها صلاحيات مهمة. وكنت عضواً في لجنة العمل الأيديولوجي وكان سكرتيرها الرفيق زكي خيري، ومشرفاً على لجنة التوجيه الفلاحي، ومشرفاً كذلك على المدرسة الحزبية المركزية!؟

***

[74] ـ * للمزيد أنظر بهاء الدين نوري. مذكرات، ص 424. يحتمل أن يكون هناك التباس في عدد الحضور، فمعلوماتي تفيد بأن عددهم كان 13 رفيقاً. والعدد الأخير مطابق لما جاء في كتاب "صدى السنين في كتابات شيوعي عراقي مخضرم" إعداد الرفيقة سعاد خيري. ص58. وقد ذكرت الرفيقة اسمي خطأ ضمن الذين حضروا الاجتماع المذكور، فقد كنت أدرس في معهد العلوم الاجتماعية في موسكو آنذاك.

أما بخصوص سؤالك: هل هناك قرارات اتخذت من وراء ظهري في المكتب السياسي؟ الجواب نعم. كانت تتخذ الكثير من القرارات الهامة في المكتب السياسي من وراء ظهري وظهر اللجنة المركزية، ولكنها كانت ضمن صلاحيات المكتب السياسي الواسعة والمنصوص عليها في النظام الداخلي. فالمكتب السياسي حسب النظام الداخلي القديم كان يقوم مقام اللجنة المركزية بين اجتماعاتها. وكان النص كما يلي: "المكتب السياسي - هو مكتب اللجنة المركزية وينوب عنها بين الاجتماعات ومسؤول عن نشاطه تجاهها وينفذ جميع مهامها وله صلاحياتها. (خطوط التشديد غير موجودة في الأصل).

وقد غير "مؤتمر الديمقراطية والتجديد" المنعقد في عام 1993، مهام المكتب السياسي جذرياً، فقد جاء في النظام الداخلي الذي أقره ما يلي: "المادة 17 المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب". 1- المكتب السياسي هو مكتب اللجنة المركزية، يسهر على تنفيذ قراراتها، وهو مسؤول أمامها. (خطوط التشديد غير موجودة في الأصل). 2 ـ على المكتب السياسي تقديم تقارير منتظمة إلى اجتماعات اللجنة المركزية، تتناول تطبيق الخط السياسي العام للحزب، وقضايا الحزب الداخلية وماليته. وتكرر هذه النصوص في الطبعات الجديدة للنظام الداخلي في المؤتمرات اللاحقة.

أما فيما يخصني شخصيا، على سبيل المثال، فقد نسبت للعمل كسكرتير لأكثر من لجنة محافظة ولجميع اللجان المنطقية في العراق والعاصمة بغداد ثلاث مرات ومنظمة خارج الوطن، ولم يجر التشاور معي قبل اتخاذ القرار، ولا مرة واحدة، وكان ذلك جزء من تقاليد العمل الحزبي آنذاك. والمرة اليتيمة التي جرى فيها التشاور معي كانت في عام 1985، حيث عرض عليّ المكتب السياسي ثلاث مهام لاختيار واحدة منها، وعندما عرفت بأن الحاجة ماسة لكي أكون ممثلاً للحزب في بلغاريا ولقيادة المنظمة هناك، لم أتردد في الموافقة، وكانت إحدى المهام الأخرى مسؤولية قيادة منظمات الخارج والتي كان مقرها في براغ. أما الثالثة فكانت مسؤولية قيادة منظمة موسكو.

***

منذ عام 1990، وقبل ذلك بقليل، شرعت المنظمات بمناقشات واسعة تستهدف دَمقرطة وتجديد أيديولوجيا الحزب وذلك من خلال مناقشة وثيقة مركزية. وأصبح طرح وثائق الحزب الأساسية للمناقشة على قاعدة الحزب وجمهرة أصدقائه والقوى والأحزاب الوطنية وعموم أبناء الشعب، قبل إقرارها في مؤتمرات الحزب، نهجاً ثابتاً منذ ذلك الحين. أما قبل ذلك فكان اعتماد هذه الآلية وسعة استخدامها خاضعة للظروف السياسية.

وأخذت المنظمات خارج الوطن، وحيثما لا يوجد عائق أمني، تنتخب هيئاتها القيادية بطريقة ديمقراطية عن طريق الترشيح الفردي. وفي المؤتمر الوطني الخامس (مؤتمر الديمقراطية والتجديد)، الذي مر ذكره والذي حضرته، كما ذكرت ذلك سابقاً، جرت الانتخابات بطريقة ديمقراطية لا تشوبها أية شائبة. واستمر الحال، ولا يزال على نفس المنوال. ولا غرو في ذلك فقد تحول الحزب الشيوعي إلى حزب ديمقراطي، فقد جاء في مقدمة النظام الداخلي الراهن، وهي نفس المقدمة التي أقرَّت في "مؤتمر الديمقراطية والتجديد" ما يلي:

ـ والحزب الشيوعي العراقي حزب ديمقراطي، من حيث جوهره وأهدافه وبنيته وتنظيمه ونشاطه، ومن حيث علاقاته بالقوى الاجتماعية والسياسية الأخرى. وهو إذ يرفض كل شكل من أشكال الحكم الاستبدادي والتسلط السياسي ومصادرة حقوق الإنسان، يناضل من أجل إقامة نظام سياسي ديمقراطي، وتأمين العدالة الاجتماعية.

18

اتفاقية آذار وموقف العرب والكرد في اللجنة المركزية

السؤال: هل ترك اتفاق حزب البعث مع البارزاني في آذار 1970 تأثيراً على القضية الكردية في اللجنة المركزية؟ بأية صيغ نوقشت هذه المسألة؟ هل كانت هناك انقسامات بين الأعضاء العرب والأعضاء الكرد في اللجنة المركزية بصدد هذه المسألة؟

الجواب: لم تسبب اتفاقية آذار أي صراع داخل اللجنة المركزية حول القضية الكردية. ولم تنقسم اللجنة المركزية يوماً ما إلى فريقين أحدهما كردي والآخر عربي حول أية قضية في اللجنة المركزية. ولكن كانت هناك نقاشات داخل اللجنة المركزية حول المسألة الكردية، وكانت هناك خلافات (ولم تكن إطلاقاً بين فريقين عربي وكردي) حول موقف حزب البعث من المسألة، وذلك عشية اتفاقية آذار 1970. وقد كتب الرفيق بهاء الدين نوري كراسة حول الموضوع استنتج من دراسته ما يلي: "إن حزب البعث لن يريد ولن يستطيع إيجاد حل سلمي ديمقراطي راسخ للمشكلة الكردية في العراق".

يعد الأخذ والرد وافق المكتب السياسي للحزب على هذا التقدير، المثبت في الكراس وطبعه [75]. وقبل توزيع الكراس على المنظمات، أعلن عن اتفاقية آذار فتقرر سحبه، وليس تشككاً بالتقدير المذكور أعلاه، وإنما لعدم ملاءمته والظروف المستجدة سياسياً. وأتذكر مجيء الرفيق عزيز محمد إلى بيتي في بغداد الجديدة

[75] ـ أنظر بهاء الدين نوري، مذكرات. ص 402

ليخبرني بعدم توزيع الكراس الذي كانت كمية منه قد وصلت تواً إلى المحطة المركزية لتوزيع الأدبيات في منطقة بغداد، وكنت آنذاك سكرتيراً للجنتها. ولتدارك الأمر بسرعة فقد أوصلني الرفيق عزيز بسيارته إلى المحطة المذكورة، وقد وصلت في الوقت الملائم ولم يوزع الكراس.

19

رسائل متبادلة مع عدد من ذوي الشهداء الذين وردت أسماؤهم في الكتاب

الرسائل المتبادلة مع فلاح حسن عوينة

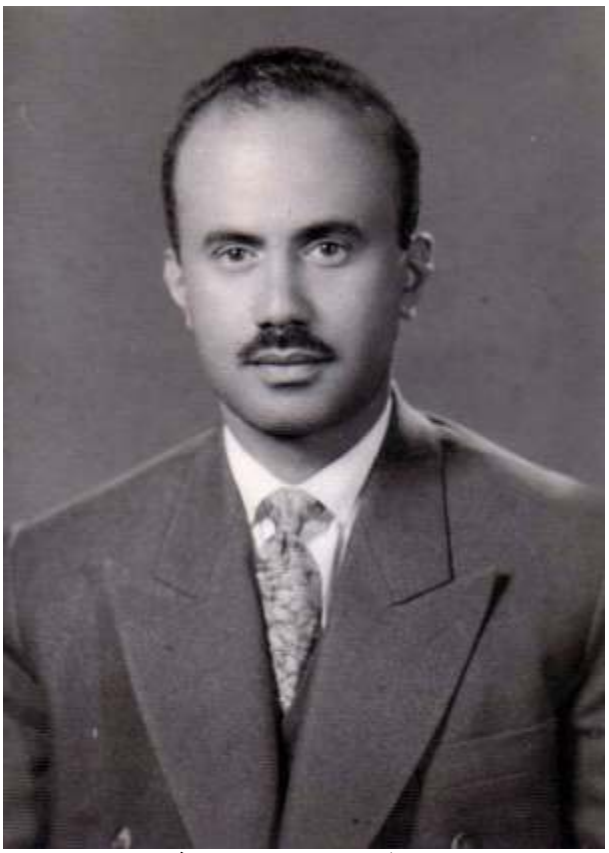

الرفيق حسن عوينة

سيدي الفاضل
تحية طيبة وبعد

قرأت الحلقتين اللتين نشرتهما حول ذكرياتك مع منظمة "راية الشغيلة"، وأحيي فيك الرغبة في تدوين ما يستحضرك من تلك الأحداث. وأشكرك شكراً جزيلاً على

موضوع محدد استوجبني فيه الشكر، ولربما ستستغرب هذا الموضوع أو لربما تجده عادياً، وذلك يعود لك، وما يهمني هو أني أكتب لك محبة.

أنا أعرفك بالاسم، نعم فقط بالاسم ولا أذكر أني التقيت بك، أو ربما هذا قد حدث وأنا طفل صغير، ولكني أذكر أني سمعت اسمك مراراً وتكراراً من خالتي (علوية مليحة الحكيم) ومن جدتي لأمي (علوية زكية الحكيم)، وربما أكون سمعته من آخرين من العائلة، ولكن لا تختزن ذاكرتي في أي من التفاصيل قد ورد اسمكم الكريم.

وعلى أية حال أجدني معذوراً في ذلك فأنا من عمر أبنائك، أو لنقل أنت من عمر والدي! وأنت ممن يعرفونه بالتأكيد فقد أشرت إلى اسمه في الحلقة الثانية وهو "حسن عوينة". أشعر بالارتياح لأنها المرة الأولى التي يأتي أحد على ذكر اسمه أو موقف من مواقفه في المقالات التي تنشر على مواقع الانترنيت في هذا الزمن الذي صار الناس يستذكرون فيه من فقدوا في رحلة الكفاح المضنية. وإنها المرة الأولى أيضاً أن يأتي شخص على ذكر اسم خالي (السيد صاحب الحكيم) مقرنا إياه بأيام النضال المريرة منذ خمسينيات القرن الماضي (الحلقة الأولى).

أحييكم مرة ثانية وأنقل لكم ارتياحي لأن هناك من لا يزال يذكر تلك الأسماء. لا أريد الإطالة عليكم، ولكن علي أن أعبر لكم عن تشرفي بدوام المراسلة معكم مستقبلاً.

شكراً جزيلاً وخالص تحياتي، مع المحبة
فلاح عوينة
25 مايس 2005

***

عزيزي فلاح
تحياتي وحبي وتمنياتي لك بالصحة والسعادة والنجاح.

منذ أن قرأت رسالتك وصورة الوالد لم تفارقني. لقد التقيت بوالدك للمرة الأولى في سجن بعقوبة عام 1955 وقد أشرت إلى ذلك في الحلقة الرابعة من القسم الأول من مسلسل "حدث هذا قبل..." والتقينا مرة أخرى في عام 1957 في نفس السجن ولكن في ظروف مختلفة. كان الحزب موحداً وكان أبو فلاح ممثلنا أمام الإدارة. عندما تحررنا بعد ثورة 14 تموز 1958، أنا من السجن وهو من الإبعاد، كنا نلتقي في الاجتماعات الحزبية لمنطقة الفرات الأوسط حتى منتصف 1959. انتقلت أنا إلى محافظة واسط (الكوت سابقاً) وانتقل هو بعدي بفترة إلى بغداد. في بغداد عمل شقيقي حميد في جهاز المراسلة واستخدمت عائلتي كبيت حزبي مركزي للمراسلة. وكان أبو فلاح مسؤولاً عن الجهاز المذكور. وكنت ألتقيه عندما أزور عائلتي. عمل

شقيقي حميد مع الوالد ثلاث سنوات متواصلة ولديه معه ذكريات لطيفة يصعب الحصول عليها الآن، لأن حميد في بغداد، علماً بأنهما كانا، قبل ثورة 14 تموز، في بدرة مبعدين وصديقين.

لا أظنني سأضيف جديداً لمعلوماتك لو تحدثت لك عن انطباعاتي، لأني متأكد بأنك سمعت ذلك من غيري. فإن رقة أبو فلاح وشاعريته وذكاءه المتقد وانسجامه مع نفسه وصراحته وتواضعه الجم كان واضحاً للجميع. لقد كان حسن عوينة إنساناً رائعاً وعظيماً.

فرحنا كثيراً، أم شروق وأنا، عندما قرأنا عنوانك وعرفنا أنك أنهيت تعليمك بمستوى دكتور في فرع علمي. فلا عجب، فهذا الشبل من ذاك الأسد. ومن حق أم فلاح أن تفتخر بك. أم شروق كانت تتردد على بيتكم في النجف عام 1964، قبل زواجي بها، وهي أخت الشهيد جواد عطية. وتتذكرك طفلاً وتعرف الوالدة والخالة والجدة. وهي تحييك وإياهم بحرارة. نرجو تزويدنا بأخبارهم وأخبار أبو بشائر فقد عشنا سوية معه في سوريا عام 1980. أنا أتذكر مليحة وقد كانت اسم على مسمى.

مع تقديري واعتزازي.
المخلص أبو شروق (جاسم الحلوائي)
كوبنهاكن - 26 مايس 2005

***

أستاذنا الفاضل (أبو شروق) المحترم
تحية حارة وبعد،

استلمت ببالغ الغبطة رسالتكم الرائعة، الموجزة والواسعة. قرأتها مرة وثانية، وأول ما قمت به هو البحث عن كل ما نشرته في موقع الحوار المتمدن وعدت لقراءة الحلقة الرابعة التي أشرت إليها، ومن ثم وجدتها فرصة جيدة لقراءة كل ما وقع تحت طائل ناظري في شاشة الحاسوب من مقالاتكم المنشورة، (وبالمناسبة فقد خطف انتباهي مقالكم حول نتائج التصويت في الانتخابات العراقية، وشعرت بالقناعة لمعظم ما تناولتموه، وربما سيكون لي عود على ذلك لمناقشة ما جاء فيه) كما كان لي الشرف برؤية صورتكم التي حتماً حفظت كل ملامحها من النظرة الأولى.

أتقدم إليكم بالشكر الجزيل للمعلومات الجميلة التي أوردتها وعن ذكرياتكم مع حسن عوينة، وفي حقيقة الأمر فإن معلوماتي (شبحية) وتفتقر إلى التفاصيل المطلوبة، وكان مصدري (شفهياً) في تلك المعلومات هو عمي (مسلم عوينة)، والكتيب

المتواضع الذي صدر بتوقيع باقر إبراهيم، وكان أصلاً مقالاً منشوراً في الثقافة الجديدة في النصف الأول من السبعينات، وللعلم فإن معظم المادة كانت معدة من قبل عمي مسلم. وكنت مؤخراً قد طلبت من عمي أن يحاول تدوين ما يعلق في ذاكرته من ذكريات تلك السنين لاسيما النتاج الشعري لحسن عوينة، وبالتأكيد فإن أكثر من يحفظه هو عمي مسلم. عندما كنت طالباً في الدراسة المتوسطة وبتشجيع من الأسرة كنت قد بدأت عملية التدوين الشعري لما كتبه الراحل، وأذكر أني جمعت بضعة عشرة قصيدة كاملة، ولكن مدوناتي تلفت مع ما أتلف من مواد مطبوعة تخص ثقافة الحزب، كنا نحتفظ بها في بيتنا على سبيل التثقيف والاطلاع إبان الهجمة الشرسة في نهاية السبعينات على الحزب وأصدقائه، إذ فرضت الخشية نفسها في أن تكون تلك المواد سبباً في نكبة أسرية جديدة، وعلى أية حال ـ على حد علمي ـ فإن عمي مسلم بصدد التصدي لمهمة جمع ذلك النتاج والتدوين من جديد.

تعود بي ذاكرتي إلى حدود العام 1964 وليس إلى قبل ذلك فأنا أذكر انتقال الأسرة من النجف إلى بغداد، وسكنانا المؤقت في بيت غير مكتمل البناء في منطقة الجوادر يوم كانت آخر نقطة في بغداد، وأذكر إننا عندما كنا في ذلك السكن حدث موت عبد السلام عارف ولازالت ترن في أذني المقولة التي رددها الناس (صعد لحم ... نزل فحم)، ولذلك أعتذر أشد الاعتذار لأني لا أتذكر السيدة أم شروق، ولكني أتشرف وفي غاية السعادة لتلقي تحياتها، وأرد عليها بالمثل.

أما أخبار العائلة فباختصار إنها لم تعد موجودة. توفيت جدتي في عام 1989، وتوفيت والدتي حسرة على فراقي في عام 1999، ولحقت بها خالتي حسرة ويأساً في عام 2000. أما خالي صاحب فقد عاش في سورية طيلة تلك السنوات ولحد الآن، ولكن صحته ليست جيدة، وكان يفكر في العودة لقضاء ما تبقى من العمر مع الأسرة التي بقيت مشتتة طوال أكثر من 20 عاما، غير أن الوضع القائم وحاله الصحية ربما أبطأتا تنفيذ هذه الرغبة بعض الشيء.

كنت قد غادرت العراق موفداً من وزارة النفط حيث كنت أعمل وذلك في عام 1998، إذ لم أعد إلى العراق مع الفريق الموفد وغادرت الأردن هرباً إلى ليبيا حيث اعمل وأقيم لغاية الآن. وتركت بقايا الأسرة المحطمة لتواجه الواقع المأساوي في بغداد وما كان باليد من حيلة. باشرت بالعمل في جامعة الفاتح- قسم الجيوفيزياء في عام 1998 واستقلت من العمل لديهم في عام 2000 لأعمل مع الشركات النفطية، والدوافع كثيرة إنما يأتي في مقدمتها المورد المادي الجيد الذي تمنحه الشركات النفطية مقارنة بمرتب الجامعة المتواضع، وحالة التحدي الدائم في التعامل مع المجهول تحت سطح الأرض واكتشاف مكامن نفطية جديدة، والخبرة التي تتراكم بالعمل الميداني مع شركات ذات خبرات متعددة. عملت في البدء مع شركة إسبانية، ثم انتقلت إلى شركة بريطانية، ثم إلى إيطالية منذ عام 2002 ولحد

الآن، ويلوح في الأفق إمكانية استقدامي للعمل في مكاتب الشركة الرئيسة في مدينة ميلان في ايطاليا، ولو تحققت ستكون نقلة نوعية في مسيرتي المهنية.

أما على الصعيد العائلي، فقد تزوجت متأخراً عام 2001 من فتاة عراقية (بغدادية من الكاظمية)، وهي مبرمجة حاسوب وكانت زميلة عمل في وزارة النفط، وعندما خطبتها لم أكن على علم بتفاصيل عائلتها وبالصدفة اكتشف عمي مسلم ميولهم اليسارية عندما زارهم خاطباً ابنتهم لي في عام 2000، إذ لم أكن موجوداً هناك، ومن ثم ظهر بأنهم يعرفون حسن عوينة لأنهم يسكنون في الشارع ذاته الذي كان يسكنه المرحوم إبراهيم الحكاك، فكانت بداية موفقة لإنشاء أسرة جديدة. لأننا أنا وزوجتي لسنا في مقتبل العمر فقد سارعنا إلى إنجاب الأولاد ولنا الآن ثلاثة، الكبرى (زهراء) على اسم والدتي (زهوري) عمرها سنتان وعشرة أشهر وهي نسخة مصغرة من مجموع ما يوجد في صلابة وصلف آل عوينة وآل الحكيم معا، أما الأوسط فهو (أحمد) وأسميته على أسم أعز أصدقائي الذي فارق الحياة في عام 1997 وعمره الآن سنة وسبعة أشهر وهو هادئ الطباع ويذكرني كثيراً بخالي صاحب، وأخيرا جاءت (فرح) وأسميناها تيمناً بالفرح المؤمل في حياة العراقيين وعمرها الآن شهران، وهي نسخة من أختها الكبرى.

أجدني مكرهاً على ختم رسالتي رغم أني أود الاستزادة في الحديث إليكم، على أن رغبتي في الاستزادة من القراءة لكم أكبر وأكبر بكثير، وأملي أن لا يكون ذلك ببعيد.

تحياتي وتحيات زوجتي وتمنياتنا لكم بالصحة الدائمة والموفقية.
فلاح عوينة

الرسائل المتبادلة مع شه مال عادل سليم

الرفيق عادل سليم

إلى الأستاذ العزيز جاسم الحلوائي المحترم
تحية طيبة ...
أما بعد:

سلامي وتحياتي إليك وأتمنى أن تكون بصحة ممتازة وأرجو لك الموفقية والسعادة والصحة الدائمة ..

أستاذي العزيز...أعجبتني كثيراً كتاباتك القيمة عن منظمة "راية الشغيلة"... وعن مواضيع متنوعة أخرى .. ذكريات جميلة ونادرة وعزيزة على قلوبنا جميعاً... ونحن نستذكر أحباءنا ممن فقدناهم قبل الأوان... نعم أولئك الأبطال الذين دفعوا دماءهم الطاهرة ثمن مبادئهم السامية في سبيل الحرية والعدالة الاجتماعية...

لقد كتب عن "راية الشغيلة" كثيراً وجمعت معلومات جميلة ومنصفة عنها من الرفاق الأعزاء أبو فاروق ود كاظم حبيب والمرحوم أبو جبار وبهاء الدين نوري والمرحوم صالح الحيدري وآخرين...

كل ما تكتبه مفيد وجميل جداً ونابع من صلب الحدث وموضوعي ورائع فعلاً... نحن بحاجة إلى معرفة هذه المعلومات والأحداث التاريخية والتجارب الغنية.. يا أستاذي العزيز أرجو منك المواصلة ننتظر منك الكثير... الكثير ثم الكثير...

رفيقي العزيز وأنا أقرأ المقالة عن منظمة "راية الشغيلة" رأيت اسم والدي العزيز الشهيد (عادل سليم) بين أسماء الرفاق...فعلاً كانت صدفة جميلة... جميلة جداً جداً... حيث ألتقي مع الوالد مرة أخرى...

أستاذ جاسم الحلوائي المحترم .. أنا اسمي شه مال أحد أبناء الشهيد عادل سليم... مقيم حالياً في الدانمارك. ومنذ فترة وأنا أجمع ذكريات عن الوالد لغرض تدوينها طبعاً بمساعدة الرفاق والأصدقاء.. أمثال الأعزاء د. كاظم حبيب وأبو فاروق والشاعر أحمد دلزار والفقيد أبو جبار وأبو سرباز وقادر رشيد وآخرين... وحسب ما فهمت من تجربتك مع "راية الشغيلة" أنك تعرف الوالد... لذلك أطلب منك أن تشارك في الكتاب بـ (خاطرة أو ذكريات أو مواقف أو أي شيء... طبعاً إذا كانت لديك رغبة! أرجو أن تستحلب الذاكرة وتعتصرها لأولئك الذين وهبوا أنفسهم للدفاع عن شعبهم وعن قضيتهم العادلة!

ختاما أنتم... نعم أنتم... يا رفيقي... دافعتم بكل إباء وحماس عن قضيتكم العادلة وأدركتم بفطنتكم ومعرفتكم المعنى الحقيقي للحياة وبذلك اكتسبتم القناعة الكافية لأن تقولوا كلمتكم في كل ما رأيتم و عايشتم... في أحلك الظروف لتحقيق الأمل العظيم، أمل الكادحين الحالمين بالعدالة الاجتماعية وإلغاء كل أنواع الاضطهاد والتمييز الطبقي والقومي والديني والمذهبي... أتمنى لكم كل النجاح والموفقية والصحة الدائمة...

ولكم أحر التحايا الرفاقية... والمواصلة.
المخلص لكم دوماً.
شه مال عادل سليم
2 حزيران 2005
كوبنهاكن.

***

عزيزي شه مال

تحيات حارة وتمنياتي لك بالصحة والنجاح.

أشكرك على رسالتك الكريمة وثنائك الجميل. منذ أن قرأت رسالتك البارحة وأنا أعصر دماغي علني أتذكر لقاءً أو حديثاً مباشراً مع الوالد العزيز، ولكن دون جدوى. لقد بقيت معرفتنا الواحد للآخر، من بعيد لبعيد. ولكن بحكم طبيعة مهمتي في سكرتارية اللجنة المركزية، فقد كانت تتجمع وتمر علينا معلومات عن الكادر الحزبي. وما تختزنه ذاكرتي عنه سأقوله لك، وبلا مجاملة.

كان عادل سليم صادقاً وجريئاً وباسلاً ونزيهاً ويتمتع بمستوى فكري وسياسي وأيضاً ثقافي جيد. بإمكانك أن تفخر به فقد كان رجلاً حقيقياً خسره الحزب الشيوعي العراقي والشعب العراقي وهو في عز عطائه ونضوجه. عزاؤنا جميعاً أنه رحل عنا وهو مرفوع الرأس ومنسجم مع نفسه.

مع تقديري واعتزازي
المخلص جاسم الحلوائي
3 حزيران 2005

***

إهداء إلى الرفيق العزيز جاسم الحلوائي المحترم

إلى الرفيق العزيز جاسم الحلوائي المحترم .....

تحية رفاقية حارة ....

أقدم لكم باقة من النرجس الجبلي وبالتحديد من أعالي قمة جبل الجودي الذي استوت عليه سفينة نوح ومنه استعاد الإنسان جذوة الحياة بعد الخراب و الطوفان.. أرجو لكم دوام الصحة والسعادة وأتمنى لكم ولعملك المثمر القيم كل النجاح... تسلمت رسالتكم الرقيقة والقيمة وأشكر شعوركم الرفاقي نحوي، أملي أن أكون محط ثقتكم دوماً...

نعم يا رفيقي فانا استغل وقتي استغلالاً جيداً و مفيداً... أتعلم ثم أتعلم وأتعلم أيضاً،لأنه كما يقول المثل: لا حد للأمل ولا نهاية للعمل... أنا فخور بكتاباتكم القيمة وأتشوق للاطلاع على كتابكم الثمين... أتابع مقالاتك وأستفيد منها جداً... أرسل لك الرسالة مرة أخرى صححت بعض الأخطاء الناتجة عن التسرع عسى أن تكون مفيدة... بصراحة فكرة جيدة وجديدة أن تنشر الرسائل في كتاب ذكرياتك... وصلتني رسالتك الجوابية وسوف أنشرها في كتابي مع رسائل أخرى.

أكرر ما قاله أوسكار روميرو مطران السلفادور: "نحن الذين لنا صوت فلنمثل به من ليس له صوت".

ختاماً أتمنى لك العمر المديد والصحة والسعادة والمواصلة .. نفتخر ونتباهى بكم وبكتاباتكم الثمينة...

تفضلوا بقبول فائق حبي و تقديري...
المخلص لكم دوماً
شه مال عادل سليم
كوبنهاكن
17. شباط. 2006

رسالة أم ظفر وجوابي عليها

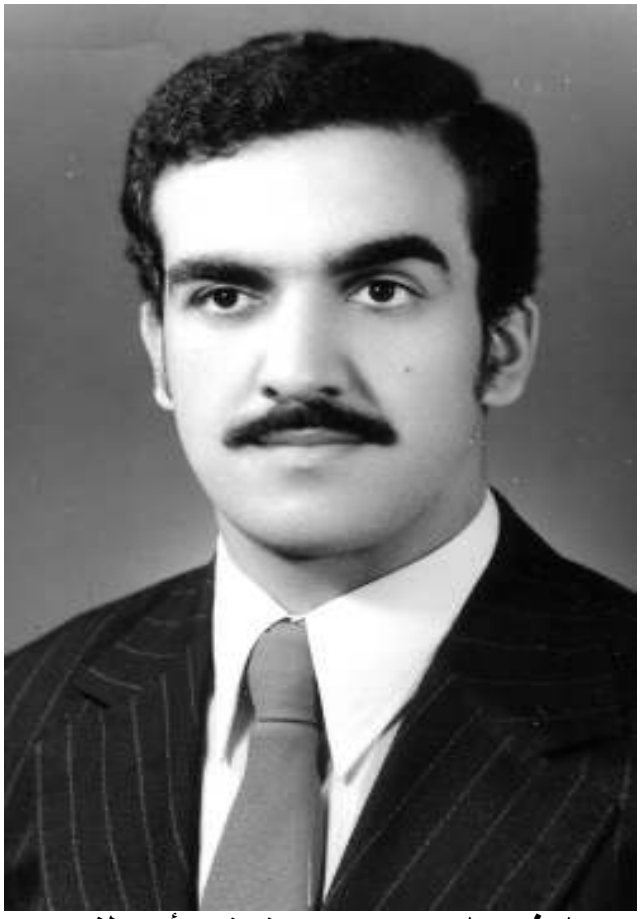

الرفيق الدكتور محمد بشيش (أبو ظفر)

العزيز أبو شروق
تحية طيبة، آمل أن تكونوا بصحة جيدة ومزاج رائق.
لقد قرأت جميع مقالاتك في الإنترنيت وقد أعجبني أسلوبك الخالي من الرتوش الزائدة. لفت انتباهي تسجيل ذكرياتك عن العديد من الرفاق الذين التقيتهم في طريق النضال الطويل والشاق من أجل حرية وطننا وسعادة شعبنا. ولأنني أنوي تأليف كتاب عن الدكتور أبو ظفر، رفيقكم في النضال، فأرجو موافاتي بما لديك من ذكريات أو معلومات عنه سواء في كردستان أو في سوريا.
تمنياتي الصادقة لأم شروق وشروق وسفانه وصفاء.
أم ظفر
20 حزيران 2005

***

العزيزة أم ظفر
تحيات حارة وتمنياتنا لك بالصحة والموفقية. شكراً على رسالتك الكريمة وعلى اهتمامك بما أكتب.

لقد التقيت بالدكتور (أبو ظفر) مرتين، المرة الأولى في كردستان، والثانية في سوريا عندما كنت برفقته مع أطفالكم وكانت أم شروق معي، وكان اللقاء عابراً. وظل عالقاً بذاكرتنا، أنا وأم شروق، رغم مرور أكثر من عشرين عاماً على ذلك اللقاء. إننا نتذكر مبلغ السعادة التي كانت تغمركما، سعادة عاشقين، وليس زوجين، التقيا بعد فراق. كان كل شيء يشع بهجة فيك، عيونك، وجهك، شعرك، كلامك، وحركاتك، أما هو، كعادة الرجال في كل زمان ومكان، حاول ولكن دون جدوى، إخفاء ذلك.

اللقاء الأول كان، هو الآخر عابراً، على سفح جبل كردستاني، بعد معركة (بشت آشان) بأيام. كان الرفيق أبو ظفر مع مجموعة صغيرة من الأنصار يهم بمغادرة الموقع، بعد أن أنجز مهمة طبية، عندما استوقفه الرفيق البطل نزار ناجي يوسف (أبو ليلى) ليعرفني به. توقف بضع دقائق وغادرنا. أول ما جلب انتباهي فيه طوله وقيافته الجميلة ووسامته. وخلفت تلك الدقائق القليلة انطباعاً ظل عالقا في الذاكرة، رغم مرور هذه الفترة الطويلة. إنه عفوي،لا يتكلف في تصرفه، ذكي وسريع البديهة، وخفيف الظل. عندما غادرنا، تحدث لي أبو ليلى عن جرأته وإقدامه وثقافته ومثابرته وجديته وطموحه، وحبه لزوجته وأطفاله. وكلما سمعت أو قرأت عنه لاحقاً كان يعزز انطباعي وما سمعته من الرفيق أبو ليلى عنه. بإمكانك يا أم ظفر أن تفتخري وأن يفتخر أبناؤه بالدكتور (أبو ظفر) فقد كان رجلاً حقيقياً خسره الحزب الشيوعي العراقي والشعب العراقي وهو في مقتبل عطائه ونضوجه. عزاؤنا جميعاً إنه رحل عنّا وهو مرفوع الرأس ومنسجماً مع نفسه.

أم شروق وشروق وسفانه وصفاء يحيونك بحرارة. قبلاتي وقبلات أم شروق للأولاد. مع تقديرنا واعتزازنا بك.

أبو شروق
كوبنهاكن - 21. حزيران. 2005

الرسائل المتبادلة بيني وبين الدكتور رعد طاهر

الرفيق عبد النبي مجيد عباس

الأستاذ الأكرم جاسم الحلوائي
تحية طيبة
تصفحت موقعكم الجميل وقرأت مجموعة من مقالاتكم الشيقة، وكان بينها حديثكم عن مطاردة رجال الأمن لكم في مدينة الكوت. وكان بين المنقذين في تلك اللحظة خالتي منيرة شقيقة الشهيد عبد النبي مجيد عباس وأخت الشهيد عبد الأمير رشاد والأستاذ عبد الرزاق رشاد، هذا فضلاً عن ابنة خالي نورية جوزي ولأنني كنت وقتذاك صغيراً، لذا وددت أن تطلعني على تفاصيل وذكريات أخرى عن فترة اختفائك في الكوت لأنني أجمع مثل هذه المعلومات وأختزنها للتاريخ.

علما بأني عاتب عليكم لأنكم لم تحركوا ساكناً حينما راجعتكم في بغداد عام 1974، إبان الحكم على خالي الشهيد عبد النبي بالإعدام، والذي تم تنفيذه ورحل إلى جوار ربه. لكن الغصة ما زالت بحلقنا ولا نطلب سوى معرفة الحقائق إن وجدت فللشهداء حق علينا وعليكم.. ومعذرة إن كنت قد أثرت موضوعا مضى عليه أكثر من ربع قرن.
تقبل محبتي واعتزازي وأتمنى أن أحظى برسالة منك.. ودمتم.
د. رعد طاهر كوران – الكوت
2 آذار 2006

***

عزيزي الدكتور رعد
تحية طيبة

شكراً جزيلاً على رسالتك اللطيفة وعلى قراءتك لما أكتب من ذكريات.

في الحقيقة لا أعرف ماهية التفاصيل التي تحتاجها. لقد كتبت كلما هو جدير بالمعرفة وتذكرته أثناء اختفائي في الكوت، مع ذلك، إذا كانت لديك أسئلة محددة يمكنك توجيهها لي فسأجيب عليها بكل رحابة صدر، إن أسعفتني الذاكرة. ولا أظن بأننا نعرف أكثر مما تعرفه فيما يتعلق الأمر بالرفيق عبد النبي فزياراتكم له في السجن كانت منتظمة، كما عرفت ذلك من خالتك منيرة.

عتابك أفهمه بخصوص الشهيد عبد النبي، ولكن السؤال هو هل فعلاً كان بمقدور الحزب أن يحرك ساكنا ولم يفعل؟ أقولها للتاريخ، بأني أشك في ذلك. وإليك هذا المثل لكي أضعك في أجواء تلك الفترة. في الوقت الذي ألقي القبض فيه على الشهيد عبد النبي عام 1971 ألقي القبض على الشهيد جواد عطية نسيبي (شقيق زوجتي) وكان جواد أيضاً مع القيادة المركزية، شأنه شأن الشهيد عبد النبي، ولكنه تركهم منذ عام 1969. وبعد مطالبة الحزب وإلحاحه لمعرفة مصير رفاقه المعتقلين، بعد إقامة الجبهة مع البعث، سلم الأخير قائمة للحزب عام 1973 تحوي أسماء مجموعة من الرفاق الذين استشهدوا تحت التعذيب في عهد المجرم ناظم كزار (كنت خارج العراق آنذاك) وأبلغ الحزب زوجتي أم شروق باستشهاد أخيها، وقبره غير معروف لحد الآن.

عزاؤنا هو أن شهداءنا غادرونا دون أن يطأطئوا رؤوسهم لأعتى نظام دكتاتوري عرفه وطننا في تاريخه الحديث. وفي نفس الوقت، أن نشاهد الدكتاتور صدام حسين المجرم في قفص الاتهام ذليلاً لتقتص منه العدالة، بعد أن أصبح مصيره ومصير نظامه في مزبلة التاريخ.
مع تقديري واعتزازي.
المخلص جاسم الحلوائي (أبو شروق).
كوبنهاكن - 2 آذار 2006

***

الأستاذ الأكرم جاسم الحلوائي
محبتي وتقديري

أشكرك جداً على إجابتك الرقيقة الواضحة. لم أكن أبتغي إثارة ما مضى أو تقليب المواجع، فالأمر ليس سوى حالة استذكار مررت بها وأنا أقرأ ذكرياتك عن الكوت.

في عام 1974 زرت الشهيد عبد النبي في سجن أبي غريب - الأحكام الثقيلة الانفرادي- وكان معه من جملة المحكومين بالإعدام ألشهيد ظافر النهر وآخر من قياديي الحزب الديمقراطي الكردستاني كان مرافقاً للملا مصطفى البارزاني يكنى بأبي خالد، رحمهم الله جميعاً، فضلاً عن عبد العزيز العقيلي وآخرين.. وقد تحدثت معهم طوال فترة الزيارة، وأخبرت خالي الشهيد بأن زوجته وابن أخيه رهن الاعتقال في سجن الفضيلية.

وقبل المغادرة كتب الشهيد عبد النبي رسالة صغيرة موجهة إلى جنابكم الكريم يطلب فيها التدخل وإثارة الضجة كي يؤجل تنفيذ حكم الإعدام، ودسها في حذائي حذراً من أزلام النظام في السجن. وطلب من الشهيد (أبو خالد) ضمي إلى أسرته عند الخروج، لأن رجال الأمن طلبوا مني مراجعة الاستعلامات قبل المغادرة، إلا أن الشهيد طلب مني عدم مراجعة الاستعلامات، والخروج مع أسرة الشهيد أبي خالد. وفعلاً تمكنت من الخروج ومعي الرسالة وأوصلتها إلى جنابكم الكريم في المقر في بغداد ثم عدت إلى الكوت. وكان رحمه الله قد أوصاني بالاهتمام بأسرتي ودراستي وعدم الانجراف خلف العواطف وقال بالحرف الواحد:

" لقد سرنا في طريق نعرف سلفاً أن نهايته قد تكون الموت على يد الجلادين. ونحن بانتظار تنفيذ الحكم الذي سنرفع به رؤوسكم عالياً لأننا لم نطأطئ رؤوسنا للجلادين..". كانت الزيارة القادمة إلى سجن أبي غريب يوم تنفيذ حكم الإعدام بالشهيد. وإلى رسالة قادمة أتمنى لك كل خير وموفقية.
أخوكم
الدكتور رعد طاهر كوران.
الكوت 3 آذار 2006

رسالتي وجواب بسعاد محمد حسن عيدان

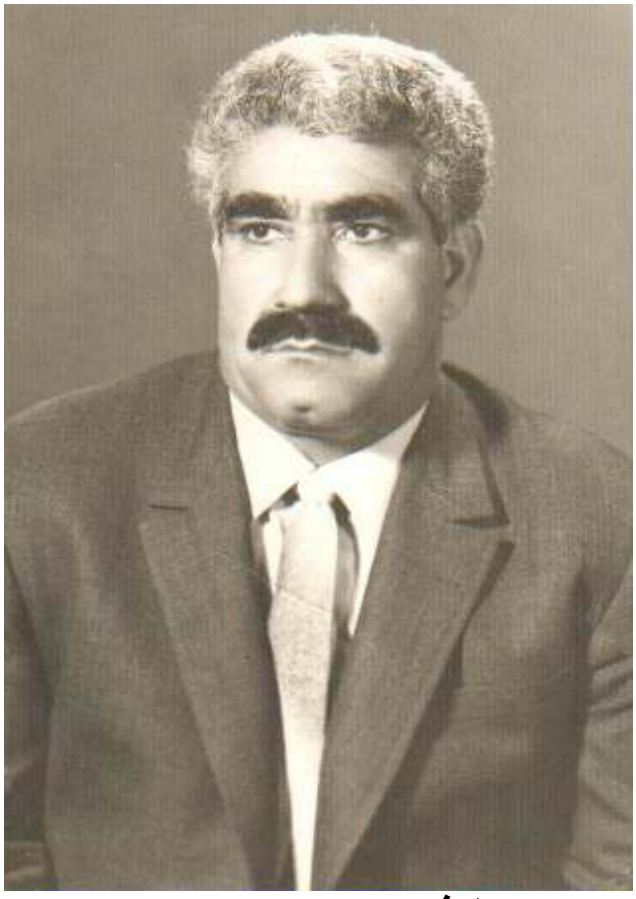

الرفيق محمد حسن عيدان

العزيزة بسعاد
تحية طيبة وتمنيات بالصحة والسعادة والنجاح.

إنني أحد رفاق والدك الرفيق الشجاع محمد حسن عيدان. لقد ورد اسمه في إحدى حلقات المسلسلات التي نشرتها على المواقع الالكترونية والتي تحوي ذكرياتي، وتحديدا في الحلقة الرابعة من مسلسل القمع الوحشي.

يوم أمس حصلت على صورة للوالد ومقال عنه للرفيق عادل حبه، ولاحظت أن هناك بعض الاختلاف في روايتي ورواية عادل، وخاصة في كيفية اعتقال الوالد ومصيره. أرسل لك الروايتين وأرجو منك أن تكتبي لي ما سمعت منه مباشرة، عن متى وكيف جرى اعتقاله ومن كان معه، و أساليب التعذيب التي تعرض لها. وما هي المعلومات التي كان جلاوزة الأمن يطلبونها منه والرفاق الذين التقاهم خلال الاعتقال، وكيفية إطلاق سراحه ومتى، وتاريخ وفاته وكيف؟... وأين؟... وأية معلومة أخرى ترغبين باطلاعي عليها. علما بأنني بصدد نشر ذكرياتي في كتاب وستجد صورة الوالد موقعها الملائم فيه.
وبمناسبة عيد نوروز أهنئك وأهنئ جميع أخواتك وأخاك وأهديكم باقة ورد.
أرجو تزويدي برقم تلفونك وهذا رقم تلفوني ...

مع اعتزازي
المخلص جاسم الحلوائي
22. آذار. 2006

***

العـــــــــم العزيـــــــــز أبـــــــا شـــــــــروق المحتـــــــــرم
سررت جدا،أنا وعائلتي، بمكالمتك التلفونيه، ومن بعد برسالتك. إنني أتوجه بالشكر لك ولكل الرفاق الذين يكرسون الكثير من الوقت والجهد لتوثيق المسيرة النضالية للحزب من خلال رفاق أبطال وهبوا حياتهم من اجل الحزب والوطن. لقد كان المرحوم والدي واحد من هؤلاء الجنود المجهولين الذين كان هاجسهم اليومي وغذاؤهم الروحي مثل الحزب وأهدافه النبيلة في سبيل السمو بمقام الإنسان بصفته أغلى وأثمن رأسمال، هذه المثل التي وهب والدي حياته من اجلها.

إنني بقدر ما ينتابني الحزن والأسى على فقدان هذا الرفيق المناضل والأب الحنون، إلا أنني في نفس الوقت فخورة جدا به وبمسيرته النضالية وبشجاعته و رباطة جأشه.

وأما بخصوص كيفيه اعتقاله والسبب الحقيقي لوفاته، ففي الحقيقة إنني قد تركت العراق في منتصف السبعينات في بعثه دراسية إلى الاتحاد السوفييتي. وبعد بدء الهجمة البعثية الشرسة على الحزب ورفاقه في عام 1977 انقطعت عنى أخبار الأهل. حتى عام 1979، حيث فوجئت من خلال قراءتي لأحد أعداد جريده "طريق الشعب" بأنه قد تم إلقاء القبض على الوالد ومعه محمد كريم فتح الله وسلام الناصري. وبعد ذلك لم اسمع أي شيء عن مصيره حتى منتصف الثمانينات، حيث كنا أنا وعائلتي في الجزائر عندما أخبرت بنبأ وفاته.

ولكن وبعد سقوط الصنم، وعند زيارتي الأولى للعراق بعد حوالي 30 عام من الغربة،عرفت من أخي ثائر ومن أخواتي بأن الوالد رحمه الله، بعد اعتقاله عام 1979 وبعد تعرضه لتعذيب وحشي دام أكثر من خمسين يوم، تم نقله إلى إحدى المستشفيات وهو في حالة يرثى لها بسبب تعرضه إلى أقسى أنواع التعذيب البعثي الفاشي. وبعد فتره من مكوثه في المستشفى، عجز الطب والأطباء عن علاجه وإيقاف التدهور المستمر في وضعه الصحي. وهكذا كفت السلطات الفاشية عن التعذيب، بعد أن يئست من إن تنال من صموده البطولي، وبعد إن تلقى جرعة من مادة الثاليوم كانعكاس لحقدهم الدفين ضده.

وكما يتذكر أخي وأخواتي فقد أصبح أبو ثائر، ذلك الجبل الشامخ، جسداً هائماً وهزيلاً في أيامه وشهوره الأخيرة، بحيث لم يعد بمستطاعه الخروج من باب المنزل. وهكذا وفي منتصف الثمانينيات ذبلت الهامة الشامخة وفي عمر لم يتجاوز

الستين. كانت كل أيامه ولياليه أسطورة من العطاء ونكران الذات من اجل الحزب ورسالته في سبيل بناء عراق حر ديمقراطي سعيد.

أيها العزيز أبا شروق هي ذي بعض المعلومات البسيطة التي استطيع إن أضعها بين يديك لكي تكمل بها صفحات مؤلفك الذي يتطرق إلى شذرات من حياة الجنود المجهولين الذين واجهوا الموت وأقدامهم مغروسة في تربه العراق الطاهرة ورؤوسهم تشق عباب السماء كبرياء وفخراً بمثلهم وقيمهم النبيلة.
مع تحياتي لك وللعائلة الكريمة
وتمنياتي بوافر الصحة والسعادة
وتقبلوا تحيات عائلتي الصغيرة هنا في السويد
وكذلك أخي وأخواتي في العراق
بسعاد محمد حسن عيدان

الرسالتان المتبادلتان بيني وبين حسام عبد الأمير رشاد

عبد الأمير رشاد عضو محلية الكوت (واسط) عام 1961

العزيز أبا شروق
تحية طيبة
كان سرورنا كبيرا ونحن نقرأ ما جادت به قريحتكم من ذكريات ووثائق ثبتموها في كتابكم الموسوم بـ (الحقيقة كما عشتها). ونحن إذ نبارك لكم هذا الجهد الذي يسهم في إثراء المكتبة العراقية بوثائق وحقائق تفتقدها مكتبة الحزب منذ عقود، لأن التاريخ بحاجة إلى من يدونه بموضوعية، فقد كان عملكم هذا بمنتهى الروعة وبخاصة وانتم تؤرخون لرعيل من الشهداء، الذين قدموا أرواحهم قرابين على طريق الحرية والنضال ضد الطغاة، ممن يجهلهم جيل اليوم.

أما بصدد الانتفاضة الفلاحية في منطقة ثلث الجزرة في ريف الحي التي تحدثتم عنها، فقد أغفلها جميع من كتب عن تاريخ الحزب وتاريخ العراق. وبما أنكم سبقتم سواكم في توثيقها، فقد كنا نتمنى إغناء موضوعها بتفاصيل أكثر لأهميتها الكبيرة في تاريخ العراق، وبالإمكان الإفادة من المعلومات المتوفرة عند أسر أبطال الانتفاضة والناس الذين عاصروها. ولأن أخي الدكتور رعد طاهر كوران استعجلني بالكتابة وتوفير الصورة فكنت مضطراً إلى الاختصار، وكنت أتمنى أن يكون كلامنا أوسع للتعرف على تفاصيل تنفعنا جميعا. وأود أن انوه إلى أن أسرة الشهيد عبد الأمير رشاد تكن لكم خالص التقدير، ومع أنكم كنتم عالقين في ذاكرتنا حتى قبل نشر كتابكم الأخير فقد كنا نعرفك باسم (أبو أمين) وبعد صدور الكتاب عرفنا جاسم الحلوائي متمنين لكم الرفعة والتقدم

حسام عبد الأمير رشاد
الكوت 23/ت2006/2

عزيزي حسام
تحية طيبة
سررت كثيرا عندما أخبرني الأخ العزيز الدكتور رعد طاهر كوران بأنك سترسل لي صورة الوالد الرفيق عبد الأمير رشاد وستكتب شيئا عنه، وفي إجابتي له أرسلت تحياتي لك ولأسرتك. اليوم استلمت ما كتبته والصورة.

ذكرت في رسالتك بأنكم "كنتم تتمنون إغناء موضوع انتفاضة ثلث الجزرة بتفاصيل أكثر لأهميتها الكبيرة في تاريخ العراق وبالإمكان الإفادة من المعلومات المتوفرة عند أسر أبطال الانتفاضة والناس الذين عاصروها". أعتقد إن في الوقت متسع لتحقيق ذلك، فأرجو منك والدكتور رعد تقديم العون لجمع مثل هذه المعلومات وسنستفيد منها وننشرها، بهذه الوسيلة أو تلك، وربما، في الطبعة التالية من الكتاب أيضاً.

ولنعد للوالد الآن. لقد التقيت بوالدك في عام 1961 عندما التحق باللجنة المحلية للواء الكوت (محافظة واسط) بوصفه عضوا فيها. في حينها كنا نواجه الوضع الملتهب والمتوتر في ثلث الجزرة، فزُج الرفيق عبد الأمير (أبو حسام) في هذه المعمعة بصفته مشرفا من اللجنة المحلية على منطقة ثلث الجزرة بالتناوب مع الرفيق هلال سلمان العضو المرشح للجنة المحلية. وكان الرفيقان يقومان بحركة مكوكية بين ثلث الجزرة ومدينة الكوت لأشهر عديدة. تولى أبو حسام مهمته بحماس، رغم ما تنطوي عليها من مصاعب ومخاطر، وأنجزها على أكمل وجه. كان أبو حسام دقيقا في عمله، ويعكس الأمور بقدر كبير من الموضوعية، ويعطي تقديراته ويعرض آراءه باستقلالية واضحة. وكان الرفيق يتميز بعدم التطير من المخاطر، محافظا على رزانته وهدوئه في كل الظروف والأحوال، وكأنه جبل. وهذا ما كنت أتعلمه منه. لقد كرس الوالد حياته لقضية نبيلة، قضية حرية الوطن وسعادة الشعب العراقي، وكافح مع رفاقه ، بكل الوسائل، ضد أعتى نظام دكتاتوري على وجه الأرض. ولكم أن تفخروا يا حسام، أنت وأختك نادية ووالدتك وكل أسرتكم به، فلقد قاوم أبو حسام هو ورفاقه، ببطولة نادرة حتى آخر إطلاقة، واستشهد وسلاحه بيده في ريف الحي صيف عام 1971 واستشهد معه محمد صالح محمود (أبو محيسن) سكرتير محلية الكوت وآخرون.

مع حبي واعتزازي

جاسم الحلوائي

24. ت2. 2006

20
الملاحق

ملحق رقم 1

حسن عوينة مناضل .. عرفته عن كثب*

اسمحوا لي في البداية أن أثمن جهود الأحبة الأعزاء القائمين على إدارة غرفة ينابيع لتحويل هذه المناسبة إلى تقليد تحتفي به سنويا، إدراكا منها أن هناك دين في أعناقنا للمناضلين الذين ضحوا بحياتهم، في سبيل سعادة شعبهم وحرية وطنهم ويجب تخليد ذكراهم وكذلك إبراز مآثرهم لاطلاع الأجيال الجديدة عليها للاهتداء والاقتداء بها.

في يوم 7 آذار من عام 1963 أعلن الحاكم العسكري لسلطة الانقلاب الفاشي عن إعدام ثلاثة رفاق، اثنان منهم من أبرز قادة الحزب وهما: الرفيق حسين أحمد الرضي (سلام عادل)، السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي،

ومحمد حسين أبو العيس، عضو المكتب السياسي. أما الثالث فهو الكادر الحزبي المتقدم والشاعر حسن عوينة. وسيكون عوينة مدار حديثي في هذه الأمسية.

وقبل الدخول في الموضوع لا بد من الإشارة إلى أن الرفاق الثلاثة لم يُقدموا إلى أية محكمة ولو صُورية ولم يُعدموا شنقا، وإنما قتلوا تحت تعذيب وحشي باعتراف البعثيين أنفسهم.

ولد الشهيد حسن محسن عوينة عام 1931 في مدينة النجف، وكان والده رجل دين. انخرط عوينة في النضال الوطني والثوري منذ أن كان طالبا في المتوسطة، وقد ساهم في وثبة كانون عام 1948 مساهمة فعالة من خلال إلقاء الخطب والقصائد الحماسية في المظاهرات والاجتماعات الجماهيرية.

تعرض عوينة للاعتقال أكثر من مرة في تلك الفترة مما اضطره إلى مغادرة مدينة النجف ليقيم في بغداد. أعتقل في بغداد في عام 1949، وكان آنذاك حلقة الوصل بين بعض المنظمات خارج العاصمة وقيادة الحزب من خلال محل مكوي في علاوي الحلة في جانب الكرخ، وتعرض عند اعتقاله للتعذيب في دائرة التحقيقات الجنائية سيئة الصيت وكان موقفه صلبا، فتحَمل التعذيب وخرج من الامتحان سالما. حكمت عليه محكمة النعساني العسكرية بالسجن لمدة سنتين قضاها في سجن الكوت. كان سجن الكوت آنذاك بمثابة معهد لتخريج الكادر الحزبي. استفاد عوينة من السجن لتنمية إمكانياته بمساهمته في مختلف الفعاليات بما في ذلك قرض الشعر. ومن شعره آنذاك القصيدة المشهورة التي تحولت إلى نشيد للشيوعيين ومطلعها:

حصن حزب أشاده فهد كيف تسطيع (تستطيع) هدمه قرد

وبعد خروجه من السجن وخلال النصف الأول من الخمسينيات أنتج حسن الكثير من الشعر وشهدت تلك الفترة ذروة عطائه الأدبي وقد نشر الكثير من القصائد في الصحف التقدمية آنذاك كالثبات والعقيدة وغيرهما.

ساهم حسن عوينة مساهمة فعالة في انتفاضة تشرين الثاني عام 1952. ولم يقتصر دوره في هذه المرة على الدعاية والتحريض، كما كان الحال في وثبة كانون، بل تعداه إلى المساهمة في توجيه وتنظيم المظاهرات الجماهيرية والفعاليات النضالية الأخرى. وأصبح عوينة بعد الانتفاضة هدفا ثمينا للأجهزة القمعية فاضطر للاختفاء وترك مقاعد الدراسة.

أعتقل حسن عوينة في بغداد مرة أخرى عام 1955، وكان آنذاك محترفاً للعمل الحزبي، وتعرض للتعذيب فصمد وصان أسرار الحزب. حكم عليه بالسجن لمدة سنتين ونصف قضاها في سجن بعقوبة. وفي هذا السجن التقيت حسن لأول مرة

وليوم واحد فقط، وأعجبت بشخصيته وقد خلف لدي انطباعا حسنا. والتقيت به مرة أخرى، بعد أكثر من سنة في نفس السجن في القسم الانفرادي ولكن لفترة طويلة نسبيا، فنشأت بيننا علاقة ود متبادلة وراسخة.

كان حسن ممثلنا في السجن أمام إدارة السجن ومديرها علي زين العابدين، الذي اشتهرت إدارته بالقسوة والبطش ومصادرة أبسط الحقوق ومنها القراءة والكتابة بما في ذلك قراءة الصحف اليومية أو حيازة ورقة وقلم ، وإخضاع السجن والسجناء للتفتيش الدقيق يوميا وتعريضهم للعقوبات الفردية والجماعية لأتفه الأسباب أو بدون أسباب أصلا. في تلك الظروف الصعبة كان حسن يقوم بمهام خطيرة ومن هذه المهام حصوله على جريدة يومية بشكل سري. وكانت الأدبيات الحزبية تخبأ عنده تحت ملابسه الداخلية لأنه أقل عرضة من الآخرين للتفتيش الدقيق باعتباره ممثلنا، وقد عرفت هذا السر منه بعد ثورة 14 تموز. فقد كان حسن بعيداً عن الثرثرة وحب الظهور.

بعد ثورة 14 تموز جمعتنا لجنة منطقة الفرات الأوسط، كنت أنا عضوا فيها وهو عضوا في مكتبها ويرأس تحرير جريدة "الفرات الأوسط" ومقرها في مدينة الحلة. كان حسن متفتح الذهن لا يتضايق من الاختلاف في الرأي وعادة ما كان يصغي للآخرين أولا ومن ثم يبدي رأيه باختصار ووضوح وقد يملّح رأيه بنكتة تسر الجميع.

عندما انتقلت للحلة كسكرتير للجنة المحلية كنت التقي عوينة يوميا. ولم تدم هذه الفترة أكثر من بضعة أشهر انتقلت بعدها إلى الكوت في حين انتقلت عائلتي مع أخي حميد من كربلاء إلى الكاظمية وأصبح البيت المركز الرئيسي للمراسلة وتوزيع الأدبيات بإشراف حسن عوينة. وكثيرا ما كنت التقي حسن عند زيارتي لعائلتي. وقد ودعني عشية سفري إلى الخارج للدراسة الحزبية في نهاية عام 1961، وكان ذلك وداعنا الأخير. وهكذا يمكن القول بأني عرفت حسن، خلال هذه السنوات، عن كثب.

لم أتذكر بأن علاقتي قد توترت مع حسن في يوم ما، مع أن توتر العلاقة، أحيانا، بين أعز الأصدقاء أمر طبيعي، ولكن أتذكر أن نقاشا حادا حصل بيننا في مدينة الحلة في خريف عام 1959 عندما اختلفنا في الرأي حول قصيدة للشاعر عبد الرزاق عبد الواحد، نشرت في جريدة (صوت الأحرار)، كانت تؤله عبد الكريم قاسم وتصفه بالأوحد الأوحد، وقد اعترضت على ذلك فانسحب النقاش إلى تقييم قاسم و سياسته التي انتقدتها وكنت أميل للتشاؤم من مآلها، ولم يتفق حسن معي في الرأي، فتحمست وارتفع صوتي مشوبا بالتوتر العصبي، وهنا لاحظت بأن حسن خفض صوته دون المستوى العادي وقرأت اللوم في عينيه، فأفقت لنفسي فخفضت

صوتي وندمت لتجاوزي على رفيق كنت أعتبره معلمي. وقد اعتذرت لـه في نفس اليوم عن تصرفي غير الملائم وكان مثلا للتسامح.

امتاز حسن بنزاهته ومصداقيته وكان خفيف الظل سريع البديهة وحاضر النكتة وكانت تعليقاته لاذعة ولكنها مهذبة ، فلم أسمع منه يوما لفظة بذيئة. مع بوادر ارتداد قاسم وانتعاش الرجعية أغلقت جريدة (الفرات الأوسط) وفصل عوينة من نقابة الصحفيين باعتباره (صحفيا طارئا)، وهو الأديب والشاعر ورئيس تحرير جريدة، فأخذ حسن يقدم نفسه لمعارفه وأصدقائه كـ(صحفي طارئ)! متهكما ومدينا الإجراء التعسفي ضد حرية الصحافة والرأي.

تزوج حسن من زهور الحكيم وأنجبت منه ولدا أسمياه فلاح. تبادلت مع الدكتور فلاح الرسائل عندما كنت أكتب ذكرياتي، وقد نشرت تلك الرسائل على مواقع الانترنيت ولا تزال في أرشيفها، وتضمنها كتابي الذي صدر مؤخراً عن دار الرواد في بغداد تحت عنوان "الحقيقة كما عشتها". وقد جاء في نهاية جوابي على إحدى رسائله ما يلي:

" فرحنا كثيرا، أنا وأم شروق، عندما قرأنا عنوانك وعرفنا أنك أنهيت تعليمك بمستوى دكتور في فرع علمي. فلا عجب، فهذا الشبل من ذاك الأسد. ومن حق أم فلاح أن تفتخر بابنها.

لا أظنني سأضيف جديداً لمعلوماتك لو كتبت لك انطباعاتي عن والدك، لأنني متأكد بأنك سمعت ذلك من غيري. فإن رقة أبو فلاح وشاعريته وذكاءه المتقد وانسجامه مع نفسه وصراحته وتواضعه الجم كان واضحاً للجميع. لقد كان حسن عوينة إنساناً رائعاً وعظيماً."

المجد والخلود للشهيد حسن عوينة وجميع شهداء الحزب والحركة الوطنية التقدمية.
المجد والخلود لجميع ضحايا الإرهاب وفرق الموت في العراق.
شكرا لحسن إصغائكم

---

* نص الكلمة التي ألقيت في غرفة ينابيع مساء 14 شباط 2007، بمناسبة يوم الشهيد
الشيوعي. ونشرت الكلمة في الصحف الالكترونية وكذلك في جريدة "طريق الشعب"

ملحق رقم 2

في الذكرى الثانية والسبعين لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي *

مساء الخير للجميع، وكل عام وأنتم بخير. شكراً جزيلاً للرفاق الأعزاء القائمين على إدارة غرفة ينابيع، غرفة الأنصار الشيوعيين، لمبادرتهم والتفاتتهم الكريمة هذه. شكراً جزيلاً للكلمات الجميلة التي قيلت بحقي وبحق رفاقي في التكريم، وفي برقية اللجنة التنفيذية لرابطة الأنصار الشيوعيين. شكرا لباقات الورود والكلمات الطيبة التي أرسلها الحضور على الشاشة.

بودي أن أهنئ بحرارة جميع الحاضرين في غرفة ينابيع بهذه المناسبة العزيزة على قلوب الجميع، مناسبة الذكرى السنوية الثانية والسبعين لميلاد حزبنا الشيوعي العراقي العظيم، وأهنئ اللجنة المركزية ومن خلالها جميع الشيوعيين العراقيين وأصدقاء الحزب وجماهيره وكل الذين كانوا يوما ما أعضاء في هذا الحزب أو متعاطفين معه ولا زالوا يعتزون بموقفهم ذاك، وغير نادمين عليه.

إن عظمة حزبنا الشيوعي العراقي تتجلى، فضلا عن علمانيته وتحضره وإيمانه بمساواة المرأة بالرجل وبحق القوميات في تقرير مصيرها بنفسها وغيرها من الأهداف النبيلة، التي قدم في سبيل تحقيقها تضحيات جسيمة. تتجلى هذه العظمة، أولا وقبل كل شيء، بإخلاصه وحبه غير المحدودين للوطن، لعراقنا الحبيب ولشعب العراق بكل قومياته وأعراقه وأديانه ومذاهبه، بدون أي استثناء. فلا غرو أن تأتي عبارة " أيها الرفيق أحب شعبك ووطنك " في ورقة منح العضوية والتي تتضمن وصايا الحزب لأعضائه الجدد . من المعروف إن هذه الوصايا وضعها الرفيق الخالد فهد باني الحزب ومؤسسه الفعلي وهو الذي قال في محاكمته: "كنت وطنيا وعندما أصبحت شيوعيا أخذت أشعر بمسؤولية أكبر تجاه شعبي ووطني". ويؤكد النظام الداخلي الجديد للحزب على: "إن الحزب الشيوعي العراقي حزب وطني مستقل، يضع المصالح العليا للشعب والوطن فوق أية مصلحة أخرى".

وانطلاقا من المصلحة العليا للوطن، وليس من أي اعتبار أيديولوجي جامد ، ساهم الحزب بقوة، ومنذ اليوم الأول، وبدون أي تردد، في العملية السياسية التي تستهدف إقامة نظام ديمقراطي اتحادي مزدهر في العراق. ولم تغريه الشعارات والادعاءات الوطنية السطحية والشكلية بسبب القراءة الخاطئة لظروف ما بعد سقوط النظام الدكتاتوري، وتواجد القوات الأجنبية على ارض الوطن، ولا تلك الشعارات الزائفة والتي همها الأول والأخير إعادة الحياة إلى النظام المقبور، الذي أذاق الشعب العراقي الأمرين، والذي ذهب، وللأبد، إلى مزبلة التاريخ. وراح الحزب يعمل بإخلاص من أجل تحقيق الهدف المذكور، مدركاً بأن الوصول إلى هذا الهدف يتطلب السعي الحثيث لتحقيق مختلف أشكال التعاون الممكنة والمجدية مع جميع القوى الديمقراطية العراقية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

إن إخلاص الحزب الذي لا تشوبه شائبة للعملية السياسية وأهدافها النبيلة، من شأنه أن يحول الحزب تدريجيا إلى أمل وملاذ لأعداء الإرهاب وغول الطائفية البغيضة، التي تحاول إعادة العراق قروناً إلى الوراء ومثلها الأعلى النظام الشمولي الرجعي في إيران، وفي هذا الهدف فهي لا تختلف إلا بالتفاصيل عن الإرهابيين الزرقاويين الذين مثلهم الأعلى نظام طالبان المتخلف والمقبور.

الحضور الكرام، إسمحوا لي بهذه المناسبة أن أهنئ رفاقي وأصدقائي الأعزاء عبد الرزاق الصافي (أبو مخلص) والدكتور كاظم حبيب (أبو سامر) وعادل حبة (أبو سلام)، رفاق درب مليء بالأشواك والورود وبالانتصارات والهزائم المؤقتة، ولكنه درب مجيد ومشرف بدأناه قبل أكثر من نصف قرن ولازلنا عليه سائرون وفاء لوطننا وشعبنا وشهداء حزبنا والحركة الوطنية والديمقراطية. متمنيا لهم الصحة والعمر المديد ومزيدا من العطاء في خدمة شعبنا الغالي ووطننا الحبيب.

شكرا لحسن إصغائكم

---

* نص الكلمة التي ألقيت في حفل التكريم الذي أقامته غرفة ينابيع الصوتية في شبكة البالتوك على الانترنيت لأربعة من قياديي الحزب الشيوعي العراقي القدامى مساء يوم 31 آذار 2006.

ملحق رقم 3

هل كانت تحالفات الحزب الشيوعي العراقي كارثية؟*

نشرت مواقع الصحف الالكترونية مقالا في 2 آذار الجاري تحت عنوان "اليسار العراقي والتحالفات السياسية المستقبلية "بقلم الكاتب ماجد لفته العبيدي. بدأ الكاتب مقاله بالفقرة التالية :

" تحتل قضية التحالفات السياسية والاجتماعية مساحة واسعة من الخطاب السياسي والأيديولوجي لليسار العراقي ، هناك العديد من الدراسات والبحوث والتقييمات التي كتبت عنها ، ويرجع الاهتمام بهذه التجربة إلى ما خاضه اليسار من تجارب تحالفيه شكلت محطات هامة في تاريخ العراق السياسي ، كانت أبرزها جبهة الاتحاد الوطني عام 1956 (الصحيح 1957) والجبهة الوطنية عام 1973، وكانت نتائجها سلبية وكارثية على حركة اليسار، فكان شباط الأسود 1963 نهاية للأولى، وجرائم تصفية الشيوعيين والتقدميين في عام1978 نهاية الثانية".

الاستنتاج المنطقي الذي يخرج به المرء من الفقرة أعلاه، إذا صح رأي الكاتب، هو ضرورة تجنب الحزب الشيوعي العراقي الدخول في أي تحالف لتجنب نتائجه الكارثية، في حين ينهي الكاتب مقاله بما يخالف الاستنتاج المنطقي المذكور على طول الخط.

وبصرف النظر عن آراء الكاتب الصحيحة في نهاية المقال وفي سياقه فإنني سأتوقف عند حكم الإعدام الذي أصدره الكاتب على "جبهة الإتحاد الوطني" و"الجبهة الوطنية والقومية التقدمية" مع التركيز على الجبهة الأخيرة لأنها موضع خلاف واسع في ما بين المعنيين بالشأن العراقي. وقبل الدخول في الموضوع أود الإشارة إلى أن الكاتب تجاهل تجربة "الجبهة الوطنية"، بالرغم من أن أهميتها أقل من التجربتين المذكورتين، تلك الجبهة التي تشكلت عام 1954 من أجل خوض الانتخابات البرلمانية في عهد وزارة أرشد العمري وتمكنت من إيصال 11 نائبا إلى مجلس النواب. وقد أرعبت هذه النتيجة النظام الملكي والرجعية مما حدا بنوري السعيد الذي خلف أرشد العمري في رئاسة الوزارة إلى حل مجلس النواب بعد أول جلسة له.

وبعد أن اعتبر الكاتب أن نتائج أبرز تحالفات الحزب كانت كارثية عاد واستدرك ليشير إلى أن تلك النتائج لم تكن كارثية بالكامل وذكر بعض النتائج الإيجابية وكأنها أعراض جانبية لتلك الكوارث. لنتفحص الآن استنتاج الكاتب القائل: " كانت أبرزها جبهة الاتحاد الوطني عام 1956 والجبهة الوطنية عام 973 ، وكانت نتائجها سلبية وكارثية على حركة اليسار، فكان شباط الأسود 1963 نهاية للأولى، وجرائم تصفية الشيوعيين والتقدميين في عام 1978 نهاية الثانية."

لم تكن نهاية جبهة الإتحاد الوطني في شباط الأسود عام 1963، كما يذكر الكاتب، فقد انفرط عقد الجبهة بعد انتصار ثورة 14 تموز 1958 مباشرة، وهناك إجماع لدى المؤرخين تقريباً بأن الجبهة كانت القاعدة السياسية للثورة، وهو أيضا رأي الحزب الشيوعي المثبت في وثائقه. وكان لهذه الجبهة نواقصها، ولكن أي من تلك النواقص لم يكن له علاقة بنجاح انقلاب شباط الفاشي، الذي جاء تتويجا لصراع حاد بين القوى السياسية الذي بدأ غداة الثورة والذي شطر المجتمع إلى شطرين، الشيوعيين والديمقراطيين من جهة، والقوميين وفي مقدمتهم البعثيين من جهة أخرى. وشرع الصراع حول الوحدة العربية والاتحاد الفيدرالي. وجاء الانقلابيون إلى السلطة بقطار أمريكي على حد تعبير علي صالح السعدي الأمين العام لحزب البعث في العراق إبان انقلاب شباط.

صحيح إن نهاية الجبهة الثانية تزامنت مع القمع الوحشي الذي تعرض له الشيوعيون وأنصارهم في عام 1978. فعندما طالب الحزب في بيان اللجنة المركزية المنعقد في آذار 1978 بتطبيق بنود الجبهة وفي مقدمة ذلك المطالبة

بإنهاء فترة الانتقال وإجراء انتخابات لجمعية تأسيسية تضع دستوراً دائماً للبلاد، جن جنون حزب البعث الذي طالب الحزب بسحب البيان، وقد رفض الحزب الطلب بحزم، فاتخذ حزب البعث من موقف الحزب الشيوعي حجة للتخلص من التحالف، الذي أصبح عبأ عليه، حسب تعبير الدكتاتور المقبور صدام حسين في أحد اجتماعات اللجنة العليا للجبهة آنذاك بقوله : "إن تحالفهم مع الحزب الشيوعي العراقي لا يشكل قوة لهم وإنما يشكل عبئاً عليهم، فدول المنطقة والدول الغربية غير مرتاحة من هذا التحالف." وقد أشار إلى ذلك الفقيد الدكتور رحيم عجينة ممثل الحزب في سكرتارية الجبهة ولجنتها العليا في الصفحة 134 من كتابه الموسوم "الاختيار المتجدد".

لم يأت القمع الوحشي عام 1978 نتيجة لعقد الجبهة بل نتيجة لانفراطها وذلك لعدم التزام البعث بميثاقها. ولم يُخطّئ الحزب قيام هذه الجبهة من حيث المبدأ، بل خطأ السياسات التي رافقتها وأعقبتها والتي يتحمل الحزب قسطا من مسؤوليتها حسب تقييم الحزب للتجربة التي أقرت في مؤتمره الرابع المنعقد في عام 1985، وهو التقييم الذي أشاد الكاتب به. وقد أشار الكاتب ماجد لفتة العبيدي إلى تلك الأخطاء ونتائجها وخلص إلى "... الأمر الذي بث روح الخدر واضعف اليقظة وفرط بسرية العمل، مما اضعف الحزب واليسار العراقي ومنعه من التراجع المنظم عن التحالف وعرض أكثر من 150 ألف شيوعي وديمقراطي عراقي للقمع." هذا القول لا يخلو من الصحة ولكنه ينطوي على الكثير من المبالغة، هذه المبالغة، المضرِّة بمصلحة الحزب واليسار ومصلحة الوطن، وهي مبالغة شائعة في أوساط معينة ويتأثر بها الكثير من المخلصين مما يستوجب التوقف عندها.

من المعروف أن الحزب تعرض إلى حملة قمع وحشية عندما كان الجلاد الوحشي ناظم كزار مديرا للأمن العام. وقد بدأت الحملة في ربيع 1970 وتوقفت في خريف 1971. لم تكن الجبهة قائمة بعدُ، حيث إنها قامت في عام 1973، ولم يكن الحزب قد تبنى موضوعة التوجه الاشتراكي، فقد تبناها في مؤتمره الوطني الثالث الذي عقد في عام 1976. كانت يقظة الحزب عالية، فقد توقع الحزب توسع الضربة واتخذ لها تدابير صيانة إضافية. ومن تلك التدابير، القرار الذي أتخذ في اجتماع اللجنة المركزية الذي انعقد في منطقة بالك ـ أربيل في آذار عام 1971 والقاضي بإبقاء كل من الرفاق كريم أحمد الداود عضو المكتب السياسي وبهاء الدين نوري وكاتب هذه السطور عضوي اللجنة المركزية في كردستان، في الأراضي المحررة، غير الخاضعة لسيطرة السلطة. وانضم إليهم لاحقاً الرفيقان مهدي عبد الكريم و شاكر محمود، عضوا اللجنة المركزية. وكانت جميع تنظيمات الحزب سرية وغير مخدرة، فما كانت نتيجة حملة القمع الوحشية تلك؟

استولت السلطة على جميع أجهزة الطباعة المركزية واعتقلت ثابت حبيب العاني العضو المرشح للمكتب السياسي، وكذلك عامل النفط توفيق أحمد عضو اللجنة

المركزية الذي لم يستطع الصمود أمام التعذيب فأسقط سياسيا. وحطمت منظمة مدينة بغداد تحطيماً تاماً. وتواصلت الحملة الإرهابية ووصلت إلى كردستان، حيث أختطف في كركوك الرفيق علي حسين البرزنجي عضو اللجنة المركزية و40 رفيقاً ومطبعة الحزب ونقلوا إلى قصر النهاية.

لقد أعتقل وعذب في هذه الحملة الإرهابية آلاف الشيوعيين تعذيباً وحشياً واستشهد الكثيرون منهم تحت التعذيب أو الاغتيال من بينهم محمد الخضري وعلي حسين البرزنجي وماجد العبايجي ومشكور مطرود وحسين نادر وأحمد رجب وعبد الله صالح ومحمد حسين الدجيلي وعبد الأمير رشاد وجواد عطية. وقبل هذه الحملة جرى اغتيال الشهيد ستار خضير عضو اللجنة المركزية، واستشهد تحت التعذيب الكادر العمالي عبد الأمير سعيد. ولم يكن نهج الحزب السياسي المعتمد سوى المعارضة غير المطلقة وبالوسائل السلمية، والتي كانت مقتصرة على مطبوعات الحزب السرية وصلاته المباشرة بالجماهير. ولم تتوقف الحملة إلا بعد أن طرح حزب البعث مشروع ميثاق العمل الوطني وأعلن الحزب الشيوعي بأن المشروع قابل أن يكون أساسا للنقاش ومشيرا إلى العديد من التحفظات عليه. كان الأمر مطروحاً أمام الحزب الشيوعي على الشكل التالي، أما "التنازل" عن استقلاليته السياسية والفكرية إلى هذا الحد أو ذاك، وعند ذاك يكون لديه تنظيمات حزبية ودائرة محددة يتحرك فيها علنا، وأما حزب شيوعي بلا تنظيمات حقيقية. لأن أي تنظيم سياسي سري في نظر البعث هو تنظيم متآمر.

وبما أن الخيار الثاني كان يعني موت الحزب سريريا في ظروف الإعلان عن تأميم النفط و صدور جملة من القوانين والإجراءات التقدمية في الداخل، تصب في مصلحة مختلف فئات الشعب بما في ذلك العمال والفلاحين. وإقامة علاقات وديّة مع الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية. والاعتراف بجمهورية المانيا الديمقراطية، وعقد اتفاقيات اقتصادية وفنية مع الاتحاد السوفييتي لمساعدة شركة النفط الوطنية في استثمار الحقول النفطية في شمال الرميلة وأرطاوي استثمارا مباشراً، وتطوير عدد من الاستثمارات والفعاليات الأخرى في هذا الميدان. لكل هذه الأسباب ولكون نتائج حملة ناظم كزار كانت ماثلة أمام الحزب، فاختار الحزب الطريق الأول ساعيا أن لا تكون التنازلات خطيرة، وعوّل لاحقا في تحقيق آماله وأحلامه على إمكانيات وآفاق غير واقعية. ووجد في الموضوعة السوفيتية (التوجه الاشتراكي)، والتي عارضها لمدة تربو على عشر سنوات، ضالته.

وعندما طالب الحزب الشيوعي العراقي قيادة حزب البعث بتطبيق بنود ميثاق الجبهة مع انتقادات ودية ولكن جدية، جن جنون البعث، كما أسلفت. وصار الحزب أمام أمرين، أما أن يسحب بيان اللجنة المركزية الصادر في آذار 1978 ويتحول إلى ذيل ذليل للسلطة ويسكت حتى على إعدامات رفاقه، وأما أن ينقذ نفسه سياسيا ويقود تراجعا حتى وإن كان غير منظما، فاختار الطريق الأخير.

من السهل القول "... ومنعه من التراجع المنظم عن التحالف وعرض أكثر من 150 ألف شيوعي وديمقراطي عراقي للقمع." ولكن من الصعب الإجابة على السؤال كيف كان من الممكن تجنب ذلك؟

بادئ ذي بدأ، يجب أن نعترف بأن القسم الأكبر من العدد المذكور (وهو عدد مبالغ فيه وسأوضح ذلك بعد قليل) جاء نتيجة نهج سياسي معين هو نهج التعاون والتحالف والجبهة وخلال تلك الفترة التي "أغلقت الأبواب أمام انسحاب الحزب من الجبهة بشكل منظم"، وكان البديل عن هذا المصير هو لا جبهة ولا تنظيمات ولا انسحاب، منظم أو غير منظم. إن هامش التكتكة على هذين الخيارين، كان موجودا (تعاون بدون جبهة) ولكنه محدوداً وقد استخدمه الحزب لفترة معينة ولكن لم يكن الاستمرار به ممكنا بسبب الخلل في توازن القوى بين حزب حاكم بعقلية انقلابية مؤامراتية ويعتبر الحزب الشيوعي أخطر منافسيه، وبين حزب سياسي يعتمد على الجماهير، هذه الجماهير التي لا يمكن كسبها بدون سياسة واضحة.

وهنا سأوضح المبالغة التي أشرت اليها. منذ بداية عام 1974 كنت سكرتيرا للجنة التنظيم المركزية حتى انفراط عقد الجبهة نهائيا، وكان موقعي يسمح لي بمعرفة أي شيء عن التنظيم. كانت عضوية الحزب(عضو ومرشح) عشية القمع الوحشي عام 1978 ثلاثون ألف ومثلهم متبرعون ثابتون المجموع 60 ألف. وقد كنت على رأس المنظمات حتى نهاية عام 1979 ولم أسمع بديمقراطيين تعرضوا للقمع في تلك الفترة، وإن وجدوا فهم أفراد. كانت الحملة مدروسة ومركزة على التنظيم الحزبي للشيوعيين. وقد كتبت عن ذلك موضوعا مستقلا في كتابي الموسوم " الحقيقة كما عشتها" تحت عنوان "القمع الوحشي"

نعود إلى موضوعنا إذا كان الحزب الشيوعي العراقي، بعد مجيء حزب البعث للسلطة في عام 1968، أمام طريق مسدود. فهل كان أمام الحزب حل ما؟ أجل، لو كان الحزب بأيديولوجيته وطبيعته ووعيه وبرنامجه الراهن الذي يعتمد الديمقراطية البرلمانية والتعددية والتداول السلمي للسلطة ولا يطرح موضوعة دكتاتورية الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي شرطا لانجاز المهام الوطنية الديمقراطية والانتقال إلى الاشتراكية، هذا الطرح الذي غذى شرعنة دكتاتورية الآخرين ، لاختلف الأمر، وتصّور لو كان الحزب بمواصفاته الجديدة المذكورة قد خاض الصراع، بعد ثورة 14 تموز عام 1958، على هذا الأساس، لكان مصير العراق مختلفا تماما. نخلص من ذلك أن التجديد الذي باشره الحزب في بداية التسعينيات وأصبح حقيقة معاشة في مؤتمره الخامس عام 1993، جاء متأخرا كثيرا. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هل كان الحزب بمقدوره القيام بذلك قبل الزلزال الذي هد الأنظمة الاشتراكية السابقة وأنهى الحرب الباردة ودفع الجميع تقريبا للتجديد؟ كلا بالتأكيد.

إن الحكم بالإعدام على أبرز تجربتين في تحالفات الحزب السياسية وتحميل الأولى مسؤولية كارثة وطنية ألا وهي انقلاب شباط الفاشي، وتحميل الثانية كارثة القمع الوحشي عام 1978، من شأنه أن يزحزح ثقة المواطن العراقي بأي تحالف يقوم به الحزب الشيوعي، ومن الخطورة بمكان تعميم مثل هذه الاستنتاجات الخاطئة ، لما ينجم عنها من إسقاطات غير صحيحة.

---

*مقال نشر في الصحف الاليكترونية في 15 آذار 2007 وأعيد نشره في جريدة "طريق الشعب" الغراء

21

قراءات في الكتاب وتعقيب المؤلف عليها

نشر أكثر من كاتب قراءته للكتاب، فقد نشر الكاتب يوسف أبو الفوز، مشكورا، قراءته في مقال مكون من ثلاث حلقات في الصحف الاليكترونية في الأيام 18، 20، 26 آذار 2007 وموزعة عل 11 فقرة وتحت العنوان التالي:

جاسم الحلوائي في رؤيته للحقيقة

يوسف أبو الفوز

1

لا تزال في تأريخ العراق الكثير من الصفحات الغامضة التي تحتاج إلى باحثين موضوعيين ، لإماطة اللثام عنها وكشفها ومحاكمتها بشكل علمي، لتتمكن الأجيال الجديدة من بناء الذات بشكل سليم واللحاق بركب الحضارة التي فاتنا قطارها. وتشكل كتب السيرة والمذكرات أحد المصادر المهمة للباحثين للتعرف على الكثير من الأسرار والأحداث والوقائع لاستخلاص الدروس. ولكننا في العراق وبمرور سريع على كتب السيرة والمذكرات المنشورة ، يمكن إن نفهم جيدا التحذير الذي أطلقه الباحث العراقي الدكتور رشيد الخيون في مقال له نشر على العديد من المواقع الاليكترونية " على الباحث عند الاضطرار للرجوع إلى المذكرات وخاصة مذكرات الساسة بشكل عام عليه إن يتعامل معها بحذر" ، الذي يدفع بالدكتور الخيون لهذا الموقف هو حقيقة كون "المذكرات التي قرأناها للساسة والأدباء العراقيين هي نوع من تنزيه الذات.. من يكتب مذكراته يسردها وكأنه لم يرتكب

خطأ في حياته أو طفولته أو أثناء ممارسته للسياسة.. هذا عيب كبير في المذكرات" .

حول أسلوب كتابة السياسيين العراقيين لمذكراتهم ، وفي مطلع عام 1990 ، في مدينة موسكو ، أتيحت لي مرة فرصة النقاش مع السيد باقر إبراهيم ، العضو البارز ، ولفترة طويلة ، في قيادة الحزب الشيوعي العراقي ، ويعد من أبرز مهندسي ومنظري تجربة التحالف مع حزب البعث ، بعد أن قدم لي فصولاً من مذكراته ، التي نشرها فيما بعد ، وبعد انتهائي من قراءة الفصول المذكورة ، لم أجد فيها جوابا على كم من الأسئلة ، التي تتعلق بالموضوعات التي تناولتها المذكرات ، والتي ترد في بال أي عراقي ، ناهيك عن شيوعي تواق للمعرفة وسط أجواء اضطراب فكري تجتاح العالم الماركسي والأنظمة الشيوعية في حينها ! حضر النقاش يومها أيضا السيد عدنان عباس "أبو تانيا"، وكان عضوا في اللجنة المركزية للحزب، وكان السؤال الأبرز الذي كررته أمام الحضور وربما أغاض البعض بشكل ما : أين مسؤولية كاتب المذكرات من كل ما يتحدث عنه من أخطاء وكوارث التي عايشها وكان من صناع القرار فيها ؟

هذا السؤال يبرز في بال كل قارئ يتصفح ويقرأ كتاب أي قائد سياسي ، ولقد تناول كتاب عديدين بالنقد كتب المذكرات للقادة من التيار القومي ، وخصوصا البعثيين ، والذين لا نجد فيها أي إشارة لمراجعة الأخطاء وتحمل جزء من مسؤولية ذلك ، ولكن بعض من قادة اليسار العراقي لا تختلف كتبهم عنها من حيث المبدأ والأسلوب ، مع الفارق في الموقع النضالي ، فلو راجعنا بعض من مذكرات القادة السابقين للحزب الشيوعي العراقي سنجدها ليس سوى محاولة تصفية الحسابات ونشر غسيل ، ومحاولة تنزيه الذات ، بحيث يدفعك الأمر للتعامل بحذر وتشكك بكل ما ورد في الكتاب ، ويظل في بالك السؤال الأزلي : إن كان الجميع بعيدين عن الخطأ وأبرياء ومنزهين ، من كان المسؤول عن كل النتائج السلبية في العمل ؟

2

عن دار الرواد ، صدر في بغداد مؤخرا ، للمناضل الشيوعي والكاتب السياسي جاسم الحلوائي (المعروف باسم أبو شروق) كتاب "الحقيقة كما عشتها"، وهو ينتمي إلى كتب السيرة الذاتية والمذكرات . والكاتب ، المولود في كربلاء عام 1932 ، عرف كواحد من القادة المخضرمين للحزب الشيوعي العراقي وتحمل كما تشير المذكرات مسؤوليات عديدة ومهمة داخل مؤسسة الحزب الشيوعي العراقي ، فهو كادر حزبي متقدم لفترات طويلة ، وترشح إلى اللجنة المركزية في أب عام 1964 وصار عضوا فيها ، وبقي يتحمل هذه المسؤولية حتى 1985، وعضو سكرتاريتها لأعوام 1973 - 1978 ، وكان لفترات مختلفة مسؤولا للجنة التنظيم المركزية "لتم"، وكان عضوا في العديد من اللجان الحزبية التي لعبت دورا أساسيا في رسم سياسة الحزب، وربما من أهمها اللجنة التي وضعت مشروع برنامج الحزب ودرست موضوعة التطور اللا رأسمالي قبيل مؤتمر الحزب الثالث

عام 1976 وأوصت بتبنيها نهجا فكريا للحزب، قبيل مؤتمر الحزب الثالث عام 1976. هذا إضافة إلى قيادته العمل التنظيمي في بعض منظمات الحزب خارج العراق ومنها منظمة الحزب في طهران حيث فصل الكتاب في الحديث عن الوضع السياسي في إيران خلال السنوات الأولى العاصفة بعد الثورة الإيرانية. والرفيق جاسم الحلوائي معروف كقائد جماهيري ميداني خبر جيدا ظروف وتقاليد العمل السري ومصاعب الاختفاء وقيادة النضالات الجماهيرية المطلبية العلنية والنضال الحزبي التنظيمي السري، فشغل في تلك الظروف سكرتارية جميع اللجان المنطقية العربية في العراق، أي بغداد والجنوبية والفرات الأوسط والمنطقة الوسطى التي كانت تضم محافظات الكوت والدليم وديالى وأطراف بغداد. وهو في كل هذا تعرض إلى امتحانات قاسية ومرة ، من الملاحقة والمطاردة والاعتقال المتكرر في ظروف قاسية نفسية وجسدية، والتعرض إلى التعذيب البشع وعرف عنه الصلابة والصمود في وجه جلاديه ، وليس ختاما هناك أيضا العديد من قصص الخيال الشعبي والنوادر المروية عنه بين الناس من باب الحب والتقدير لمسيرته النضالية، خصوصا قصص هروبه من السجن وإفلاته المتكرر من قبضة السلطات الحاكمة ومحاولات القبض عليه من قبل جلاوزة وشرطة الأنظمة . وذلك كله أهل الرفيق جاسم الحلوائي ليكون شاهدا على كثير من الأحداث الوطنية والسياسية في العراق والمنطقة ، إضافة إلى عمله ونشاطه في مركز القرار لواحد من أعرق الأحزاب السياسية العراقية، مما يجعل شهادته مهمة لنتعرف على التحولات والتغيرات والعلاقات داخل مؤسسة الحزب الشيوعي العراقي .

جاء الكتاب من 288 صفحة من القطع الكبير وتوزع على 19 فصلا حملت عناوين رئيسة ، غطت مسيرة نضالية حافلة امتدت لأكثر من نصف قرن . غلاف الكتاب كان من تصميم الفنان المبدع فيصل لعيبي ، الذي قدم تصميما جميلا مبتكرا لكن للأسف لم يتم إخراجه بشكل مناسب ، وحمل الغلاف الأخير كلمة للمناضل عادل حبه (أبو سلام) ، وهو من رفاق الكاتب في رحلته النضالية في قيادة الحزب الشيوعي العراقي . إلى جانب فصول الذكريات ، التي رواها الكاتب وشملت تفاصيل تجربة الكاتب في العمل الحزبي ، حوى الكتاب فصولا ملحقة ، منها فصلا حوى رسائل متبادلة بين الكاتب وذوي بعض الشهداء وهي مبادرة جديدة، وفصلا يعتبر من الأهمية رغم قصره (26 صفحة) إلا أنه حوى مراجعة فكرية مهمة أجراها الكاتب للعديد من مفاصل عمل الحزب الفكرية ، وجاءت كأجوبة على أسئلة قدمها طالب أجنبي في كلية الدراسات الشرقية في لندن ، وتوزعت تحت عناوين (حقيقة علاقة القيادة السوفيتية بقيادة الحزب الشيوعي العراقي في عقودها الأخيرة) ، (الأيديولوجيا والبراغماتية في سياسات الحزب الشيوعي العراقي السابقة) ، (الديمقراطية في الحزب الشيوعي العراقي) وأيضا (اتفاقية آذار وموقف العرب والكرد في اللجنة المركزية).

وحوى الكتاب بعض الصور التي توزعت في متن الكتاب ونهايته ، أراد لها الكاتب إن تضيف روح وثائقية لمادة الكتاب إلا أن عدم وضوح بعض الصور، وطريقة طباعتها وإخراجها غير المتقنة أفقدتها بعض قيمتها المرجوة . ويمكن القول إن هناك ضعفا ملموسا في إخراج الكتاب بل وأخطاء إخراجية لا تغتفر ، ويتحمل مسؤولية ذلك بشكل أساس دار النشر، إلا أن ذلك بالطبع لم يقلل من أهمية الكتاب وقيمته. وبحكم كون مادة الكتاب نشرت أولا على شكل حلقات على بعض المواقع الاليكترونية، فأننا نجد الفصول الأساسية حملت عناوين فرعية كثيرة ، مما جعل الكتاب يحتفظ بشيء من نكهة العمل الصحفي في تبويبه وترتيب فصوله ، وحتى في كتابته.

3

الرفيق عادل حبة ، في كلمة الغلاف ، يشير وبصواب شديد إلى أن أي كاتب مذكرات عادة يكون مهددا في "الوقوع في فخ الذاتية " ، وسبب ذلك كون كاتب المذكرات " يكتب تاريخا وتحليلا لا يخلو بالأساس من رؤية شخصية أو رؤية الحركة السياسية التي ينتمي اليها " . وهكذا يكون السؤال الأول الذي يرد في البال ، هو بماذا يختلف كتاب " الحقيقة كما عشتها " لجاسم الحلوائي عن غيره ؟ وكيف قدم لنا الكاتب مذكراته؟

في مقدمة الكتاب ، وفي السطور الأولى ، يشير الحلوائي إلى كونه واجه صعوبة ، سماها "مأزق حقيقي "، عند البدء في كتابة ما يصر على تسميته وبتواضع شديد" ليس بمذكرات ، بل هو ابسط من ذلك "، وإشارة الكاتب إلى هذا المأزق يأتي علامة مشجعة لقراءة الكتاب وإمكانية تميّزه من خلال إقرار الكاتب بكل جرأة وإشارته إلى " الفرق النوعي بين وعي الآن ووعي قبل التحولات التي ذكرتها "، وهذه التحولات التي يشير لها الكاتب هو ما جرى من مراجعة مختلفة الاتجاهات، في الفكر الاشتراكي بعد انهيار تجربة النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة وما رافق ذلك من تأثيرات العولمة والثورة التكنولوجية والمعلوماتية ، وما رافق ذلك من عملية التجديد داخل مؤسسة الحزب الشيوعي العراقي فكريا وتنظيميا . إن ما تقدم يجعل القارئ يطمأن إلى انه لن يقرأ كتابا بصيغ تبريرية ولا يجد فيه بكاءاً على الأطلال وهتافات حماسية وتعديد مناقب أسطورية وتلميع للذات بشكل مغالط ، ولا محاولة جلد للذات بشكل غير منتج . إن قراءة الكتاب وكما أشار الرفيق عادل حبه تقود حقا إلى الاستنتاج بأنه "محاولة جادة ومتميزة " وانه كتب " برؤية جديدة " وان الكاتب "استطاع إن ينقل الحقيقة كما عاشها وبدون رتوش وبصدق وبساطة ".

4

أهدى الكاتب جاسم الحلوائي كتابه إلى زوجته السيدة ماجدة عطية شناوة " أم شروق " ، وهي أخت رفيقه في النضال الشهيد جواد عطية ، كـ " حبيبة وشريكة حياة ورفيقة درب " ، وهو هنا إلى جانب كونه لمسة من الوفاء ، فهو أيضا تقدير رفيع من الكاتب لمساهمة المرأة العراقية في النضال الوطني ، وليشير إلى حقيقة كون مسيرة كل مناضل مهما كانت وما حققت من نجاحات لم تكن لتكون لولا

مساهمة المقربين منه ودورهم الفاعل في دعمه والوقوف إلى جانبه، فالإهداء هنا هو أيضا إشادة بدور الرفيقة أم شروق ليس بحكم كونها الزوجة والحبيبة ، بل كونها مناضلة شيوعية قريبة من الكاتب المناضل تحملت ما تحملت من قسوة المطاردة والتشرد والمعاناة ، وأيضا كان لها مساهمات بارزة يعرضها لنا الكتاب هنا وهناك في تفاصيل العمل الحزبي ، وعلى سبيل المثال لا الحصر مساهمتها في نجاح خطة هروب الكاتب المناضل جاسم الحلوائي ورفاق له من سجن خلف السدة في الأول من نيسان عام 1966 .

5

من المفارقات الطريفة في حياة المناضل جاسم الحلوائي ، المنحدر من عائلة كادحة ، إن انضمامه إلى الحزب الشيوعي العراقي ، الذي تم في عام 1954،جرى وبسبب ظروف وتفاصيل يعرضها الكتاب ، ليس إلى التنظيم الأساس للحزب الشيوعي العراقي ، بل إلى منظمة منشقة عن الحزب ، هي منظمة "راية الشغيلة " التي كانت تصدر جريدة بهذا الاسم. وفي إطار مراجعته لظروف انضمامه إلى الحزب وعملية انشقاق "راية الشغيلة" ، نجد الكاتب وبوعي مسؤول يتوقف عند قضية الديمقراطية داخل الحزب التي كانت احد الأسباب الرئيسة لغالبية الانشقاقات في الحزب الشيوعي العراقي ، ومنها انشقاق "راية الشغيلة" " الذي جاء كرد فعل على " النزعة اليسارية ـ الانعزالية والسلوك البيروقراطي والفردي في قيادة الحزب " ص 23 . فالأحزاب الشيوعية في تلك الفترة كما يؤكد الكاتب " بالرغم من أن أنظمتها الداخلية تنص على إن بناء الحزب يقوم على أساس المركزية الديمقراطية ، فالمركزية كانت طاغية والديمقراطية ضئيلة " ص 32 .

6

من الصفحات الأولى للكتاب، يلمس القارئ موضوعية الكاتب في أسلوبه، فهو وإذ وضع نصب عينيه مسؤولية رواية الحقيقة كما كان شاهدا عليها ، وأشار في مقدمة الكتاب، وبقول هو عندي بليغ الدلالة، إلى "الحقائق التاريخية عادة ما تضايق بعض الأحياء ، ولا ينجو من حسابها حتى الشهداء"، فهو سعى ليكون بعيدا عن النزعة العاطفية والذاتية في محاكمته للأحداث. ونلمس ذلك في إطار مناقشته لمصداقية بعض الأحداث من خلال رواية الآخرين لها ، فعلى سبيل المثال حين دقق في رواية السيد باقر إبراهيم ، الذي أشار في مذكراته إلى كونه أخر من غادر العراق من قيادات الحزب الشيوعي العراقي ، حاول الكاتب الحلوائي إن يصحح له ذلك بالشواهد المقرونة بالشهود ، بنبرة خالية من الانفعال ، بل إن الحلوائي يستخدم في حواره تعبير "رفيق" عند الحديث عن بعض الأسماء رغم كونها ألان خارج صفوف الحزب الشيوعي ، و يأتي هذا انطلاقا من احترام التجربة النضالية وكونهم في تلك الفترة كانوا رفاقا في الحزب وان اختلفت مواقفهم ألان. ومناقشة الحلوائي مع الآخرين تأتي ارتباطا برأي الكاتب الذي يقول"إن الأحداث التاريخية ليست ملكا شخصيا لأحد لكي يتصرف بها المرء كما يحلو له ، بل هي ملك للناس،ومودعة كأمانة ليس في ذاكرة الكاتب حسب ، وإنما في وجدانه أيضا " ص 180، وحيث ابتعد عن الدخول في مما حكات وتبادل اتهامات تدخل في باب

تصفية الحسابات ، التي للأسف وقع في فخها البعض من القادة السياسيين ممن كتبوا مذكراتهم. وأيضا حين تناول الحلوائي محطات فكرية مهمة في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، حاول إن يعرض الوقائع المحيطة بالحدث المعني بشكل بانورامي ليستطيع القارئ إن يرسم صورة كاملة لما يجري ويساهم أيضا في تحديد المسؤوليات، ولم يحاول، حين يكون معنيا بالحدث والحكم، إن يضع نفسه خارج ما يجري أو يخفف من قسوة الحكم ، بل حاول إن يراجع تجربته ويحاكمها وفق قناعاته الجديدة التي أشار اليها في مقدمة الكتاب. وكمثال حين تناول فترة الإعداد لمؤتمر الحزب الثالث المنعقد في 1976، أشار إلى اللجنة الحزبية التي كلفت للعمل لإعداد مشروع برنامج الحزب ، الذي أقر فيما بعد عند انعقاد المؤتمر الثالث ، وكانت اللجنة تتكون من ستة من أعضاء اللجنة المركزية ذكر أسماءهم وكان هو من ضمنهم ،هذه اللجنة التي"عملت لشهور عديدة وقرانا ودرسنا مصادر كثيرة ووثائق مختلفة وناقشنا طويلا" ص153 و"استمعت إلى رأي وفد من الحزب الشيوعي السوفيتي"ص 153 ، وعلى اثر عمل هذه اللجنة تبنت قيادة الحزب موضوعة طريق التطور اللا رأسمالي، الذي اثبت التجربة بطلانه ولم تزكه الحياة، بل وكان سببا في وقوع الحزب في أخطاء سياسية ، لم يحاول الرفيق جاسم الحلوائي هنا إن يكون خارج دائرة المسؤولية في تبني هذا الخط الفكري الخاطئ ،بل أشار"وان مسؤوليتي لا تقل عن مسؤولية أي من المساهمين الرئيسين في رسم تلك السياسة" ص154. وإضافة إلى ذلك حاول إن يستخلص دروسا من هذه التجربة في الوصول إلى"عدم وجود طريق مضمون للتطور الاجتماعي سوى طريق النظام الديمقراطي المؤسساتي، بما يعنيه من إقامة مجتمع مدني ومجلس نواب ودستور دائم والفصل ين السلطات وإقرار حق تقرير المصير للقوميات وفصل الدين عن الدولة وضمان حقوق الإنسان ومساواة المرأة بالرجل بالحقوق والواجبات" ص 154،.

7

مما يحسب للكاتب والكتاب ، هو غلبة روح التواضع عند الكاتب في روايته للأحداث ، وعدم لجوءه إلى تلميع صورته الشخصية ولم يحاول إن يقدم نفسه بشكل مميز عن الآخرين من رفاقه المناضلين ، برغم وجود هذا التميز هنا وهناك في محطات ومواقف نضالية . وبرز اهتمامه بتقييم مواقف رفاقه ، والإشادة بدورهم ومساهماتهم ، فالهروب من سجن خلف السدة في نيسان 1966 ، وإذ كان لرأيه بضرورة التنفيذ، عند تردد الآخرين لحظة التنفيذ، الدور الحاسم في نجاح الخطة ، فهو لم ينس إن يشير إلى " كان مهندس هذا الهروب الناجح وقائده الرفيق عمر علي الشيخ " ص 119 ، ويذكر للقراء قائمة بأسماء المساهمين كل وحسب دوره ومساهمته . وحين يتحدث عن ظروف القمع الوحشي التي تعرض لها الحزب في عام 1978 على أيدي نظام حزب البعث فهو يشيد كثيرا بموقف الشهيد البطل مزهر هول الراشد " أبو كريم " ، الذي اعتقل وتعرض إلى تعذيب وحشي، للاعتراف على الصلات الحزبية ومواقع قيادة الحزب ، ويشير الكاتب " لولا استشهاد الرفيق أبي كريم لكانت الخسائر أفدح " ص 178 ، وكانت قد حصلت

بعض الاعترافات والانهيارات إلى قادت من اسم إلى أخر لتصل إلى الشهيد أبي كريم الذي قطع باستشهاده خيط الانهيارات وأوقفها . ولكن الكاتب حين يتحدث عن ظروف مشابهة حصلت معه في عام 1965 ويقول "بعد الضربة التي وجهت للحزب وكبس المطبعة الرئيسية وإلقاء القبض على الكوادر الرئيسية العاملة في هذا لجهاز بعد انهيار احد الكوادر الرئيسة وبسبب ذلك تم اعتقال وكبس بيت توفيق احمد عضو اللجنة المركزية ، وكان مركز عمل لجنة التنظيم المركزية ، واغتيال الرفيق حميد الدجيلي عضو اللجنة المركزية " ص 112 ، وحيث تم اعتقال الكاتب لاحقا أيضا ، فأنه يتحدث بتواضع شديد عن صموده البطولي أثناء التعذيب ، الذي رسمت له المخيلة الشعبية صورة أسطورية. في تلك الأيام لم يسمع الجلادون من المناضل أبي شروق رغم كل قسوة التعذيب الوحشي سوى:" واجب العضو الحزبي صيانة أسرار الحزب " ، هذا الموقف الذي قدم للجلادين درسا عن صلابة الشيوعيين ، وصار مثالا يحتذى به بين صفوف الشيوعيين العراقيين،ولذلك أشادت به نشرات الحزب الداخلية في تلك الأيام ، وفي معرض حديثه عن تفاصيل الاختفاء والعمل السري في محافظة كربلاء في سنة 1956، يتحدث لنا عرضا وبكل بساطة عن مساعدته لشاب أمي في تعلم القراءة والكتابة ، " وبالمناسبة كان في بيت صكب شاب يصغرني بعدة سنوات اسمه جاسم أيضا وكان أميا ولديه رغبة شديدة في تعلم القراءة وقد ساعدته وتعلم بسرعة ، فبعد أشهر معدودة اخذ يقرا الصحف اليومية " ص 49 ، لكن جاسم الحلوائي لم يتوقف كثيرا عند هذه التجربة للحديث عنها وإنما مر عليها ببساطة كحدث عابر مستخدما تعبير " بالمناسبة... " ، ليس لسبب ما من وجهة نظري سوى لتواضع الكاتب ، رغم انه قدم هنا درسا بليغا لنا في كون المناضل الشيوعي لم ينس دوره التنويري الاجتماعي ، وكرس له وقتا وجهدا رغم كل المصاعب وحياة التوتر والملاحقة التي يعيشها .

8

يحمل الكتاب العديد من التفاصيل والتجارب والدروس عن أساليب العمل بين أوساط الجماهير، خصوصا بين الفلاحين البسطاء الذين كسب جاسم الحلوائي ثقتهم ، وخاض معهم نضالات مطلبية ، حققت النجاحات الباهرة ، ومنها انتفاضة فلاحي ثلث الجزرة في منطقة الكوت ، والتي حصلت أواخر 1960 واستمرت حتى بداية 1961، حيث نجح الفلاحون وبدعم من منظمة الحزب الشيوعي بالانتصار في معركتهم مع الإقطاعي مهدي بلاسم الياسين ، رئيس عشيرة المياح، الذي حاول الاستفادة من انحياز حكومة عبد الكريم قاسم لفترة إلى جانب الملاكين على حساب الفلاحين ، ويعتبر الكاتب أن انتفاضة فلاحي ثلث الجزيرة لم تنل اهتمام المؤرخين فهي ساهمت في إلغاء قرار إعادة أراضي الإقطاع إذ لم يصدر بعد ذلك أي قرار بإعادة إقطاعية كبيرة إلى أي إقطاعي.

ومن المراجعات المهمة التي يقوم بها الكاتب ما يخص عمل الحزب بين المنظمات المهنية ، حيث يدين الكاتب بقوة وصراحة أساليب عمل الحزب السابقة ويدعو إلى إتباع أساليب جديدة ، وهو من القلائل الذين توقفوا عند هذا الأمر، وقد سبقه الفقيد الدكتور رحيم عجينة للحديث بهذا الموضوع في مذكراته ، يقول جاسم الحلوائي

بهـذا الخصـوص :"وأقولهـا بـدون تـردد. إن نزعـة الهيمنـة علـى المنظمـات الديمقراطية والمهنية والانفراد بقيادة الجماهير الشعبية لم تكن نزعة طارئة وإنما من صلب أيديولوجية الحزب وأن الحرص على مبدأ وحدانية المنظمة الديمقراطية أو المهنية الذي كنا ندافع عنه يصب في هذا الاتجاه. وهذه النزعة كانت موجودة في المواد الخمسة الأولى من النظام الداخلي القديم، التي كنا نشرحها للعناصر الجديدة قبل ضمها للحزب وقد جرى تعديل تلك المواد في المؤتمرين الثاني والثالث. وبدأ الحزب بالتخلص من هذه الأيديولوجية منذ مؤتمره الخامس "مؤتمر الديمقراطية والتجديد" وثبت في نظامه الداخلي الجديد حرصه على استقلالية المنظمات النقابية والمهنية والإبداعية وغيرها. وواصل دمقرطة الحزب وبرنامجه وسلوكه مع الآخرين وتبنى التعددية والتداول السلمي للسلطة" ص76

9

لم يخل الكتاب من لمسات إنسانية ، في الحديث عن هموم شخصية ، وتفاصيل حياة إنسانية ، فالمناضل هو إنسان أولا ، وهذه اللمحات والتفاصيل أبعدت عن الكتاب روح الجفاف وأعطته روحا إنسانية وجعلته أقرب إلى القارئ . فنحن في يوم 24 أب 1985 نقف إلى جانب أم شروق عند باب غرفة العناية الفائقة في احد مستشفيات إيران ، بل وننهار معها إلى الأرض ونلطم معها حين صاحت احد الممرضات" مات"، وننهض معها حين يقولون لها "رجع"، وذلك حين تعرض زوجها المناضل الحلوائي إلى السكتة القلبية المفاجئة ، التي عرضها لنا الكاتب بسياق فني يختلف عن بقية فصول الكتاب حيث نجد هنا في هذه الصفحات القليلة لمسة من الكتابة القصصية منحت الحدث شيئا من الشفافية ، وفيها أيضا محاولة لإضفاء روح فلسفية في مناقشته لقضية الموت والحياة .

وهنا وهناك يمكن إن تصادفنا في صفحات الكتاب المواقف الإنسانية التي حرص الكاتب على إبرازها، إضافة إلى تلك اللمسات في وصف بعض الأشخاص وطباعهم ، مما تساعد في إبعاد التقريرية عن نصوص الكتاب.

وبسهولة يمكن إن نصادف تلك الإشارات التي تناثرت في عموم صفحات الكتاب ، والتي تدعو إلى التمسك بالعلم والمنطق ونبذ ما هو غيبي وخرافي، ومنها الإشارة إلى الممرضات الإيرانيات اللواتي شهدن تعرضه للسكتة القلبية ، فإذ راح بعضهن يتبرك به باعتباره نجا من الموت لأنه موضع "رعاية إلهية خاصة " ، فأن ممرضة أخرى والتي أخبرته عن جلبهم جهاز الصدمة الكهربائية من قسم أخر"كان يكفي إن يتوقف المصعد لبضعة دقائق حتى ينتهي كل شيئ " ص 229 فيقول لنا عنها، في نفس الصفحة " يظهر ليس كل الإيرانيين يتبركون بالناجي من السكتة القلبية، إنها تثق بجهاز الصدمة الكهربائية أكثر من أي شيئ آخر."

10

لم يخل الكتاب من روح الطرافة في إيراد الطرائف والمفارقات أو ما يمكن تسميته بشر البلية ما يضحك التي تصادف المناضلين في حياتهم النضالية . ففي أول محكمة وأول محكومية نالها المناضل جاسم الحلوائي في عام 1955 ، إذ اعتقل اثر حملة نوري السعيد المعادية للنشاط الوطني ، قاد الحظ المناضل كاظم حبيب ، وكان

حينها طالبا في السنة النهائية من الدراسة الإعدادية ، ليكون شريك المناضل جاسم الحلوائي، الذي اضطر لترك مقاعد الدراسة بعد إنهائه المرحلة الابتدائية بسبب ضغوط عائلية ، نقول قاد الحظ المناضل كاظم حبيب ليكون شريك الحلوائي في قفص الاتهام أمام حاكم محكمة الجزاء في كربلاء ، ويروي لنا المناضل جاسم الحلوائي في الصفحة 34 " أقنعت مسؤولي الحزبي بان نهتف في المحكمة احتجاجا"، وذلك " في حال صدور حكم من ست شهور فما فوق "، وفي يوم المحكمة يقول الحلوائي " حكمت علينا المحكمة بالسجن لمدة ستة أشهر مع وقف التنفيذ على إن يطلق سراحنا بكفالة شخصية قدرها 100 دينار وبسبب ثقل سمعي ، ولرغبتي في تحدي طغيان الحكومة وتعسفها لم يصل إلى سمعي سوى " ستة أشهر سجن " فهتفت : تسقط المحاكم الصورية ، يسقط الحلف التركي - الباكستاني، فالتفت كاظم إلي مندهشا ، مدركا الالتباس الذي حصل ، حاسما موقفه بالتضامن معي رافعا صوته هو الآخر بالهتاف "، ليأمر الحاكم بعد ذلك بالطبع بتنفيذ المحكومية بهما !.

وعند تنفيذ خطة الهروب من سجن خلف السدة عام 1966 ، التي تطلبت إعدادا محكما وجهدا بالغ الدقة، وحيث تمكن الرفيق عمر علي الشيخ والرفيق جاسم الحلوائي من مغادرة الزنزانة عبر شباك جانبي والاختلاط بزوار مواجهة السجناء ، كلفت الرفيقة المناضلة مادلين يعقوب بالتغطية على الحلوائي عند المغادرة مع الزوار ، يروي الحلوائي، الذي اعد له للهروب وحسب الخطة زي طالب جامعي"رافقتني مادلين يعقوب متأبطة ذراعي اليسرى وكنت أحمل طفلة صديقة مادلين. إن مادلين فتاة أنيقة تصغرني ببضعة سنوات فكنا نبدو وكأننا فعلا زوجين، اجتزنا اخطر نقطة بسلام، وما أن اجتزنا النقطة الثانية حتى سحبت مادلين يدها من تحت أبطي وركضت أمامي تدفع الناس بيديها تشق طريق لي كي أتمكن من السير بسرعة وبدون عوائق، ولم يكن يعوزها سوى الصراخ: "أفسحوا المجال لقد نجح بالهروب". ص 118

11

ما الذي لم يروه لنا الكتاب؟

كقارئ، متحمس للكتاب ، ومعجب بأسلوبه ، كنت أتمنى أشياء أكثر، وسأظل أتمنى إن يلتفت الكاتب إلى الملاحظات التي يقدمها القراء الحريصين على هكذا نوع من الكتب ، خصوصا وان الكاتب سينال الثقة بموضوعيته الملموسة وعدم انحيازه العاطفي لغير الحقيقة.

فالرفيق جاسم الحلوائي لم يحدثنا بفصل مستقل ، عن ظروف انتخابه للجنة المركزية ، وتناثرت المعلومات عن هذا الأمر هنا وهناك في فصول الكتاب بشكل ربما يصعب لمها ، وكان ممكنا الحديث عن ظروف ترشيحه ، وردود فعله الشخصية وردود فعل الآخرين ، وحضوره أول اجتماع للجنة المركزية وما حول ذلك ، وأيضا عن تفاصيل خروجه من عضوية اللجنة المركزية وقناعاته وردود فعله وتفاصيل ما جرى ، فليس كاف أبدا الحديث عن ذلك ببضعة سطور.

كنت أتمنى من الكاتب أيضا إن يخصص فصلا مستقلا لشخصية القائد الشيوعي عزيز محمد ، خصوصا وأن الرفيق عزيز محمد قاد الحزب لفترة زمنية طويلة (1964 - 1993) ، والرفيق جاسم الحلوائي عاش معه وسجن معه وعمل معه في مواقع حزبية نضالية مختلفة ، مما يتيح له لو حاول أن يرسم للقارئ صورة ما لهذا القائد الشيوعي ، ولشرح أسلوبه القيادي في العمل ، وتطوره الفكري، وعلاقاته مع مختلف الرفاق في قيادة الحزب ، وما يقال عن أسلوبه في القيادة بالإمساك بالعصا من الوسط، وعن ايجابيات وسلبياته ، الخ ، فمن هذه التفاصيل والأحكام يمكن للكادر الحزبي الشاب إن يتعلم ويتثقف،وهي بالتالي ستكون ملك للتاريخ.
والأمر كذلك يتعلق بأسماء قادة حزبيين آخرين ، مثل الشهيد البطل سلام عادل وغيرهم ، بحيث أن ذلك يجعلنا نطمع من الكاتب بأن يضيف فصول جديدة للطبعة القادمة من الكتاب ، أو إن يكون هناك كتاب مستقل بهذا الخصوص.
ختاما أقول للقراء الأعزاء هذا كتاب يستحق الدراسة والقراءة المتكررة فهو كتاب شيق وغني بمادته وأسلوبه ، فتحية للكاتب وأمنيات بالصحة وعمرا مديدا.
سماوة القطب

***

نشر الكاتب محمد علي محي الدين مقالا في جريدة المدى بتاريخ 18 آذار 2007 تحت العنوان التالي:

الحقيقة كما عاشها الحلوائي

محمد علي محي الدين

من التقاليد الرائعة لدى الساسة والمفكرين ، والزعماء والقادة العسكريين، والمشاركين في الأحداث العامة، أو صناعها، كتابة المذكرات، وتختلف المذكرات من واحد إلى آخر، تبعا لطريقته في السرد، ومكانه من صدق الكلمة، وجدية الطرح، وكم من المذكرات ما كانت وبالا على أصحابها، لما حوته من المغالطات، وفضح لأسرار خاصة كان الأولى التستر عليها، وإبقاؤها طي الكتمان لما فيها من أمور لا يصح التصريح بها، أو الإفصاح عنها، مما هي ضمن المحظورات في الجانب الأخلاقي منها على الأقل، ولكن هكذا كان يصدر بعضها، وهو يحمل في طياته من العجر والبجر ما لا يمكن الركون إليه، والأخذ به، على ما لأصحابها من الاحترام في نفوس الآخرين، ولست في هذه العجالة ملزما بالإشارة إلى هؤلاء، ولكن القراء الكرام يعرفون الكثير منهم، وما هذه المقدمة إلا تمهيداً لما أود الإشارة إليه في مذكرات الأستاذ جاسم الحلوائي، المناضل الجسور، والشيوعي

الأصيل، الذي بوأه جده واجتهاده، الصعود إلى قمة الهرم في الحزب الشيوعي العراقي، لجهاديته الرائعة، ومواقفه المعروفة في سنين النضال.

ولقد كان لانحداره الطبقي، أثره الواضح في مجمل سيرته النضالية، ونلاحظ عمق تأثير هذا الانحدار في سلوكياته بمختلف الظروف والأزمان، وربما لهذا الانحدار أثره في ابتعاده عن الإسفاف الذي عرفت به الطبقات المترفة، أو الأرستقراطية، لذلك جاءت مذكراته بسيطة بساطة الحقيقة نفسها، بسرد الأحداث كما هي دون رتوش أو تزويقات ألفها البعض في كتابة المذكرات، أو ابتعاد عن ذكر ما يسيء لهم أو لمواقفهم فيها. وسأمر مرور الكرام، دون الدخول في تفاصيلها وما حوته بين طياتها، ففيها الكثير مما يستحق الوقوف عنده في إطراء أو إضافة أو توضيح، لولوجها في فترات حرجة من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي عبر مسيرته الطويلة، ولعل ما ظهر لي بعد القراءة الأولى يدفعني إلى القول دون خشية، أن بعض الحقائق الواردة فيها، صححت الكثير مما علق في ذاكرتي من أخطاء لمستها في مذكرات بعض من كتب عن تلك الفترة، فقد أورد البعض أمورا تمثل وجهة نظرهم، حاولوا من خلالها تبرير الأخطاء والهفوات برميها على عاتق الآخرين، للخروج سالمين من تبعاتها، في الوقت الذي كانوا في القمة من المشاركين في صنعها، إلا أن الأستاذ الحلوائي لم يحاول التنصل عن خطأ أو هفوة، بل بين مسؤوليته عن جميع الأخطاء وتحمله لتبعاتها، رغم أنه ليس في الصميم منها، أو السبب فيها، ولكنها المسؤولية الجماعية التي تعني المشاركة في الغنم والجرم، والخطأ والصواب، وما أحرى الآخرين أن يحذوا حذوه، وينهجوا نهجه ، فتلك لعمري مزية الكاتب الأمين.

ولابد لي من قبل الخوض في التفاصيل، بيان مزايا هذا الكتاب الصادر عن دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر، وخلوه من الأخطاء المطبعية، وهذا أمر نادر الحدوث في المطبوع العراقي سابقا، تستحق عليه ـ هذه الدار ـ الحمد والثناء، والإجلال والإكبار، رغم أن كتابة العنوان وتصميمه من الفنان فيصل لعيبي ، كانت دون المستوى المطلوب، فهو أشبه بالأحجية، وكتابة الحروز التي يلجأ إليها السحرة والمشعوذون، يتعذر قراءتها ألا بعد التدقيق والتحقيق، رغم إعجابي بأخي الفنان وقدرته على التصميم والإخراج، ولعل لغيري رأيه المغاير، إلا أن ذلك ما تبادر إلى ذهني بعد قراءتي للغلاف. ومن ملاحظاتي الأخرى حول الكتاب:

1ـ يلاحظ القارئ وجود فترات متقطعة لم يجر الكتابة عنها، رغم أن تلك الفترات حافلة بالنشاط والحيوية، ومزدحمة بالأحداث التي تدعو طبيعة المذكرات إيراد أحداثها، وبيان تفاعلاتها وتأثيرها، ورأيه في الأمور التي رافقتها، لكونه من صناعها والخائضين في غمارها، لما في ذلك من استجلاء لنقاط جديدة قد تنفع الدارس والمؤرخ لأحداث تلك الفترة.

2ـ الملاحظ أن الأستاذ الفاضل، قد جعل لمذكراته عناوين فرعية، استدعته إلى تغيير السياق التاريخي السردي، وعلى سبيل المثال لا الحصر، عند خروجه من السجن بمرسوم العفو الصادر من حكومة الثورة في آب/1958 ، أنتقل إلى أحداث آذار 1959 ، بفصل عنوانه الاصطدام، أورد في بدايته حكاية الخلاف بين فرع الوطني الديمقراطي في كربلاء، ومنظمة الحزب الشيوعي، ثم عاد لتسلسل الأحداث، ودوره في بناء المنظمة بعد خروجه من السجن، وكان عليه متابعة سرد الأحداث وما قام به من نشاط في بناء المنظمة وتفعيل نشاطها في تلك الفترة، حتى الوصول إلى ما رافقها من اصطدام مع الآخرين، ولعل هذا الخلل نابع من نشره مواضيع المذكرات على شكل حلقات منفصلة، لأحداث مختلفة، كان عليه إعادة صياغتها لتأخذ مداها التاريخي في السرد والتسجيل(ص64 وما بعدها).

3ـ كذلك العنوان الرئيسي الوارد ص47 (عشية ثورة 14 تموز) فقد سرد مذكراته اعتبارا من انتفاضة تشرين 1956 ، رغم إن السياق السردي للأحداث كان متصلا، ألا أن هذا العنوان السابق لأوانه جعل القارئ في حيرة، ولو كان العنوان(مقدمات ثورة تموز) لا عشيتها، لكان أحرى بالقبول، لأن عشية الثورة تعني قبل ليلة من حدوثها، ولكنه سرد أحداث أكثر من سنة ونصف قبل الثورة، وهو ما جعل العنوان في غير محله.

4ـ تحت عنوان الهروب من معتقل خلف السدة ، أورد مداخلات زواجه، وابتدأ الموضوع بتعهده لزوجته بالهروب في حالة إلقاء القبض عليه، ثم أورد بدايات تعرفه بها، وكان الأولى أن تكون هذه الفقرة في سياقها بعد الزواج، لا أن تكون مقدمة للموضوع، وهذا الارتباك في التسلسل أثر بشكل سلبي على المذكرات.

5ـ رغم هذه المآخذ ـ على فرض وجودها ـ إلا أن في المذكرات جوانب ايجابية حرية بالتبجيل والإشادة، فقد أدلى برأيه في أمور شائكة يتورع الكثيرون عن الخوض بها، منها ما رافق بعض الفتاوى التكفيرية وبواعثها والأسباب الكامنة وراءها، ورغم أنه أوضح الشيء الكثير، إلا أن ما لم يكتب أكثر والسكوت عنه أجمل وأحسن، في مثل هذه الظروف، ولكن مجرد الإشارة كان إضاءة لماحة لواقع نحاول تجاوزه ونسيانه لأسباب ذاتية وموضوعية، قد تزول في يوم من الأيام فتظهر الحقائق كما هي، وتبان الدوافع الكامنة وراء الكثير من الحوادث التي رافقت تلك الفترة، بإرهاصاتها المختلفة وحوادثها المثيرة، وهو ما سجلته في أوراقي مشفوعاً بالأدلة والأسانيد.

6ـ لعل ما هو حري بالإعجاب والإكبار، أدلاء المؤلف بآراء سديدة حول الوضع الراهن وآفاق المستقبل، في ظل الأحداث الجارية في العراق، فقد كان لإشاراته المختلفة، واستنتاجاته في ضوء الواقع، وما حدث في دول أخرى، ما يعين الآخرين في تلمس الطريق للخروج من الأزمة الحالية التي تأخذ بخناق المواطن

العراقي، ورغم إن المذكرات تسجيل لماضي غابر، ألا أنه حاول استشفاف ما يعين على دراسة الحاضر بكل إرهاصاته وتقلباته، والطرق الكفيلة بمواجهته وفق رؤيا صائبة بنيت على أسس من الواقعية المطلوبة في مواجهة الأحداث، ولعل جرأته، في كشف ما جرى ويجري في دول مجاورة، كفيلة بتحذير الآخرين من المرور بنفس الحالة التي عانى منها الآخرون، وعدم تكرار الأخطاء القاتلة التي وقعت فيها بعض الحركات السياسية لعدم قراءتها للواقع بصورة صحيحة، ما أدى إلى وقوعها فريسة سهلة بأيدي القوى الرجعية والمتشددة، وعلينا الاستفادة من تلك التجارب المريرة وأخذ العبر منها، للخروج من عنق الزجاجة التي تمر به الحركة الوطنية والديمقراطية في العراق.

7- لعل أوضح ما ظهر للعيان في هذه المذكرات، أن مدرسة الشيوعيين العراقيين، رغم ظروفها المادية الصعبة، تمكنت من تخريج أساتذة في التحليل السياسي، يتعذر على الدارسين المنهجيين الوصول إلى مستوياتهم في التحليل والدرس، فالأستاذ الحلوائي لم يصل بدراسته المنهجية إلى ما وصل إليه حملة الشهادات العليا في الأدب واللغة والسياسة، إلا أن مدرسة الحزب تمكنت من إبراز طاقة رائعة في الاستنباط السياسي بلغة عربية سليمة، ومنهجية واضحة، يحسده عليها الكثيرون، وهذه المدرسة خرجت المئات ممن هم على شاكلته، ولعلي مدين بالجانب الأكبر من ثقافتي السياسية والعامة، لهذه المدرسة الوطنية، التي أصبحت علامة بارزة في تاريخ العراق الحديث.

8- المزية الأخرى لهذه المذكرات أنها اعتمدت على الشهادات الحية، واستجلاء آراء الآخرين فيها قبل طبعها، ما جعلها صادقة في أطروحاتها، أمينة في نتائجها، راسخة في تناولها، لم تعتمد الحدس والتخمين، أو الرواية البعيدة عن موقع الحدث، فاستعان المؤلف ببعض المطلعين والقريبين لتدعيم ذاكرته، وإعطاء الأمر مصداقية أكثر، لصدوره عن مطلع عارف ببواطن الأمور.

9ـ قد يحاول الكثيرون التغطية على الأخطاء والتجاوزات، وإسباغ بعض التوصيفات عليها، إلا أنه تجنب هذه الأمور، وطرح الوقائع كما هي بمصداقية عالية، ظهر ذلك جليا واضحا في موضوعة الديمقراطية في الحزب الشيوعي، حيث لم تفعّل تلك الديمقراطية في الحزب رغم أنها من صميمه، وخصوصا في الانتخابات بسبب طبيعة العمل السري، والظروف التي عمل فيها الحزب، إلا أن ذلك لا يعني انعدامها كليا، حيث كان للكثير من القرارات طابعها الديمقراطي السليم، وخصوصا عند توفر الظرف الملائم لتطبيق الديمقراطية، وأن ظهور بعض القيادات الفردية كان بسبب طبيعة الظرف السياسي غير الملائم لظهور القيادة الجماعية، أما في فترات العمل العلني، فالديمقراطية هي المعيار في اتخاذ القرارات، وإقرار المواقف الخطرة للحزب، وتجلى ذلك واضحا في رفض خط آب التصفوي، عند الاعتراض عليه من بعض أركان القيادة والقاعدة، ومنذ مؤتمر الديمقراطية

والتجديد، سار الحزب بخطوات واسعة في تفعيل الممارسة الديمقراطية في عمله الحزبي، ومازال عليها وأصبحت السمة البارزة لعمله في مختلف المستويات.

10- لعل القارئ الكريم يشاركني الرأي ، بأن مذكرات الحلوائي حفلت بالكثير من الدروس والعبر، التي علينا الاستفادة منها في الظرف الراهن، ولعلها ستكون دافعا للآخرين في كتابة تجاربهم وذكرياتهم، لإغناء الأجيال اللاحقة بالخبرة، والاستفادة منها في البناء الجديد للحزب، لأن تجارب القادة السياسيين درس رائع وممتع ومفيد يستلهم منه الآخرون دروسا في النضال والتضحية من أجل المبادئ والمثل السامية، التي يناضل من أجلها الشيوعيون، ولا يسعني في الختام ألا إزجاء الشكر والتقدير لدار الرواد المزدهرة على ما قدمت من زاد فكري وجهد مشكور في الطباعة، وأن تكون إصداراتها بالمستوى اللائق باسمها الكبير في عالم المعرفة، وأن تكلل جهودها بالنجاح ودوام التقدم والازدهار.

***

لقد كتبت مقالا تعليقا على مقال "المدى" أوضحت فيه، ضمن ما أوضحت، أسباب عدم تناولي لبعض الأحداث. وهذا الإيضاح هو لكل الذين طالبوني بذلك بمن فيهم الكاتب أبو الفوز. وكان مقالي تحت العنوان التالي:

تعليق على مقال
"كيف عشت الحقيقة"

نشرت جريدة "المدى" الغراء في 18 آذار 2007 في صفحة آراء وأفكار مقالا بعنوان "الحقيقة كما عاشها الحلوائي" بقلم الأستاذ محمد علي محي الدين.

بادئ ذي بدء، أود أن أشكر الكاتب شكرا جزيلا على ثنائه الجميل وتقييمه الرفيع لكتابي "الحقيقة كما عشتها"، وقد أسعدني ذلك وأسعد جميع الذين أعجبهم الكتاب وأحبوه. وأتمنى أن أكون جديرا بالأوصاف التي أسبغها الكاتب علي، وأن أبقى عند حسن ظن القراء الأعزاء.

لست بصدد الإشارة هنا إلى إيجابيات الكتاب التي نوّه بها الكاتب، وإنما أرغب أن أطلعه على تأييدي للملاحظات المرقمة 2 و3 و4، والتي تتعلق بتقديم وتأخير بعض الفقرات وتغيير كلمة في عنوان أحد المواضيع، وسأعالج ذلك في الطبعة الثانية المنقحة والمزيدة،التي اخطط لإصدارها في المستقبل، وبودي هنا التعليق على بعض الملاحظات التي وردت في مقالة الكاتب.

* تفاوتت آراء القراء في الموقف من الغلاف الأول للكتاب وأسلوب كتابة اسم الكتاب. إن جميع الآراء التي تلقيتها من القراء داخل الوطن، بما فيها آراء العاملين في دار الرواد المزدهرة، قد اعترضت على تصميم الغلاف الأول لنفس الأسباب التي ذكرها الكاتب في مقاله وهي: "أشبه بالأحجية، وكتابة الحروز ...". وأغلب الآراء التي تلقيتها من القراء خارج الوطن استلطفت التصميم أو أثنت عليه، للأسباب التي ذكرها الكاتب يوسف أبو الفوز، فقد أشار الكاتب إلى التصميم بالقول: "غلاف الكتاب كان من تصميم الفنان المبدع فيصل لعيبي ، الذي قدم تصميما جميلا مبتكراً...". إنني لست بصدد التوقف عند مغزى هذا التفاوت في الرأي، فذلك خارج مهمة هذه المقالة، وإنما أود أن أعلن بأني وافقت على تغيير تصميم الغلاف للطبعة الثانية نزولا عند رغبة الدار والقراء في داخل الوطن. ولم يأت ذلك لقناعتي بالتغيير، فإنني أحببت التصميم وقد تبنيته بعد أن اقترحت تعديلاً عليه، أخذ به الفنان المبدع فيصل لعيبي نزولا عند رغبتي، وليس قناعة منه. وفي الحقيقة إن المقترح لم يمس التصميم وإنما يتعلق بنوع الخط الذي كتب به اسمي. وقد اخترت تصميما آخر للطبعة الثانية من بين ثلاثة تصاميم عرضت عليّ من دار الرواد المزدهرة. والتصميم الجديد هو الآخر جميل وبديع ويتماشى مع متطلبات سوق الكتب في الداخل، حسب تقدير الدار، ونأمل أن يرى النور قريبا.

* ورد في المقال " يلاحظ القارئ وجود فترات متقطعة لم يجر الكتابة عنها، رغم أن تلك الفترات حافلة بالنشاط والحيوية، ومزدحمة بالأحداث التي تدعو طبيعة المذكرات إيراد أحداثها، وبيان تفاعلاتها وتأثيرها، ورأيه في الأمور التي رافقتها، لكونه من صناعها والخائضين في غمارها، لما في ذلك من استجلاء لنقاط جديدة قد تنفع الدارس والمؤرخ لأحداث تلك الفترة." وللكاتب أبو الفوز وكذلك بعض القراء ملاحظة مشابهة، لذلك يهمني جداً إيضاح هذا الموضوع.

هذه الملاحظة صحيحة لو تعاملنا مع الكتاب على أنه مذكرات في حين أنه، كما جاء في مقدمة الكتاب، ذكريات. "والمساحة شاسعة بين المذكرات والذكريات. وتزداد اتساعا إذا ما أخضعت لعملية انتقاء صارمة بأمل أن تتجاوب مع ما هو "جدير بالمعرفة" بالنسبة للقارئ..." وهذا ليس قولي، وإنما يعود إلى الدكتور رفعت السعيد في مقدمة كتابه القيم الموسوم "مجرد ذكريات" والصادر عن دار المدى في عام 1999، الجزء الأول ص11. فالذكريات ممكن أن تخضع للانتقاء، وللانتقاء الصارم أيضا.

لقد ذكرت في مقدمة كتابي ما يلي: "ما كتبته أشبه بسيرة ذاتية، وهو ليس بمذكرات بل هو أبسط من ذلك، إنه ذكريات ذات علاقة مباشرة ووثيقة بشخصي في أغلب الأحوال. إنها تختلف عن المذكرات التي تتعامل مع الأحداث التاريخية بالدرجة الأولى." وجاء في نفس المقدمة أيضا:" واخترت من الذكريات ما هو جدير بالمعرفة والقراءة بتقديري الخاص."

اعتقد بأن هذا التوضيح يشفع ويبرر لي عدم تناولي لبعض الأحداث التي لم أتطرق اليها لأسباب كثيرة.. أما لنقص في المعلومات والوثائق، أو لعدم معرفتي الدقيقة والتامة بالملابسات التي أحاطت بالحدث، أو تجنبا للتكرار، وأما لأن تناولها ينطوي على إساءة بالغة لهذه الجهة أو تلك أو لهذا الشخص أو ذاك ولا تغني المعرفة في تقديري الخاص، وبالتالي لا تخدم حاضر الحركة التقدمية ومستقبلها ، أم إن الظرف غير ملائم للحديث عن بعض الأحداث والأمور، وقد إستحسن الكاتب سكوتي في الظرف الراهن عن أمور معينة واعتبر ذلك "أجمل وأحسن". ومتى ما تطلب الأمر الكتابة عن تلك الأحداث وتكون الذاكرة قد شحنت... فسأكتب بالتأكيد. وفعلا فقد كتبت مقالا نشر في المواقع الاليكترونية وفي صحيفة "طريق الشعب" الغراء في 20 آذار 2007 تحت عنوان " هل كانت تحالفات الحزب الشيوعي العراقي كارثية؟ وبينت رأيي بصراحة في موقف خلافي حاد، ألا وهو الموقف من "الجبهة الوطنية والقومية التقدمية" التي أقيمت في عام 1973.

* فوجئت بمدح الكاتب وثنائه على طباعة الكتاب، في حين أن هناك مآخذ كثيرة عليها. ولا أظن بأن تشجيع الدار وحده سيطور إنتاجها بل أن مساعدتها على رؤية النواقص يشكل عاملا مساعداً مهماً لتطوير عملها. صحيح إن الكتاب يُقرأ من البداية حتى النهاية، بلا لَبس أو غموض، وهذا الأمر هام جدا وتشكر الدار عليه، ولكن هناك أخطاء طباعية غير مبررة على سبيل المثال لا الحصر. إن إخراج تصميم الكتاب غير موفق، وكان ينبغي أن يغطي التصميم الغلاف كله وليس جزء منه. وأن يكون اسم المصمم مثبتا مع هوية الكتاب وليس على الغلاف. كما لا توجد هناك فواصل بين المواضيع، فجاءت بعض الصور في بداية المواضيع بدلا من أن تأتي في نهايتها مما شوش مغزاها. واستخدمت كليشة (عليه السلام المزركشة) بديلا عن (ع) كما هو في النص، وهذه الكليشة صالحة للكتب الدينية والأدعية وليس لمثل هذا الكتاب.
مع فائق تقديري لكاتب المقال
8 نيسان 2007

قراءة جاسم المطير

هذه قراءة أخرى لكتاب "الحقيقة كما عشتها" قدمها مشكوراً الكاتب والصحفي المرموق الأستاذ جاسم المطير في الندوة المكرسة لقراءة الكتاب، والتي عقدت في البيت العراقي في لاهاي - هولندا مساء يوم 9 شباط 2008. وقد نشرت القراءة في المواقع الالكترونية في 20 شباط، واحتلت مكانها في هذا الكتاب، سيجدها القارئ بعد هذا التقديم. لقد أصغيت بعناية لهذه القراءة في الندوة، ومن ثم قرأتها بعناية أكبر بعد نشرها. واستفدت من بعض الملاحظات كي أدرجها في الطبعة الثانية للكتاب. كانت إحدى هذه الملاحظات هي تجنب رثاء بعض الشهداء في متن الكتاب،

والاكتفاء برثاء عام في فقرة في المقدمة، و طوّرت الفكرة لتشمل الراحلين أيضاً. هناك مقترحات وملاحظات عديدة وردت في القراءة أتفق معها، ولكنها تتطلب فصولاً أو إعادة تركيب جديد للمواضيع، وهي فوق طاقتي وإمكانياتي وأنا على عجلة من أمر إيصال النسخة المنقحة للطبعة الجديدة إلى المطبعة. وحتى لو تمكنت من تأجيل الطباعة، فإنني أشعر بأن إعادة التركيب، كحذف العامية أو التوسع في الكتابة عن العائلة، على سبيل المثال لا الحصر، قد تكون مجازفة تربك أجواء الكتاب وتوازنه، في حين لاقى الكتاب قبولاً بهذه الأجواء بالذات.

يتناول الأستاذ جاسم المطير أساليب ومناهج كتابة السيرة الذاتية وآلياتها كخبير، وهي مرشد جيد لكل من يروم الخوض في هذا الجنس من الكتابة. وكنت سأسترشد بها لو كانت في متناول يدي عندما شرعت بالكتابة، وأفترض بأن الكتاب كان يمكن أن يكون أفضل.

هناك ملاحظة لم أتفق فيها مع العزيز جاسم المطير وهي التي يقول فيها ما يلي: "ضرورة الإشارة في السيرة الذاتية إلى معلومات وافية عن كل شخص يرد اسمه في السيرة .. من هو .. علاقته بكاتب السيرة .. علاقته بالحدث أو الأحداث الواردة بالسيرة .. الخ ". أعتقد بأن ذلك غير عملي، نظراً لكثرة الأسماء الواردة في الكتاب من الذين عملت معهم. لقد أشرت إلى بعض السمات أو السمة الرئيسية لعدد كبير منهم، وقد اخترت نماذج توقفت للتحدث عنها تفصيلاً. وكانت اختياراتي مقصودة وذات مغزى معين مثل أم سليم، هندال جادر (عامل/حمّال)، هاشم حاتم ووليم شمعون، أعطيا التعهد بعدم العودة إلى نشاطهم السياسي السابق، أعتقلا ثانية فصمدا واستشهدا تحت التعذيب. مزهر هول، أوقف الاعترافات التي كادت تصلني لولا استشهاده تحت التعذيب. و موناليزا أمين منشد، مسؤولة عن إدارة بيتنا الحزبي خلال القمع الوحشي ونصيرة لاحقاً. كواش خدر (أبو سمرة) الذي أبدى استعداده للبقاء كآخر رفيق في المقر وكان له ذلك. عبد الزهرة لازم، حرس قومي في يوم ما، شيوعي ومسؤول عن البيت الحزبي خلال القمع الوحشي. وخالو حاجي، كادر من الحزب الاشتراكي الكردستاني وصديقنا، وهو الذي قدم خدمات جليلة لحزبنا كانت إحداها تهريب إذاعة لنا من طهران وإيصالها إلى كردستان. شبيب، فلاح كهل زعيم قومه كسبته للحزب. إن هؤلاء وغيرهم ممن تحدثت عنهم ، كانوا جنوداً مجهولين، بينهم من استشهد ببطولة لا تقل عن بطولة قادة الحزب الميامين. وتحدثت عن شخصيات أجنبية ممكن التعلم منها مثل جيرنيكوف مدير معهد العلوم الاجتماعية في موسكو وعدد من أساتذة المعهد.

أكرر شكري الجزيل للكاتب العزيز جاسم المطير على جهوده وعلى ما بذله من مشقة وعناء في قراءة كتابي. إن عمله أثار ويثير لدي مشاعر الامتنان والسعادة. أمنياتي له بالعمر المديد، والمزيد من العطاء في خدمة قضايا شعبنا ووطننا الغالي.
جاسم الحلوائي

22 شباط 2008

عن الحقيقة التي عاشها جاسم الحلوائي في كتابه ..

جاسم المطير

في كثير من الحالات اقرأ بعض صفحات من تاريخ العراق من دون مرجعية واضحة أو قوية آو أنني قد لا أراها دقيقة أو صحيحة من دون اعتماد الكاتب الذي اقرأ له على مستندات موثقة أو موثوقة مما قد يُعيق فهمي كقارئ أو يُعيق تفسيري لتحولات تحدث في مجرى بحث الكاتب أو الآثار الناتجة منها على مسيرة حياته .

هنا أجد نفسي مرغما على قول حقيقة أولى عن كتاب عنوانه "الحقيقة كما عشتها" من منشورات دار الرواد – بغداد عام 2006 لمؤلفه الكاتب العراقي النشيط جاسم الحلوائي الذي ما التقيت به يوما ولم أحظ بشرف التعرف عليه رغم أنني سمعت باسمه مناضلا ذا روح بطولية وله تبجيل كبير في ذهني من قبل جميع عارفيه منذ أكثر من 40 عاما ، فحين أمسكت كتابه بيدي داهمني أولاً بعد أن قرأت منه 70 صفحة احتمال أن يكون الكاتب قد اعتمد على تصورات شخصية في محاولاته استشراف آفاق التحولات السياسية والتنظيمية من خلال مواجهاته الصعبة مع مشكلات حياته العائلية الكادحة أو خلال منظوراته السياسية المثيرة للجدل داخل الحزب الشيوعي العراقي في أوائل سني انتمائه إليه وهي السنوات التي استأثرت بنوع من صعوبات الانشقاقات الحزبية والإشكالات النظرية والمنهجية المصاحبة لها حين وجد نفسه بين تنظيمين يستأثران بجدل وملاحظات وتعقيدات .

لكن كتابته الملخصة عن تجربته في العمل مع منظمة "راية الشغيلة" أعطتني قدرا مهما من الثقة أن موضوع الانشقاقات داخل الحزب الشيوعي العراقي نال من الكاتب جاسم الحلوائي كثيرا من الدقة والصرامة والمنهجية في البحث والتعامل بالرغم من أنني اعتقد بضرورة توسيع منظومة المعايير والقيم والتقاليد في صفوف الحزب الشيوعي إزاء الانقسامات التي واجهها والمخاطر الناتجة عنها وذلك بالتوسع والتعمق عن المنظومة الانشقاقية المسماة "راية الشغيلة" ومحاولة جعل الأجيال الحديثة من الشيوعيين تدرك وتتبصر مواطن الضعف والقصور في الوسائل والأساليب الانشقاقية . إنني أرى أن يقوم الأخ الحلوائي بكشفٍ مختصرٍ ليس فقط لسلبية الانشقاق بل لايجابية التسامح الشيوعي أيضا لضمان وحدة الحزب ونمائه ووضع الآليات الايجابية وأساليب عملها الديمقراطية أمام الأجيال الجديدة والمقبلة من الشيوعيين العراقيين كنوع من خلاص ودروس

التجارب الشخصية من هذا القبيل كي تغدو نمطاً معيناً من القوة ومن المبدئية داخل التنظيم الشيوعي خاصة وان الفترة الزمنية التي تناول بعض صفحاتها جاسم الحلوائي كانت تمثل أكثر من نصف قرن من الزمان العراقي الصعب .

بصورة عامة أقول أنني وجدت "كتاب الحقيقة كما عشتها" عالما محببا عندي لأنه كان وجها أخر من صورة حياتي ومن صور حياة الكثيرين من الأصدقاء والأصحاب والرفاق الذين يروج دائما عصب ذكرياتهم في عقلي وقد قادتني ذبذبات خيالي التي تفاعلت مع كل صفحة من صفحات الكتاب إلى شكل من أشكال الحضور والتأثير المتبادلين مع العطاء المعرفي الغزير في تاريخ السيرة الذاتية لجاسم الحلوائي الذي هو بالتأكيد جزء من السيرة الذاتية المشتركة لشيوعيين عراقيين آخرين كانت كينونتهم الحزبية سيلا من صور نضالات وأصوات وأفكار الحزب الشيوعي العراقي وطرائق وجوده في المدن والقرى والأرياف عبر وجود خلاياه الأولية ولجانه القيادية .

بمعنى أخر أقول إن قراءتي الدقيقة لهذا الكتاب خلال ليلتين متعاقبتين وجدت إن مضامين الكتاب كانت خلاصة تجربة عاشها ومارسها وأدركها جاسم الحلوائي وهو قد جاء مروّجا لها بكتابه مخططا لحركة التفاعل مع قارئه كي يحقق طموحه وقد وجدت إن أسلوب كتابة السيرة الذاتية الحلوائية قد اوجد دفعا قويا في مضامين الكتاب لتحقيق فوائد كثيرة من خلال تلون استحقاقاتها التاريخية المعبرة عن ما يلي :

(1) مصداقية المعلومات العامة والتفصيلية التي أوردها الكاتب والتي أراها عملا مقبولا ومساعدا مستقبليا لجميع المؤرخين والباحثين والدارسين في الشأن السياسي العراقي فحتى في أصعب الظروف التي عاشها الكاتب وعاشتها تنظيمات حزبه لم يلجأ للتمويه عن بعض سياسات الحزب أو مواقفه أو تغطية بعض المعلومات الضرورية . انظر مثلا ص 23 في حديثه عن النزعة اليسارية داخل الحزب .

(2) معلومات السيرة الذاتية التي كتبها الحلوائي مكتوبة بقلم فردي لكنها تعبّر عن نبض حركة جماعة ، والجماعة المقصودة هنا هم الشيوعيون . انظر مثلا ص 50، 77، 95، وغيرها .

(3) ثبت لي إن الحلوائي يملك كنوزا معرفية تنظيمية عن منعطفات حاسمة في تاريخ الحزب الشيوعي . ولابد لي من إثارة انتباهه إلى ضرورة الدخول في تفاصيل الكثير من تلك المنعطفات لتكون أساسا في فهم القارئ لتطور الإنسان الشيوعي في العراق على محور و عالم وعماد تطور سيرة الحزب الشيوعي ذاته .

(4) كما أن السيد جاسم الحلوائي يملك ذاكرة متواترة ورائعة عن بعض صفحات هامة في تاريخ علاقته مع الحزب الشيوعي وهي ذاكرة جدلية قادرة على المساهمة في توثيق الكثير من مواقف قيادة الحزب في فترات متعاقبة ومختلفة .

(5) يملك الكاتب جاسم الحلوائي قلما عصاميا متألقا في كشوف الكثير من الصفحات غير المقروءة مما جعله ليس قائدا عماليا في تنظيمات الحزب الشيوعي بل كاتبا على صفحات جرائد الحزب ومجلاته قادرا على توثيق الكثير من مواقف قيادة الحزب ومسيرتها .

(6) يمكنني القول أيضا إن كتاب الحلوائي لا يغطي غير بعض وليس كل ما رآه من المشهد الشيوعي في حقول النضال السياسي لكن الكتاب يمكن أن يكون أداة حاسمة في معرفة الكثير من الحقائق في صور الماضي والحاضر الشيوعي في العراق .

(7) لذلك أقول بهذه المناسبة أن مصلحة الحزب الشيوعي لا تقتضي غض النظر من قبل الحلوائي أو غيره من القادة الشيوعيين عن بعض صفحاته مهما كانت المستوجبات التكتيكية . إن الأجدر فعلا للكاتب جاسم الحلوائي ولهذا الكتاب المسمى الحقيقة كما عشتها وتبعا لمصلحة الحزب أن يتغلغلا مثلا في 1- موضوع انشقاق ما سمي بالقيادة المركزية 2 – موضوع القناعة المبهمة في عقد الجبهة الزائفة مع حزب البعث الحاكم المخادع 3- أسباب وجود وحصول مسؤولية شهداء الحزب الشيوعي في بشت ئشان الكردية .

لقد لاقى كتاب جاسم الحلوائي ترحيبا عاما من قرائه لأنه تضمن صفحات جليلة ومهمة من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي كان جاسم الحلوائي في تلك الصفحات جميعها حاملا عقيدته في التنظيم الشيوعي ليوّسع وجوده التنظيمي داخل تربة الأرض العراقية المغروسة بكل أنواع الطيبات . وكتاب "الحقيقة كما عشتها" كشف أمامي بأسلوب تلقائي عن قيمة العقيدة التي يحملها عامل ، شاب ، كادح ، اسمه جاسم الحلوائي لم يتغلغل في قلبه غير الإحساس بعدالة قضيته وقضية حزبه وقضايا شعبه كلها وهو في كل سطور حياته لم يخش الموت ولم يهتم لحياته فداءً لقضايا الشعب العراقي وأرضه وهويته وحضارته .

قراءتي لهذا الكتاب لا تتعلق بمنهجية صفحاته التاريخية لكنني سأتناول منهجية "تبويب" المواد الغنية عن السيرة التي تضمنها الكتاب . بمعنى أدق سأقول عن الجنس الأدبي الذي اعتمده الكاتب . هل كتب سيرة ذاتية متكاملة تندرج ضمن أصول السيرة الأدبية وخططها ..؟ أم انه جاور هذه السيرة بكتابة مذكرات أم ذكريات كما جاء في تنسيب بعض المقالات التي كتبها أصدقاء أعزاء عادل حبة ، يوسف أبو الفوز، ومحمد علي محي الدين ..؟

أنـا شخصـيا أريـد الوصـول إلـى الدقـة بهـذا المعنـى ، خاصـة وأننـي علمـت أن نيـة المؤلف تتجه لطبعة ثانية مما يستوجب على أي مؤرخ يعتمد أساليب كتابـة السيرة الذاتية أن يكتشف أدواته ومنهجيتـه ومفاهيمـه بنفسـه وهذا بـالطبع يتطلب الاطلاع الواسع على وثائق وأرشيف غنيين عن كتابة السيرة الذاتية .

الاهتمـام هنـا بهـذه المسـألة يـأتي مـن وجـود علاقـة مباشـرة بـين السـيرة الذاتيـة والتاريخ . فالسيرة الذاتية، سواء عندنا نحن كتاب العربية أو عند سوانا الأجانب ، باتت الآن الفن الأدبي الأكثر شعبية ومقروئية في العالم المعاصر قاطبة. وقد أدركت هذه الحقيقة منذ سنوات طويلة أي منذ إن كنت اعمل مالكا لدار نشر عراقيـة كبرى كـان البيـع اليـومي المتكـرر لكتـب المـذكرات والسـيرة الذاتيـة يتغلـب علـى غيـره مـن الأجناس الأدبية الأخرى فرسَّخ عندي هذه الوضعية الفريدة الخاصة بكتب السيرة .

ولا شك أيضـا أن السيرة الذاتيـة هـي بالإضـافة إلـى قوتهـا التسـويقية عنـدما تتحـول إلى صناعة الكتاب ، فأنها أيضا هي الفن الأكثر بقاءً بالنسبة لكاتبها..

ربما احدهم يسأل هل السيرة الذاتيـة جنس أدبـي بحت أو فـي كـون السيرة لا تمثـل سوى ممارسة أدبية ثابتة في مسار التأليف عند صاحبها كمـا أنهـا ليست حلقـة مـن حلقات التجربة السردية بل كتبها مؤلفها بهدف تقديم خلاصـة عن تجربتـه الحياتيـة في إطار عملية بوح ختـامي جـاعلاً التجربـة النصّية فـي خدمـة هذا الهدف ومـدافعاً عن تاريخ الذات دون انشغال ملحوظ بقضـايا الكتابـة أو بـالتعبير عن حساسية مـن حساسياتها وخاصة الحساسية المتعلقة بالقضـايا السياسية والقضـايا الحزبيـة علـى وجه أخص .

الجواب على مثل هذا السؤال قدمه جاسم الحلوائي بنمـوذج استلهام ذاكرتـه البعيـدة عـن الوجـوه الايجابيـة فـي سياسـة الحـزب الشـيوعي وعـن بعض أوجـه المواقـف السلبية التي تقّصى بعض حصيلتها السلبية من وجهة نظره المقترنة بتجارب رفاقه الآخرين .

من هنا بإمكاني القول إن أدب السيرة الذاتيـة يعتبـر جنسًـا أدبيًـا واسـع الانتشـار فـي الأدب الغربي بما في ذلك الأدب السياسي ، بل أننا نلاحظ في الثقافة الغربيـة عمومـا إن القـادة السياسـيين والقـادة العسـكريين هـم الأكثـر انـدفاعا وكتـبهم تمـلأ رفـوف المكتبات في الأسواق والجامعات .

بينمـا مازالـت السيرة الذاتيـة ـ السياسـية لا تمثـل كتلـةً واضـحة المعـالم فـي سـوق الطباعة والنشر بالعراق لكن يمكنني القول إن سوق الكتاب العربي لا تحبذ من كتـب السـيرة غيـر السـيرة الأدبيـة مبتعدة عن الإشـكاليات التـي قـد تخلقهـا كتـب السـيرة السياسية . ربما لأسبابٍ تتعلق بسقف الحرية الإبداعية والفكرية التـي يتحـرك تحتـه

القلم السياسي العربي حتى الآن ، لأن هذا الجنس الأدبي تحديدًا لا يقوم في المقام الأول على تعرية الذات وتسليط الضوء عليها وحسب ، بل على كشفٍ كاملٍ لمرحلةٍ زمنيةٍ بعينها قد تشمل جيلين أو أكثر من الناس الذين تربّعوا على دست الحكم في هذا البلد العربي أو ذاك . ويضطر كاتب السيرة الذاتية السياسية إن يلم بكل مفردات الوقائع والصراعات السياسية والحزبية بما فيها من شخوصٍ وواقعٍ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ وثقافيٍّ و بيئيّ. فأدب السيرة الذاتية - وإن نُعتَ بالذاتية - إلاّ أنه يشمل ضمنًا حياةَ (الآخر) والمحيط ومن وجهةِ نظرٍ آنيةٍ أيضًا، أي أن آليات الوعي الجديدة والمكتسبة للكاتب (الآنية لحظة الكتابة) هي العين الراصدة للماضي مما قد يشكّل لونًا من الكشف لمنظومة كاملة قد تتجاوز الأنا الخاصة للكاتب صاحب السيرة لتتخطاه إلى الآخر سواء كان هذا الآخر ذاتا بشرية أو مجتمعًا أو ملكا أو رئيسا للجمهورية أو زعيما لحزب أو سلطة أو منهجًا فكريا معينا أو حيّزًا زمنيّاً بعينه وهذا في رأيي ما سبب انحساره في أدبنا العربي .

كذلك ألاحظ إن تعامل القادة العسكريين من الشيوعيين العراقيين مع الأحداث التي مرت بالعراق ما زالت قليلة وإجمالا استطيع القول إن الشيوعيين لم يتناولوا حتى ألان مستويات تجارب "فصائل الأنصار الشيوعيين" في ثمانينات القرن الماضي بالصورة القادرة على توضيح إشكاليات الحل الصحيح بين أساليب الكفاح السياسي وأساليب الكفاح العسكري . خاصة وان الخلافات السياسية والفكرية كانت تثار في بعض المنظمات القيادية الشيوعية كما أشار الحلوائي في ص 156 من كتابه .

السؤال هنا هل دخلت هذه الاعتبارات الخاصة كلها من معايير وعوامل وأصول السيرة الذاتية في كتاب جاسم الحلوائي ..؟

لابد وأن أقول جوابا صريحا لهذا السؤال . أول الجواب أن التربية الشيوعية جعلت من أدباء الحزب الشيوعي العراقي ومثقفيه وقادته جميعا يغلبون روح الكتابة عن "الآخر" لتلافي المحصلات السلبية التي قد تنتج عن "الذات" خلال سيكولوجية الكتابة عن الذات باعتبارها من خيارات السيرة الذاتية .

هنا في كتاب "الحقيقة كما عشتها" نجد جاسم الحلوائي أيضا غير مبتعد عن موقع دارس السيرة الذاتية عن هذا الصراع بين الذات والآخر ، فكان الحلوائي الأقرب إلى الذهنية العامة في التربية الشيوعية ، بمعنى انه كتب مؤلفه ببنية ثقافية من منظور إن السيرة الذاتية هي كما في الأدب يمكن إن تكتب بعدة وسائل :

(1) السيرة الذاتية المحضة وقد ورد هذا الأسلوب في كتاب الحلوائي بنسبة قليلة .
(2) السيرة عن "الآخر" وهي النسبة الغالبة في الكتاب .
(3) السيرة المشتركة عن الذات وعن الآخر في نفس الوقت، هي النسبة الوسطية.

كتب جاسم الحلوائي سيرته السياسية بذات الوسائل القلمية المشار إليها . أي أن سيرته كانت في الجوهر تأريخا للأحداث الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية للمكان والزمان العراقيين ؛ وكانت توثيقا لبعض صفحات التاريخ الشيوعي ، وتوثيقا للخبرات التنظيمية والنضالية على مستوى اللجان الحزبية المحلية والمركزية . فكاتب السيرة يتناول فيها أحداثا من مراحل حياته المختلفة، ربما تكون حروبا أو أحداثا تاريخية مهمة شاركوا في تتبعها، أو تشابكت تفاصيلها مع تفاصيل حياتهم أو ربما تكون تاريخا سياسيا سريا أو علنيا كما حاول جاسم الحلوائي أن يفعل في كتابه ما يزيد عن ذلك برفضه الحديث عن أهم صيغ الحقوق التقليدية الذاتية حين اغفل متعمدا الكتابة الوافية المشتركة عن بعض جوانب ومحطات سيرة زوجته التي شاركته في صنع الكثير من الأفاق المرسومة في الحياة النضالية الحزبية . كان من المناسب والضروري أن يقدم لقرائه الكثير عن صور المهام السياسية والحزبية والاجتماعية التي فرضتها متطلبات معيشة زوجته ماجدة عطية (أم شروق) ومن ثم أولاده وما هي أسباب القوة التي كانت تتمتع بها التي جعلتها في مكانة عائلية وحزبية وسياسية قوية . لقد اغفل الكاتب رغبات القارئ فلم يقدم له معلومات وافية لكثير من الوقائع والأسماء العائلية الواردة في الكتاب بما في ذلك أبناءه الذين ولدوا تحت ظل ظروف إرهابية قاسية لم يتحدث عنها ولم يحدثنا كيف تعلموا وكيف درسوا ناهيك انه لم يذكر شيئا حتى عن هواياتهم . باختصار يمكنني القول أنه كتب كتابه لجيل واحد من الشيوعيين العراقيين كان قد عايش اغلب ما جاء في الكتاب من حوادث وتطورات سياسية .

في الحقيقة أنني تذكرت طرائق السيرة عند الدكتور طه حسين وأنا اقر أ سيرة جاسم الحلوائي . فالدكتور طه حسين يعتبر من أهم كتاب السيرة في أدبنا العربي الحديث سواء أكانت سيرة ذاتية أم سيرة عن الآخر ، وقد بدأها بالسيرة الدينية كما في كتابه "على هامش السيرة" لينتهي بكتابة السيرة الأدبية الذاتية كما في رائعته "الأيام" أو السيرة الذاتية عن الآخر كما في عمله الإبداعي "أديب" علاوة على كتابته المتواصلة لسير المبدعين والأدباء في الأدب العربي القديم والحديث كما في "حديث الأربعاء" و"صوت أبي العلاء" و"ذكرى أبي العلاء" و"مع المتنبي" و"حافظ وشوقي".

كتابة السيرة تتطلب خاصية معينة تتجسد في الجرأة على إبداء الرأي بكل موضوعية وفي مختلف القضايا سواء أكانت سياسية أو فكرية، ثقافية خالصة أو ذاتية خالصة . الشيء الذي يجعلنا نعد هذه السيرة وثيقة عن مرحلة، إلى كونها تبرز الدور الأساس للمناضل الملتزم بقضايا وطنه وشعبه على السواء.

كذلك فإن من البديهيات المتداولة في هذا المجال كون كتابة السيرة الذاتية هي في الجوهر أشبه بكتابة الرواية، رغم اعتمادها على التخييل بينما السيرة تعتمد على اللا تخييل . ذلك أن التفاوت بين الجنسين يتحدد في المعنى المنتج، بحكم أن السيرة

الذاتية تتأسس على الصدق التام، في حين أن الرواية تنبني على تشغيل الأدبي وإنتاج الجمالي. والواقع أن هذا التصور لا يجدر أن يقصى من السيرة أحيانا .

إن سيرة حياة جاسم الحلوائي يتقاطع فيها مفهومان :السيرة الذاتية المبنية على الخصوصية الزمنية والمكانية المرتبطة بالشخصية موضوع السيرة، والترجمة الذاتية التي تطول مجموعة من أعلام الفكر والسياسة والتنظيم في الحزب الشيوعي .

كتاب الأخ جاسم الحلوائي يمكن اعتباره من كتب السيرة الروائية أو فن السيرة الأدبية أو ضمن السيرة السياسية الروائية إن صح التعبير. ويعني هذا أن كتاب "الحقيقة كما عشتها" سيرة ذاتية سياسية ، ولكنها بذات الوقت سيرة "الأخر". فقد سلط الكتابُ شعاعًا كثيفًا من الضوءِ على مرحلة بعينها من حياة جاسم الحلوائي بادئا بمرحلة الطفولة ، بوصفها أهم مراحل تكّونه الفكري والنفسي والتي فيها تشكلت البذور الأولى لرؤيته المستقبلية للعالم والوجود و بوصفها الإرهاصة الأولى لتشكّل قلمه فيما بعد. وهنا يقف الكتابُ على مساحةً أكثر رحابةً من مجرد كونِه رصدًا روائيًا لحياة كاتب اسمه جاسم الحلوائي حسب ، بل تجاوز هذه الأرض إلى مواصلة رصد بعض جوانب تاريخ الحزب الشيوعي العراقي التي عاشها بنفسه.

"الآخر" هنا في هذا الكتاب يتولى الكاتب تسميته بالحزب الشيوعي العراقي أو انه ترجمة بعض جوانب الحياة الشخصية لرفيق من رفاقه الذين عملوا معه في الخلايا أو اللجان السرية أو شبه العلنية أو رفاقه الذين عاش وإياهم بين جدران المعتقلات والسجون ، وقد أورد خلال كتابه أمثلة عن علاقاته بكثير من الأسماء مثل عزيز محمد ، سلام عادل ، عبد الرزاق الصافي ، عمر علي الشيخ ، باقر إبراهيم ، عايدة ياسين ، ستار خضير ، ثابت حبيب العاني ، زكي خيري ، ادريس عبد الله وغيرهم أي أن هذه السيرة يتداخل فيها ما هو " ذاتي " مع ما هو يتعلق بلـ" الآخر " . أي إن النص سيرة للذات الحلوائية مشاركة مع " الآخر الشيوعي" فقد كان جاسم الحلوائي حاضرا بأسلوبه وضميره وتعليقاته . كما رصد الذات حياة رفيقه الحزبي من خلال دوره في الأحداث التي سردها الكاتب أو من خلال دوره في الحزب .

ورغم إن المهيمن الأول على سيرة جاسم الحلوائي هو الحزب الشيوعي طيلة عقود من الزمن إلا أنني كقارئ تابعت عن كثب هذه السيرة المفعمة بالحيوية والنشاط لكنني وجدت إن جاسم الحلوائي غابت عنه روح " الكتابة التفصيلية " فقد ذكر لنا الكثير من الأحداث الشخصية (اللقاء في موسكو مع زوجته عام 1973) والحزبية (المؤتمر الوطني الثاني للحزب الشيوعي عام 1970) على سبيل المثال لا الحصر، من دون أن يُغنيها بالتفاصيل رغم ضرورتها للقارئ غير الحزبي وللقارئ غير المجايل ، ومن دون محاولة التخلص من الكتابة الموجزة والمكثفة

إلى حد كبير مما يجعل القارئ معتقدا أن الحلوائي لا يحب الكتابة عن تعدد الأصوات داخل الحزب ولا تعدد التوجهات رغم أنني لمست في كتابه تداخلا من نوع معاكس لهذا الاعتقاد فهو شديد الفاعلية مع الأحداث التي مرت به أو مر بها في حياته الحزبية .

وعليه، فهذه سيرة من نوع السيرة الذاتية السياسية فهي ليست كالسيرة الذاتية التي قرأتها في كتابة بهاء الدين نوري أو عزيز الحاج ولا مثل السيرة التي كتبها مكسيم غوركي في بعض رواياته أو مقالاته وهي ليست سيرة الحزب تعتمد على التسجيل والترجمة التوثيقية أو الأدبية، بل النص يجمع بين هذين الفنين، ويعني هذا أن الكتاب سيرة ذاتية – تتداخل مع الآخر الذي هو الحزب في أكثر الأحيان ، وهو - أي الآخر ، في أحيان كثيرة حزبيين من القاعدة أو القيادة وذلك لتداخل "الذاتي" في "الأخر" والعكس صحيح. ومن الأدلة على حضور السيرة الذاتية في الكتاب الارتكاز على ضمير التكلم واستحضار التجربة الذاتية .

تعني هذه المطابقة بين السارد والكاتب أن هذا العمل سيرة ذاتية سياسية حيث يسترجع الكاتب فيها حياته الشخصية وعلاقاته مع أصدقائه بطريقة ضمنية حيث ينظر إلى نفسه في مرآة "الآخر" ويقارن نفسه بالقادة الحزبيين الآخرين .أي أنه يزاوج داخل نصه الروائي بين الرؤية "مع" والرؤية "ضد" ، ويعني هذا أن الكاتب من خلال خاصية الالتفات ينتقل من رؤية "محايدة" تعتمد على "الآخر" لينتقل إلى رؤية ذاتية داخلية، كما ينتقل من ضمير التكلم إلى ضمير الغائب والعكس صحيح كذلك. كما أن الكاتب والشخصية يتناوبان على مسار الحكي، فالكاتب يستعمل السرد في الحكي كما أنه أتكئ على الكتابات والحوار والرسائل والمذكرات واليوميات في إيصال صوته إلى القارئ ، وقد بدت لي هذه السيرة كأنها تواصل مستمر حتى الآن للرواية الحوارية بينه وبين "الآخر" إذ يترك كل شخص يعبر عن وجهة نظره، ويترك الكاتب الحرية للقارئ لكي يختار الرؤية الصحيحة في التعامل مع الوقائع الواردة في السيرة والحكم على الشخصية الروائية. هذا النهج الأسلوبي الحلوائي جعل أمام القاري إن مكاشفة الواقع وإن رسم "الحقيقة الكاملة " ضروريتان في السيرة الذاتية .

لكن أهم العوامل التي لعبت دورا في جنوحي المتزايد نحو الإفصاح عن جزء كبير من الأشياء الحميمة في حياة جاسم الحلوائي ، وتأثيرها على علاقته الزوجية والأسرية ، والحوار الذي دار بين الزوجين طيلة أربعين عاما ، حوار لم تقف في سبيله أية حساسيات أو محرمات. فهي بحكم استمساكها القوي بضرورة تغيير وضع المرأة الأدنى، وتصحيح العلاقات بين الجنسين تعودت التنقيب المستمر في كل مجالات الفكر والعمل، والحياة لأن وضع المرأة الشيوعية في المجتمع المقموع مرتبط بكل ما هو خاص، وعام، بحجرة النوم، ومشاكل الأسرة، وبالسياسة الدولية والاقتصاد فكلها خاضعة إلى استحكامات شديدة تجعل ساكنيها يعيشون فعلا "تحت

الأرض" . وهنا لابد من الإشارة إلى اعتقادي بضرورة تناول فصول تفصيلية مكرسة لمعرفة سياق الحياة والعيش في البيوت الحزبية (المقرات القيادية في العمل السري) وتقديم استعراض وجيز أو تفصيلي للقسوة الشديدة التي يعانيها أعضاء الحزب وزوجاتهم وأطفالهم ممن يعيشون في عالم البيوت الحزبية والتقشف في حياتهم داخلها إضافة إلى نمط من حياة القبضة الحديدية المحيطة بالتحرك داخلها أو بحالات الخروج منها والدخول اليها والابتعاد عن فكرة استضافة احد من غير الحزبيين القياديين فيها تأمينا لصيانتها ضد متابعات أجهزة الأمن .

لابد في الختام من تحديد بضع ملاحظات أراها ضرورية كي توضع داخل الطبعة الثانية وهي بلا شك لم تكن خافية على براعة الحلوائي :

(1) ضرورة التخلص عند كتابة السيرة الذاتية من أسلوب الكتابة بروحية التقرير . فقد لجأ جاسم الحلوائي إلى الأسلوب التقريري في الكتابة عن طهران . السيرة الذاتية لا تعتمد على التقرير بل على المشاهدة والمواجهة والسماع .

(2) ضرورة الإشارة في السيرة الذاتية إلى معلومات وافية عن كل شخص يرد اسمه في السيرة .. من هو .. علاقته بكاتب السيرة .. علاقته بالحدث أو الأحداث الواردة بالسيرة .. الخ كما من الضروري التخلص من الكنية (أبو كريم .. أبو مخلص .. أبو خوله .. أبو زكي .. أم نشوان .. أم شروق .. أم علي) وغيرها .

(3) في كثير من حالات الكتابة تكون اللهجة العامية في السرد والحوار ضرورة في قوة التأثير على القارئ . غير أنني وجدت ضعفا في استخدامات الحوار باللهجة العامية في هذا الكتاب مما أقنعني تماما إن لا ضرورة لذلك أصلا .

(4) لاحظت وجود دقة كبيرة في أسلوب الكتابة مما منح الكتاب نقاطا زادت في نقاء علمية تفكير الكاتب وأسلوب كتابته . لكنني وجدت ثغرة واحدة عندما استخدم الكاتب لقب أو كنية "الناصريين" قاصدا بذلك رفاقه من أهل الناصرية بجنوب العراق ، غير أنني اعتقد إن القارئ العربي ستختلط الأمور عنده لان هذه الكنية "الناصريون" تعني في القاموس السياسي العربي أتباع جمال عبد الناصر .

ختاما أقول كلمة تحية إلى الأخ العزيز جاسم الحلوائي الذي تعرفت إليه من خلال فعالياته السياسية وجهوده الحزبية لتحقيق غايات وأهداف وطموحات بناء مجتمع قائم على العقل والأخلاق وتحرير الوطن العراقي من الزنزانة المظلمة الطويلة التي وضع الشعب العراقي فيها منذ قرون .

لم يكن الحلوائي في كتابه متعصبا ولا دوغمائيا بل كان نضرا في عقله وحيويا في حركته ومنفتحا على كل ظاهرات الحياة ومنطلقا نحو استيعاب الحقيقة الإنسانية التي وجدها دائما متغيرة لأنه مؤمن تماما أن الكون كله يتحرك باستمرار في دوائر التغيير .

20 شباط 2008

22

المصادر

1. باقر إبراهيم - مذكرات..، دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت. الطبعة الأولى، آب 2002.
2. بهاء الدين نوري - مذكرات بهاء الدين نوري سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. دار الحكمة- لندن. الطبعة الأولى، آب 2001.
3. ثمينة ناجي يوسف ونزار خالد - سلام عادل، سيرة مناضل. كتابان، دار الرواد للطباعة والنشر. الطبعة الثانية، منقحة ومزيدة 2004.
4. حسن العلوي - عبد الكريم قاسم، رؤية بعد العشرين. منشورات دار الزوراء - لندن 1983.
5. حنا بطاطو - العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية. ثلاثة كتب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة العربية الأولى. بيروت 1990.
6. رحيم عجينة - الاختيار المتجدد، ذكريات شخصية وصفحات من مسيرة الحزب الشيوعي العراقي. توزيع دار الكنوز الأدبية. الطبعة الأولى 1998.
7. زكي خيري - صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم. الطبعة الثانية 1996. مركز الحرف العربي للتعليم والطباعة والنشر- السويد غوتنبرغ. والجزء الثاني، إعداد د. سعاد خيري. العصر الحديث للطباعة والنشر- السويد ستوكهولم.
8. زكي خيري وسعاد خيري - دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. المجلد الأول 1984.
9. صالح مهدي دكلة - من الذاكرة (سيرة حياة). دار المدى للثقافة والنشر. الطبعة الأولى 2000.
10. عزيز الحاج - شهادات للتاريخ (أوراق في السيرة الذاتية السياسية). مؤسسة الرافد للنشر- باريس. نيسان 2002.

11. عزيز سباهي - عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. منشورات الثقافة الجديدة- دمشق. الطبعة الأولى، الجزء الأول 2002. والطبعة الأولى الجزء الثاني 2003.
12. د.كاظم حبيب ود.زهدي الداوودي - فهد والحركة الوطنية في العراق. دار الكنوز الأدبية. بيروت - لبنان.
13. هاشمي رفسنجاني. مذكرات وخواطر، أربعة كتب باللغة الفارسية، إصدار دار النشر للمعارف الثورية - طهران 1- الثورة والانتصار، الطبعة الثانية، 2004. 2- تجاوز الأزمة، الطبعة الثامنة، 1998. 3- بعد الأزمة، 2001. 4 - الاستقرار والجدال، الطبعة الأولى 2002.
14. الوثائق الحزبية التي أشير إليها في الهوامش.

23

صور

المناضل رشيد طاهر عضو لجنة محلية لواء الكوت (محافظة واسط) عام 1960

المؤلف مع الرفيق عادل حبة 2005

المؤلف والدكتور كاظم حبيب 2005

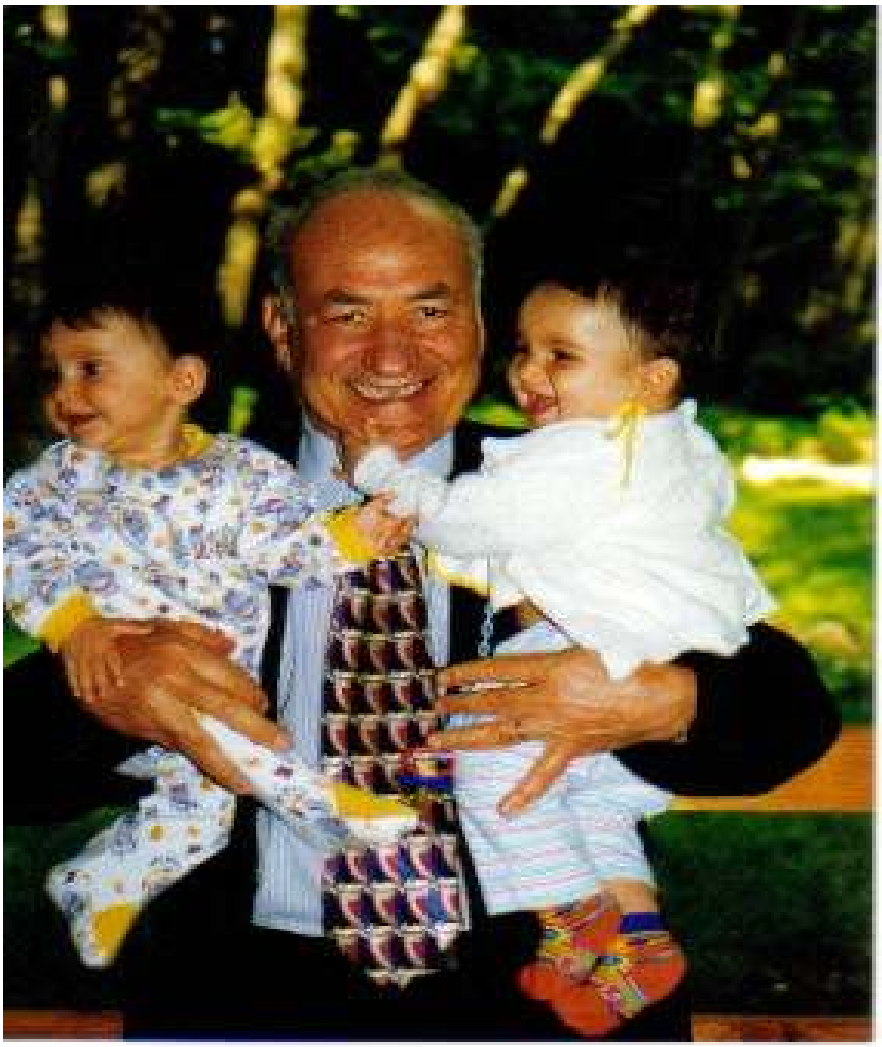

بواكير الأحفاد ـ مارسيل في اليسار وجيني في اليمين

1997

المؤلف مع أحفاده الخمسة 26 كانون الأول 2006

الغلاف الأخير

ذاكرة صدق وحقيقة وموضوعية

يُعد أدب الذكريات والمذكرات من أصعب أشكال الأدب المكتوب وأكثرها حساسية وتعقيداً. والأمر يعود إلى أن الكاتب لهذه الذكريات غالباً ما يكون من المنخرطين مباشرة في الأحداث ، ومن متابعيها بشكل مباشر وعن كثب . بذلك فهو يكتب تاريخاً وتحليلاً لا يخلو بالأساس من رؤية شخصية أو رؤية الحركة السياسية التي ينتمي اليها، وهذا ما يجعل الوقوع في فخ الذاتية خطرا محدقا بالكاتب .

هذا الكتاب محاولة جادة ومتميزة من العزيز جاسم الحلوائي لنقل الحقيقة عن شخصه وعن الحركة السياسية ، التي ينتمي اليها، وهي أعرق حركة سياسية في بلادنا، بأمانة تامة، بما له وما عليه، وما لهذه الحركة وما عليها، باعتبارها نتاج مجتمعنا العراقي بإيجابياته وسلبياته .
تناول الحلوائي ذكرياته دون سعي لنشر غسيل الآخرين، بل لتسجيل أدوارهم بموضوعية، وبذلك تجنب تكرار أخطاء بعض من دوَّن الذكريات. كما أنه بادر إلى كتابة هذه الذكريات برؤية جديدة عقب كل التجارب المريرة التي أحاطت العمل السياسي في العراق والعواصف السياسية والفكرية التي عصفت بالعالم .
اعتقد أن العزيز أبو شروق استطاع في كتابه أن ينقل الحقيقة كما عاشها وبدون رتوش وبصدق وبساطة. وهذا ما يميزه، بحيث يستطيع أن يجذب القراء لكتاباته، يمتعهم بقراءتها ويغنيهم من تجاربها. وبذلك يكون قد حقق هدفه في نقل تجربته الإنسانية والسياسية إلى جيل لم يعش ويلامس تلك الحقائق والأعاصير السياسية وليحصنه من اقتراف أخطاء في غمار العمل السياسي، ويعمق لديه الجوانب النيرة التي تزخر بها هذه الذكريات.
لأبي شروق العمر المديد والمزيد من هذا الجهد النبيل، ولعائلته الكريمة كل المودة.

عادل حبه
حزيران 2006